لقد تم عمل التصويبات اللازمة في المجلدين
لجنة المناقشة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية



الإرساليات الأجنبية إلى بلاد الشام

خلال القرن الثالث عشر الهجري وحركة التصدي الإسلامي لها

١٢٠١هـ/١٧٨٦م - ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م

دراسة تاريخية تحليلية نقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث.

المجلد الأول

إعداد
الطالبة / يسرى محمد عبد الهادي الجنفي

إشراف
الدكتور / عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. •

وبعد ، فبعون الله تعالى وتوفيق منه ، أتممت موضوع رسالتي التي تقدمت بها لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث تحت عنوان الإرساليات الأجنبية الى بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر الهجري وحركة التصدي الإسلامي لها. وقد اشتملت هذه الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

في التمهيد شرحت معنى الإرساليات لغة واصطلاحاً ، ثم بينت بإسهاب أحوال بلاد الشام في تلك الفترة، ثم قدمت لمحة عن تاريخ الإرساليات ونشاطها المبكر. ثم جاء الفصل الأول ، لتوضيح الدوافع والأهداف الدينية والسياسية والاقتصادية. ثم شرحت في الفصل الثاني وسائل الإرساليات الأجنبية لتحقيق أهدافها في بلاد الشام، وذلك عن طريق تقديم الخدمات الصحية والتعليمية، كما بينت مدى مساهمة الإعانات المادية والامتيازات والمعاهدات في تحقيق تلك الأهداف ، واستغلال الدول الأجنبية لدعوى حماية الأقليات النصرانية في المنطقة. وقد خصصت الفصل الثالث لبيان مناطق انتشار الإرساليات المختلفة من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية. وبينت في الفصل الرابع حركة التصدي الإسلامي ودور ولاة الشام ، ودور العلماء والمصلحين والقوى الوطنية في حركة التصدي . أما في الفصل الخامس فقمت بتوضيح آثار وجود الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام. وجاءت خاتمة البحث لبيان ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات. وبعد ذلك ضمنت الرسالة صوراً من بعض الوثائق والمخطوطات الهامة التي ترتبط بالموضوع. ومن أهم النتائج التي توصلت اليها ما يلي :

١- تنقسم الإرساليات الأجنبية الى إرساليات كاثوليكية وكانت تشرف عليها كل من فرنسا والنمسا وإيطاليا، وبروتستانتية وكانت تدعمها كل من بريطانيا وأمريكا وألمانيا، وأرثوذكسية وكانت تدعمها روسيا.

٢- مدى الحقد الصليبي واليهودي على عقيدة الإسلام ونبي المسلمين، واستعداد الغرب لهدم هذا الدين بأي وسيلة.

٣- قيام بعض المؤرخين والكتّاب العرب في ذلك الوقت وخاصة النصارى منهم بالترويج لنشاط المؤسسات التنصيرية في البلاد وتزيينه في نفوس الشباب.

٤- دخول الدول الاستعمارية الى البلاد بحجج واهية كان من أهمها حماية الأقليات النصرانية .

٥- وجود الخلافات والمشاحنات بين البعثات الأجنبية تبعاً لأهواء الدول الأجنبية التي تقف وراءها، مما يؤكد أن الغزو السياسي والثقافي الأوروبي تستر تحت ظل الغزو الديني التنصيري.

٦- تركيز العمل التنصيري على الأطفال والنساء استغلالاً لحب التقليد لديهم ولما لهم من تأثير على المجتمع.

٧- كان لتقصير الولاة العثمانيين في تقديم الخدمات الصحية وغيرها من الخدمات دورٌ هام في انتشار ونجاح المؤسسات التنصيرية في البلاد.

٨- كان للامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأجنبية وارتباطها معها بمعاهدات سياسية وتجارية نتائجها الوخيمة على البلاد، أهمها تدخل القناصل الأجانب - لمصلحة الإرساليات - في أمور الدولة بشكل سافر.

٩- بيان موقف الكنائس المحلية العدائي تجاه المنصرين الوافدين الى البلاد والعمل على محاربتهم.

١٠- محاولة الدول الأجنبية ضرب الدولة العثمانية في شتى الميادين، وذلك عن طريق المرسلين الأجانب من النصارى واليهود ومن عاونهم من نصارى أهل الشام .

١١- كان تأثير العمل التنصيري في بلاد الشام عميقاً بالنسبة للتشكيك في الدين وتشويه العقيدة ومجال الفكر.

١٢- ظهور رد الفعل الإسلامي تجاه الإرساليات والعمل على إيجاد مؤسسات إسلامية لسد حاجة المسلمين من الخدمات الضرورية.

١٣- تنبيه المسلمين من مغبة الغفلة عما يقوم به الغرب الاستعماري من تحركات خفية ضد الإسلام وبلاد المسلمين.

أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها المسلمين... آميـــــن.

الباحثة	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
يسرى محمد عبد الهادي الحنفي	أ. د. عبد اللطيف بن دهيش	د. عابـــد السفـــياني

إهداء

إلى والدي الكريم الذي غرس فيّ حب العلم.
إلى زوجي الفاضل وأبنائي وفلذات كبدي
فادي ، رؤسم ، فراس ، هيثم وآلاء .. الذي أخذني
هذا البحث منهم أيامًا طويلة ، وإلى كل مسلم
غيور في كل مكان . عسى الله أن ينفع به
كافة المسلمين . آمين ؟

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، القائل في محكم التنزيل : « قل يا أهل الكتاب لَمَ تكفرون بآيات الله، والله شهيدٌ على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لَمَ تصدون عن سبيل الله مَن آمَن، تبغونها عوَجاً وأنتم شهداء، وما الله بغافلٍ عما تعملون . يا أيها الذين آمنوا إنَ تطيعوا فريقاً من الذين أوتواْ الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ». والقائل « أفَغَير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » . والقائل « يا أهل الكتاب لمَ تَلبِسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » . والصلاة والسَلام علي المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد ، فبعون من الله تعالى وتوفيقه ، تم اختياري لموضوع البحث تحت عنوان : «الإرساليات الأجنبية الى بلاد الشام في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وحركة التصدي الإسلامي لها». وقد جاء اختياري لهذه الدراسة لاعتبارات كثيرة منها:

١- محاولة تزويد المكتبة العربية والإسلامية بمثل هذه الدراسات العلمية المتخصصة في هذا المجال.

٢- أهمية هذه الدراسة في توضيح الدوافع والأهداف التي يعمل الصليبيون لتحقيقها في العالم الاسلامي.

٣- بيان خطورة اتجاهات الإرساليات الأجنبية في الماضي وما قامت به من أعمال مدمرة للبنية العقدية للمجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، واستمرار آثارها الى وقتنا الحاضر ، حيث كانت وما زالت تهدف الى تقسيم المجتمع الإسلامي وزرع الخلافات الدينية والمذهبية والسياسية والاقتصادية بين سكانه.

٤- محاولة تسليط الأضواء على الإحصائيات المتوفرة عن المؤسسات التنصيرية التي أمكنني الحصول عليها وخلال فترة الدراسة أي القرن الثالث عشر الهجري ودورها في التأثير على المجتمع الإسلامي في بلاد الشام .

لهذه الأسباب مجتمعة رأيت من واجبي أن أبادر في تتبع سير تلك الإرساليات ، فتقدمت بموضوع وخطة هذه الدراسة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، وتمت الموافقة - ولله الحمد - على الموضوع والخطة من المجالس العلمية المتخصصة.

وقد شرعت بعون الله تعالى في جمع المادة العلمية ، وعند دراستها ، هالني الدور الخطير الذي قامت وتقوم به الإرساليات الأجنبية وذلك من خلال ما توصلت إليه من معلومات ، مما زادني إصراراً واهتماماً لمتابعة البحث والدراسة ، فتجمعت لدي مادة علمية جيدة من وثائق ، ومخطوطات ، ومصادر عربية وأجنبية ، حصلت عليها خلال رحلات علمية بدأتها في مكة المكرمة حيث قمت بمسح شامل لمكتباتها بدأتها بزيارة مكتبة جامعة أم القرى بمقر الطالبات ، والمكتبة المركزية بالمقر الرئيسي للجامعة ، كما زرت مكتبة الحرم المكي والمكتبات التجارية . ثم انتقلت الى جدة حيث زرت مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بمقر الطالبات والمكتبة المركزية للجامعة ، وذلك في أيام الخميس المقررة للطالبات ، وقمت بتصوير مجموعة من الكتب القيمة التي استفدت منها في بحثي، وقمت بالاتصال بمركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الذي زودني بمجموعة من الدوريات القيمة ، كما اتصلت بدارة الملك عبدالعزيز وحصلت منها على مجموعة من الوثائق الهامة ، كما قام المختصون مشكورين بترجمة ما حصلت عليه من الوثائق العثمانية ، فاستفدت من الوثائق التي لها علاقة بالبحث.

وفي صيف عام ١٤٠٩هـ قمت برحلة علمية الى كل من الأردن وسوريا، زرت خلالها عدداً كبيراً من المكتبات الخاصة والعامة وحصلت من بعضها على وثائق ومخطوطات هامة استعنت بها في دراستي.

ففي العاصمة الأردنية عمان ، بدأت رحلتي الى مراكز البحوث العلمية ، فترددت على مكتبة الجامعة الأردنية ، حيث قضيت حوالي أسبوعين بين المكتبة والأرشيف وقسم الميكروفيلم ، حيث اطلعت على الكثير من الكتب والوثائق الهامة والدوريات المختلفة ، كما زرت المكتبات العامة والتجارية والخاصة ، ودار الوثائق الأردنية والمكتبة الهاشمية ، وصورت ما يلزمني من الكتب والدوريات التي تهم دراستي. وفي هذه الأثناء ، زرت السيدة الدكتورة سهيلة الريماوي أستاذة التاريخ الحديث في الجامعة الأردنية بمنزلها في عمان ، وقد زودتني مشكورة بنشرة خاصة عن مكتبة

الشيخ محب الدين الخطيب الموجودة بالقاهرة، وبمعلومات قيمة، أفدت منها في بحثي.

وفي عمان، عملت جاهدة لزيارة رؤساء الطوائف النصرانية المختلفة لعلي أحصل على بعض المعلومات ، وبعد حوالي أسبوع حصلت على إذن أنا وزوجي بزيارة البطريرك إيليا خوري رئيس الطائفة البروتستانتية في عمان، وطلبت منه بعض الوثائق التي تخص نشاط الطائفة في بلاد الشام، لكنه اعتذر عن ذلك بحجة أن تلك الوثائق متوفرة بالمكتبة الظاهرية في القدس ، والتي أغلقت في ظروف الإنتفاضة الباسلة، فقمت بتكليف أحد أخوتي في فلسطين المحتلة بإحضار ما يستطيعه من تلك المكتبة ، إلا أنه لم يتمكن لنفس السبب السابق ، إلا أن اليأس لم يتسرب الى نفسي ، فقررت زيارة البطريرك إيليا خوري مرة أخرى حيث زودني ببعض المعلومات الشفوية قمت بتدوينها خلال حديثه معي ، والتي استفدت منها في ثنايا البحث ، وللحقيقة أنه أشاد بموضوع البحث وأهمية هذه الدراسة .

وفي عمان أيضاً ، حصلت على إذن بزيارة بطريرك الطائفة الكاثوليكية رؤوف النجار الذي زودني ببعض الكتب والنشرات الهامة باللغتين الإنجليزية والفرنسية حيث قمت بترجمة كل ما فيه فائدة لدراستي. وخلال زيارتي هذه، زرت مدرسة تراسنطة وهي مدرسة كاثوليكية ، تبلغ نسبة المسلمين فيها ٤٩٪ ، وقد حصلت من مديرها حليم نجيم على نشرة تمثل نشاط الطائفة الكاثوليكية عبر القرون ، أفدت منها في الفقرة التي تتحدث عن النشاط المبكر للإرساليات الأجنبية في بلاد الشام.

وحاولت بعد ذلك زيارة الطائفة الأرثوذكسية ، ولم أتمكن من ذلك بسبب الاعتذارات المتكررة من البطريرك والمسؤولين عن الكنيسة.

وكانت المحطة التالية في رحلتي العلمية هي سوريا، حيث توجهت الى دمشق ، وقضيت فيها مدة ليست بالقصيرة بين مكتبة وأرشيف جامعة دمشق، وبين المكتبات العامة التي لم أجد فيها إلا النزر اليسير من المراجع التي تهم دراستي ، فقمت بالاتصال بعدد من أساتذة التاريخ الحديث في جامعة دمشق ، وكان كرماً من بعضهم أن مكنني وزوجي من زيارة مكتباتهم الخاصة ، واطلعت على بعض المحاضرات والدروس التي يلقيها الأساتذة على طلابهم، وأخص بالذكر ما حصلت عليه من المحاضرات غير المنشورة للدكتور نور الدين حاطوم في نشاط الإرساليات الدينية الأجنبية في العالم

العربي ، والتي ألقيت منذ نيف وأربعين عاماً ، في القاهرة.

وكنت أتوق الى الحصول على وثائق ومعلومات من المكتبات الخاصة بالأديرة والكنائس ، ولذلك قمت أنا وزوجي -الذي رافقني في جميع رحلاتي العلمية - بزيارة معظم هذه المكتبات ، وحصلت بالفعل على مجموعة لا بأس بها من الكتب المطبوعة والنشرات ، وهي كتب نادرة لا توجد في المكتبات العامة، ومن الجدير بالذكر أنني كنت ألقى الترحيب المشوب بالحذر الشديد ، من بعض المسؤولين عن الكنائس حيث كانوا يمتنعون عن مساعدتنا في الاطلاع على مكتباتهم الخاصة.

قمت بعد ذلك بزيارة دار الوثائق التاريخية والحضارية في دمشق، حيث التقيت بالسيدة دعد الحكيم مديرة الدار ، التي قدمت لي مشكورة كل مساعدة ممكنة ، وهنا وقفت وجهاً لوجه أمام الأعداد الكبيرة من الوثائق العربية والعثمانية ، لذلك قضيت أياماً طويلة في دراسة تلك الوثائق واستخراج ما يهم البحث منها ، عربية كانت أو عثمانية ، لتحديد مدى أهميتها للموضوع ، لأنها كتبت بخط اليد وبطريقة غير واضحة كما أنها غير مترجمة الى اللغة العربية ، قمت بتصويرها وترجمتها فيما بعد .

وفي دمشق، زرت مكتبة الأسد ، وقد حالفني الحظ بالإطلاع على مجموعة من الوثائق والمخطوطات والمصادر الهامة ، قمت بتصويرها ، ومن أهم ما حصلت عليه ، مخطوط كتب بخط يد ناصيف اليازجي ، تأليف نيقولا الترك ، تحت اسم : حوادث الزمان ، وقد استفدت منه استفادة كبيرة ولله الحمد. ثم اتجهت الى المكتبة الظاهرية القديمة في وسط سوق الحميدية بالقرب من المسجد الأموي بدمشق، وهي من المكتبات الإسلامية الهامة جداً ، حيث تحوي أكبر مجموعة من الوثائق الإسلامية الهامة، حيث ترددت عليها عدة أيام وقمت بتصوير ما يلزمني من صفحات بعض الكتب.

ثم توجهت الى المكتبات الخاصة بسفارات بعض الدول الأجنبية في دمشق، وحصلت على مجموعة من الكتب القيمة والنادرة خدمت بحثي كثيراً . كما أنني حصلت على مجموعة قيمة من الكتب من معرض الكتاب الذي صادف قيامه في دمشق أثناء وجودنا فيها.

وكنت أود زيارة بيروت، حيث أماكن النشاط النصراني، والمكتبات التي تزخر بالكتب والنشرات الخاصة بالإرساليات، إلا أنني لم أتمكن من

ذلك لخطورة الوضع الأمني هناك، فلم أشعر باليأس بل كلفت بعض من يتردد على بيروت، لشراء قائمة من الكتب والمراجع الهامة.

وفي صيف عام ١٤١٠هـ واصلت رحلتي العلمية في اتجاه جمهورية مصر العربية حيث زرت المكتبات العامة والخاصة بالقاهرة، ومن بينها المكتبة الخاصة بالشيخ محب الدين الخطيب، رحمه الله، صاحب جريدة الفتح، والذي قام مع زميله مساعد اليافي بترجمة كتاب : الغارة على العالم الاسلامي، ووجدت الكثير من الدوريات والكتب النافعة في مكتبته الخاصة في حي الروضة بالقاهرة، التي يقوم أبناؤه بإدارتها. قضيت وقتاً في هذه المكتبة اطلعت خلاله على أعداد كثيرة من جريدتي الفتح والمنار، واللتين كتبتا عن نشاط بعض المستشرقين والمنصرين في بلاد الشام. فاستفدت بما صورته من هذه المكتبة من دوريات مختلفة.

ومن ثم رحلت الى الاسكندرية لزيارة مكتبتها العامة ،حيث وجدت ضالتي من المصادر الهامة التي عاصرت الأحداث الخاصة بفترة دراستي.

وأخيراً ، وضعت عصا الترحال فى المملكة عندما وجدت أنني قد جمعت مادة علمية قيمة ، تغطي ما أحتاجه لكتابة البحث ، فتوكلت على الله تعالى وبدأت في الكتابة.

وفي آخر صفحات هذه الرسالة يجد القارئ قائمة بالمخطوطات والوثائق الهامة، وكذلك المصادر والمراجع العربية والأجنبية حيث لا يتسع المجال هنا لسردها بالتفصيل. إلا أنه لا يفوتني هنا أن أذكر أهم ما حصلت عليه من الكتب :

كتاب ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
كتاب شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل أو (حسر اللثام عن نكبات الشام) .
كتاب سهيل زكار : بلاد الشام في القرن التاسع عشر .
كتاب لمؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا.
كتاب آخر للمؤلف المجهول : مذكرات تاريخية .
كتاب حليم بك : التحفة الحليمية في علائق آل طرزي بالملة السريانية .
كتاب بولس آروتين : تاريخ حلب .
كتاب عبدالعزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سوريا وهي عبارة عن رسالة ماجستير في التاريخ الحديث .

كتاب طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ولقد حصلت عليه بعد عناء كبير ولقد تضمن النشاط الكاثوليكي اليسوعي الى بلاد الشام في القرن الثالث عشر الهجري.

كتاب سوسن إسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية . وهو عبارة عن رسالة دكتوراة في التاريخ الحديث.

كتاب عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين . والذي اعتمد على الكثير من الوثائق الهامة.

كتاب علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية.

كتاب صالح مسعود بويصير : جهاد شعب فلسطين في نصف قرن، وهو عبارة عن رسالة ماجستير ، ذكر فيها الكثير من الوقائع والحقائق المدعمة بالوثائق المعاصرة.

كذلك كتاب فيليب وفريد الخازن : مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية.

أما بالنسبة للمراجع الأجنبية ، فإن أهمها كتاب حصلت عليه ، وهو من النشرات الخاصة بالطائفة الكاثوليكية ولا يوجد في المكتبات العامة بعنوان (خدمة الأرض المقدسة في فلسطين)

The Custody Of The Holy Land In Palestine .

وقد توفرت في هذه النشرة معلومات قيمة عن بداية النشاط الكاثوليكي في فلسطين وعن نظرة النصارى للمسلمين عامة. وكيف أنهم يعتبرون الإسلام عدوهم التاريخي.

وكتاب : أنطون عودة عيسى : (الأقليات النصرانية في فلسطين)

Anton Odeh Issa: Les Minorites Chretiennes De Palestine

وكتاب اليهودي الحاقد : موشيه ماءوز : (الاصلاحات العثمانية في سوريا وفلسطين)

Moshe Ma'oz : Ottoman Reform In Syria And Palestine

وكتاب : جيه. إل. فرانسواه بريما : (التاريخ العام للإرساليات)

J.L Francois Prima : Histoire Universelle Des Missions

بالاضافة لكتاب المستشرق الحاقد ، صمويل زويمر : (بلاد العرب : مهد الاسلام)

Samuel Zwemer : ARABIA, The Craddle Of Islam

الذي امتلأ بالدس والتشويه لتاريخ الإسلام ، وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

أما بالنسبة لخطة البحث فقد رأيت تقسيمها الى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة. وقد ضمنت التمهيد تعريفاً بالإرساليات عامة ، ثم شرحت بإسهاب أحوال بلاد الشام في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع

عشر الميلادي . والتي شجعت الدول الأجنبية - في ذلك الوقت - على تكثيف جهدها في إرسال البعثات التنصيرية الى هذه المنطقة . ثم تكلمت عن النشاط المبكر للإرساليات الأجنبية في بلاد الشام، وعن تاريخ البدء في إرسال تلك البعثات .

وفي الفصل الأول شرحت بالتفصيل الأهداف والدوافع الدينية ثم السياسية والاقتصادية للإرساليات الأجنبية في بلاد الشام. حيث وضحت مدى الحقد الصليبي على الدين الإسلامي.

وجاء الفصل الثاني مرتبطاً بالفصل الأول، ومكملا له ، حيث تحدثت فيه عن وسائل الإرساليات الأجنبية لتحقيق أهدافها في بلاد الشام والتي تمثلت في تقديم الخدمات الصحية، والتعليم، والإعانات المادية، وكذلك دور الإمتيازات والمعاهدات، ودعوى رعاية مصالح الأقليات الأجنبية في تحقيق أهداف الإرساليات.

كما أن الفصل الثالث جاء مرتبطاً بالفصلين الأول والثاني ومكملا لهما فاستعرضت فيه مناطق انتشار الإرساليات الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، ثم الأرثوذكسية وذلك لأهمية تحديد الطبيعة الجغرافية التي تواجدت فيها تلك الإرساليات.

ونظراً لأهمية توضيح ردود الفعل الإسلامية ، فقد جاء الفصل الرابع لبيان حركة التصدي الإسلامي للإرساليات ووقوفه في وجه تياراتها الهدامة ، ووضحت من خلاله دور ولاة الشام ودور العلماء والمصلحين والقوى الوطنية في حركة التصدي.

وفي الباب الخامس خصصت الحديث لبيان ما أصاب الأمة الإسلامية من آثار وجود الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام خلال فترة الدراسة .

وكانت الخاتمة هي نهاية المطاف ، بينت فيها أهم ما توصلت إليه في هذه الدراسة من نتائج ، ولتدعيم هذه الدراسة ، فقد وضعت مجموعة من الملاحق في نهاية الرسالة بعضها يمثل صوراً لنماذج مختارة من الوثائق والمخطوطات التي استعنت بها في البحث.

والجدير بالذكر أنني قمت من خلال البحث باستعمال كلمة النصرانية

بدلا من كلمة المسيحية، لأن كلمة النصرانية هي التي وردت في القرآن الكريم، حيث سماهم الله تعالى نصارى ولم يسمهم مسيحيين ، كما أنني استعملت كلمة التنصير بدلا من التبشير وهكذا جميع مرادفاتها وشرحت سبب ذلك في موضعه من البحث. كما أنني حاولت جاهدة أن يخرج عملي هذا على أكمل وجه ، وحرصت على أن يكون ذا فائدة للأمة الإسلامية ، إلا أن الكمال لله وحــده.

وفي الختام ، أتقدم بخالص شكري وتقديري لمعالي مدير جامعة أم القرى والمسئولين عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، لتكرمهم بالموافقة على قبولي للانضمام الى صفوفها العلمية بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية.

وأقدم شكري وتقديري الصادقين، وعرفاني بالجميل الى أستاذي الفاضل الدكتور عبد اللطيف بن دهيش، الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على بحثي هذا، وقد استفدت من توجيهاته القيمة طيلة مدة دراستي ، حيث قام بتزويدي بنصائحه ،كما وضع مكتبته الخاصة تحت تصرفي في سبيل إنجاز هذا البحث .

وكذلك أشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة لتسهيل مهمتي في البحث وكل من ساعدني بدعواته ومشاعره، فلهم مني جميعاً وافر امتناني وتقديري وأخص بالذكر زوجي الذي كان خير معين لي بعد الله تعالى في جميع مراحل الدراسة، وكان خير رفيق لي في رحلاتي العلمية التي قمت بها طوال مدة البحث.

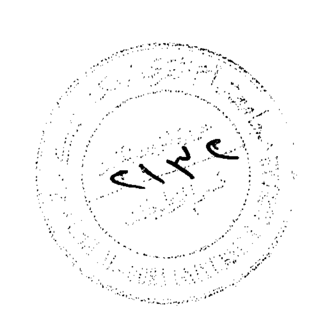
كما أخص بالشكر الجزيل عضوي لجنة المناقشة ، على تفضلهما بمناقشة رسالتي هذه ، وتجشمهما عناء قراءتها ، ولما بذلاه في ذلك من جهد ووقت ، جعل الله ذلك في ميزان حسناتهما آمين .

أســأل اللــه التوفيــق والســداد.

واللــه من وراء القصــد .

التمهيد

- التَعريف بالإرسَاليّات عَامّة .
- أحوال بلاد الشّام قُبيل وَخِلاَل القَرن الثّالث عَشَر الهجري .
- النشاط المبكر للإرساليّات الأجنبيّة في بلادِ الشّام .



التعـــريف بالإرســـاليات عامـــة

الإرسال لغة : هو التسليط والإطلاق والإهمال والتوجيه، والرسول : المُرسَل، أرسُل ورُسُل ورُسلاء والموافق لك في النضال ونحوه ، والآية «وأنا رسول رب العالمين» لم يقل رُسُل، لأن فعولا وفعيلا يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، وتراسلوا أرسَل بعضهم الى بعض. والرَسَل : هو القطيع من كل شئ والجمع أرسال. والرسل : الإبل. وجاءوا رسلة رسلة أي جماعة جماعة واذا أورد الرجل إبله متقطعة قيل أورَدها أرسالاً(١).

وفي الحديث أن الناس دخلوا عليه بعد موته «صلى الله عليه وسلم» أرسالا يصلون عليه، أي أفواجاً وفرقاً متقطعة بعضهم يتلو بعضاً، وأحدهم رَسَل بفتح الراء والسين، وفي حديث فيه ذكر السنة ووفير كثير الرسل قليل الرسل، كثير الرسل يعني الذي يرسل منها الى المرعى كثير، أراد أنها كثيرة العدد قليلة اللبن فهي فعل بمعنى مفعل أي أرسلها فهي مرسلة. وجاءت الخيل أرسالا أي قطيعاً قطيعاً وراسلة مرسلة وترسيل والرَسَل والرسلة الرفق والتؤدة(٢) والإرسال : التوجيه، وقد أرسل اليه، والاسم الرسالة ، والرسالة والرسول والرسيل بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر فما أنث جمعه أرسالا. والرسول معناه في اللغة: الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلا أي متتابعة. وقال أبو اسحاق النحوي: في قوله عز وجل عن موسى وأخيه: « فقولا إنا رسول رب العالمين»(٣) معناه أنا رسالة رب العالمين ، ولا أرسلتهم برسول أراد لا أرسلتهم برسالة. وسمي الرسول رسولا لأنه ذو رسول أي ذو رسالة. والرسول اسمٌ من أرسَلت، وكذلك الرسالة. وأرسلت فلاناً في رسالة فهو مرسل ورسول (٤). وأرسل الشئ أطلقه وأهمله وقوله عز وجل: «ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً»(٥). وقال الزجاج : في قوله تعالى وجهان: أحدهما أنا

---

١) محب الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط (بيروت - المؤسسة العربية للطباعة والنشر: ب . ت) ج٣ ، ص ٣٩٥.

٢) جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري بن منظور (٦٣٠-٧١١ هـ) : لسان العرب ، (طبعة مصورة عن طبعة بولاق القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر) ، جـ ٣ ، ص ٢٩٨-٣٠٠.

٣) سورة الشعراء ، آية ١٦.

٤) إبن منظور : المرجع السابق ، ج ٣، ص ٣٠١-٣٠٢.

٥) سورة مريم ، آية ٨٣.

خلينا الشياطين وإياهم فلم نعصمهم من القبول منهم.

ومعنى الإرسال هنا التسليط. وأرسل القوم فهم مرسلون(١). ويقال أرسلت الطائر من يدي. ويقال أرسل الكلام، أطلقه من غير تقييد والرسول : بعثه برسالة وعليه سلطه ، والرسول: المرسل للمذكر والمؤنث والواحد والجمع، ويجمع أيضاً على رسل وأرسل والرساله في الشرع من الملائكه، من يبلغ عن الله تعالى. ومن الناس بلغه» (٢).

أما معنى الإرساليات هنا فهو يختلف اختلافاً كبيراً عما ذكرناه سابقاً، ونعني بها : البعثات التنصيرية التي أرسلتها الدول الأجنبية النصرانية الى بلاد المسلمين والبلاد التي لا تدين بالنصرانية لتنشر دينها في تلك البلاد. بينما أخذ معنى الإرساليات الأجنبية Foreign Missionaries في الأصل من القاموس الديني النصراني ويعني : «قيام طائفة دينية بإرسال ممثلين أو مندوبين عنها لمحاولة نشر معتقداتها، وإنشاء مؤسساتها بين أناس يجهلون في الأساس حقيقة مقاصدهم». ومن هذا المنطلق فان مصطلح إرساليات أجنبية يدل على البعثات التنصيرية والتعليمية التي انطلقت من أوروبا منذ أوائل القرن العاشر الهجري / بداية القرن السادس عشر الميلادي باتجاه آسيا وأفريقيا، ثم تزايدت بعد ذلك وشملت القارة الأمريكية، وقويت ونالت تشجيع دولها الأوروبية، فقامت بدور أساسي في التمهيد لنزول الأساطيل الإستعمارية الإستغلالية في تلك المناطق، ثم السعي الى إبقاء الاستعمار أطول مدة ممكنة.

إذن فالإرسالية هي البعثة، ويعني اصطلاح بعثة أو إرسالية تنصيرية Mission أن جماعة من المنصرين يقومون باختيار إقليم معين ينشرون فيه تعاليم الإنجيل، وأصل الكلمة لاتيني من الفعل Mitter ويعني رحلة قصيرة لأداء رسالة أو القيام بمهمة ما، ومنذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ القرن السابع عشر الميلادي أخذت الكلمة تستعمل للرجال والنساء الذين يوفدون لنشر النصرانية، والذين يقومون بهذه المهمة يعرفون بإسم مرسلين أومنصرين Missionaries (٣).

---

١) إبن منظور : لسان العرب، ج ٣، ص ٣٠٣.

٢) ابراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط، (الطبعة الثانية، القاهرة، مطابع دار المعارف ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، المجلد الأول، ص٣٣٤.

٣) ابراهيم عكاشة: التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل، (دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ٢٤، رسالة دكتوراة مقدمة الى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

وتنقسم الإرساليات الأجنبية الى ثلاثة انواع(١): كاثوليكية وبروتستانتية (٢). وأرثوذكسية وكلها إرساليات نصرانية، والهدف منها القضاء على الإسلام وهدمه والسعي الى انهيار دولة المسلمين وتشويه صورتهم أمام الغرب(٣). وترأس هذه الحركة مجموعة كبيرة من المستشرقين والمنصرين، فانطلق هؤلاء يدفعهم التعصب الأعمى ضد الاسلام الى الكتابة عن المسلمين ودينهم فأفقدهم تعصبهم هذا أمانة العلم(٤).

وقد قام بعض المستشرقين ، بدراسة الدين الإسلامي لمحاولة تشويهه والدس عليه، فعملوا على تمهيد الطريق أمام المنصرين في بلاد الشام محاولين بذلك نشر النصرانية، بتقديم مختلف الخدمات الضرورية لهم من تعليمية وصحية وأعمال خيرية، وذلك للتقرب من السكان والتحبب إليهم، أو على الأقل العمل على زعزعة عقيدة الإسلام في نفوسهم، إن لم يستطيعوا تنصيرهم. وذلك عن طريق وسائل عدة اتبعوها: مثل: فتح المدارس والكليات والمستشفيات، والقيام بالأعمال الخيرية في ظاهرها ، أما في باطنها فهي تحمل السم الزعاف للمسلمين ودينهم.

---

١) عبدالوهاب الكيالي : موسوعة السياسة، (الطبعة الأولى، بيروت: ١٩٨٦م)، جـ١، ص١٤٢.

٢) كاثوليكية : تسمى الكنيسة الكاثوليكية بالغرببة أو اللاتينية، أو البطرسية، أو الرسولية، ومعنى الكاثوليكية أي العامة، لأنها تدعى أم الكنائس ومعلمتها، ولأنها وحدها التي تنشر النصرانية في العالم، وسميت غربية أو لاتينية لامتداد نفوذها الى الغرب اللاتيني، أي بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وان كان لها أتباع فيما بعد ذلك من البلدان وسميت الكنيسة البطرسية أوالرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم والبابوات في روما خلفاؤه.
البروتستانتية : تمثل أحد فروع الكنيسة البطرسية ويرجع ظهورها الى حركة الإصلاح الديني التي قادها الراهب الأوغسطيني والأستاذ الجامعي مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٩م)، ولم تقم فكرة تلك الكنائس بمجهودها التنصيري إلا بعد قرنين من حركة الإصلاح الديني، أنظر ابراهيم عكاشة: التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، ص ٢٠-٢١ ، ٢٩-٣٠.

٣) محمود حمدي زقزوق : الإستشراق، الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (الطبعة الثانية، القاهرة، دار المنار: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٤٦.

٤) عبدالوهاب الكيالي : موسوعة السياسة، ص١٤٢.

وللاستدلال على ذلك يقول جيسوب (Jessup) أحد أباطرة المستشرقين ومعلمهم : «من الضروري أن يستخدم المبشرون (المنصرون) جميع الطرق في سبيل التبشير (التنصير) وأن يستغلوا جميع المناسبات، فصناعة الطب والتعليم والوعظ ، ونقل الكتب من لغة الى لغة ، كلها يجب أن توجه توجيهاً يفيد التبشير(التنصير)»(١).

جاء هذا الغزو الصليبي الجديد الى بلاد الشام منذ أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، واستمر حتى يومنا هذا محملا بالحقد والكراهية للمسلمين، وكان يهدف بالدرجة الأولى الى تحطيم الفكر الإسلامي والعقلية الإسلامية دون اللجوء الى جيش مدرع ومجهز بالأسلحة الفتاكة، كما كانت عليه أيام الحروب الصليبية السابقة، فجاءت الى أمتنا الإسلامية بأسلوب جديد يحمل بين طياته كل أسلحة الدمار والخراب الفكري للعالم الإسلامي فظهرت جيوشه المدربة من المستشرقين والمنصرين (٢) والمستعمرين في بلاد الشام لغرض واحد ، وهو محاولة إخضاع المسلمين فكراً وحياة وسلوكاً في الحاضر والمستقبل تحت النفوذ والسيطرة الأجنبية في قيمها وتفوقها المادي، مما يمكن القوة الإستعمارية من الهيمنة على مقدرات المسلمين وعلى بلادهم دون أن يستعمل جيوشه وأسلحته العسكرية، وفي الوقت نفسه يتخذ طابعاً إقتصادياً يفرضه على الشعوب الإسلامية النامية والمتخلفة، بدء من الفكر وانتهاء بسلب الخيرات الطبيعية والأيدي العاملة، والعقول الخبيرة ثم جعلها أسواقاً رائجة لمنطلقاته الفكرية وإنتاجه المادي(٣).

وانطلاقاً من هذا المبدأ قام المستشرقون والمنصرون والغزاة الوافدون الى بلاد الشام باستغلال الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة فيها وحاجة الفرد الماسة الى مقومات الحياة الأساسية وعلى رأسها الدواء اللازم (٤)، فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الإنسانية ، وسخروا الطب في سبيل تحقيق غاياتهم، وليس أدل على ذلك من قولهم «حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة الى الطبيب، وحيث

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري : المفهوم - الوسائل - المحاولات، (الطائف، مكتبة الصديق، ب.ت)، ص٧.
٢) سوف يأتي الحديث عن المستشرقين والمنصرين في الصفحات القادمة إن شاء الله.
٣) نذير حمدان : المرجع السابق ، ص٧.
٤) نذير حمدان : المرجع السابق ، ص٢٧.

تكون الحاجة الى الطبيب ، فهنالك فرصة مناسبة للتنصير» وهكذا اتخذ المنصرون والمستشرقون الطب وسيلة يتقربون بها الى المرضى(١).

ومن ناحية أخرى ، فقد استغل المنصرون والمستشرقون حاجة المسلمين الى التعليم المنظم، فقاموا بإنشاء العديد من المدارس على مختلف مراحلها، والكليات بمختلف تخصصاتها، وذلك لإشباع الحاجات الملحة لأبناء المنطقة، ومن ثم التوصل لإخضاع عقولهم وفكرهم ، وتوجيهها حسب رغباتهم لتحقيق أهدافهم السيئة، والتي من أهمها النيل من الإسلام والمسلمين وبث السموم في نفوس شبابهم ، وخاصة أصحاب العقول غير الناضجة فكرياً، ممن ليست لديهم الخبرة الكافية لإدراك ذلك الخطر، مما سهل على المستشرقين الهيمنة والتسلط على تلك الفئة التي ظنت بتزودها من هذه الثقافة أنها حصلت على مغنم من الحضارة الغربية غير مدركة بأنها وقعت فريسة للوحوش الكاسرة المنقضة على عرين الإسلام.

ويقوم الاستعمار البريطاني والفرنسي ، بدعم المستشرقين والمنصرين في كل مكان، فاستطاعوا بذلك الوصول الى إدارة أعلى المؤسسات الفكرية في العالم الإسلامي فأصبحوا جامعيين ومجمعيين وخبراء وسياسيين في بلاد الشام. وكانت كل من القوى الأجنبية الكبرى في ذلك الوقت تؤيد وتناصر فرقة معينة من الإرساليات النصرانية، فقامت فرنسا وإيطاليا بدعم الكاثوليك، كما قامت ألمانيا وإنجلترا وأمريكا بدعم البروتستانت ، بينما كانت روسيا تدعم الأرثوذكس(٢).

وكان التنافس على أشده بين الإرساليات النصرانية، وهذا ما أكده الدكتور فان ديك (Van Dyke) رئيس المنصرين الأمريكان في بيروت، في قوله : «إني ذاهب لأفتح مدرستين على المعتقد البروتستانتي في المنطقة، فعندما قيل له إنها لا تتحمل لصغرها، قال : سأكتفي بواحدة ، ولكنني متأكد أن الكاثوليك سيأتون بعد مدة قليلة ليفتحوا مدرسة ثانية»(٣).

---

١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (الطبعة الثالثة، بيروت، منشورات المكتبة العصرية: ١٩٨٢م)، ص٥٩.

٢) نذير حمدان : الغزو الفكري: المفهوم - الوسائل - المحاولات، ص٢٧.

٣) عماد حاتم: الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الإستعمار الحديث في الوطن العربي، (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، رقم١٨٨٢٢، مجلة الآداب، العدد ٣-٤ مارس - أبريل/١٩٨٢م)، ص٥٨.

أدركت الدول النصرانية الاستعمارية ذات المطامع الاستغلالية في أرجاء الدولة العثمانية ، وخاصة في بلاد الشام، أن إحدى أهم الوسائل التي من خلالها يمكن أن تضمن لنفسها جيشاً من الموالين ، تكمن في نشر لغتها بين الناس حتى يصبح لديهم ميلا طبيعيا للاتجاه نحو تلك الدول ومشاركتها في الأفكار والأذواق في كل ما تحتاجه من متطلبات الحياة، ومن هنا كان هدف مؤسسي المدارس والمستشفيات في المنطقة هو تثبيت الجماعة التي تحميها القوى الأوروبية وتسعى لتوسعها(١).

ولهذا فقد اتفق النصارى وفي مقدمتهم الدول الست المذكورة سابقاً ، على وضع ركائز لهم في بلاد الشام ، تتمثل في تعيين الأطباء والمعلمين والأساتذة، ومن خلالهم تبث سمومها التنصيرية في هذه المنطقة، ويعمل كل من المستشرقين والمنصرين - وهم الأداة المنفذة لخطط التنصير والتدمير بيد الدول الأجنبية -لتدمير الإسلام في بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين، ليتاح للنصرانية السيطرة عليها، وربما بطلب منهم اذا هم مشوا في ركب الغربيين وتخلوا عن دينهم الحنيف الذي فيه عصمة أمرهم وشموخهم وعظمتهم واستقلالهم. ولهذا قامت الدول الأجنبية المتعهدة بإرسال البعثات التنصيرية ، على تدعيم وتغذية هذه الإرساليات بروافد الاستشراق والتنصير وتبذل في سبيله المال وتجند الرجال.

وقد يتبادر الى الذهن أن الإرساليات الأجنبية من المستشرقين والمنصرين لم تضم تحت لوائها سوى النصارى فقط، وهذه نظرية خاطئة. فإلى جانب المرسلين البروتستانت ، والمرسلين الكاثوليك ، والأرثوذكس ، كان يندس تحت ظل هؤلاء أكبر أعداء الإسلام ، وهم المستشرقون اليهود. وماذا ينتظر المسلمون من اليهود اذا تستروا وتخفوا وركبوا الأهوال ليتسنى لهم الوصول الى بلاد المسلمين أو لينجحوا في بث سمومهم في مؤلفاتهم المشبوهة ضد الإسلام ؟ ، هل ينتظر المسلمون من اليهود أن يساعدوهم أو يبثوا روح الحضارة بينهم كما يدعون..؟ ومهما استتروا ، فإن نوايا اليهود واضحة جلية ، وأن الصهيونية تعمل جاهدة على دحر الإسلام لتكون كلمتها هي العليا، ولتحقق حلم اسرائيل الأكبر في بناء دولة اسرائيل العظمى على أنقاض المسلمين.

---

١) عماد حاتم : الغزو الثقافي الغربي .... ، ص ٥٨.

وإذا أنكر أحد على الصهيونية واليهود هذه الحقيقة فقد صدقها الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم حيث قال: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» (١). وقوله تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (٢).

ولقد أصبح من المعروف أن التنصير والاستشراق قد ارتبط بالحكومات الإستعمارية التي اتخذت منه أداة للسيطرة على المنطقه فكرياً، ومادياً، فتوسعت الجامعات الغربية في إنشاء أقسام ومراكز للدراسات الإسلامية والعربية. واذا كانت هذه المراكز قد قامت تحت لواء التنصير والإستشراق والإستعمار الغربي، فان الصهيونية قد استطاعت احتواءها والسيطرة عليها. فمن خلال السيطرة على الدراسات العربية في الجامعات الأمريكية ، تمكنوا من توجيه الإعلام الأمريكي والثقافة الأمريكية فيما يتعلق بالتاريخ العربي والإسلامي وفروعه ، ضد مصالح الإسلام والمسلمين ، وخصوصاً في المراكز التابعة لجامعات: برنستون، وشيكاغو، وهارفرد، وكاليفورنيا، والتي تستعين بأساتذة الجامعة العبرية (٣).

من ذلك يتبين أن الإستشراق جاء بعد التنصير وظهر كبديل عن الحروب الصليبية بهدف تحطيم عقيدة المسلمين وفكرهم. وفي نفس الوقت لم يكن عمل المستشرقين منفصلا عن عمل المنصرين بل كانت مهمة كل من الطائفتين تدخل في الأخرى، وكان فشل الصليبيين في حملاتهم المتوالية على الشرق الإسلامي دافعاً للمزيد من الإهتمام بالثقافة الإسلامية(٤).

---

١) سورة البقرة، آية: ١٢٠.
٢) سورة المائدة، آية: ٨١.
٣) أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، (الطبعة الأولى، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، وزياد أبو غنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، (ط ١، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص١١٥. ونجيب العقيقي: المستشرقون، الجزئين الثاني والثالث، (ط ٤، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٠م)، وعلي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٤٧٤ وما بعدها، وغيرهم كثير ممن كتب في هذا الموضوع.
٤) علي جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، (القاهرة، دار الإعتصام، ١٩٧٨م) ، ص١٨ -٢٠.

عناصر الإرساليات

تعتمد الإرساليات الأجنبية على عنصرين أساسيين وهما : الاستشراق والتنصير. ونتناول فيما يلي هذين العنصرين كلا على حده:

أ) : الاســتشــراق:

يرى بعض المؤرخين أن الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب ، خاصة وأنه ظهر وتطور أثناء الضعف السياسي والحضاري للشرق. وأن الاستشراق هو تقليد وليس علماً ،أي أنه يقوم على مجموعة تقاليد رافقت فترة الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات ، هذه التقاليد هي التي عززت الطابع العنصري والعداء الديني للأقوام المستعمرة. وأن تطوير الاستشراق وتحوله إلى الشكل العلمي النهائي أوقع المستشرقين في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية التي تفتقر اليها طبيعة البحوث الاجتماعية. وعليه فان الأساس التقليدي لبحوث الاستشراق تتنافى على الإطلاق مع مسألة التجرد العلمي (١).

ويعرف بعض المتخصصين من المؤرخين المعاصرين الاستشراق بأنه « مذهب سياسي مورس إرادياً على الشرق لأن الشرق كان أضعف من الغرب.» (٢).

ويرى البعض أن الاستشراق هو : «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. ووصف الاستشراق بأنه علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه» (٣).

ومن المؤرخين من يرى الاستشراق « بأنه يسعى الى اختراق الأفق الفكري الذي تفرضه البيئة بإلقاء نظرة على عالم الشرق، وهو في الوقت

---

١) ساجدة عمر فوزي: حول طبيعة الاستشراق، (المؤرخ العربي، العدد ١٤، ١٩٨٠م بغداد) ص٣٥٧.

٢) ادوارد سعيد: الاستشراق. المعرفة، السلطة، الانشاء، ترجمة كمال أبوديب، (الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية:١٩٨١م)، ص٢١٥.

٣) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٢٤.

نفسه يطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي يشتغل بها هو، وهو يدخل على اللغة العربية بعد أن يكون في العادة قد تمكن منها ومن نحوها وصرفها، بقدر أو بآخر» (١).

«وكان الاستشراق قد بدأ بدراسة العلوم الإسلامية، مأخوذاً بالنتائج العلمية التي حققها المسلمون، ولكنه كان استشراقا عفوياً لا يضمر أي قصد سوى الاستفادة من حضارة الشرق باعتبارها نموذجاً جديداً للحضارات. وفي ذلك الوقت اهتمت الدول الأوروبية بإرسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس لدراسة العلوم والفنون والصناعات، نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الإسلامية الزاهرة، كما بعث الملك فيليب النافاري الى الأمير الأموي هشام الأول (٢) بالأندلس (١٧٢هـ-١٨٠هـ) ، يسأله السماح له بإبقاء هيئة لاستطلاع حالة بلاد الأندلس ودراسة نظمها وشرائعها والثقافات المختلفة فيها، ليتمكن من نقل هذه الصور الى بلاده . وبدأت بعد ذلك مرحلة الاستشراق من أجل هدف معين، وتجلى هذا الهدف في الاستفاده من الحضارة الشرقية الإسلامية بشكل علمي ومنظم ، وقائم على أسس ثابتة واضحة . ثم تطورت مراحل الاستفادة الى نوع من التنظيم في الدراسات، فأطلق عليها الدراسات الشرقية، وأسست لذلك مدارس خاصة من قبل الحكومات الأوروبية ليس خدمة للإسلام وحضارته الشامخة ، وإنما من أجل تحقيق أهداف استعمارية أخرى »(٣).

---

١) اسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون ومناهجهم اللغوية، (الطبعة الأولى، إربد ، دار الملاحي للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م)، ص١١-١٢.

٢) هشام الأول خلف أباه عبدالرحمن الأول، أمه أم ولد تسمى حلل كان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده وولاه ماردة، وأعده للحكم، وكان يأنس فيه الحزم ويثق به. وقد شبهه المؤرخون بعمر بن عبدالعزيز في عدله واهتمامه بشؤون المسلمين، قرب الفقهاء اليه حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة، وكان يبعث الثقات الى الكور يسألون الناس عن سير الولاة، وكان هشام تقيا صالحا صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية، وهو من أهل الخير والصلاح ، كثير الجهاد لرفع راية الإسلام في الأندلس. أنظر: عبدالكريم علي الباز : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، (الطبعة الأولى، جدة، تهامة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١٧. وانظر أيضاً حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي ، (الطبعة السابعة، القاهرة، مكتبة النهضة الحديثة، ١٩٦٤م)، جـ٢، ص٢٣٣-٢٣٤.

٣) عبدالكريم علي الباز : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ، ص ١٧- ١٨.

وأكد المستشرق ميكائيل أنجلو جويدي في تعريفه للمستشرق : «بأنه ليس صاحب علم الشرق ، بل إن المستشرق الجدير بهذا اللقب هو الذي لا يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة ، أو يستطيع أن يصف غرائب عادات الشعوب، بل هو كل شخص حاول أن يجمع بين الانقطاع الى درس بعض أنحاء الشرق ، وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية ، وهو كذلك كل من تعاطى دراسة الحضارات القديمة، وأمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى أو في عصور النهضة الحديثة » (١).

يتبين لنا من التعريف السابق للمستشرق ميكائيل أنجلو جويدي تعميم الآفاق الثقافية الشرقية التي يتناولها المستشرق، سواء كان ذلك متصلا بالعلوم والمعارف الذاتية الإسلامية والعربية، أو كان متصلا بالمعارف الشرقية وحضارتها القديمة من صينية ويابانية، وفارسية، وهندية، وكذلك يعتبر تخصص المستشرق لهذه المعارف، وتفرغه لدراستها، وانقطاعه لمعرفة لغاتها وأساطيرها لا يعني أنه قد سلك في الواقع منهجاً علمياً، إلا بقدر ما يتخلى عن دوافعه الذاتية ورواسبه الموروثة، وتجرده للحقيقة العلمية(٢).

ولقد بالغ أحد المستشرقين في علاقة اللغة بالاستشراق في منهجه ونتائجه ، فذهب بارث الألماني الى تحديد مفهوم الاستشراق وإطاره الجغرافي بقوله: إن الاستشراق علم يختص بصفة اللغة خاصة، وكذلك هو مشتق من كلمة شرق ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، فالشرق بالنسبة للألمان يعني العالم السلافي الواقع خلف الستار الحديدي، أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافياً، الناحيه الجنوبيه الشرقيه بالنسبة للألمان. والاستشراق في ألمانيا حالياً وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية تدرس في الجامعات (٣).

ويمكننا بعد ذكر أقوال بعض المؤرخين والمستشرقين، تعريف مفهوم الاستشراق في ضوء حركة الاستشراق الحديث بأنه : اتجاه المفكرين الغربيين لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية والبحث فيها على وجه العموم، وأن المستشرق هو العالم الغربي الذي تمكن من هذه الدراسات. ثم اتسع استعمال هذا الاصطلاح فأصبح يشمل اهتمام غير الغربيين، أياً كانت جنسياتهم بالعلوم الإسلامية، وبهذا يدخل ضمن المستشرقين مجموعة

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري ، ص١٨٣.
٢) اسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون ومناهجهم اللغوية، ص١٢.
٣) نذير حمدان : الغزو الفكري ، ص١٨٤.

الصينيين والعرب والهنود وأمثالهم ، اذا تمكنوا من هذه الدراسات (١). وبهذا يكون الاتفاق قائماً على أن الاستشراق هو طلب علوم الشرق، والمستشرق غالباً أوروبي أو أمريكي، أو سوفيتي، وأحياناً عربي متجنس باحدى الجنسيات الأجنبية، متخصص في دراسة الثقافة الشرقية، وفي مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية التي تشمل الأصول والمعارف الإسلامية، كما تشمل التاريخ الإسلامي وبطولاته الفكرية والعلمية والعسكرية ، بالاضافة الى دراسة الواقع الإسلامي المعاصر (٢).

والواقع أن المستشرقين يقومون بدراسة الحضارة والعلوم الإسلامية ، ويمضون فيها زهرة شبابهم ، ليس حباً في المسلمين وحضارتهم وتحمساً للدين الإسلامي الحنيف ، ولكنهم يقضون عشرات السنين من أعمارهم في تعليم اللغة العربية وإتقانها ، ومن ثم يقومون بتأليف الكتب والموسوعات العلمية عن تلك الحضارة حسب نظرتهم لها ، مغمسة بالهوى والحقد الصليبي على كل ماهو إسلامي ، بينما يعميهم تعصبهم عن قول الحقيقة، إن لم يسعوا جاهدين الى طمسها كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، عاملين الى جانب ذلك على تشويه وجه عقيدة الإسلام المضيء. ومما يؤسف له ، أن تكون مؤلفات معظم المستشرقين مرجعاً للطلاب المسلمين ، سواء في بلاد المسلمين أو في الجامعات العربية والأجنبية ، فيكون لها بالغ الأثر في نفوسهم ، وهو ما يسعى اليه المستشرقون والمنصرون ، لتحقيق غايات الاستعمار في تضليل جيل شباب المسلمين ، وهو ما يخططون له تحت جنح الظلام ، ينفذونه في وضح النهار.

وقد قسم بعض المؤرخين الاستشراق الى نوعين رئيسيين وهما: الاستشراق الكامن والاستشراق الظاهر (٣). ومن جهة أخرى، فانه يمكننا أن نصنف المستشرقين في ضوء دوافعهم وأهدافهم الى طائفتين هما:

١) الباحثون عن المعرفة :

مهما تنوعت أجناسهم وأزمانهم فإن الباحثين عن المعرفة هم طلاب حقيقة، سواء في ميدان العلم أو في ميدان العقيدة الدينية، ويصف بعض الباحثين هذا الفريق من المستشرقين فيقول: « فالغالب عليه في كتابته عن

---

١) أحمد شلبي : الهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامي ، (القاهرة، مكتبة النهضة العصرية ، ١٩٨٦م) ، ص٩٢.
٢) نذير حمدان: الغزو الفكري ، ص١٨٦.
٣) ادوارد سعيد : الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانشاء، ص٤٩.

الإسلام أن تطرح أقواله حماسة دينية ، تشبه حماسة المؤمن بدينه، وان لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين بالعقيدة الإسلامية. ومن هؤلاء: الكاتب الأسباني «باسكو أبانيز» الذي قال في كتابه - تحت ظل الكنيسة - ما لا يزيد عليه المسلم شيئاً من فضائل التاريخ الإسلامي الأندلسي ، ويشبهه المستشرق، جوزيف مكاب، في مقارناته بين التواريخ الأوروبية والتواريخ الإسلامية التي كتبها باللغة الإنجليزية فلا يكاد يقارن بين شيئين تشتمل عليهما هذه التواريخ إلا كان الرجحان بينهما للدين الإسلامي، مع الإطناب في مدح المسلمين من ناحية ، والتنديد بغيرهم من ناحية أخرى » (١).

ومن المستشرقين الذين اتسموا بالاعتدال - على تفاوت فيما بينهم - من أخطأ وأصاب، ومنهم من أصاب فانتهى به البحث الحر النزيه إلى الايمان بالاسلام واعتناقه. ومن أمثال هؤلاء المعتدلين المستشرق «رينات» الذي أنتهى به بحثه عن المسيح عليه السلام الى اثبات أنه لم يكن إلهاً ولا ابن إله، وانما هو انسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة، وأن السير العربية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل المتداولة بين النصارى في الوقت الحاضر ولكنه لم يتوصل الى نبوقعيسى عليه السلام، وأنه مرسل من الله سبحانه وتعالى كبقية الأنبياء والرسل. ومنهم «كارلايل»: الذي عد سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من الأبطال وخصه بصفحات كثيرة من كتابه « الأبطال» ولكن لم تصل به أبحاثه الى اعتناق الاسلام. ومن المستشرقين المعتدلين «تولستوي»، أكبر كتاب روسيا، حيث رأى الحملة الظالمة على الاسلام ورسوله الكريم فكتب رأيه معرباً عن الاعجاب بالاسلام وتحدث عن المسيحية، فأنكر على النصارى اعتقادهم بألوهية المسيح معرباً عن اعجابه الشديد برسالة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبشخصيته كمصلح اجتماعي، وأنه فتح الطريق للرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يقوم به الا شخص ذو قوة وحكمة وعلم، رجل مثله جدير بالاحترام والاجلال (٢).

ومن المستشرقين الذين أنصفوا الإسلام، فأدى بهم الى اعتناقه في النهاية بعد الدراسة الواعية المقنعة ، أمثال : محمد أسد «ليوبولد انايس» ، وعبد الرشيد الرفاعي «روبرت ولزلي» ، وناصر الدين « اسحق رينيه»

---

١) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، (الطبعة الأولى، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٤٠٠هـ) ، ص ٤٩.

٢) على جريشة ومحمد شريف الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص٢٨.

وعبد الكريم جرمانوس (١) وكذلك الشاعر الألماني جوتيه، والدكتور جرنييه الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال: «إنـــي تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتي درستها من صغري، وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بالحق الصراح قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر» (٢). وصدق الله العظيم حيث قال: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (٣).

ومن النساء المستشرقات اللائي أسلمن : السيدة مريم جميلة «مارجريت ماركوس» والكاتبة البريطانية «ايفلين كوبلن» والدكتورة «ستان رايتنس» الهولندية، ومارشيلا مايكل أنجلو الايطالية، وقد اعترفن بأن الإسلام دين الحق والفطرة، ومنهاج الحياة السوي القويم (٤).

وتلقى هذه الطائفة عنتاً واضحاً من المستشرقين الآخرين، فهم يتهمونها بالانحراف عن النهج العلمي أو الانسياق وراء العاطفة أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم، ومن الأمثلة على ذلك مافعلوه مع المستشرق «توماس أرنولد» حين أنصف المسلمين في كتابه «الدعوة الى الإسلام» ، الذي برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين، على عكس مخالفيهم معهم (٥). وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعتبر من أدق وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام ، وأنه لم يذكر حادثة إلا وأرجعها الى مصدرها، فان المستشرقين المتعصبين وبخاصة المنصرين منهم يزعمون أن مؤلفه كان مندفعاً بعاطفة قوية من الحب نحو المسلمين (٦).

---

١) نجيب العقيقي: المستشرقون: (الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م)، جـ٣، ص٦٢.
٢) علي جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي، ص٢٩.
٣) ســورة فصلت : آيـة ٥٣.
٤) نجيب العقيقي: المستشرقون ، جـ٣، ص٦٢.
٥) عبد الحليم محمود: الإسلام وأوروبا، (الطبعة الأولى، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٥١.
٦) عبد الحليم محمود: المرجع السابق ، ص١٢١، وعمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية، (الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة: ١٩٧٧)، ص٢٠٦.

٢) المعادون للإسلام :

تكاد تخلو مؤلفات هذه الطائفة من المستشرقين من الصدق والإخلاص ، عند عرضهم لتاريخ الإسلام ، وفكرهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهؤلاء ينقسمون الى فئات منها:

أ- المتعصبون للغرب :

يظهر هذا التعصب واضحاً جلياً ، وخصوصاً إذا كان موجهاً للمسلمين خاصة. وهؤلاء ينكرون كل فضل للمسلمين على الحضارة الغربية والحضارة الإنسانية (١).

ب - الملحـــــدون :

وتقوم دعوتهم على هدم المجتمعات القائمة ، ويقولون إن الأديان كافة تعترض على مايسمونه بالإصلاح الإجتماعي ، والذي ينادي الى إلغاء الروحيات ويستبدل بها الماديات في كل مطلب من مطالب الحياة . ومن الطبيعي أن نصيب الإسلام عند هؤلاء الماديين الملحدين أوفر الأنصبة وأولاها في خطة الهدم والتشويه ، لأن النصرانية وغيرها لا تزاحم مذهبهم الاجتماعي بمذهب شامل بمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية. ولكن الإسلام له منهجه الكامل والشامل في شئون الدين والدنيا معاً (٢). وهذه الفئة خطيرة جداً ، وعظيمة الحقد على الإسلام ، لأنها ظلت على ضلالها وحقدها ، ولم تزدها دراستها عن الإسلام إلا طغياناً وحقداً وتشدداً، وذلك بأن حقدهم سابق لدراستهم، فكان له تأثير كبير، وأصبح حاجزاً نفسياً خطيراً منعهم من اعتناق الإسلام، لأن الضلالة أعمتهم عن نزاهتهم وفطرتهم ، فراحت أقلامهم تقطر حقداً وعداوة وطعناً في الإسلام والمسلمين.

جـ- المرتزقـــة :

ويتخذ هؤلاء من تعمد تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ، وهم يلبسون أقنعة الصلاح والتقوى لإغواء المتعصبين الجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية، فهم أصحاب مصلحة في الاشتغال بتشويه الدين الإسلامي وإظهار المسلمين على الصورة التي تشعل عند القوم جذوة التعصب وتزين لهم الجهالة والغفلة، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم ولمن يتسأجرونهم ويرسلونهم للدراسة والاستشراق. وربما تكون هذه الفئة منكرة للأديان كلها، لكنهم يعلمون جيداً أنهم يقطعون مورد رزقهم إذا كشفوا عن

---

١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص٥٠.

٢) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص٥١، وعلي جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ١٢٠-١٤٦.

إلحادهم، أو قالوا عن الإسلام قولة حق وإنصاف تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للبعثات التنصيرية على بلاد المسلمين - وهم كاذبون منتفعون بالكذب، ولايزجرهم عن كذبهم علمهم بالحقيقة، ولا هم يسعون الى التعرف عليها - وقد جند هؤلاء المستشرقون معظم دراساتهم وبحوثهم لخدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية (١).

وتحرص الدول الاستعمارية الكبرى كبريطانيا وفرنسا على توجيه الاستشراق الوجهة التقليدية وجعله أداة هدم للإسلام وتشويه لسمعة المسلمين. ففي إنجلترا نجد أن الاستشراق اتخذ من جامعات لندن، وأكسفورد، وكامبردج، وأدنبره، وجلاسكو منطلقاً له (٢). وأصبح أساتذة الاستشراق في تلك الجامعات حريصين على أن تظل مؤلفات المتعصبين منهم أمثال: جولد تسيهر ، وشاخت (٣)، من المصادر الهامة عن الإسلام التي تفرض دراستها على الطلاب ، لتشويه حقيقة الإسلام فيها . وفي فرنسا لا يزال بلاشير وماسينيون (٤) يعملان في وزارة الخارجية الفرنسية كخبيرين في شئون العرب والمسلمين (٥) - من أجل الكيد للأمة الإسلامية.

---

١) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص٩٠.

٢) أنور الجندي: الفكر الإسلامي، (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الأنصار ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، جـ١، ص٢٤٣.

٣) جولد تسهير : (١٢٦٧-١٣٤٠هـ/١٨٥٠-١٩٢١م) ، وهو يهودي مجري، تخصص في اللغات السامية على يد كبار أساتذتها في بودابست وليبزيج، وبرلين وليدين، انتدب للعمل في سوريا وفلسطين ومصر وهو من أكبر أعداء الإسلام، له مؤلفات تعد بالعشرات كلها تشويه للإسلام ، وهو من محرري دائرة المعارف الإسلامية.

يوسف شاخت : وهو ألماني متعصب ضد الإسلام والمسلمين، له كتب كثيرة عن الفقه الإسلامي وأصوله، من محرري دائرة المعارف الإسلامية، وكان عضواً بالمجمع العلمي بدمشق. أنظر : نجيب العقيقي: المستشرقون، جـ١، ص٤٠-٤٢، ومحمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، (الطبعة السادسة، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٣م)، ص ٥٥٣ - ٥٥٨.

٤) بلاشير : هو مستشرق فرنسي ، ألف كتاب : مقدمة القرآن .

ماسينيون: أكبر مستشرقي فرنسا المعاصرين، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية والراعي الروحي للجمعيات التنصيرية الفرنسية في الشرق، وهو عضو بالمجمع العلمي في دمشق، ومن كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية، أنظر محمد البهي: الفكر الإسلامي ، ص ٥٤١ - ٥٥٦.

٥) أنور الجندي : الفكر الإسلامي، ص٢٤٣.

د - الاســتعماريون :

وهذه الفئة من المستشرقين تعمل في خدمة الاستعمار ، وتمثل قوة تضاهي قوة الدعاية الصهيونية الخفية، إن لم تزد عليها في بعض الأحيان، إذ هي قوة الدولة بما لديها من وسائل الكيد ، تسخرها للاهتمام بأمور السياسة والتنصير معاً، ومما يخفف من وطأة خطر هذه الفئة ، ما يحدث أحياناً من تنافس بين الدول الاستعمارية (١). فضلا عن الآراء المعتدلة للمصلحين في كل دولة، وجهود أحزاب المعارضة فيها، بالإضافة لما تلجأ إليه هذه الدول في بعض الأحيان من محاولة كسب صداقة الدول التي تستعمرها لتتعاون معها بإخلاص في وقت الشدة (٢). ويعتبر الاستعمار هو السند القوى للمستشرقين والمنصرين على حد سواء، ومعهم الصهيونية، فيكونون بذلك رأس حربه على الإسلام ، وعلى البلاد التي تتجه اليها فئات هذا التحالف في بلاد المسلمين (٣).

هـ - الصهـايـنـــة :

وتعتبر هذه الفئة من أخطر الفئات المغرضة والحاقدة على الإسلام، بما تملكه من وسائل الدعاية التي قد لا تتهيأ لغيرها من الفئات، ويلجأ هؤلاء الى الدعاية المقنعة غير المباشرة، وهذا أخطر ما تستخدمه وتعمل من أجله، والحملات الدعائية المكثفة التي يشنونها في أرجاء العالم متسترين وراء أسماء معروفة، ما هي في الواقع إلا سلاحاً يعولون عليه، لأن جمهور القراء يصغون إليها ولا يتهمون قائليها بالخطأ في أكثر الأحيان.

وقد عرف الصهاينة في عصرنا الحاضر مواطن القوة التي يسخرونها للدعاية، فاستدلوا على الكثير من أدواتها، وبرعوا في تسخيرها وإخفاء مراميها. فهم يملكون شركات الإعلان ، فتحسب حسابهم الصحف الكبيرة قبل الصغيرة ، كما يملكون دور النشر فيعملون على إحكام السيطرة على المؤلفات الفكرية، ويندسون تحت قناع الاستشراق الغربي لتحقيق أهدافهم الخبيثة ضد الإسلام، وتطغي أهداف الصهاينة السياسية على أهدافهم الدينية فيعملون فكرهم لتحقيق هذه الأهداف التوسعية في الوطن العربي والإسلامي واتضح ذلك في فلسطين خاصة.

---

١) عطية صقر: الإسلام في مواجهة التحديات، (الكويت، ب.م.ن)، ص٣٥، وزياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية (الطبعة الأولى، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٢٤-٨٠، ومحمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص٥٢.
٢) محمد عبدالفتاح عليان: المرجع السابق، ص٥٢.
٣) عطية صقر: الإسلام في مواجهة التحديات، ص٣٥.

وهكذا سيطر اليهود على مؤسسات الاستشراق وخاصة ما تخصص منها بعلوم المسلمين، وقلما تجد دراسة استشراقية تخلو من الطعن، والتشكيك، والتشهير، بالإسلام، ونبي الإسلام ، وكتاب الإسلام - القرآن الكريم. ومما يفضح نواياهم السيئة تجاه الإسلام، ما جاء في البروتوكول الرابع عشر حيث يقول:

«عندما نصبح حكاماً، سنعتبر وجود أية ديانة باستثناء ديانتنا أمراً غير مرغوب فيه، معلنين وجود إله واحد، يرتبط به مصيرنا بوصفنا شعب الله المختار الذي جعل من مصيرنا شيئاً مرتبطاً بمصير العالم ، وعلينا لهذا السبب أن ندمر جميع الديانات الأخرى. ولهذا فاذا ظهر عدد من الملحدين مؤقتاً لن يتدخل في أهدافنا» (١).

واذا قلنا إن تطور علم الاستشراق في صورته الحالية على يد المستشرق اليهودي الحاقد ، اغناس جولدتسهيرGoldziher ليس إلا محاولة يهودية لإحياء دور الإسرائيليات التي تولى وضعها اليهود الأسبقون، وتخصصت في دس الكثير من الإفتراءات والمغالطات في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والجدير بالذكر أن جولدتسيهر Goldziher ، قد أوصى بمكتبته الضخمة الى الجامعة العبرية في القدس، وهو مؤلف كتاب : «العقيدة والشريعة في الإسلام» طعن فيه بالقرآن الكريم ، وزعم أن آياته متناقضة ، وأن التشريع الإسلامي مدين للقانون الروماني واستمد منه أكثر مواده (٢). إلا أن هذا الكاتب اليهودي يقول رأيه في الشريعة الإسلامية عن جهل بها ، وحتى جهل بدينه أيضاً - اليهودية - وما جاء على لسان موسى، لأن اليهودية وصلت إليه محرفة ، ولا يعرف عنها إلا بروتوكولات حكماء صهيون ، التي تمثل أطماع اليهود في تكوين دولة إسرائيل الكبرى على حساب بلاد المسلمين، ولهذا أطلق لسانه في سب الإسلام والشريعة دون علم أو معرفة أو دراسة موضوعية . فأعماه حقده عن قول الحقيقة ، بل سعى الى تشويهها ما استطاع.

وعليه فإن الاستشراق اليهودي شكل القوة الثالثة بعد الاستشراق النصراني والتنصير، والذي ترك طابعاً دائماً وهاماً في الدراسات العربية والإسلامية ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمنهجية، وأسلوب علم اللغة ودراسة

---

١) هنري فورد: اليهودي العالمي، تعريب خيري حماد ، (بروتوكولات حكماء صهيون، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت)، ص٧٩.

٢) زياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، ص١١٨.

التوراة ، وهي القنوات المؤدية إلى الدراسات العربية والإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده (١). وتركز هذا الاستشراق اليهودي على دوائر المعارف العالمية، وخاصة دائرة المعارف الإسلامية المتداولة بيننا والمليئة بالسموم. وبذلك يختلف الاستشراق اليهودي عن الاستشراق الغربي النصراني، بأنه يركز على كل ما يتصل بالعرب، وخاصة فيما يتعلق بميراث إبراهيم عليه السلام، وما يتصل بعلاقات العرب بالفرس والترك، وما يتصل بفلسطين وجزيرة العرب، وهو يخدم هدفاً خاصاً يختلف عن هدف الاستشراق الغربي، رغم اتفاقهم في الغاية الكبرى (٢)، وهـــو القضاء على الإسلام.

وقد لعب المستشرقون سواء منهم الغربيون النصارى أواليهود ، دوراً خطيراً مستتراً لإفساد المناهج الإسلامية ولتشجيع النعرات الطائفية التي تفرق الكلمة وتزيد الانقسامات بين أبناء الشعب الواحد. (٣)

وكان من أهم ما يسعى اليه المستشرقون اليهود هو الحصول على معلومات كافية عن الفلسطينين تمهيداً لإرغامهم على ترك أرضهم وبلادهم والتخطيط لقيام الدولة الصهيونية مستقبلا. ومن جهة أخرى ، فقد أولى الصهاينة اهتماماً كبيراً بالدول المجاورة لفلسطين ، لمنع احتمال ردود فعل ضد تأسيس دولة إسرائيل المزعومة (٤). وكان الصهاينة شأنهم في ذلك شأن المستعمرين، في اهتمامهم بالدراسات العربية والإسلامية أساساً ، كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية. بينما أعلن بعض المستشرقين اليهود مثل برنارد لويس Bernard Lewis انتماءهم للصهيونية دون تحفظ ، عارض آخرون مثل الماركسي ماكسيم رودنسون هذه الحركة ، وخلافاً للاستعمار - الذي انتهى تأثيره المباشر - فلا زال للصهيونية تأثيرها في الدراسات العربية والإسلامية، خصوصاً في الولايات المتحدة (٥).

وقد تمخض المكر اليهودي عن شعارات خادعة ، وفكر منمق يخدع الشباب ويدفعهم الى الخروج عن الإسلام ، فأنشأوا جماعة التسامح الخلقي، وجمعية إخوان الحرية وبيوت الشباب العالمية، وأنصار السلام ونادي الروتاري . ومن أخطر ما أنشأه اليهود ، المحافل الماسونية.

---

١) محمد عبود: الاستشراق والنخبة العربية، ص٢٠٧.

٢) أنور الجندي : إطار إسلامي للفكر المعاصر، (الطبعة الأولى، دمشق، المكتب الإسلامي: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٥٤.

٣) أحمد شلبي : الهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامي، ص١٠٠- ١٠١.

٤) محمد بن عبود : الاستشراق والنخبة العربية، ص٢١١.

٥) زياد ابو غنيمة: السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، ص١٢١.

ونجدها هنا مناسبة لإلقاء الضوء على شعاراتها وأهدافها المستترة :

١) ترفع الماسونية شعار التسامح، واحترام الغير بصرف النظر عن نوع العقيدة.. والتسامح المطلوب هنا هو تسامح الضعيف مع القوي وليس العكس.. أي هم يريدون أن نتسامح معهم حين يغزون أفكارنا ويشوهون عقيدتنا.. وأي مقاومة من جانبنا تعتبر في هذه الحالة بغضاً وضيق أفق وعدم تسامح..!؟

٢) ترفع الماسونية شعار «الحرية والإخاء والمساواة» وتزعم أنه دستورها الذي لا يبدل ، وهذا الشعار، ذو مكانة ملحوظة في بروتوكولات حكماء صهيون، وهو يمثل واحداً من شعارات المدنية التي سترت وراءها ما جاء في نص البروتوكول الأول «يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف ، وكل وسائل الخديعة» (١).

٣) تزعم الماسونية أنها منظمة هدفها بناء الانسان الحر بعيداً عن قضايا السياسة العربية. لكن الحقيقة الثابتة والتي تعلن بصفه خاصه على أعضائها المنتمين الى محافلها السريه تثبت عكس ذلك.

ومما جاء عن مؤتمر المحافل الماسونية الذي عقد في عام ١٣٠٢هـ سنة ١٨٨٤م، مانصــه : «يجب على قادة الماسونية الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيين الى دفة الحكم، وأن يقربوهم من كراسيه وأن يكثروا من عددهم فيه».

ويقول المصدر نفسه : «في وسع الماسوني أن يكون مواطناً.. على أن يكون ماسونياً مثل كل شيء.. وفي وسعه بعد ذلك أن يكون موظفاً أونائباً أو رئيس جمهورية، لكن عليه أن يستلهم دائماً الأفكار الماسونية (٢).

أما الدور الماسوني في بلادالشام فقد بدأ عندما جاءت الارساليات التنصيرية - الامريكية والفرنسية - تغزو سوريا، في أواخر عصر الخلافه العثمانية، لزرع مايسمى «بالقومية العربية» - لإفساد الروابط الاسلامية التي كانت تجمع الترك والعرب في دولة واحدة تحت راية الاسلام.. وكان «الماسون» هم الذين يتصلون وينسقون مؤامرات الجمعيات السرية، والتي أفرزها الغزو التنصيري، والتي انتحلت أسم العروبة ستاراً وخداعاً..

---

١) أحمد عبدالغفور عطار : مؤامرة الصهيونية على العالم، (الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مطابع دار العلم للملايين١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص١٨١.

٢) عبدالصبور مرزوق : الغزو الفكري، ص٨٢-٨٧.

أفرزها الغزو التنصيري، والتي انتحلت أسم العروبة ستاراً وخداعاً.. وكان الماسون أيضاً، هم الذين يروجون لمنشورات تلك الفئات العميلة. (١)

يقول أحد تلاميذ الفكر العربي الماسوني : «يرجع أول مجهود للحركة القومية العربية الى عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م عندما اجتمع خمسة شبان من خريجي الكلية اليسوعية وكونوا جمعية سرية، وكانوا جميعاً من النصارى، لكنهم قدروا أهمية العمل بين المسلمين والدروز، فكونوا جمعية بيروت العربية. وكانت أفكار الماسونيين قد بدأت في الوصول الى سوريا. واتخذوا من بيروت مركزاً لنشاطهم، ثم أنشأوا فروعاً لهم في دمشق وطرابلس وصيدا. وبدأت أفواج هذه الحركة تتصل بالجمعية السرية - جمعية بيروت العربية - وكانت وسيلة الماسون هي المنشورات السرية».

وهكذا التقت الطليعة اليهودية الحركية المسماة بالماسونية مع رؤوس الغزاة الصليبين - في صورة المنصرين .. واستمر التنسيق بين الحركة الماسونية والمؤسسات التنصيرية في سوريا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى أيامنا هذه، حتى أصبح كل أو معظم الذين تولوا الحكم وأنشأوا الأحزاب والتنظيمات في سوريا ولبنان من منتسبي المحافل الماسونية، وخريجي الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمريكية حالياً) (٢).

تعريف الماســونيـة:

فالماسونية إذن هي أخبث ما أفرزه الفكر اليهودي الصهيوني الحاقد منذ أيام اليهود الأولى، وهي جمعية يهودية سرية تتشكل من إدارات اجتماعية هدفها الأساسي تنفيذ ما جاء في التوراة المتداولة من إحياء الأوهام التي تسيطر على شذاذ الآفاق، من إقامة مملكة إسرائيل الكبرى، وفي نفس الوقت تحقيق ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون، تلك التي تحمل كافة أهداف ومخططات الصهيونية واليهودية العالمية (٣)، عليهم لعنة الله والناس أجمعين : قال تعالى: «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» (٤).

---

١) محمود ثابت الشاذلي: الماسونية عقدة المولد وعار النهاية، (الطبعة الأولى، القاهرة، دار التوفيقالنموذجية للطباعة: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ٣٤٠

٢) محمود الشاذلي: الماسونية، ص٣٤١.

٣) معالي عبدالحميد حمودة: الإسلام والحركات الهدامة (مجلة دعوة الحق - السنة الثالثة - العدد ٢٥ربيع الثاني١٤٠٤هـ- يناير١٩٨٤م)، ص١٢،١٣، وأحمد عبدالغفور عطار : المؤامرة الصهيونية على العالم، ص١٨١-٢٧٠.

وخلاصة القول أن الماسونية نظام عالمي تتبناه كل قوى الأرض الشريرة، هدفها الأول هو خدمة اليهودية العالمية وتأمين سيطرتها على العالم، فقد كشف هذه النوايا الخبيثة ما أعلنه المحفل الماسوني الأعظم في بريطانيا من أهداف الماسونية وهي :

١) المحافظة التامة على اليهودية.
٢) محاربة الأديان بصورة عامة و الكثلكة بصفة خاصة.
٣) بث روح الإلحاد و الإباحية.

ولقد نجحت الماسونية بنشر شعارها في المجتمعات النصرانية الغربية ، وجنت نتائجها القيمة، فتسللت الى المجتمعات الإسلامية في لبنان وسورية و الأردن وفلسطين ، وانضم اليها الكثير من المثقفين الشباب وغيرهم ، الذين انخدعوا بشعارات الماسونية الزائفة..

ومما تقدم يتضح لنا أن الماسونية تسعى الى هدم كل الأديان غير اليهودية في سبيل إقامة حكومة عالمية تحـرر الإنسان - كما يزعمون - من سلطان الدين، وتبعد الإنسانية عن التعصب العقائدي الذي يثير العنصرية ويغذيها وينميها، وهو مدخل مقنع وسهل، لكل صاحب بصيرة مريضة ، ممن يرون في أن التزام الإنسان بدينه و الثبات على عقيدته الإيمانية، ما يعوق مصالحهم ومكاسبهم ، ويحد من مطامعهم وتهافتهم على المناصب ، وارتياد المحافل ، والسير في ركاب أهل الصفوة من الوصوليين والمنافقين والمكذبين بالحق من إخوان الشياطين.. تعرفهم بسيماهم ، واستمراء الرشاوي و افتقاد الحمية، وانعدام الغيرة (١).

ب) : التنصيــــــر:

هو عبارة عن اتجاه كنسي نصراني منظم يعمل على الدعوة في داخل البلاد وخارجها لصرف الناس - وخاصة المسلمين - الى النصرانية أو الى فرقة فيها، كما يعمل على مساعدة النصارى الشرقيين للمحافظة على دينهم ، فلا يتأثرون بالإسلام، مما ينشأ عنه تحولات فكرية وعقدية وسلوكية. وقد نشط التنصير - بعد فشل الحملات الصليبية عسكرياً - بخطط مدروسة ،

---

٤) سورة المائدة، آية ٧٨-٧٩.

١) أبو إسلام أحمد عبدالله : الماسونية سرطان الأمم ، (مجلة دعوة الحق، السنة السابعة، العدد ٧٤، جماد الأول ١٤٠٨هـ/ديسمبر ١٩٨٧م) ، ص١٢٧- ص١٢٨.

بعيدة عن الهياج الجماهيري (١).

ويبذل المنصرون جهودهم الكبيرة ، للحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره، وعدم منافسته للنصرانية في البلاد التي تحاول القيام بالتنصير ونشر النصرانية (٢). ويرى بعض المؤرخين أن الباعث الديني للتنصير هو عرقلة تيار التحول من النصرانية الى الإسلام، ثم تطور هذا الباعث فيما بعد الى محاولة تشكيك المسلمين في عقيدتهم، بزعزعة المثل العليا للإسلام في نفوس أبنائهم من ناحية، واثبات تفوق الحضارة الغربية المادية من ناحية أخرى (٣).

ولقد أشتهر اطلاق كلمة (التبشير) على ما يقوم به دعاة النصرانية في العالم، بغرض تحويل المسلم عن الإسلام الى النصرانية، حتى أطلق على هؤلاء لفظ المبشرين، وأطلق على تلك الجماعات اسم الارساليات التبشيرية. ولكن في بحثنا هذا، اطلقنا لفظ التنصير بدلا من التبشير ، وذلك أن التبشير جاء من البشير ويكون من الخير، ومثله البشارة أو البشرى، وربما هذه البشارة كانت تناسب عهد المسيح عليه السلام حيث يبشر بها الأقوام الوثنيين الذين لم يصلهم أي دين سماوي وغيرهم قبل الإسلام فهم ينتقلون بذلك الى وضع أفضل مما كانوا عليه قبل اعتناق النصرانيـــة، ولذلـــك فهـــم بذلك بـشروا بالدين الذي هـــو أفضـــل مـــن وثنيتهم، وهو دين الحق الذي نزل به عيسى في ذلك الوقت، قبل تحريفه من قبل الرهبان والمغرضين. إلا أن الدين عند الله هو الإسلام، ولن يرضى الله تعالى بغيره ديناً آخر يوم القيامة.

وبناء على ما تقدم فإنه من الخطأ تسمية النشاط النصراني بين المسلمين تبشيراً، فهم يبغون من ورائه رد المسلمين عن دينهم الى النصرانية، أو زعزعة المسلم عن دينه، وأرى أن كلمة التنصير هي أجدى وأبلغ لاشتقاقها من كلمة النصرانية. وهل هناك أشد وأدهى وأخطر على الإسلام، مما يحمله المنصرون من شعارات زائفة لتحويل المسلمين عن دينهم لما هو أسوأ ، فأين وجه البشارة في ذلك ؟.

والتبشير صفـــة أشد ماتنطبق على الإسلام قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٤).

وقوله تعالى:«وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً» (٥).

وقوله تعالى:«إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري ... ص٩٣.
٢) علي محمد جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري، ص٢٠.
٣) محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص٤٣.
٤) سورة الأحزاب : آية ٤٥.
٥) سورة الأحزاب : آية ٤٧.

و أجر كريم» (١).
وقوله تعالى:«فبشرناه بغلام حليم» (٢). وقوله تعالى:«وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين» (٣).

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات المبشرة للمؤمنين مما لا يدع مجالا للشك، بأن الإسلام دين الخير للناس، ودين البشارة، و أن البشير يأتي بالخير أكثر منه بالشر، فلا تنطبق على دعوة النصرانية، التي تسعى إلى إخراج المسلم من دينه الذي هو خير و أسمى، الى ماهو أدنى، فلايجوز إطلاق صفة البشارة عليه.
ولاننسى أن نقول أن كلمة التبشير فيها من الخداع للعامة بصفة البشرى للخير فينخدعون بها وينصرفون وراء دعاتها دون معرفة الأضرار المترتبة على ذلك.

وسائل التنصيـــــر:

١) إرسال البعثات التنصيرية الى بلاد الشام لتزاول أعمالا إنسانية في الظاهر، كالمستشفيات، والجمعيات، والمدارس، والملاجئ، والمياتم، ودور الضيافة كجمعيات الشباب المسيحيين (النصارى) و أشباهها.
٢) إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية، ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداء للإسلام كانوا يستدعون الى الجامعات العربية والإسلامية في دمشق والقاهرة وغيرها من العواصم العربية ليتحدثوا عن الإسلام.
٣) نشر المقالات في الصحف المحلية، وكذلك شراء وتأسيس عدد من الصحف المحلية في بلاد الشام مثل: المقتطف والبشير.

٤) عقد المؤتمرات العلميه وتقديم البحوث التي تهم العامه (ظاهرياً) لإحكام خططهم التسلطية ومازالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١١٩٨هـ-١٧٨٣م والى يومنا هذا (٤).

٥) إستغلال المال والسياسة والعلم والدين أبشع استغلال، مما أدى إلى تشويه (الحقيقة النصرانية) للتضليل التنصيري الصليبي، فالنصرانية

---

١) سورة يس : آية ١١.
٢) سورة الصافات : آية ١٠١.
٣) سورة الصافات : آية : ١١٢.
٤) مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون مالهم وماعليهم، (الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٢٦-٢٧.

الحقيقية تزهد بالدنيا وتقيم المحبة والتسامح ولكن التنصير يقيم وجوده على العداء والقتال والحرص على الأموال، وزرع الضغائن والأحقاد بين الأفراد والجماعات . كما ويستغل الحقيقة الإسلامية بتشويه صفاتها،وتزييف اصولها وتحقير قيمها، وبترها من مصادرها الأصلية، ويقيم حواجز الريب والتشكيك بين الإسلام وأهله ، ويستغل التنصير الحاجات الضرورية للإنسان المسلم، ويمارس ضغوطاً مادية ومعنوية في البلاد الفقيره وبين القبائل والجماعات المتخلفة والشعوب والحكومات النامية. كما استغل سياسة الإنتداب والاستعمار ثم احتمى بهما وراح يفتعل المشاكل الدينية والوطنية، لإحداث الفوضى بين المسلمين، بعد أن ساعد على تجزئة وحدتهم وفصلهم الى كيانات طائفية لها صلاتها وعلاقاتها بالدول المستعمرة.

٦) العنــف: يتظاهر التنصير بأخلاقيات الإنجيل المتسامحة في الوعظ والتوجيه بينما يمارس العنف في إقامة الحكم وتثبيت المذهب. فكانت حروب الإصلاح الديني أعنف الحروب الطائفية، وكانت الكثلكة في الأندلس الإسلامية من أشرس العمليات العسكرية الحاقدة، التي اقتطعت جزء هاماً من العالم الإسلامي. وكانت الحملات الصليبية على مدى قرنين، أبعدها عن الروح النصرانية وأدناها الى الوحشية والبربرية، وحتى في العصر الحديث فإن العالم يسمع ويرى قسوة الدول الاستعمارية النصرانية على الإسلام والمسلمين (١).

وهناك حقيقة واقعية يجب تقريرها وهو « أن هدف التنصير لم يكن في أساسه تحويل المسلمين الى أديان أخرى». فقد تأكد للمنصرين منذ أول الطريق استحالة ذلك. ولكن الهدف الأكبر هو إخراج المسلمين من قيمهم ودينهم، ومن مفاهيم الإسلام أساساً. وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكيل وفق مفاهيم الفكر الغربي والاستعمار. ولذلك فان حركة التنصير هي أساساً حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده وتعميقه. ولقد حمى التنصير وأشاع الدعوات الهدامة التي أنتشرت في العالم الإسلامي، سواء منها مايتصل بالإلحاد أوالإباحية أو الأحزاب المتصلة بالنفوذ الأجنبي، مع تعميق الدعوة الى العصبيات القديمة وبعثها من جديد كالفرعونية والفينيقية والبربرية (٢).

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري، المفهوم - الوسائل - المحاولات، ص ٩٥ - ٩٦.

٢) أنور الجندي: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والإجتماعي والثقافي، (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الكتاب المصري - ١٩٧٩م)، ص٤١٦.

ج) الفرق بين الإستشراق والتنصيـــــر:

يشترك المستشرقون والمنصرون في هدف واحد وهو هدم كل دين عدا النصرانية، وهدم الإسلام في الدرجة الأولى، ونشر النصرانية والتمهيد لها في كل بلد يدخلانها ولم يختلفوا إلا في بعض المظاهر والأعمال والمؤسسات ويتضح الفرق فيمايلي:

١) الاستشراق إتجاه للبحث والدراسة يتفرغ فيه المستشرق لموضوع أو قضية شرقية إسلامية. ومن خلال تناولاته يمكن أن يتخصص في ناحية من الثقافة أصلا أو فرعاً، ثم ينشر بحثه في مجلات أو دوريات أو إصدارات مستقلة. وربما يلقيه في محاضرة في جامعة أومجمع عربي. وأحياناً يعده لمؤتمر يعقده المستشرقون على المستوى العالمي. بينما يقوم التنصير على الوعظ الحي غالباً وربما في صورة نشرات كنسية بأسلوب وعظي أيضاً، وغالباً مايتجه التنصير الى معالجة الأمراض الاجتماعية وإثارة العواطف والتطلعات الروحية من وجهة نظره، فهو دعوة حية بوسائل الاعلام التنصيرية المختلفة التي تحمل معها وصايا الكتاب المقدس (١).

٢) يعتبر الاستشراق إنتاجاً فكرياً قذفته لنا الحروب الصليبية مع أناس يدفعهم التعصب الأعمى الصليبي للكتابة عن الإسلام فعمدوا إلى تشويهه (٢).

٣) غالباً مايكون الاستشراق نبتة اقليمية لرسالة فكرية عامة فالمستشرق ينكب على مكتبته وفي بلده ليدرس مسألة من مسائل الثقافة، ولايغادر بلده إلا إذا كانت طبيعة موضوعه تقتضي التعرف على المكتبات الأخرى، أو دراسة ظاهرة اجتماعية ودينية في بلد إسلامي، ورحلته عمل مؤقت يعود بعدها إلى وطنه ومكتبته ليتابع المسألة التي يبحثها. بينما يعيش المنصرون في الأقاليم المعنية بعيداً عن أوطانهم، وذلك على شكل إرساليات مزودة بالأجهزة الطبية والعلمية والوسائل الاجتماعية التي تسهل المهمة الشاقة التي يقومون بها، والمنصر مهيأ لتحمل المشاق والصعوبات في سبيل تحقيق هدفه.

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري، ... ص١٨٦.
٢) علي جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي، ص١٨.

٤) المستشرق عادة لا يصرح بغرضه الكنسي وإنما يحاول إخفاءه ضمن عمله البحثي الذي يعلي فيه قيم الكنيسة ويوهن القيم الإسلامية بالأساليب الملتوية، حتى وإن كان المستشرق راهباً يعمل في وظيفة دينية (١) فانه يحاول أن يتظاهر بالتجرد الموضوعي لئلا يتهم بالتعصب أوالتحيز في الدراسة. أما التنصير فإنه أصلا يقوم على الدعوة الى النصرانية من غير ماحاجة الى التستر وراء الأساليب والتراكيب الغامضة أوالمستورة ويستخدم كل الوسائل للوصول لغايته الواضحة.

٥) الاستشراق لايتخذ مؤسسات أو معاهد خاصة في البلاد المستهدفة لتكون منطلقاً لفعالياته الدراسية، سوى ماتهيء له بعض الدول من أمكنة لعقد المؤتمرات الاستشراقية بشكل مؤقت، واهتمامه ينصب في الفكر والبحث في مجال الجامعة والجمعية والمجمع، ولايهتم بالمنشآت العمرانية التي تحتاج إلى إعداد خاص ملائم للعمل الاستشراقي. أما بالنسبة للتنصير فيقوم أحياناً، على إنشاء معسكرات دائمة أو مؤقتة في الصحارى والقفار، وأحياناً يعمد إلى بناء مستشفيات ومعاهد علمية حديثة الى جانب منشآته الاجتماعية من نوادو جمعيات وكنائس. بحيث تكون منطلقات ثابتة للتنصير في البلد نفسه أو في القرى المجاورة له.

ومع هذه الفروق، فإن العمل الاستشراقي والتنصيري لا يختلفان كثيراً في حقيقة دوافعهما وأغراضهما وربما في مصادر ثقافتهما، حتى أن طبيعة العمل تتشابه أحياناً فيما بينهما وان اختلفت في وسائلهما (٢).

ويرى بعض المؤرخين أن الاستشراق تولد من الاستعمار والتنصير بحيث يلتقي الجميع دائماً في الهدف المشترك لهدم الإسلام. فالاستعمار يرى في المفهوم الإسلامي السليم مايعطي المجتمع الإسلامي قوة تمنعه من سيطرة الاستعمار وتسلطه، فحاول المستشرقون تقويض العقيدة الإسلامية، وإحلال مفاهيم جديدة للصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة تحت اسم الحضارة، أو العالمية، أو وحدة الثقافة والفكر البشري. أما التنصير فانه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره، لضمان عدم منافسته للنصرانية في البلاد المستهدفة (٣).

من الواضح إذن أن التنصير والإستشراق لهما نفس المعنى والقصد، في خطط الأهداف الأوروبية والأمريكية من البعثات الإستشراقية والتنصيرية. وقد اصطنعوا هذا الأسلوب وتبنوا إمكانية انتشاره وتأثيره

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري - المفهوم - الوسائل - المحاولات، ص١٨٧.

٢) نذير حمدان : نفس المرجع، ص١٧٨-١٨٧.

٣) علي جريشة ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص٢٠.

كقوة في وجه الشرق العربي المسلم في معركة التحدي العلمي والموضوعي للفكر الإسلامي وقضاياه. (١)

إعـــداد المنصرين :

يقوم العاملون في مجال (التنصير) بدراسة مناهج خاصة مبنية على تفهيمهم روح الشرق، وهناك سياسة تهيمن على تلك المناهج، وهي تصوير الشرق بصورة من التأخر والسوء، تحمل طالب (التنصير) على أن يندفع في مهمته اندفاعاً أعمى. ولقد أنشئت مدارس لهذه المهمة منذ زمن بعيد في رومية وباريس وفي طليطلة بأسبانيا أضافت الى مناهجها تدريباً عسكرياً للتنصير بالقوة .

ولم يكن من المستغرب أن تقوم الإرساليات الأجنبية على اختلاف نزعاتها بالتنصير، لأن لكل طائفة منها أهدافها ودوافعها الخاصة في بلاد الشام ، ولقد بدأت هذه الإرساليات في عهد مبكر ، منذ القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي من قبل الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان ، حيث عملوا جاهدين في مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام . ثم برزت في القرن الحادي عشر الهجري/ أواخر القرن السابع عشر الميلادي فرقاً أخرى، منها اللعازريون والكبوشيون والأغسطينيون. ومع أن هؤلاء قد عملوا في الأكثر بين العبيد والأسرى والنصارى، فإنهم كانوا من حين إلى حين يتعرضون للمسلمين. على أن هناك أفراداً ليسوا رهباناً، ولكنهم تعلموا في المعاهد الرهبانية وفي معاهد اليسوعية خاصة. حتـى أن الراهبات اللواتي يظن أنهن نذرن أنفسهن لخدمة المرضى وتعليم الجاهلين ومواساة المساكين لسن سوى منصرات (٢)

وهكذا وبعد أن تعرفنا على ماهية الإستشراق والتنصير ، الدعامتان الأساسيتان للإرساليات الأجنبية الوافدة إلى بلاد الشام ، يظل من الواجب علينا أن نبين أحوال البلاد في الفترة التي نشطت فيها تلك الإرساليات ، والظروف والملابسات التي شجعتها على النمو والتطور والإستمرار في بلاد الشام ، وهذا ما سنقوم بإلقاء الضوء عليه في الفقرة التالية من هذه الدراسة .

---

١) صابر طعيمة: الإسلام ومشكلات العصر، (بيروت، دار الجيل: ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ٣٤٩.

٢) James Thayer Addison: The Christian Approach To The Moslem (Newyork, Colombia University Press : 1942), P 571.

- أحوال بلاد الشام قبيل وخلال القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي

استخدم العرب منذ القدم إسم «الشـــام» للدلالة على الشمال، وما زال أهل الحجاز واليمن يستعملون هذه التسمية على جميع المناطق الواقعة الى الشمال منهم. كما أن عرب الشمال كانوا يطلقون اسم يمن على مناطق الجنوب بالنسبة لهم وكان الهمذاتي قد ذكر اسم الشام لأول مرة في كتابه الإكليل. ولم يكن لبلاد الشام حدوداً سياسية.

ولكن الاصطخري كان أقدم من أوضح حدود الشام فهو يقول: « وأما الشام فإن غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من إيلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حد الروم وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مد وتيه بني إسرائيل، وأحد حدودها مما يلي مصر، رفح، ومما يلي الروم، الثغور، وهي ملطية والجدث ومرعش والهارونية وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس وهي ثغور شامية» (١).

ويتفق الاصطخري مع ابن حوقل والمقدسي في تحديد أقسام أو أحياء بلاد الشام بأنها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، ويضيفون إليها الجبال والشراة (٢).

بينما يصف شاهين مكاريوس موقع الشام فيقول: «وموقع الشام الجغرافي في الطرف الغربي من قارة آسيا على شطوط البحر المتوسط وهي بين ٣٠ و ٣٤ درجة و٣٠ و ٣٧ درجة من الطول الشرقي، وبين ١٠ و ٣١ درجة، و٣٠ و ٤٣ درجة من العرض الشمالي يحدها من الشمال بلاد الأناضول، ومن الشرق البادية وبلاد الجزيرة، ومن الجنوب القطر المصري وبلاد العرب، ومن الغرب البحر المتوسط، وموقعها من أجمل مواقع الأرض وأكثرها أهمية، فهي الصلة الطبيعية بين الغرب والشرق»(٣)..

ولقد قسم القدماء بلاد الشام الى قسمين: الأول سورية وهو القسم الشمالي وآخره عند بدء بلاد الأناضول وأوله من ناحية الجنوب جبل الشيخ. وأما القسم الثاني، فهو بلاد فلسطين وموقعه ما بين جبل الشيخ

---

١) عفيف بهنسي : الشام لمحات آثارية وفنية (بغداد، دار الحرية للطباعة : ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٥.

٢) عفيف بهنسي : المرجع السابق، ص٦.

٣) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام)، (الطبعة الثانية، بيروت: عام ١٩٨٣م)، ص٤.

في الشمال وحدود البلاد المصرية في الجنوب. وظلت هذه البلاد تعرف بهذين الاسمين - يعني سورية وفلسطين - حتى ملكها الرومان وأطلقوا على القسمين اسم سورية، ثم فتحها المسلمون وأطلقوا عليها اسم الشام(١).

فحدود بلاد الشام إذن، وبحسب ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل هي تقريباً سورية الحالية ولبنان وفلسطين والآردن وسيناء. ولم يكن اسم سورية قد ورد على لسان العرب قبل الروم البيزنطيين، ولعل التسمية جاءت عن اللغة الآرامية التي كانت مشتركة بين أهل الشام والآراميين وبين الآشوريين ، فكانت آشور(آسور) التي أطلقت على الشعب الذي يتكلم اللغة السريانية (٢).

ولا تعد بلاد الشام على شهرتها من البلاد الواسعة المساحة، فهي لا تزيد عن خمسين الف ميل مربع فقط (٣).

وعندما حكمت الدولة العثمانية الإسلامية بلاد الشام، بعد المماليك، اهتمت بها اهتماماً شديداً وأصبحت جزءاً منها حيث ضمها السلطان سليم الأول، بعد انتصاره على المماليك الشراكسة، في معركة مرج دابق، بقيادة السلطان قنصوه الغوري المملوكي بالقرب من حلب في شعبان ٩٢٢هـ/ أغسطس ١٥١٦م (٤)، حيث عمل على إبقاء التقسيمات الإدارية لبلاد الشام على ما كانت عليه في عهد المماليك، وعين جانبردي الغزالي نائباً على دمشق، حيث كانت بلاد الشام في عهد المماليك مقسمة الى ست وحدات إدارية، عرفت باسم نيابات (٥).وهي:

١) نيابة الشام.
٢) نيابة حلب.
٣) نيابة طرابلس.
٤) نيابة حماة.
٥) نيابة صفد.
٦) نيابة الكرك.

وبعد حركة التمرد الفاشلة، التي قام بها نائب دمشق جانبردي

---

١) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام) ، ص٤.
٢) عفيف بهنسي: الشام لمحات آثارية وفنية، ص٦.
٣) شاهين مكاريوس: مذبحة الجبل، ص٥.
٤) عبدالعزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، (القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة: ١٩٨٠م) حـ١، ص١٩، ومحمود حسن صالح منسي: تاريخ الشرق العربي الحديث، (القاهرة، دار الوزان للطباعة والنشر)، ص٣٦، وعصام شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، (بيروت، دار مصباح الفكر: ١٩٨٧م)، ص١٢١.
٥) نيابة : وهو تقسيم إداري، يساوي ولاية أو إيالة.

الغزالي، شرع السلطان سليمان الأول في وضع نظام جديد لإدارة بلاد الشام قام على الأسس التالية :

١) تعيين نواب عثمانيين جدد للنيابات السورية بدلا من النواب المماليك.
٢) وضع تقسيماً إدارياً جديداً لبلاد الشام روعي فيه العنصران التاليـــان:
أ) التقسيم التقليدي لبلاد الشام، والذي كان موجوداً منذ عهد المماليك مع إقرار التجمعات البدوية والتركمانية والدرزية في مناطقها.
ب) التقسيم الإداري العام للدولة العثمانية والذي قسمت بموجبه الدولة الى قسمين رئيسيين هما:
- الروملي ، ومركزه مناستر أو صوفيـه.
- الأناضول ، ومركزه أنقره ثم كوتاهيه (١).

وبموجب هذا النظام قسمت بلاد الشام ادارياً وعسكرياً الى إيالات(٢) أو ولايات ، والإيالات تقسم بدورها الى ألوية (٣) أوسناجق (٤) والسناجق تتألف من عدد من التيمارات (٥). والزعامتات (٦) وهي (٧):
١) ولاية دمشق اشتملت على عشرة ألوية .
٢) ولاية حلب وأشتملت على تسعة ألوية.
٣) ولاية طرابلس وأشتملت على خمسة ألوية (٨).

---

١) عبدالعزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية: ١٨٦٠-١٩١٤م، (رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم التاريخ ١٩٦٩م)، ص٦١.
٢) إيالات : جمع إيالة ، تساوي كلمة ولاية وهي ضمن التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في عهد الدولة العثمانية.
٣) ألوية : جمع لواء وهو تقسيم إداري أصغر من الإيالة.
٤) سناجق : جمع سنجق وهو تقسيم اداري أصغر من الايالة وأكبر من التيمار.
٥) تيمارات : قطعة أرض أصغر من زعامت يقل ايرادها عن ٢٠,٠٠٠ أقجة تعطى للفارس يزرعها ويستغلها وعندما يستدعي للقتال يأتي معه فرسه ومؤنه وسلاحه.
٦) زعامتات : جمع زعامت وهي قطعة كبيرة من الأرض تعطى للفارس يتراوح ايرادها مابين ٢٠,٠٠٠ الى ١٠٠,٠٠٠ أقجة . أنظر للتعريفات السابقة
Halil Inalcik : The Ottoman Empire ,(Translated by: Norman Itzkwitz and Colin Imber, 2nd. Edition , London , 1975.)
.
٧) إميل توما : فلسطين في العهد العثماني، (عمان، الدار العربية للنشر والتوزيع)، ص١١.
٨) عبدالعزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص٦١ - ٦٢.

وتعتبر الإيالات الكبيرة هي مايزيد دخلها على ١٠٠ر٠٠٠ أقجة (١) والمقاطعات المتوسطة هي التي يكون دخلها في حدود ١٠٠ر٠٠٠ أقجة ، وتسمى زعامتات. والمقاطعات الصغيرة التي يقل دخلها عن ١٠٠ر٠٠٠ أقجة وتسمى تيمارات (٢)..

وفي بداية القرن الثالث عشر الهجري ، كانت التقسيمات الإدارية في بلاد الشام على النحو التالي:

١) إيالة حلب، ومركزها حلب وضمت الألوية التالية:
أدنه «أضنه» ، باليس ، بيره جك ، حلب ، عزيز «أعزاز» ، كليس ، «معرة النعمان».

٢) إيالة الشام: ومركزها دمشق وضمت الألوية التالية:
دمشق ، القدس ، غزه ، نابلس ، عجلون ، صفد ، صيدا ، بيروت ، الكرك ، الشوبك.

٣) إيالة طرابلس. ومركزها طرابلس وضمت الألوية التالية:
طرابلس ، حمص ، حماه ، السلمية ، جبلة (٣)..

وبقيت هذه التقسيمات لبلاد الشام كما هي حتى قدوم حملة إبراهيم باشا على الشام ، وقد أعيد تشكيل إيالة صيدا ونقل مركزها الى عكا في عهد أحمد باشا الجزار (٤).

التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في عهد محمد علي :

قام ابراهيم باشا - بعد ضمه لبلاد الشام في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م - بإلغاء التقسيمات الإدارية التي سادت المنطقة في العهد العثماني الأول،

---

١) أقجة : أول عملة معدنية عثمانية من الفضة ضربت في عهد السلطان أورخان (٧٢٦-٧٦١هـ) وظلت محتفظة بقيمتها ووزنها حتى عهد السلطان الفاتح عام ١٤٥٣م، وكان وزنها لا يزيد عن ربع مثقال من الفضة الخالصة بنسبة ٩٠٪ وتدهورت قيمة الأقجة بعد ذلك وحتى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢م ، بحيث لم تزد كثيراً على نصف قيمتها وزادت انخفاضاً في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م) ، وقد بقيت الأقجة تمثل العملة المتداولة في الحساب حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، أنظر سوسن سليم اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص٨٨.

٢) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص١٢.

٣) عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص٦٣.

٤) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٤-٥٥.

فعين في رجب عام ١٢٤٧هـ/ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨٣١م متسلمين (١) على المدن الساحلية مثل صور ، وصيدا ، وبيروت ، وطرابلس ، وربطها به مباشرة ، ثم عدل عن ذلك بعد سنة واحدة ، وفوض الأمير بشير الشهابي في جماد الثاني عام ١٢٤٨هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٨٣٢م بإدارة شئون هذه المدن ، فولى بشير الشهابي متسلمين عليها من أقاربه (٢).

ولكن هذه الوحدة الإدارية لم تدم طويلا ، واضطر محمد علي تحت تأثير الثورات المستمرة، أن يعيد التشكيلات الإدارية السابقة. فأعيد تشكيل إيالة صيدا من جديد بعد فصلها عن عكا، وعين سليمان باشا الفرنساوي والياً عليها، فاتخذ مدينة صيدا مقراً له، كما فصلت حلب عن إيالة الشام وعين إسماعيل بك والياً عليها في ٢٦ ربيع الأول عام ١٢٥٠هـ/يوليه(تموز) عام١٨٣٤م.

وأصبحت بلاد الشام في أواخر عهد محمد علي (عام ١٢٥٥هـ/عام ١٨٣٩م) مقسمة الى عدد من الوحدات الإدارية (الإيالات) وهي : الشام، وحلب، وصيدا، وطرابلس الشام، ويافا، وأدنه.

ولما عاد حكم العثمانيين الى بلاد الشام في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م عادت معهم تشكيلاتهم الإدارية ، التي كانت موجودة قبل حكم محمد علي ، مع بعض التغييرات الجزئية ، وذلك بإضافة بعض الأقضية الى قضاء آخر ضمن الإيالة نفسها أو إلحاقها بإيالة أخرى ، أو إنشاء لواء جديد داخل الإيالة نفسها عن طريق سلخ بعض القائمقاميات عن لواء أو أكثر لتكوين ذلك اللواء (٣).

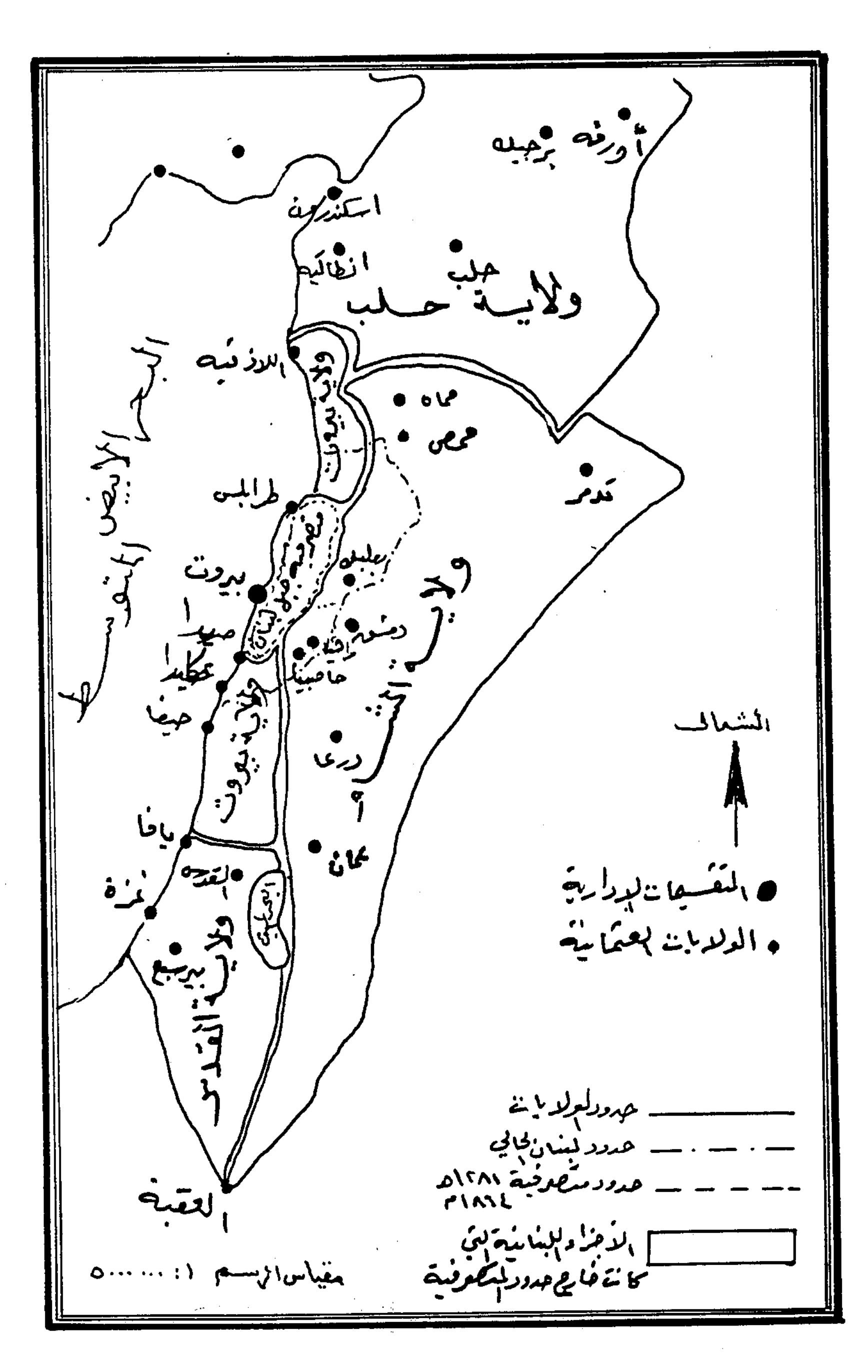
وقد صدرت مجموعة من القوانين تهدف بوجه عام الى تنظيم أمور الدولة وفقاً للنظم المرعية في الدول الأوروبية.

وهكذا وضع قانون الولايات حداً للإقطاعيات القديمة، وحدد صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقاميين، واقتبس كثيراً من أحكامه من النظم الفرنسية. كما ألغى النظم الباقية من عهود التيمار والزعامت ، وعين لكل موظف راتباً يتلقاه من خزينة الدولة (٤).

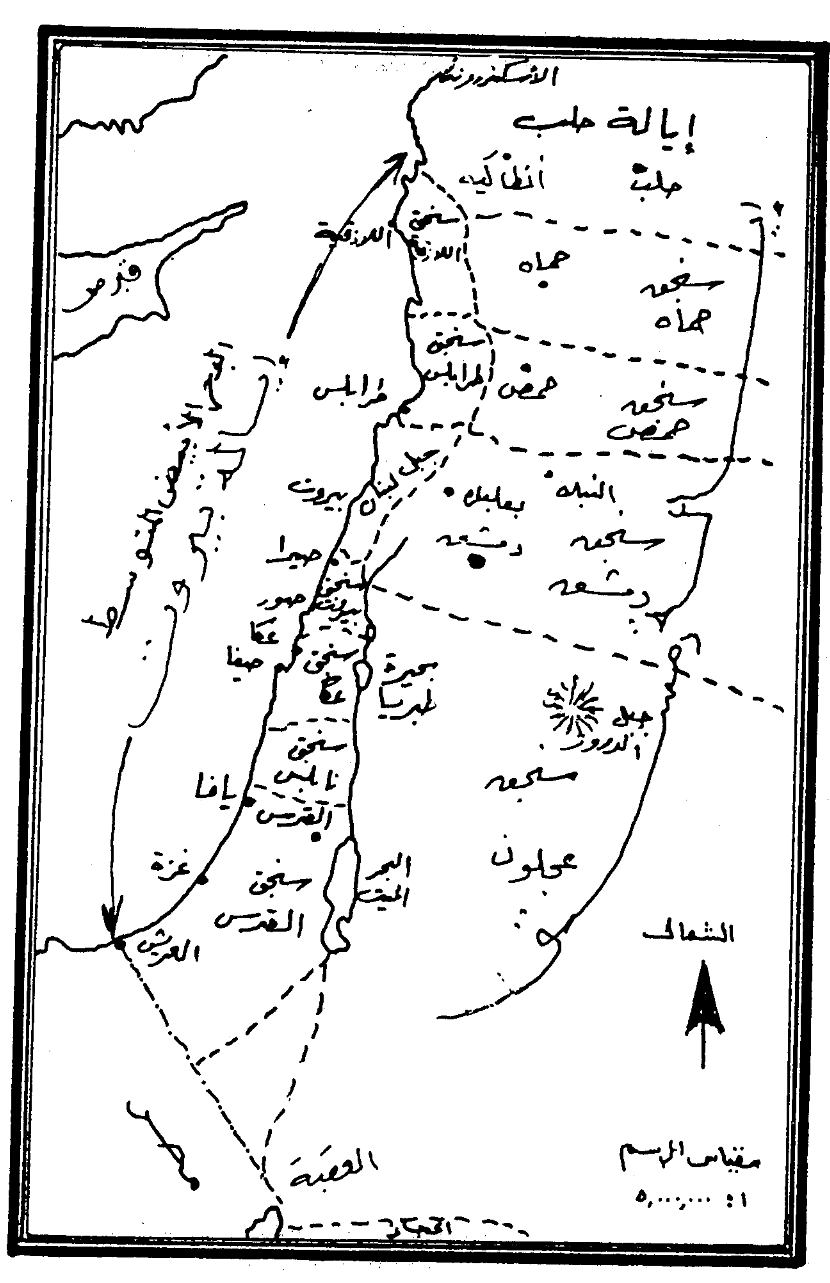
وتبين الخريطة في صفحة ٤٥ التقسيمات الإدارية لولاية سورية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، كما تبين الخريطة في صفحة ٤٦ التقسيم الإداري في سورية وفلسطين في عهد التنظيمات .

---

١) متسلمين : جمع متسلم : وهو نائب غير دائم يتسلم العمل لمدة معينة.
٢) عبد العزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٦٣.
٣) عبد العزيز عوض : المرجع السابق، ص٦٤.
٤) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، (الطبعة الثالثة، بيروت، دار العلم للملايين : كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥م)، ص٩٠.



اسكندر أبكاريوس : نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، ص ٧٠



التقسيم الإداري في سوريا وفلسطين عهد التنظيمات

عن كتاب: Moshé Ma'oz: Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861

وقد أحدث رجال التنظيمات، محاكم نظامية تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة، بموجب قوانين جديدة. كما وضعوا الأنظمة اللازمة لإصلاح شئون هذه المحاكم ، وجمعوا الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في جمعية الأحكام العدلية. كما شملت هذه القوانين مختلف شئون الدولة ، الإدارية والمالية والشرعية والتعليمية.

وقد عملت الدولة العثمانية على تطبيق الحكم المركزي ، فأصدرت أوامرها لتأكيد تبعية الولاة للحكومة المركزية في اسطنبول، ونظمت إدارة الولاية على نحو يكفل لها الهيمنة على كل المرافق الحكومية فيها. وقد ظهر الفرق واضحاً بين اختصاص الوالي منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وإختصاصاته في القرون السابقة (١).

وقد أولت الدولة العثمانية لواء القدس اهتماماً خاصاً، فميزته عن سائر الألوية السورية نظراً لازدياد الاهتمام الأوروبي ، وتنافس الدول الأجنبية عليه، بحجة وجود الأماكن الدينية النصرانية في القدس. فنشطت الإرساليات الأجنبية فيه، وسعت تلك الدول الى تأسيس القنصليات، والحصول على الامتيازات التي تتعلق بالأماكن المقدسة، والتي عادة ما تكون في صالح رعايا تلك الدول بالإضافة الى رعايا الدولة العثمانية من الطوائف النصرانية التي تدعي حمايتها. وحرصاً من الدولة العثمانية على حسن سير الأمور في لواء القدس، والحد من المداخلات الأجنبية، قامت بفصله عن ولاية سورية، وربطته بالعاصمة مباشرة لتوثيق تبعيته، والإسراع في إنجاز معاملاته الإدارية ، فأعلنته في عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م متصرفية مستقلة ترتبط بالباب العالي مباشرة . فاستقل بذلك متصرفو القدس عن ولاة سورية في تصريف شئونها الإدارية (٢).

ولم يعلن قانون الولايات الذي صدر في عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م اسم سورية كولاية ،ولكنه بدأ يظهر في سالنامة الدولة العثمانية اعتباراً من عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م. واستقر هذا الاسم حتى نهاية العهد العثماني (٣).

وكان العثمانيون قد أظهروا اهتماماً خاصاً بالقدس ، منذ أن تم ضم بلاد الشام في عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م حيث كانت سنجقية تتبع والي دمشق (باشا

---

١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، ص٩١.
٢) عبد العزيز محمد عوض : مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١-١٩١٤م ، (الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر١٩٨٣م)، ص١٠.
٣) عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص٧٠.

الشام) (١). وكان يحكمها أحياناً حاكم ميرميران ، وهو باشا بطوخين (٢)، ويتولى حكمها أحياناً أخرى أحد الوزراء وهو باشا بثلاثة أطواغ ، أو تكتفي بحاكم بلقب متسلم يرسله باشا الشام، وكان عليه أن يرسل مالا معيناً الى الباشا في دمشق مما يجمعه من ضريبة الأرض «الميري» (٣) ومن الجزية على أهل الذمة ومن العوائد المختلفة.

وكانت تتبع سنجقية بيت المقدس ثلاث مدن هي أريحا وتقع الى الشمال الشرقي، ثم بيت لحم، والخليل وتقعان في الجنوب. أما نابلس، وعجلون وغزه، فكانت كل منها سنجقية قائمة بذاتها تتبع باشا دمشق. وكانت يافا تتبع غزه (٤).

إذن فبلاد الشام كانت وما زالت مجموعة ولايات أو ممالك أو دول مختلفة أو ممالك ودول متأخرة لم يقدر لها أن تتحد كما حدث في مصر أو في العراق (٥).

وفي بداية الأمر ، تولى باشوات عثمانيون أمور بلاد الشام، إلا أن بعض المدن خضعت للإدارة العثمانية المباشرة ، أما باقي المناطق - خصوصاً الجبلية منها - فقد بقيت تحت الإدارة المباشرة للأمراء والمشايخ المحليين ، الذين كانوا في العادة يعقدون تحالفات صداقة فيما بينهم ، أو يشنون الغزوات ، حسب ما تمليه مصالحهم السياسية

---

١) الباشا : كلمة تركية ما زال أصلها الاشتقاقي خلافياً فقيل إنها من (باش أغا) أي رئيس الأغوات، أو كبير الخصيان، وقيل إنها من الكلمات الفارسية (باد شاه)، وقيل إنها من باش ، بمعنى الرأس أو الرئيس ، وهو لقب كان يطلق في مصر على رجال الجيش اذا صاروا ألوية، وعلى أعيان المدنيين ووكلاء الوزارات ومحافظي الأقاليم، وكبار التجار وملاك الأراضي، أنظر سعيد بن سعد سفر الغامدي: موقف المعارضة في الشرق العربي من حكم السلطان عبدالحميد الثاني ، (رسالة دكتوراة في التاريخ الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦/١٩٨٥م)، ص٣٨.

٢) طوخ : هو رتبة تمنح للحاكم أو الأمير من قبل الدولة

٣) الميري : الأرض التابعة للحكومة.

٤) عبدالعزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، (القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠م)، حـ٢، ص٩٧٨.

٥) عبدالكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث، (الطبعة الثانية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٧م) ص١٢٥.

والإجتماعية ، دون أن يحسبوا حساباً لرضاء الباشوات أو غضبهم (١). وقد شكلت هذه الغزوات بين الأفراد والطوائف حالة إضطراب عامة في البلاد ، فكان لها أثرها ، وخصوصاً على أتباع كل طائفة من الطوائف المتناحرة، وما حدث فيما بعد من اضطرابات سياسية ومعارك عام ١٢٧٧هـ-١٨٦٠م بين الموارنة والدروز ، لهو خير دليل وشاهد على ذلك (٢) ، مما أوجد المناخ المناسب للتدخلات الأجنبية ، وساعدت في فرض سيطرتها عليها. وقد اعترفت الدولة العثمانية مرات عدة بحقوق هؤلاء الأمراء ، اتقاء لمحاولات عصيان محلية في المستقبل (٣) ففي فلسطين مثلا ، تسلم أحمد باشا الجزار ولاية عكا بعد اغتيال ظاهر العمر، زعيم الدولة الزيدانية في شعبان من عام ١١٨٩هـ/يونيه(حزيران) من عام ١٧٧٥م. ولم يعن توليته لعكا ، إنهاء حكم الزيادنة، فقد استمر أبناء ظاهر العمر في حكم المقاطعات الفلسطينية الشمالية، بإستثناء المدينة الحصينة - عكا - واعتبروا ظهور الوالي الجديد فيها ظاهرة عابرة ، إن لم يكن إجراء استفزازياً. وكان مصدر قوة أبناء ظاهر العمر معاقلهم الحصينة ، وتأييد الأهالي لهم (٤) كما تألفت قواتهم من أبناء البلاد وكانت تسمى «عساكر العرب» (٥).

ومما هو جدير بالذكر، أن الجزار لم يكن يعتمد على العرب في حكمه، وإنما كان جيشه يتكون من المشردين والقتلة جمعهم من كل أنحاء الدولة العثمانية، من المماليك والمرتزقة، من البشانقة والأرناؤوط والأكراد والمغاربة (٦) وكذلك من الألبان الذين تدافعوا من كل الجهات تحت رايته وعاشوا فى ظله حياة ماجنة (٧).

وبطبيعة الحال كان لا بد للأهالي أن يرفضوا حكم الجزار وهو المغامر الغريب عن بلادهم، ولا تربطه بالأهالي والوطن أي عاطفة ، علاوة على سيرته الذاتية المتمثلة بمجازره العديدة وحكمه البلاد بالإرهاب

---

١) بازيلي : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، (الطبعة الأولى، بيروت، دار الحداثة: ١٩٨٨م) ، ترجمة يسر جابر ، مراجعة : منذر جابر، ص٤٥ - ٤٦.
٢) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ، حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص١٣٣.
٣) بازيلي : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، ص٤٦.
٤) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٣.
٥) اميل توما : المرجع السابق، ص٥٤
٦) اميل توما : المرجع السابق، ص٥٤.
٧) بازيلي : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ص٩٠.

والعنف والجبروت . فكان الأهالي يفضلون حكم الزيادنة (ظاهر العمر) ، ومن قبله حكم فخر الدين المعنى الثاني، ورغبوا في المحافظة عليه، لأن لهم جذورهم العميقة في التربة الفلسطينية (١).

ومع هذا فقد نجح الجزار في ترسيخ نفوذه في الجزء الأكبر من سورية، وتحقق هذا النجاح بالقوة العسكرية أحياناً ، وبأساليب الخديعة والاغتيال والغدر وتأجيج المنافسات بين الاقطاعيين ، أحياناً أخرى.(٢)

فيما يلي نورد نصاً يتضح فيه أصل الجزار، وكذلك يبين عدم رضاء الناس عن حكمه، وقيامه بالفتن والظلم، والذي جاء في كتاب تاريخ حوادث الشام ولبنان وهو باللغة العامية السورية:
«تولى أحمد باشا جزار فاستقام نحو سنة وفي غيابه بالحج راح عليه شكاوات (٣) للدولة من أهل الشام وحضر أمر بعزله الى القاضي. وحينما قرب حضور الحج الى المزيريب توجه القاضي وأعرض (٤) عليه الأوامر واستلم منه المحمل وجاء به للشام والباشا راح برانية (٥) من المزيريب الى عكا. قيل أن الباشا كان قاصداً يحجر القمح من حوران وغيرها ويبيع من يده (٦) وينشيء غلاء (٧) وعمر بوايك (٨) ومخازن لأجل التخزين فأعرضوا بذلك للدولة فجاء الأمر بعزله وكان ذلك في سنة ألف ومائتين (١٧٨٥م). وهذا الباشا أصله من بشناق تعين عند علي بك بمصر وحين قتل المذكور (٩) وتغيرت الأحكام خاف الباشا المذكور (١٠) وهرب لبر الشام وكان دائراً من مكان الى مكان وبوقته تلاشى حكم عكا من ظاهر العمر. وكان بوقته حاكماً بالجبل الأمير يوسف شهاب وكان ذا سطوة واقتدار وهيبة......».
«فبعد أيام توجه الى الاسلامبول (١١) وتداخل مع الحكام وصادف

---

١) عبدالكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م« الطبعة الأولى، دمشق: ١٩٧٤م»، ص٣١١.
٢) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٤.
٣) شكاوات : يعني شكاوى جمع شكوى.
٤) وأعرض : وعرض.
٥) راح برانية : ذهب بخفية الى عكا دون علم أحد.
٦) يبيع من يده: أي يحتكر البضاعة.
٧) ينشيء غلاء : يبيع بأسعار مرتفعة.
٨) بوايك : مخازن كبيرة لتخزين البضاعة.
٩) المذكور هنا : علي بك.
١٠) الباشا المذكور : أحمد باشا الجزار.
١١) اسلامبول : اسطنبول.

توفيقاً وعملوه وزيراً على صيدا وحضر لعكا واستقر بها وابتدأ يحصنها وأول معاطاة حكمه ضبط بيروت ورفع الحكم عنها من بيت شهاب وأنشأ لها صور (١) وبوابات وانسرت الاسلام بهذا الصنيع... (٢)».

«ثم عزل الجزار من ولاية الشام في السنة المذكورة وجاء خبر بتولي ابراهيم دالي باش وأصله كردي» ، والذي عزل بعد ذلك بأربع سنين، وتولى أحمد باشا الجزار مرة ثانيه (٣).

وعندما تولى أحمد باشا الجزار للمرة الثانية وذلك في عام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م بقي في عكا وأرسل محمد أرفا أمين، وكان ظالماً قاسياً كأستاذه ، استمر في انشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود.

وقد عمل الجزار على الانتقام من أهل الشام بسبب تقديم الشكاوى التي أدت الى عزله في ولايته الأولى.

«وبالحقيقة أن في مدة حكم الجزار بالشام نحو خمس سنين ما ارتاحت الناس ولاشهراً واحداً (٤)».

أما عن نشاط الجزار السياسي على الجبهة السورية، فقد تنبه منذ البداية الى المتاولة الذين استقروا في مقاطعات جنوب لبنان الممتدة من صيدا حتى أعالي الجبل، وأبرزها الشقيف وشومر وإقليم التفاح وبلاد بشاره. وهؤلاء المتاولة عملوا في الزراعة، وبنوا قراهم في مناطق جبلية حصينة وحافظوا على ولائهم لمشايخهم..

والواقع أن المتاولة في فترة حكم ظاهر العمر تحولوا الى قوة عسكرية أي أصبح في استطاعتهم إنزال فرق مسلحة الى الميدان ، مما فرض على الجزار أن يجابههم خصوصاً وهم على مقربة من عاصمته عكا (٥) ولقد بلغت المجابهة بين الجزار والمتاولة أوجها، في العقد الأخير من القرن الثاني عشر الهجري. ففي شوال عام ١١٩٦هـ/ستمبر(أيلول) عام ١٧٨١م هزمت قوات الجزار محاربي أحد مشايخ المتاولة ويدعى ناصيف نصار في معركة هامة بالقرب من «يارون» ومضت تدمر معاقل المتاولة الواحد تلو الآخر حتى قضت على قواتهم الجوهرية. ولكن نصر الجزار لم يكن

---

١) صور : سوراً.

٢) انسرت : فرح المسلمون.

٣) مؤلف مجهول : تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي، (الطبعة الأولى، دمشق، دار قتيبة: ١٤٠١هـ/١٩٨١م) تحقيق أحمد غسان سبانو، ص١٤-١٧.

٤) مؤلف مجهول : المرجع السابق، ص١٧.

٥) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٥.

حاسماً وتاماً.. فقد نجح مشايخ المتاولة بالتعاون مع أمير جبل لبنان يوسف الشهابي من استعادة كثير من مواقعهم وذلك بفضل تأييد الأهالي لهم وتعاونهم معهم. وعاد المشايخ الى جمع الضرائب من الأهالي، لبناء قوتهم من جديد، وحين تولى الجزار ولاية دمشق في عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م وقام بجولته التفقدية في بعض أنحاء فلسطين في منطقتي القدس ونابلس انتهز مشايخ المتاولة الفرصة وقاموا بالثورة عليه، ومالبث الجزار أن قضى عليهم عن طريق القمع الوحشي. وهذا التطور فتح الطريق أمام تعيين «متسلمين» أي «جباة ضرائب» غرباء ، اتسموا بالتعسف (١).

ومن الجدير بالذكر أن الجزار قام بتولية حكام من النصارى على بيروت فاشتد ظلم هؤلاء الحكام، حتى أن بعض أهالي المتن كانوا يعتدون، على مسلمي بيروت خارج المدينة، ويسرقون كل مايحملونه (٢). ورغم ذلك فان الجزار كان يشك في ولائهم، ولهذا كان يستبدلهم بسرعة حتى لا يوطدون مواقعهم ويتطاولون على حكمه. ومن الطبيعي أن تقع أعباء هذه الأحداث على الفلاحين والحرفيين، وتتأثر قراهم ومزارعهم (٣).

ولم تكد بلاد الشام تنعم بالراحة حتى وصلت اليها أخبار قدوم الحملة الفرنسية الى مصر، ودخولها البلاد فأمر أحمد باشا الجزار بإخراج النصارى من المدن التي تقع تحت حكمه، حتى يأمن من عدم معاونتهم للفرنسيين النصارى القادمين لغزو البلاد.

والواقع أن حملة نابليون على مصر وبلاد الشام تمثل الجانب الاستعماري الخبيث وغير الأخلاقي في نفس الوقت ، فقد جاءت في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني من الضعف الشديد ، لأسباب كثيرة منها : التمردات الشعبية، وتراكم الديون، ومحاولة بعض حكام ولاياتها الانفصال عنها ، كما حدث في مصر على يد محمد علي، بينما كانت الدولة وأقاليمها محط أنظار وأطماع بعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا. ولقد سارعت فرنسا في مهاجمة أملاك الدولة العثمانية ، طمعاً في إنشاء إمبراطورية فرنسية على أنقاض الدولة الإسلامية من جهة، وضرب المصالح البريطانية بقطع طريقها الى الهند، أحد مراكزها التجارية الهامة في آسيا من جهة أخرى (٤).

---

١) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٦.
٢) عصام محمد شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، ص ١٣٥.
٣) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٥٧.
٤) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني ، ص ٥٨.

وتعتبر حملة عدو الإسلام ، نابليون بونابرت ، في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، نذير خطر شديد على الإسلام والمسلمين، ليس لأنها استخدمت الوسائل الحديثة من المعدات والسلاح المدمر فقط، بل لأن نابليون استعان الى جانب ذلك بأساليب المكر والحيلة، لينتصر بها على عقول البسطاء من المسلمين، فجاء الى مصر وهو يحمل مطبعة حديثة ، ومعه لجنة علمية كانت مهمتها الاكتشاف والبحث والتنقيب» (١) . محاولة منه للتغلب على علماء المسلمين بالاختراعات الحديثة وما يعترض طريقها من عادات وتقاليد، وإبعاد الناس عن علماء الدين الإسلامي الذين يدعون للجهاد ومحاربة الفرنسيين وطردهم من البلاد. بينما كان نابليون يحاول كسب بعض الجماهير الإسلامية في مصر بالتظاهر بإسلامه مؤدياً الفرائض الدينية (٢)، بالرغم من سعيه الحثيث لتدمير الإسلام، واحتلال بلاد المسلمين في مصر ، وإصراره على الزحف إلى فلسطين آملا أن يضم له الأرض التي عجز أجداده عن الحياة فيها. «ولما كانت الحروب الصليبية الشهيرة أثبتت أن تحقيق هذا الهدف لا يتم إلا بعد السيطرة على مصر، فقد رأى نابليون أن يبدأ بالسيطرة على مصــر» (٣).

وهناك مايشير الى أنه لو تيسر لنابليون فتح عكا، لما وقف في تيارات فتوحاته أي عائق، ولاستمر في زحفه حتى عاصمة الخلافة العثمانية. وخير دليل على أطماعه ما جاء في مذكرات الجنرال بوريين قول نابليون له «بوريين. اذا نجحت في فتح مدينة عكا، كما أعتقد أنني سأنجح، فإنني سأجد فيها كنوز الجزار، وأجد أسلحة تكفي لثلاثماية ألف جندي، عندئذ أهيج أهالي سورية الذين يبغضون الجزار لظلمه ويسألون الله صبح مساء أن أنجح في دخول عكا، ثم أسلح منهم جيشاً عرمرماً وأقصد دمشق وحلب فينضم الى القوم كمخلص لهم من المظالم ثم اسير بجيوشي الى الآستانة وأنشىء في الشرق إمبرطورية عظيمة الشأن» (٤).

ولكن نابليون أخفق إخفاقاً ذريعاً في دخول عكا والحمد لله تعالى على ذلك، على الرغم من استمراره في محاصرتها ستين يوماً، وذلك لاستبسال حماتها في الدفاع عنها (٥) ، وكذلك قيام بريطانيا بضرب أسطول فرنسا

---

١) انيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، (الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن زيدون: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٥٩.
٢) بازيلي : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ص٩٧.
٣) أحمد شلبي : الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن، عرض للهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامي عبر العصور، (القاهرة مكتبة النهضة المصرية: ١٩٨٦م)، ص١٢٨.
٤) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٦١.
٥) اميل توما : المرجع السابق، ص٦٢.

ونجاحها في تدميره، وذلك لأن بريطانيا كرهت أن تنفرد فرنسا بمصر وبلاد الشام ، وتكسب الغنائم ، بالإضافة الى خوفها من قطع الطريق الى مستعمراتها في الهند (١). وكانت بريطانيا تخطط للإشتراك مع فرنسا في غزو البلاد لتقتسم معها الغنيمة ، فهي حرب صليبية لا تبقي ولا تذر، وهي لا تنتهي ولا ترحم ، طالما كانت الدولة الإسلامية ضعيفة منهارة، أما اذا كانت قوية صلبة فهذا الأمر أبعد مايكون عن تفكيرهم الصليبي الحاقد .

ومما هو جدير بالذكر، رغم ماتحمله الحروب الصليبية، ومنها الحملة الفرنسية على مصر والشام من تدمير وخراب، فقد وجدت من يهلل لها ويصفها بأنها من أسباب النهضة (٢) في البلاد، حتى ولو أنها فشلت عسكرياً، فإنها نجحت حضارياً، ولم يكن هذا الادعاء الكاذب الا محاولة لتزييف الحقائق، لتكون ذريعة للأوروبيين بعد ذلك كي يحاولوا استعمار العالم الإسلامي باسم التقدم والرقي الحضاري الذي يدعونه (٣).

إن حملة نابليون على مصر والشام كانت مقدمة للحركات التنصيرية التي غزت البلاد، ومن نتائجها الأليمة، وهي بحد ذاتها سلسلة من الحملات الصليبية على عرين الإسلام والمسلمين (٤). وفيما يلي نورد نصاً من مخطوط يبين تفاصيل الحملة الفرنسية وموقف الدولة العثمانية ، وكذلك موقف أحمد باشا الجزار والي عكا منها .

«وفي تلك الأيام تكاثرت أخبار قدوم الإفرنج الى الاسكندرية فاشتغل قلب الجزار بذلك ثم وفد الخبر بأن الإفرنج تملكوا مصر وهرب (الغز) فوقع خوف عظيم على أهالي المدن والمسلمين وأمر الجزار بإخراج النصارى من المدن التي في إيالته ومنع ورود المراكب في البحر وانقطعت البضائع المصرية من عربستان »(٥).

«وتواردت الأخبار أن سلطان الانكليز إتحد مع السلطان سليم العثماني وحضرت عمارة الانكليز وأحرقت أربعة عشر مركباً من مراكب الفرنساوية كانت راسية على بوقير ومن جملتها المركب الذي يقال له نصف

---

١) أحمد شلبي: الهجمات الصليبية الغربية على العالم الاسلامي، ص١٣٠.
٢) انيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ص٥٩.
٣) أحمد شلبي : الهجمات الصليبية الغربية على العالم الاسلامي، ص١٣١.
٤) أحمد شلبي : المرجع السابق ، ص١٣٢.
٥) نقولا بن يوسف الترك اللبناني: حوادث الزمان في جيل لبنان، مخطوط مصور من مكتبة الأسد في دمشق، رقم٤٧٢٤، ورقة ١٣٢.

الدنيا ثم حضرت مراكب الانكليز مع القبطان سميث صاري عسكر الانكليز وحضر فرمان من السلطان سليم يبين لعامة المسلمين خطورة حضور الطائفة الفرنساوية الى بلاد المسلمين وهم الذين لا يؤمنون بوحدانية رب السماء والأرض، وهدفهم التعرض للأمة الاسلامية يريدون إبطال الشريعة الاسلامية. وجاء على لسان السلطان سليم أنه وقع في يده بعض الكتب التي كتبها بونابرت ووزعها في أقاصي البلاد بواسطة العيون والأرصاد.

يقول نابليون:

إن ركن العالم قوي متين ذو صلابة في الدين فإذا وصلتم الى اقطارهم ودخلتم ديارهم ينبغي أن تعاملوهم بمقتضى الحال فتباروا الضعيف منهم بالحرب والقتال وتنصبوا للقوى أشراك المكر والاحتيال ولا يكن منكم تعرض لدينهم ومالهم ولا لأعراضهم وعيالهم وألقوا الفتنة بينهم بالكلام المزخرف وسلطانها الأدنى على الأشرف وعلى الخصوص شاه العجم وبني عثمان بأي وجه كان ليقع النزاع والخصام وتخرج الناس عن طاعة السلطان والرعايا عن طاعة الحكام فيفسد بذلك أمر نظامهم وينحل عقد التئامهم فتتغلبون حينئذ على البلاد وتستولون على العباد ويجب عليكم إعانة الضعفاء على الأقوياء لأنه إذا تلاشت الأقوياء لديكم هانت إبادة الضعفاء عليكم وبعد أن تظفر بهم على هذا الشأن نهدم كعبتهم وبيت مقدسهم وجوامعهم ومساجدهم ونقتلهم سوى النساء والصبيان ثم نقتسم بيننا ديارهم وأملاكهم وأموالهم ونمحو قواعد الإسلام ونحول بقية الناس الى ما نحن عليه والسلام» (١).

واذا كان هذا هو قصد هؤلاء الحاقدين من الفرنسيين، فإنه يمثل آراء كل طوائف المنصرين وجميع مرسليهم ومبعوثيهم الى بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين فيما بعد ، وقد اتضحت نواياهم الخبيثة ، وبذلك أصبح قتالهم فرضاً على المسلمين جميعاً. وبالفعل قام السلطان سليم بتوجيه النداء الى كافة المسلمين لرد الحملة الفرنسية الغاشمة حيث قال : «... ولم يعلموا أن الإيمان مغروس في قلوبنا وأعضائنا والإسلام ممتزج بأرواحنا ودمائنا فكونوا على حذر من كيدهم وآفاتهم ، ولا تخافوا من تهدداتهم وتوعداتهم ، لأن الأسد لا يبالي بالثعالب ، ولا الصقر بالأغربة النواعب ، وكونوا على قلب واحد أينما كنتم من الأرض ، فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه البعض ، وادفعوا من بينكم الشقاق واطردوا أهل النميمة والنفاق ، واعلموا أن هؤلاء القوم يفسدون بالمال من كان دينه ضعيفاً أو عقله سخيفاً فعليكم أن تباشروا دفعهم وردعهم وكونوا

---

١) نقولا بن يوسف الترك اللبناني : حوادث الزمان في جبل لبنان ، ورقة ٩٧ -٩٩.

متفقين على تقوية الدين ولتكن سيوفكم بارقة ، ورماحكم خارقة ، وسهامكم راشقة ، وخيولكم سابقة ورجالكم طارقة ، ونياتكم صادقة ، لأن بركات الله عليكم وعينه ناظرة إليكم .» (١)

وهكذا نرى أن السلطان العثماني ، وجه النداء بالجهاد الى كافة المسلمين في الدولة العثمانية لمواجهة دولة الكفر والطغيان والتي تهاجم الدولة الإسلامية وتضمر لها السوء. فاستجاب المسلمون في البلاد البعيدة عن الشام ، وهبوا لنجدتها ، وأعنى بذلك المسلمين المجاهدين في الأراضي الإسلامية المقدسة في الحجاز، حيث أورد الجبرتي مانصه: « فلما وردت أخبار الفرنسيس الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية إنزعج أهل الحجاز... وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين ، وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه. فورد الخبر في أواخره أنه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع (غز) مصر عند وقعة انبابة، وركب (الغز) معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيس، فلم تثبت (الغز) كعادتهم وانهزموا ، وتبعهم هوارة الصعيد المتجمعه من القرى وثبت الحجازيون... ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل .» (٢)

وبسبب هذه الأحداث صدر فرمان من السلطان الى أحمد باشا الجزار بهذه الصورة :

«الدستور المكرم المشير المفخم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الأنام بالرأي الصايب ممهد بنيان الدولة والأقبال مشيد أركان السعادة والإجلال ، المتحف بأصناف عواطف الملك المتعال والى صيدا الحاج أحمد باشا الجزار أدام الله إجلاله. نعرفك أن الكفرة اللیام الطائفة الفرنساوية أدار الله عليهم دائرة السوء والانتقام في العام الماضي هجموا على أخذ مصر القاهره والآن احتلوا يافا وغزة والرملة فاقتضى أننا بمشيئة الله تعالى قد صممنا النية على قيام سعادة الدستور الموقر المحترم صاحب الأمر الأعظم الحاج يوسف ضيا باشا أدام الله إجلاله وبلغه آماله وعن يده دفتر ممهور بطلب ذخيرة الى بلقنيد ترسل اليه بوجه السرعة مع عسكر عديد وفي حال صدور أمر سعادته قد

---

١) نقولا بن يوسف الترك اللبناني: حوادث الزمان في جبل لبنان ، ورقة ٩٨

٢) عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (دار الجيل، بيروت ب.ت)، جـ٢، ص٢٥٠-٢٥١.

أمرناك أن تبادر في القيام الى قتال الفرنساوية الليام فاعتمد أمرنا هذا غاية الاعتماد والسلام.» (١).

أرسل السلطان الى أحمد باشا الجزار ووصفه بأحسن الأوصاف وأفخم الألقاب بما ليس فيه. لأنه يواجه عدواً لدوداً للمسلمين. ومهما يكن من أمر الجزار وظلمه وجبروته فهو مسلم شهد أن لا إله إلا الله ، فمن الواجب توحيد كل البلاد حتى ولو كانت تحت رايته لدحر العدو الطارئ. ومن هذه المواقف لا بد من أخذ العبرة التاريخية ، وأن المنازعات بين الأخوه في الدين لا بد أن تذوب وتنتهي، ويكونوا يداً واحدة ضد عدوهم الواحد، عدو دينهم المشترك. وكان موقف أحمد باشا الجزار عظيماً فعلا ، وقد أثبت غيرته على الإسلام رغم كل ما بطشته يداه من قبل، فكان مستعداً لمواجهة العدو الذي يريد شراً بالإسلام وبكل ما أوتي من قوة.

وقد رد أحمد باشا الجزار برسالة الى الصدر الأعظم عندما كان قائمقام ، حيث يقول فيها: «لقد تجرأ الكفرة المخذولون الذين أدبروا عن إقليم مصر قبل الآن ، بإطالة يد تعديهم على عكا، وبعون الباري انهزموا عنها.. وقد كنت عرضت بأن العساكر المرتبة من الأرناؤود والصفوف الأخرى، أخذت بالتحشد لدى فوجاً بعد فوج ، وهكذا أكتسبت قوة على قوة، في حين بقيت على أتم الاستعداد لمواجهة ما قد يكون.. في حين أن جناب ولي النعم الصدر الأعظم والسردار الأكرم بمقتضى الإرادة السلطانية ، قام في ١٥ ذي الحجة يوم الإثنين مستعيناً بالله بأن مر على صحراء اسكدار، واتجه نحو الأعداء بقصد إعانتي ومظاهرة لي، وبقصد القيام بعمل ما، أخذاً للثأر والانتقام، وإرضاء للسلطان.

وإذا كان ما عرضته من قبل ، عن استعدادي التام قد عرض على السلطان في حينه بواسطة الآغا (محصل قبرص) ، الذي كنت أعتمده في إيصال رسائلي ، فإنني أذكر الآن أن الحرب قد استمرت أمام عكا ٦٤ يوماً ، وانتهت بفرار الأعداء ، وقد تحقق أن ما خلفوه من القتلى كان غير قليل من الجنرالات والضباط و٢٠ ألف من الجنود هلكوا و٧ آلاف جريح سقطوا...» (٢)

---

١) نقولا بن يوسف الترك اللبناني : حوادث الزمان في جبل لبنان ، ورقة ٩٩-١٠٠.

٢) الوثائق التركية: دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، وثيقة رقم ٦٥٩٧، الجزار ينتصر على الفرنسيين الهاجمين لعكا رغم مساندة إيالات المجاورة لغزة، بتاريخ ١٧م ١٢١٤هـ.

وكان الخطر الفرنسي - تأكيداً لما ذكرناه سابقاً - يهدد معظم أرجاء الشام وخصوصاً الأماكن المقدسة في فلسطين. ولهذا فقد قام أهل القدس بالاستعداد التام للدفاع عن مدينتهم وتحصينها ضد الغزو الفرنسي بالتعاون مع أهالي الأنحاء المجاورة ، وأبدوا الاستعداد للتصدي للأسطول الفرنسي ، وجميعهم دون استثناء مستعدون للتضحية والاستشهاد (١) ومما يؤسف له، أن نجد نصارى أهل الشام والذين عاشوا قروناً طويلة في ظل الحكم الإسلامي في سلام وأمان، يساعدون عدو البلاد الإسلامية والتي هي بلادهم التي عاشوا فيها، فخدموا الفرنسيين بإخلاص وانضموا الى النصارى القبط والأروام واليهود، بل جاهروا بفاحش القول واستذلوا المسلمين كذلك لإرضاء الفرنسيين رغم أنه تربطهم بهم قومية واحدة ولغة وأرض مشتركة. مما يدل على بطلان مايدعون من دعوى القومية (٢).

ولذلك استدعت الحالة ضرورة تعيين قوة عسكرية في الإيالات السورية المهددة بالخطر للتصدي للزحف الفرنسي (٣).

ومما سبق يتبين لنا مدى غيرة المسلمين على دينهم ومقدساتهم الإسلامية ، وكيف أنهم تناسوا مشاكلهم الداخلية حين هبت ريح الأخطار الخارجية عليهم من قبل فرنسا، وهم في سبيل الحفاظ على سلامة القدس الشريف أعدوا العدة ليواجهوا الخطر قبل قدومه، وأستبسلوا في مواجهته. وفي التاريخ كل العبر والمواعظ، فالدولة الفرنسية طمعت في بلاد الشام عندما أحست بتفرق المسلمين وضعف دولتهم، فجاءت يحدوها الأمل في القضاء عليها، فلتكن أعيننا مفتوحة دائماً لخطر النصارى والدول الأجنبية المعادية لديننا ومقدساتنا. ومع أن الجزار كان سفاحاً وظالماً ، كما وصفته المراجع الحديثة (٤) ، إلا أننا لا يجب أن ننسى دوره البطولي الرائع في صد الحملة الفرنسية ، ورد نابليون على أعقابه بعد أن اجتاز

---

١) مجموعة الوثائق التركية: دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، وثيقة رقم٦٦٢٧. استعداد أهل القدس للدفاع عن مدينتهم ضد الغزو الفرنسي، ب. ت.

٢) عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص٢٥٠.

٣) مجموعة الوثائق التركية: دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، وثيقة رقم ٦٨٠٧، إقتراح بشأن تعيين محافظين وجنود في ولايات الشام، بدون تاريخ.

٤) أنظر: اميل توما: فلسطين في العهد العثماني، ص٥٣-٦٦، وبازيلي: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ص٩٩-١٠٣، ومؤلف مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص١٤-٣٠ وعصام شبارو: تاريخ بيروت، ص١٣٤-١٣٥. ومخطوط نقولا بن يوسف الترك اللبناني: حوادث الزمان في جبل لبنان، ورقة ٩٧.

مصر وقضى على المماليك فيها وكان هدفه القضاء على الدولة العثمانية والاستيلاء على بلاد الإسلام ، ولو قدر للغزاة النجاح في هذا العمل لذاقت بلاد الشام والعالم الإسلامي كله ويلات أشد وأدهى ، ألا وهي ويلات حروب الكفرة الغزاة المجهزين بأحدث الأسلحة .

وفي عام ١٢١٩هـ/١٨٠٤م توفي الجزار، وبدأت مرحلة الإصلاحات في بناء السلطنة العثمانية على مختلف الأصعدة. ومن أهم هذه الإصلاحات ، إصلاح الجيش وإعادة بناء القوات العسكرية، وفرض المركزية على أقاليمها والتي قضت على نزوع الولاة الى الانفراد بالسلطة أو الانفصال عن جسم الدولة، كي لا تصبح لقمة سائغة في أيدي الغزاة المستعمرين. فاتجه السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الى إنشاء وحدات عسكرية حديثة، عرفت بالعساكر المحمدية المنصورة ، كما أنشأ بعض الصناعات الحربية وورش تابعة للمدارس العسكرية والبحرية لتخريج ضباط مدربين على الطراز الأوروبي الغربي (١).

وعهد السلطان إلى سليمان باشا بولاية عكا في عام ١٢١٩هـ/١٨٠٤م بعد موت الجزار وكانت تشمل مناطق واسعة من فلسطين، وقد وصفته بعض الكتب بأنه :«... كان رجلا مستوفي الشروط حيث كانت سجاياه حميدة، غيوراً على تأييد الشريعة، صادقاً بأوامر الدولة شفوقاً على الرعية..» (٢) فقد جاء في وصية له قوله :

« أنا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر، فإذا أردتم أن تخدموني بالصداقة فأنا أشترط عليكم أن لا تظلموا أحداً فلا أريد الظلم ولا أذية أحد ولا خراب بيت أحد. ولا عيني بمال أحد وأريد ما أمكن سد باب الظلم وليس لي حاجة في غير لقمة خبز طيبة وحصان مليح و«جويق» دخان والكسوة الاعتيادية وأمرأة واحدة ولست آذن ولا أرخص لأحد منكم أن يجمع لي من عباد الله بالظلم، ولا بالخطف ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه ولا أريد الا أخذ الأموال المرتبة بأمر السلطان فقط...» (٣).

إلا أنه اتضح فيما بعد انحرافه عن تلك المزاعم فقد خلف سليمان باشا بعد وفاته أموالا طائلة بينها ٢٢ «دعبولة» (٤) في كل «دعبولة» ألف كيس من الريالات الفرنسية.. عدا الديون التي للخزينة على تجار عكا وبيروت،

---

١) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٦٧.
٢) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، (القاهرة، ١٩٠٨م)، ص٦٤.
٣) محمد كرد علي : خطط الشام، (دمشق، مطبعة الترقي ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، حـ٣، ص٣٢ ، وأميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٧٤.
٤) دعبولة : مكان تحفظ فيه أكياس النقود وتتسع كل دعبولة لألف كيس.

وما عند حريمه (لا امرأة واحدة..) من الجواهر والتحف (١).
وبالرغم من ذلك، فقد كان من حسنات سليمان باشا أنه ضم إقليم البلان اللبناني الى ولاية دمشق، وكان حكامه يستبدون بالأهالي ويسومونهم سوء العذاب والجور.. وعمل على تقليص جباية الأموال من الأهالي (٢).

كما قام سليمان باشا على شاكلة سلفه أحمد باشا الجزار بإحاطة نفسه بالمماليك وسعى لدى الباب العالي لاستصدار لقب باشا (مرمران) (٣). ومن الملفت للنظر أن سليمان باشا عقد حلفاً مع المرابي اليهودي حاييم الذي ورثه عن الجزار بأنف مجدوع وأذن مصلومة وعين مسمولة، وكانت له الكلمة المسموعة لدى سيده سليمان باشا ولكن حاييم اليهودي حاول أن يعمل لمصلحته، كما هي عادة اليهود دائماً في كل عصر وأوان. فقد حاول اليهودي أن يساعد عبدالله بك، الطامح الجديد لمنصب الباشوية لولاية عكا.. وقد أعطت هذه المساعي ثمارها بعد أشهر من موت سليمان باشا وأوصلت عبدالله باشا الى الفوز بلقب مشير عكا (٤).

يقول صاحب تاريخ حوادث الشام ولبنان وهو يروي الحوادث باللغة العامية الشامية:
«ومضى أيام كثيرة الى سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م مات سليمان باشا والى عكا ودفنوه بالجامع فوق أحمد باشا الجزار. وصار وهم عظيم عند حاييم وخواص الباشا بسبب مماليك الجزار الذين هم متسلمين في صور وصيدا وبيروت وغيرهم. وأما محمد آغا أبو نبوت، فإنه كان في يافا متسلم وحين تلف سليمان باشا عمل حيلة عليه حاييم وطرده من يافا. وكذلك علي آغا أنفاه من بيروت لقبرص. وبدا حاييم المذكور يجتهد بالكتابات لإسلامبول في إحضار منصب عكا الى عبد الله بك ابن علي باشا. وبعناء وتعب حتى رضيت الدولة بقيام المذكور. وهذا كان حدث السن ولكن فهيما جسوراً وحاييم اعتنى فيه جداً. وكان يحبه كحب أبوه له وظن أنه يسود ويعيش مطمئناً ويحكم بالناس مثلما يريد أبلغ من زمان سليمان باشا.. وهكذا بأقرب الأيام ورد المنصب وتولى عبد الله باشا الحكم بكل حرية وراحة. وحال الجبل بقي كما هو بالأحكام وغيرها لكون الباشا محجوز ما يمكنه يبت أمراً أو

---

١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص٣١.
٢) ميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص٦٥
٣) بازيلي: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ص١٢٥.
٤) بازيلي: المرجع السابق، ص١٢٦.

يعمل شيئاً من دون إرادة ورضا حاييم المذكور»(١).

ولم يحدث في ولاية عبد الله باشا لأول عهده تغيير يذكر فأبقى ولاة الأمور في مناصبهم، إلا أنه كان ضعيف النفس ميالا الى معاشرة الفئة المسخطة وكان متعصباً، فأخلص حاييم فارحي اليهودي النصيحة، ونهاه عن أعماله المعيبة بمقامه، ولم ينجح مع أن حاييم كان العامل الأول لتعيينه خلفاً لسليمان باشـــا (٢) . فحنق عليه عبد الله باشا، وأمر بإعدامه وطرحه في البحر، فمات حاييم تلك الميتة الشنيعة (ومن الغريب أن المؤلف وصف اليهودي بأنه عرف عنه الأمانة والاستقامة رغم أنه كان يعمل لمصالحه الشخصية) وحدث في الولاية اضطراب، ورعب في قلوب الرعية، وبات أصحاب الوظائف في خوف من العزل والضغط كما حدث لأرباب الرتب على أيام المرحوم مظفر باشا (٣).

ولم يستطع عبد الله باشا المحافظة على هدوئه والبقاء ساكناً، حيث كان بشليكه (٤) الأفضل والأغنى في سوريا. وهو يشمل بشاليك طرابلس الممتد شمالا حتى خليج الإسكندرون وفلسطين حتى الحدود المصرية. أو بعبارة أخرى فإن السهل الساحلي الذي تتمركز فيه صناعة وزراعة سوريا، بالاضافة الى جبال نابلس والجليل، كان تابعاً في ذلك الوقت لبشليك عكا، ومع هذا كان عبد الله باشا يرغب بدمشق، التي كانت لوقت سابق من نصيب سليمان باشا مكافأة له على خلعه يوسف كنج بالقدس التي كانت في عهدة باشا دمشق احتراماً للمقدسات الإسلامية ، بينما يتهم البعض عبدالله باشا بأن تطلعاته لاحتواء دمشق كانت مجرد احتواء للمقدسات النصرانية، النبع الذهبي كما يقول بالنسبة للباشوات العثمانيين، فالدير اليوناني وحده كان يدر سنوياً ألف كيس (١٢٠ ألف روبل فضي) ، تدخل خزانة باشا دمشق لإشرافه على الأماكن المقدسة وحمايته لها (٥).

وفي الواقع ، نجح عبد الله باشا في إنشاء كتيبة من المشاة

---

١) مؤلف مجهول : تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي، تحقيق أحمد غسان سبانو، ص١٣٥.

٢) سهيل زكار : بلادالشام في القرن التاسع عشر، روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠م ومقدماتها في سوريا ولبنان، (الطبعة الأولى، دمشق، دار الاحسان للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١١٣

٣) سهيل زكار : المرجع السابق، ص١١٣ واميل توما: فلسطين في العهد العثماني، ص٧٦-٧٧ ومؤلف مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص١٣٥-١٣٦.

٤) بشليك : عبارة عن مركز أو مقاطعة.

٥) بازيلي : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ص١٢٧-١٢٨.

النظاميين، وبذلك كون قوة عسكرية ضاربة ساعدته على الصمود أمام الثورات الشعبية ومؤامرات أعدائه الولاة الذين تحركوا في بعض الأحيان بأوامر من السلطنة ، كما حدث حين أمر السلطان عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م والي دمشق درويش باشا باحتلال عكا والقضاء عليه، إلا أن تعاونه الوثيق مع الأمير بشير الثاني أمير لبنان كان من دواعي ثباته في موقعه.

وجدير بالذكر أن عبد الله باشا - الذي أصبح أميراً للحج ووالياً على الشام، وصيدا، وطرابلس، ومتصرف ألوية غزه، ويافا، ونابلس، وسنجق القدس الشريف - هـو الذي طبق الدعامة الثالثة من الإصلاحات (التنظيمات الخيرية) وتمثلت في إلغاء التيمارات.. أو الإقطاعات العسكرية.

والواقع أن هذه الإصلاحات زادت من التذمر في المدن، لأن تنفيذها وبخاصة إنشاء الجيش الحديث، تطلب نفقات كبيرة يقع عبؤها الى مدى بعيد على عاتق الحرفيين وصغار التجار، مما أسهم في تفجير التمردات التي وقعت في مختلف أنحاء الأقاليم العربية تحت الحكم العثماني ومن بينها فلسطين.

ومن أبرز الانتفاضات تلك التي وقعت في القدس، وبيت لحم، ونابلس، احتجاجاً على الضرائب.. وكان أعنفها الانتفاضة التي حدثت في نابلس في عام ١٢٤٥هـ - ١٢٤٦هـ/١٨٢٩م - ١٨٣٠م (١)، حيث عجز واليها (عبد الله باشا) عن إخضاع الثوار فرجع عنهم مخذولا (٢). وكان في الواقع قد حاول جهده المحافظة على ولايته ، حتى بداية حملة محمد علي باشا على سوريا بقيادة ابراهيم باشا عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، لمحاربة عبد الله باشا وإخضاع ولايته خاصة، وسوريا عموماً لحكم محمد علي الذي كان ينوي اكتساح الدولة العثمانية وإنشاء دولة مستقلة تحت حكمه ، فجاءت معاملة عبد الله باشا الصلبة ذريعة له لتحقيق غرضه (٣).

أدرك عبد الله باشا أطماع محمد علي باشا في سوريا، وأدرك خطورة هذا وتعارضه مع أطماعه الخاصة ومركزه، وقد فشل محمد علي باشا في ضمه تحت جناحيه رغم مساعدته له عند الضيق. واستغل السلطان محمود الثاني هذه الناحية وقام بمحاولة إسقاط حكومة محمد علي باشا، بأن دفع لطيف باشا للتآمر على خلعه، كما حاول بذر الفتنة بين محمد علي باشا وابنه ابراهيم

---

١) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٧٨.
٢) للمزيد من التفاصيل أنظر: سهيل زكار: بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، ص١٤٦.
٣) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص٩٩، وسهيل زكار بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ص١٤٩.

باشا بأن أنعم على ابراهيم باشا بولاية «جـده» ولقبه شيخ الحرم المكي الذي يجعله مقدماً على والده في المقامات الرسمية.

ويمكننا حصر الأسباب الرئيسية للخلاف بين عبد الله باشا ومحمد علي باشا فيمايلي:

١) طلب محمد علي باشا من عبدالله باشا إرغام الفلاحين المصريين الهاربين من التجنيد على العودة الى مصر (١). فرفض عبدالله باشا إعادتهم بحجة أن سوريا ومصر تابعتان للسلطان ، وأن السكان في كلا البلدين من رعاياه ، ولهم حق الإقامة في أي مكان يختارونه

٢) رفض عبدالله باشا تسديد دينه - الذي دفعه محمد علي باشا عنه للسلطان العثماني - كشرط لعودة عبد الله باشا لولاية صيدا .

٣) منع عبد الله باشا تصدير بزر دود الحرير من لبنان نكاية في محمد علي، الذي كان يعتمد عليه في صناعة الأقمشة الحريرية.

٤) قيام عبد الله باشا بتشجيع التهريب في مصر ، إضراراً باقتصاد حكومة محمد علي باشا (٢).

وقد اتخذ محمد علي باشا من الخلافات المذكورة سبباً لغزو بلاد الشام، وسبيلا لتحقيق حلمه الكبير في السيطرة على سورية والانسلاخ عن الدولة العثمانية، ولذلك نراه يسير حملة على سوريا بقيادة إبنه ابراهيم باشا على رأس ثلاثين ألف رجل ، جهزهم بأربعين مدفعاً ميدانياً، وعدد آخر من مدافع الحصار تساندهم قوة بحرية قوامها ثلاث وعشرون سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل بقيادة أمير البحر عثمان نور الدين بك (٣).

ولما علمت الدولة بقدوم العساكر المصرية الى سوريا طيرت أوامرها الى مأموريها للتعاضد على طرد العدو من بلادهم ، واشهرت الحرب على محمد علي في سوريا. وهب عبد الله باشا لإعداد معدات الدفاع، ويحث رجاله على الثبات والدفاع عن وطنهم وشرفهم.

توجهت الحملة البرية من القاهرة باتجاه غزة في رجب عام ١٢٤٧هـ/تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٣١م حيث احتلت غزة ويافا وحيفا واقتربت من عكا في أواخر نفس الشهر، وبعد حصار دام ستة أشهر، سقطت عكا في أول ذوالحجة من عام ١٢٤٧هـ/٢٧ آيار (مايو) ١٨٣٢م وكان قسم

---

١) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص٩٩، وسهيل زكار، بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ص١٤٩.

٢) مؤلف مجهول : مذكرت تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا تحقيق أحمد غسان سبانو، (دمشق، دار قتيبة للطباعة)، ص ١٤ - ١٥.

٣) مؤلف مجهول : المرجع السابق، ص١٥.

من جيش محمد علي قد تابع زحفه باتجاه دمشق، التي سقطت دون مقاومة ، واتجهت القوات نحو حمص ، حيث وقعت أول معركة مع العثمانيين في صفر عام ١٢٤٨هـ/يوليو (تموز) ١٨٣٢م، وكانت هذه المعركة لصالح ابراهيم باشا، الذي تابع زحفه الى حماه وحلب، واتجه نحو مضيق بيلان، حيث تجمعت القوات العثمانية. وفي أوائل ربيع الأول من عام ١٢٤٨هـ/٢٩ يوليو (تموز) ١٨٣٢م ، كان انهزام الجيش العثماني، وهروب قائده حسين باشا مع بقية قواته الى أضنه ، دافعاً قوياً لإبراهيم باشا لملاحقتهم ، والاستيلاء على أضنه ، مما اضطر السلطان العثماني لتبديل قائده حسين باشا برشيد محمد باشا، الذي جمع ستين الف مقاتل في قونية ليواجه ثلاثين ألفاً من قوات محمد علي. ولكن براعة ابراهيم باشا جعلت النصر حليفه. وعندها طلب السلطان العثماني مساعدة الدول الأوروبية ، كانت فرنسا منحازة لجيش محمد علي بشكل سافر، بينما وقفت روسيا بجانب السلطان ، أما انجلترا فقد كانت تسعى للصلح بين محمد علي الذي تكن له العداء، وبين السلطان، وذلك لتفويت الفرصة على روسيا، ومنع تدخلها في المنطقة (١).

ورغم الإنذار الروسي لمحمد علي ، ووعد الأخير بوقف العمليات العسكرية ، إلا أن الاضطرابات وقعت في مناطق التماس ، واحتل ابراهيم باشا كوتاهية في شوال عام ١٢٤٨هـ/فبراير (شباط) ١٨٣٣م، مما أجبر السلطان على أن يطلب من روسيا المعونة، فسارعت بإرسال أسطولها الى مياه البسفور، وقامت بإنزال عشرين ألف عسكري على الشاطئ الآسيوي من البسفور في هنكار اسكلسي قرب القصر الصيفي للسلطان، وأرسلت روسيا أيضاً فيلقاً روسياً آخر من جهة الدانوب، ليصل الى اسطنبول بطريق البر.

لكن التدخل الروسي أجبر كلا من فرنسا وإنجلترا للسعي لمصالحة محمد علي مع السلطان، حيث تم صلح كوتاهية في محرم في عام ١٢٤٩هـ/مايو (أيار) ١٨٣٣م، وبموجبه أصدر السلطان فرماناً بتثبيت حكم محمد علي على مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت، وجعله وراثياً لأولاده من بعده، أما بلاد الشام، فتبقى تحت حكم ابراهيم باشا لمدة أربع سنوات، شريطة بقاء محمد علي تابعاً للسلطان، وجلاء ابراهيم باشا عن الأناضول (٢).

---

١) مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا ، تحقيق أحمد غسان سبانو، ص١٥، ويوسف الدبس: مختصر تاريخ سورية الجزآن الأول والثاني، ص٢٨٧-٢٨٩.

٢) مؤلف مجهول : المرجع السابق ، ص ١٦، وميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص١١٠.

وفي خلال حكم ابراهيم باشا لسوريا قام بعدة أعمال وتغييرات أهمها:

١) إعادة تنظيم الدولة إدارياً واعتماد المركزية في الحكم.
٢) زيادة وتنشيط التجارة الداخلية والخارجية والترانزيت.
٣) إجراء إصلاحات في التعليم وتأسيس أول مطبعة في لبنان عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م واعتماد اللغة العربية في التعليم.
٤) بث الروح القومية العربية بين صفوف الشعب. (تمهيداً لإبعاد العثمانيين عن الحكم).
٥) تنشيط الزراعة وتشجيعها وتحديد الضرائب الزراعية بدقة.
٦) زيادة المساحات المزروعة.
٧) تشجيع إنشاء القرى الجديدة.
٨) حصر الجمارك بيد السلطة الحاكمة وتحديدها بدقة.
٩) توطين البدو (١).
١٠) الضرب على أيدي الزعماء والمتغلبين مما يعني ضرب الاقطاعيين إقتصادياً، وذلك من أجل إنعاش الزراعة ، وفتح سبيل التصنيع (٢).

١١) انشاء المحجر الصحي في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م لحماية سوريا من الطاعون (٣).

١٢) عمل على المساواة بين جميع الطوائف في بلاد الشام أيام حكمه لها (١٢٤٨-١٢٥٦هـ/١٨٣٢- ١٨٤٠م) بل وزاد على ذلك، أنه أشرك النصارى في الإدارة، فأصبحت لهم كلمة نافذة في ذلك العهد، وامتد نفوذهم حتى بعد عودة الحكم العثماني الى بلاد الشام، ولم يكن من المحتمل تقبل المساواة بصورة تامة، فحدث التخلخل في المجتمع، وازداد التوتر، ولم يكن بحاجة إلا الى عود ثقاب لإشعال نار الفتنة. الى أن صدرت الأوامر العثمانية عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لتساوي النصارى بالمسلمين في عدة أمور منها اللباس، والوقوف أمام المحاكم وغيرها... (٤).

---

١) مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا ، تحقيق أحمد غسان سبانو ، ص١٦-١٧.
٢) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٩١.
٣) عصام محمد شبارو : تاريخ بيروت، ص١٥٢.
٤) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي في الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية ، (المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢-١٣٥٨هـ/ ١٥١٦-١٩٣٩م)، جامعة دمشق، كلية الآداب ١٤٠٠هـ/كانون الأول ١٩٧٩م)، حـ١، ص٥٣٨.

يذكر أحد المعاصرين للأحداث وهو أبو السعود الحسيبي «أن المساواة بين النصارى والمسلمين أدت الى الاضطرابات المختلفة، وصار إذا تشاجر نصراني مع مسلم مثل مايقول له المسلم يقول النصراني وأزود».

ويذكر أحد كتاب الدولة الدمشقيين من المعاصرين للأحداث: «أنه طالع منادى مشاع أن النصراني يقني جواري ويلف لفة بيضة (عمامة) ويركب ويشرب عرق وخمر ويكون مثل أيام ابراهيم باشا وزيادة. ولا أحد يتعارضه بشئ من ذلك وكل من يتعارض نصراني يترتب قصاصه وصار فرح عظيم عند النصارى» (١).

لهذا قام الكثير من المؤرخين النصارى بتمجيد حكم ابراهيم باشا في بلاد الشام، وتمنوا أن يدوم ويطيح بالدولة الإسلامية العثمانية، ومن هؤلاء المؤرخين، ميخائيل مشاقه صاحب كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، وشاهين مكاريوس صاحب كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام، وكذلك صاحب المذكرات التاريخية الذي أخفى اسمه خوفاً من الدولة، ولكنه عرف بعد ذلك بأنه أحد كتاب الدولة النصارى.

كتب أحد النصارى - الذين عاصروا الأحداث - عن مآثر حكم محمـد علـي في سوريا فقال:

«إن مآثر الدولة المصرية العربية كثيرة في سوريا نأتي على ذكر بعضها: منها الإصلاح الذي أدخلته في المستنقعات التي كانت مجمع الأقذار وباعثاً قوياً على تفشي الأمراض الوبائية في دمشق.

ومن مآثرها أنها وضعت حداً لأسعار اللحوم فحطت من استبداد أصحاب المجزرة ثم عينت لجنة من قبلها وشرعت بذبح الأغنام وبيع لحمها بأسعار متهاودة، فأرغمت بائعي اللحوم على الاقتداء بها، ومن خالف القانون كانت تغرمه جزاء لاختراقه حرمة النظام. ومن مآثرها العدل والقسط بالرعية والمساواة بين طبقات القوم الرفيع والوضيع على اختلاف العقيدة فكانت تعاملهم أمام العدالة على السواء..» (٢) وبعد أن شكر أعمال حكومة محمد علي في سوريا ومجدها، قال:

«ولا يعاب عليها إلا أمر واحد وهو عظيم وكان داعياً الى سقوطها في سوريا وإضعاف قوتها بمصر، وذلك عدم إشهار استقلالها عن الدولة التركية

---

١) مؤلف مجهول: مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، ص١٣٩، وبازيلي: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم المصري، ص١٩٥.

٢) ميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص١٢٥.

(الدولة العثمانية) وإرغامها على الاعتراف به مع أنه كان لها من أسهل الأمور ، بعد أن اكتسحت البلاد واستولت على أكثر إيالاتها ، وعدم تسميتها عزيز مصر وزيراً عاملا بأمر السلطان ، لأنه كان يعترف له بالسلطة المعنوية فقط ، تلك السلطة سهلت للدولة التركية (الدولة العثمانية) استجارتها بالدول، فلو أشهر محمد علي باشا نفسه ملكاً مستقلا وأرسل من قبله السفراء لعواصم الدول الأجنبية وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك بالرغم عن مقاومة دولة بني عثمان له أو لو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية (الدولة العثمانية) عقب حادثة قونية ، لأجبرتها على الاعتراف بسيادته لأنه استحال عليها إخراج جنوده من سوريا أو صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها» (١).

« ولو أرادت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا، من الإصلاحات التي قام بها خلال تسع سنوات قضاها في هذا القطر، ولكن العثمانيين ابتلوا بالإهمال والغرور، لا يعمدون الى حسن الإدارة ، ويتظاهرون بالإحسان، إلا يوم الشدائد، فإذا زالت عادوا الى طبائعهم في إعنات الرعية، وإلقاء الحبل على الغارب»(٢)..

وهذا ما دعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الإدارتين، إدارة محمد علي، والادارة العثمانية، بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن سوريا.. وهو الجلاء الذي فرضته بريطانيا بعد حصولها على موافقة الدول الأخرى على رأيها، لأغراض لها وآمال تريد تحقيقها في مصر وفي الشام، وتكون هي المتحكمة في مقدرات البلاد - وليس محمد علي - وبدولته الفتية التي تحب فرنسا. وما مصر والشام الا طريق الهند الأقرب بل مفتاحها في البحر المتوسط(٣).

وهكذا نرى أن ميخائيل مشاقه - مثل كثير من المؤرخين المحدثين - كانوا يؤيدون وجود حكم محمد علي في الشام، بل وكانوا يودون من أعماق قلوبهم أن يبقى هذا الحكم، وأن يعلن محمد على باشا الانفصال عن الدولة العثمانية الاسلامية، وهم في هذا لا يريدون مصلحة كافة الشعب بل أرادوا

---

١) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص١٤٢-١٤٣.
٢) محمد كرد علي : الحكومة المصرية في الشام، (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م). وهي المحاضرة التي ألقاها في نادي المجمع العلمي العربي في ١٠ رجب ١٣٤٣هـ/٥فبراير١٩٢٥م ونشرت في المجلد الأول من مجلة الزهراء ، ص ٤٨
٣) محمد كرد علي : المرجع السابق ، ص ٤٩.

مصلحة الأقلية النصرانية في البلاد وذلك لعدة أسباب منها:

١) اعتماد ابراهيم باشا في حكمه لسوريا على النصارى في أكثر المناطق ، كما هو الحال في مصر، لأن محمد علي كان يعتمد عليهم، والذي كان يرى أن المناصب الكبرى في الدولة يجب أن تكون إما من نصيب العثمانيين أو النصارى ، ولم يكن محمد علي ليسمح بأن ترسل رسالة الى أي كان إلا عن طريق كاتب تركي أو نصراني. وكان محمد علي يرى أن من يتحدث اللغة التركية في مصر هو بطبيعة الأمر من طبقة راقية اجتماعياً. وهذا يفسر سر اعتماد اللغة التركية من قبل أبناء الطبقات الارستقراطية في مصر للعصر المتأخر.
٢) اعتماد ابراهيم باشا أيضاً على النصارى في حكومته في مجال الخدمة العسكرية. حيث تمتعوا بجو من الحرية والتسامح والمساواة التي أعطيت للمسلمين. وقام بإلغاء الحظر المفروض على الطوائف غير المسلمة والتي أوجدها العثمانيون ، مثل تحريم ركوب الدواب واقتناء الجواري ولبس العمائم وسواها.
٣) قيام النصارى بتأييد دخول قوات ابراهيم باشا في سوريا ومساعدته ودعمه
٤) إعتماد ابراهيم باشا على قوات عسكرية أجنبية نصرانية في جيشه جعله بطبيعة الأمر يعتاد التعامل مع النصارى في سوريا (١).

هذه الأسباب وغيرها نالت رضا النصارى عن حكم ابراهيم باشا في سوريا، بينما أدت الى سخط المسلمين عليه، وكانت ممهدة للفتن والحوادث التي أدت فيما بعد الى حوادث عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م. وبطبيعة الحال ، كان لا بد من تذمر المسلمين ضد حكم محمد علي في بلاد الشام وذلك لعدة أسباب منها:

١) محاولة ابراهيم باشا استمالة النصارى من أهل البلاد بصفة عامة ، والموارنة بصفة خاصة. فشعر المسلمون بالقهر والذل، في حين اغتبط النصارى لنجاتهم من الوضع السابق.
٢) نزع ابراهيم باشا السلاح من الأهالي ، وقام بتطبيق سياسة التجنيد الإجباري على الشبان المسلمين. وخاصة أن حكومة محمد علي عهدت بجمع أسلحتهم وتسليمها الى الأمير (أمين) المشهور بنصرانيته ، كما كان الجنود المصريون يداهمون المنازل ، وكذلك الجوامع ، وقت

---

١) مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، ص ١٧ -١٨.

صلاة الجمعة ، بحثاً عن الشباب لتنفيذ الخدمة العسكرية. أما النصارى فقد أعفوا من الخدمة العسكرية (١) وكانت الضرائب تستوفى منهم دون زيادة، ولايصادر منهم شئ الا بعد دفع ثمنه، وتم تسليف الأموال للفلاحين منهم الذين قطنوا القرى المهجورة، لاصلاح بيوتهم وتموينها، وأعفوا من الضرائب ثلاث سنوات (٢).

٣) الضرائب الباهظة التي طبقها حكم محمد علي وأبرزها ضريبة (الفرده) أو الرأس الشامله كل مواطن.

٤) نقمة أرباب الاقطاعات والزعامات الذين جردهم الحكم الجديد من كل سلطان ونفوذ (٣).

نهاية حكم محمد علي في بلاد الشام:

كان لمساندة الانجليز للدولة العثمانية الأثر الأكبر في إنهاء حكم محمد على باشا في سوريا، نظراً لأنه كان يحمي التغلغل الفرنسي في المنطقة. وبقاؤه في سورية يعطي للفرنسيين ذريعة للتدخل في أي وقت. فلما إكتشفت بريطانيا أن السلطة غير قادرة على تحقيق أطماعها في تصفية إدارة محمد علي في سورية، نزلت الى الميدان مباشرة.. بعد أن إتفقت معها في مؤتمر عقد في لندن وضم أيضاً روسيا وبروسيا والنمسا، بتاريخ ١٣ ربيع الثاني عام ١٢٥٦هـ/١٥يوليو (تموز) عام ١٨٤٠م على صياغة شروط تمليها على محمد علي، وتعيد ترتيب الخريطة السياسية في المنطقة حسب مصالحها.. ومع أن فرنسا لم تنضم الى هذه الدول، إلا أنها أكتفت بتأييد دولة محمد علي معنوياً ثم تخلت عنها ساعة الحسم (٤).

شعر محمد علي بأنه بقى وحده في الميدان وأنه لا يستطيع الاستمرار ، ففي غرة شوال عام ١٢٥٦هـ/ ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٠م اضطر التوقيع على اتفاقية تقضي ببقائه في مصر فقط، وتسليم باقي ممتلكات السلطان فوراً. وفي ٣ شوال من نفس العام أصدر محمد علي مرسوماً بالجلاء الفوري عن بلاد الشام. وقد تمت تسوية القضية في ربيع الثاني من عام ١٢٥٧هـ/ أول يونية (حزيران) عام ١٨٤١م، بأن صدر مرسوم سلطاني ببقاء محمد علي باشا بمصر والسودان فقط ، وتخفيض جيشه الى ١٨ ألف محارب، ومنعه من حق بناء السفن الحربية، وتعيين قيادات الجيش، ولقد أعترف محمد علي باشا بسلطة السلطان العثماني، وتعهد بدفع الجزية .

---

١) عصام محمد شبارو : تاريخ بيروت ، ص١٥٣.
٢) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص١٢٥.
٣) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص٩٢-٩٣.
٤) اميل توما : المرجع السابق، ص١٠٠.

وبذلك انتهت أول محاولة للانفصال عن جسم الدولة لتحقيق المطامع الشخصية، وعادت سوريا الى دائرة الدولة العثمانية وبدأت فيها صفحة جديدة. ورغم انسحاب المصريين من بلاد الشام، فإن تدخل الدول الأوروبية قد ظهر وازداد حدة، بسبب ظهور الثورة الصناعية فيها، وخاصة بالنسبة لإنجلترا وفرنسا، واتجاهها للبحث عن مصادر للمواد الخام، وإزدياد المنافسة فيما بينها للحصول على أسواق لمنتجاتها ، أو بمعنى آخر للحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ (١).

ولقد تأثرت الدولة العثمانية اقتصادياً، نتيجة تدخل محمد علي في منطقة الشام وحروبه فيها، والتي أرهقت ماليتها، واضطرتها الى إصدار سندات مالية ذات فوائد، أي بمثابة قرض وطني، لتتمكن من إعادة بناء قواتها البحرية. ولما عجزت عن تسديد هذه الديون وفوائدها المتراكمة أعلنت إفلاسها في أواسط القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. وكان هذا من أكبر العوامل التي أعاقت الدولة العثمانية عن النهوض والتقدم.

وهنا اتضحت لنا ظاهرتان هامتان في جبل لبنان إثر إنسحاب جيش محمد علي باشا من بلاد الشام:

الظاهرة الأولى : نقمة الأعيان من المقطعجية (٢) (الملتزمين) الدروز على الموارنة الذين استخدمهم ابراهيم باشا في قتالهم، والذين تسربوا الى مناطق الدروز في جبل لبنان الجنوبي بأعداد كبيرة، وسيطروا على مقدراتها، بعد أن كان الفلاحون الموارنة في الجنوب يشتغلون أجراء في زراعة الأراضي المملوكة للمقطعجية الدروز.

الظاهرة الثانية : التبدلات التي طرأت على الطائفة المارونية نفسها. حيث نشبت منافسة قوية على السلطة بين أسر الأعيان الاقطاعيين الموارنة ، وبين رجال الدين الموارنة الذين أزدادوا نفوذاً، ودعموا الفلاحين ضد الاقطاعيين. وبالإضافة الى ذلك ، فإن الثروة في جبل لبنان بدأت تتحول ، تبعاً لازدياد التعامل التجاري مع أوروبا، الى أيدي التجار

---

١) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون، ص٤٢٠.
٢) المقطعجية : هم أصحاب الإقطاعيات الزراعية ، أو مديري المقاطعات.

المحليين والأوروبيين، مما أضعف سلطة الزعماء الاقطاعيين(١).

يصف أحد الكتاب الدمشقيين حالة بلاد الشام في هذا العهد فيقول:
«ومن حينما بدت هذه الأموال تخربطت (اختلطت) الطرقات ولا عاد حضر قفول وكل عاصي والديه صار له كلام ووقف الحال بالشام وبغيرها ولا حضر صرة ولا حجاج ولا بزركان اسلامبول ولا صار بيع ولا شراء في رمضان كالعادة وتعطلت جميع الأرزاق وأهل الشام من زيادة الخوف ، لما عادت افتكرت في وقوف الحال ، الله يجعل النهاية الى خير» (٢).

وما إن تخلصت بلاد الشام من حكم محمد علي باشا حتى مرت بفترات غير مستقرة منذ عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وحتى عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ، نتيجة للحروب الأهلية بين الدروز والموارنة، والتي كانت توقد نارها دسائس الدول الأجنبية، وخاصة فرنسا وانجلترا (٣).

وقد بدأ الصراع بين الدروز والموارنة في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م في عهد الأمير بشير الشهابي الثالث، الذي أقامته الدولة العثمانية بعد سقوط الأمير بشير الثاني ونفيه ، وكثرت الفتن والمناوشات والاضطرابات الدامية التي امتدت الى ساحل بيروت. وقيل إن لوالي صيدا عبد الله باشا، علاقة في إضرام نار الفتنة، بغية إلغاء الأمارة في جبل لبنان، وتحويلها الى ولاية عثمانية كسائر الولايات. فعزل الأمير بشير الثالث وأحضره من دير القمر الى بيروت، وانتهى بذلك الحكم الإقطاعي العائلي، وعين عمر باشا (النمساوي الأصل العثماني التبعية) حاكماً على جبل لبنان (٤)، فلم يرض بذلك الدروز والموارنة ، وكذلك الدول الأجنبية الأوروبية فتم عزله. أما بيروت فتم تعيين أسعد باشا عليها في عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، الذي جدد سرايا الحكومة (٥).

وفي عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م حل الخلاف بتقسيم جبل لبنان الى قائمقاميتين : شمالية يحكمها نصراني ، وجنوبية يحكمها درزي ، على أن يكون والي صيدا مرجعاً لكليهما (٦)، ويفصل بين القائمقاميتين ، خط

---

١) عبدالكريم رافق : العرب والعثمانيون، ص٤٢١.
٢) احد كتاب الحكومة الدمشقية : مذكرات تاريخية، نشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي عن نسخة المكتبة الامريكانية. (بيروت، مطبعة القديس بولس ، ب. ت) ، ص٢١٩.
٣) عصام شبارو : تاريخ بيروت، ص١٥٩.
٤) فيليب وفريد الخازن : مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، (الطبعة الثانية بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٩٨٣م)، المجلد الأول، ص٤١٠-٤١١.
٥) يوسف ابراهيم يزبك : أوراق لبنانية ، (الحازمية ، دار الرائد اللبناني ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٥.

بيروت - دمشـــق.

لكن نظام القائمقاميتين لم يضع حداً للاضطرابات والفتن، فأدخلت الدول الأجنبية - المستفيدة من الفتنة - أسلحة كثيرة الى لبنان في الفترة ما بين عامي ١٢٧٤-١٢٧٧هـ/١٨٥٧-١٨٦٠م، مما أدى الى إشعال فتنة الشام العظمى في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م (١) بين الدروز والموارنة والتي كان من أسبابها:

١) الإهتمام المتزايد بشئون النصارى في عهد محمد علي (١٢٤٨هـ -١٢٥٦هـ/١٨٣٢م-١٨٤٠م) وإشراكهم في الادارة، مما جعل لهم كلمة نافذة في ذلك العهد (٢). وعندما عاد الحكم العثماني الاقطاعي محاولا إعادة المساواة بين الطوائف لم يكن بالإمكان الرجوع الى الوراء وتقبل المساواة بصورة تامة، فحدث التخلخل في المجتمع ، ثم جاءت الإصلاحات العثمانية في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لتساوي بين النصارى والمسلمين في عدة أمور منها اللباس والوقوف أمام المحاكم وغيرها (٣).

٢) هيأ حكم محمد علي الى ظهور طبقة بورجوازية فى بلاد الشام، كان أغنياء أهل الذمة نواتها إلا أن النظام الاقطاعي الشرقي وتابعه النظام الحرفي بقيا سائدين. ولهذا فان الصراع بين البورجوازية الناشئة وبين الاقطاعية الشرقية المؤلفة من الطبقة الحاكمة العسكرية والمدنية اتخذ شكلا طائفياً.

٣) امتد الصراع بين البروجوازية الناشئة والاقطاعية الى سائر أنحاء الدولة العثمانية، وبخاصة العاصمة اسطنبول.. وعلى إثر حرب القرم(١٢٧١هـ-١٢٧٣هـ /١٨٥٤-١٨٥٦م)، وبعد تدخل الدول الأوروبية أصدر السلطان في رجب عام ١٢٧٣هـ/فبراير(شباط) ١٨٥٦م الخط الهمايوني الذي ضمن حرية حركة رأس المال الأجنبي في الدولة العثمانية، وسن بعض القوانين لصالح البورجوازية الناشئة، كما دعا الى المساواة بين رعايا السلطان على إختلاف طوائفهم. وقضى بأخذ الجنود من الطوائف النصرانية (٤).

---

٦) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص١٢.

١) عصام شبارو : تاريخ بيروت، ص١٦٠ - ١٦١.

٢) مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، ص١٧-١٨، وميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص١٤٣.

٣) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي في الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية، ص ٥٣٨ -٥٣٩.

٤) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ٣، ص٨٢. وميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص ١٣٥ ، وشاهين مكاريوس : حسر اللثام عن نكبات الشام، ص١٤٠-٢١٠.

وكانت بداية الفتنه قد انطلقت من بلدة تسمى بيت مري في عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م ثم أنتقلت الى دير القمر، ثم الى سائر البلاد، حيث أخذ الدروز يفتكون بالموارنة ويحرقون مساكنهم في جزين وحاصبيا وراشيا الوادي وزحلة. وقد وصف اللورد دوفرين ، القتال بين الدروز والموارنة ، بأنه « نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهمجيه» (١).

والواقع أننا لا نريد الخوض في تفاصيل حوادث عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م وأحداثها الطويلة الدامية ، ويرجع هذا لكثرة المراجع التي كتبت في الموضوع - مناقشة وتحليلا ، وذكرت كل صغيرة وكبيرة فيه ، ودورنا يقتصر هنا على الإشارة فقط الى هذه الحوادث في مراحل تاريخ بلاد الشام.

والحقيقة، أن كلا من الطرفين المتناحرين في تلك الحوادث (الدروز والموارنة) ، كان يلقي باللائمة على الطرف الآخر ، في بدء الحوادث وسوء التصرف، وبالإضافة الى ذلك ، فقد اتهم الموارنة جموع المسلمين - بما فيهم الدولة العثمانية - بأنهم المسئولون عن الحوادث ، وعمن قتل فيها من النصارى ، بغض النظر عن كثرة الضحايا من المسلمين ، وبذلك ، يبرر الجميع أسباب لجوئهم الى دول أجنبية ، حيث لجأ الدروز الى بريطانيا، ولجأ الموارنة الى فرنسا (٢) وأدى ذلك الى تغلغل الدولتين الأجنبيتين (فرنسا وبريطانيا) في المنطقة وبرزت أطماع الدولتين في بلاد الشام فيما بعد . وهذا ما أكده أحد المسئولين في إحدى المناقشات في مجلس العموم البريطاني في غرة صفر من عام ١٢٧٧هـ/١٧ أغسطس (آب) عام ١٨٦٠م ، حيث قال المستر موثل : « إنه قد وضح له من التدقيق في تاريخ العشرين سنه الأخيرة أن انجلترا كانت هي سبب كل ما جرى في منطقة الشرق الأدنى» (٣).

والواقع أن التنافس الدولي بين كل من فرنسا وانجلترا في بلاد الشام أدى الى تلك الكوارث في البلاد ، مما يوضح لنا الثمن الباهظ الذي دفعته البلاد الإسلامية نتيجة تدخل دول أجنبية خارجية في الخلافات بين الأطراف المتحاربة في الوطن الواحد ، لا سيما أنها كانت تقوم

---

١) فيليب وفريد الخازن : المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ، (الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد، ١٩٨٣م) ، المجلد الثاني، ص١٣٧، وكذلك المجلد الثالث ، ص٢١.

٢) فيليب وفريد الخازن :المرجع السابق ، ص٢١، ومسعود ضاهر: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١م ، (الطبعة الثانية، بيروت، معهد الإنماء العربي : ١٩٨٤م) ، ص ٤٢٨-٤٢٩، وشاهين مكاريوس : مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام) ، ص ٢٥٢ . وهو نصراني ماروني متعصب.

٣) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، (القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٥م)، ص٣٥٨.

بإشعال نار الفتنة بين الفريقين المتخاصمين لأن ذلك في مصلحتها كما فعلت بريطانيا وفرنسا.

وهكذا ، أدت الفتنة الى نزوح العديد من النصارى الى مدينة بيروت، وامتلأت شوارعها بالجماهير ، الذين افترشوا الأرض تحت الأشجار في كل مكان ، فقام المسلمون في بيروت ، بدور مشرف في حماية النصارى الذين ألتجأوا اليهم، ففتحوا لهم بيوتهم ، ووزعوا عليهم المواد الغذائية(١). ومما يثلج الصدر ، أن الذي شهد بسلامة نية المسلمين تجاه النصارى ، ومواقفهم المشرفة معهم دائماً ، هو نصراني متعصب، وكلامه يعتبر رداً صريحاً معبراً على الذين اتهموا المسلمين بالتعصب ، وإشعال نار الفتنة ، وقتل النصارى.

وقد نوه الكثير من المؤرخين ، بمواقف المسلمين - وخاصة في بيروت ودمشق - وما بذلوه لحقن دماء أبناء النصارى وإنقاذ حياة الآلاف منهم ، مع أن الضرر قد لحق بجميع سكان البلاد من نصارى ومسلمين. وكان الأمير عبدالقادر الجزائري ، من أبرز رجال المسلمين الأفذاذ ، الذين كان لهم مواقف مشرفة في الدفاع عن النصارى في دمشق (٢) ، كما لعب السيد عمر بيهم الدور نفسه في بيروت ، وغيرهما من أهل العلم والمروءة في بيروت ودمشق، ممن فتحوا بيوتهم لإيواء المنكوبين دون تفرقة بين مسلم ونصراني. وكان لجهود القوى الاسلامية النيرة واستبسالها في الدفاع عن النصارى الفضل الأكبر في توقف الفتنة والحد من ارتفاع عدد الضحايا .

وبأمر من الباب العالي ، قام فؤاد باشا بالتحقيق في الحوادث ، واتخاذ ما يراه من التدابير ، بعد إعطائه صلاحيات مطلقة في التصرف كنائب عن السلطان ، ومبعوث فوق العادة ، فوصل دمشق في التاسع من محرم عام ١٢٧٧هـ/٢٩يوليو (تموز) ١٨٦٠م ، وبدأ بإعدام واليها أحمد باشا، ثم أتبعه بمائة وسبعة وستين من المسلمين ، بمن فيهم قائد حامية حاصبيا، وقائد حامية راشيا أيام الحوادث، وحكم على ١٤٥ بالنفي ، وعلى ١٨٦ بالأشغال الشاقة ، ثم أمر بإخلاء بعض المناطق لإيواء النصارى. وعاد الى بيروت فحكم على سبعة من مشايخ الدروز بالإعدام ، وعلى خورشيد وبعض أعوانه بالسجن المؤبد.

وحتى يرضى فؤاد باشا الرأي العام الأوروبي، عمد الى انتخاب ممثلين عن النصارى ، وطلب منهم قائمة بأسماء المسؤولين من الدروز عن

---

١) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص١٢٧-١٢٩.

٢) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي في الاصلاحات الادارية المقترحة لسورية، ص ٥٤١.

الحوادث ، فاحتوى التقرير على أسماء أربعة الاف وستمائة درزي عدا المتاولة ، فأخذ فؤاد باشا التقرير السري ، ونشر فحواه مدعياً ، أن النصارى طلبوا منه إعدام هذا العدد من المسلمين ، فأنقلب الرأي العام ضد الموارنة ، وعادت انجلترا تساند الدروز وتدعمهم. بينما أنزل مندوب السلطان بعض العقوبات الصارمة بالدروز ، فحكم بالإعدام على بعضهم ، ونفى حوالي (٢٠٠) منهم الى طرابلس الغرب.

وسمعت فرنسا بأخبار المذابح عن طريق المهاجرين ، ومراسلي الصحف ، وقناصل الدول ، الذين هولوا الأمر مدعين أن القوات العثمانية تشجع مثل هذه الأعمال ، وأن فرنسا اتخذت ذلك ذريعة للتدخل في بلاد الشام ، كما صوروا الأمر بأن حوادث سورية هي جزء من مؤامرة إسلامية كبيرة على النصرانية - كما هي عادة أعداء الإسلام دائماً في الافتراء على الإسلام والمسلمين - فقرر نابليون الثالث، التدخل بحجة دعم نفوذ فرنسا السياسي في الشرق ، وحماية مصالحها التجارية فيه ، وخصوصاً بعد البدء في حفر قناة السويس ، ولمصالحة حزب الكنيسة في فرنسا الذي كان ناقماً على تصرفات الأمبراطور الفرنسي في إيطاليا. فتدخلت فرنسا الى جانب الموارنة ضد الدروز مرة أخرى (١) ، ووصلت جيوش فرنسا بالفعل الى مدينة بيروت في يوم ٤ صفر من عام ١٢٧٧هـ/١٦ أغسطس (آب) عام ١٨٦٠م ، وكانت عبارة عن ستة آلاف رجل ، يرددون الأناشيد الحماسية لنصرة الموارنة ، وإعلاء شأنهم ضد المسلمين والدروز خاصة ، والذين هب الإنجليز لنجدتهم (٢).

وقد ظل التنافس الحاد ، للحصول على أكبر نصيب من بلاد الشام ، بين الدولتين الاستعماريتين - فرنسا وإنجلترا - محكوماً بضرورة الاتفاق المسبق على مشاريع سياسية طائفية في المنطقة، وعلى حجم الحصص بينهما، وعلى عدم السماح لأي قوى خارجية - روسية أو أميريكية أو نمساوية أو ايطالية أو ألمانية - بالدخول اليها (٣).

وعلى قاعدة هذا الإطار السياسي العام للمشاريع الاستعمارية في بلاد الشام ، تأخذ القوى السياسية المحلية دوراً محدداً ضمن ذلك الإطار. فالمقاطعات التي يسكنها النصارى الموارنة وما جاورها ، يجري التحضير الحثيث لإدخالها في الملك الفرنسي. وأما مناطق فلسطين فكانت من نصيب

---

١) نادر العطار : تاريخ سورية في العصور الحديثة، حـ١، ص ٢١٥-٢١٧.

٢) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام) ، ص٢٥٢-٢٥٤.

٣) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٥٤.

الانجليز ، وقد كانت فرنسا تمهد لقيام وطن قومي يهودي في فلسطين. وقررت الدبلوماسية الاستعمارية الفرنسية والانجليزية - منذ عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م - عدم الاصطدام بالعثمانيين ، إلا عن طريق الغزو من الداخل عبر الرساميل والإرساليات والامتيازات والإصلاحات والخطوط الهمايونية، وعبر هدم نظام الملل وتفكيك الحرف الطائفية ، وتنشيط حركة القوميات الطائفية والعرقية ، وإحباط كل دعوة داخلية لإعادة تنشيط السلطنة (١).

وهكذا تحولت بيروت الى مركز دولي ، لحل أزمة جبل لبنان ، بعد فتنة عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ، وعقد محمد فؤاد باشا فيها مجلساً دولياً ، مؤلفاً منه ممثلا عن الدولة العثمانية ، ومن مندوبي الدول الخمس : فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا. فأضطرت الدولة العثمانية الى الاعتراف باستقلال جبل لبنان - دون بيروت - استقلالا إدارياً ، بموجب نظام مؤقت وقعته مع الدول الخمس الكبرى في عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م. وأقر هذا النظام نهائياً مع بعض التعديل في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ، واشتركت إيطاليا في توقيعه. فكانت متصرفية جبل لبنان ، التي تحدها المدن الإسلامية الثلاث - طرابلس شمالا وصيدا جنوباً وبيروت غرباً، إضافة الى البقاع وبعلبك شرقاً (٢) - وكان داود باشا أول متصرف على جبل لبنان ، وقد عين عشرة جنود فقط لحفظ الأمن في ساحل بيروت (٣).

ونظراً لما ابتليت به سورية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، من الحروب الداخلية الأهلية ، فإن الدول الأوروبية لم تخف تطلعاتها ونواياها تجاه الدولة العثمانية ، فمنذ انهاء حكم محمد علي في الشام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، أخذت تلك الدول الاستعمارية المتصارعة ، في تدارس الموقف في كيفية اقتسام هذه المنطقة وتوزيعها فيما بينها.

ففي رسالة كتبها البريطاني شافتسبري الى وزير خارجية بريطانيا العظمى بالمرستون بتاريخ ٢٧رجب عام ١٢٥٦هـ/٢٥سبتمبر (أيلول) ١٨٤٠م يقول: « إنه لا بد من تحويل سورية الى محمية بريطانية ، ويتطلب هذا رأسمالا وقوة بشرية ، أما رأس المال فيتجه بطبيعته الى أي بلد يتوفر فيه الأمان على المال والحياة ، ولا يخفى علينا أن سيطرة بريطانيا على سورية تجعلها تستغلها من كافة النواحي الاقتصادية والمالية.» ويستأنف شافتسبري قوله:

---

١) مسعود ضاهر: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، ص٤٢٩.
٢) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص١٢-١٣.
٣) يوسف يزبك : أوراق لبنانية ، ص ١٩٠.

«ولو فكرنا جيداً في موضوع إعادة توطين اليهود في فلسطين لوجدنا أنها أرخص، وأضمن وسيلة لتوفير كافة الامكانيات في هذه المنطقة غير المكتظة بالسكان» (١)

وتحركت فرنسا كذلك لتأمين مصالحها فأجرت إتصالاتها مع بريطانيا في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م حيث طلب السيد غيزو من السفير الفرنسي في لندن - الكونت دي سانت أولير - أن يلفت نظر بالمرستون ، الى أن الطرق التجارية الممتدة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر من جهة وبين البحر الأبيض المتوسط ، والخليج العربي من جهة أخرى ، والتي تتمتع بحرية عملية ، وبنوع من الحياد الإيجابي ، ذات فائدة كبرى بالنسبة لأوروبا ، ومادام الأمر كذلك ، فان هذا الوضع يمكن أن يكون موضع تعاقد صريح يتضمن الاستعمال الحر لهذه الطرق لجميع الأمم الأوروبية دون فضل أو امتياز لأي منها.

وكان الوزير البريطاني مراوغاً في جوابه، سلبياً ، ولم يكن قط مشجعاً عندما قال: « إن بريطانيا العظمى ، لم تكن أنذاك لتترك طريق المواصلات هذه - بين أوروبا وآسيا - حـــرة»

ولقد ازداد اهتمام الدول الأوروبية بالمنطقة العربية، وبلاد الشام ومصر خاصة، بعد فتح قناة السويس في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، والتي أصبحت الشريان الحيوي للطرق البحرية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، والذي يصل بين الدول الأوروبية - خاصة بريطانيا - ومستعمراتها في بلدان آسيا.

وعندما دخلت ألمانيا ميدان التنافس الاستعماري مع مثيلاتها من الدول الأوروبية ، وحصـــلت علـــى إمتيـاز مد خـط حديد برلين - بيزنطة - بغداد (B. B. B.)، كانت بريطانيا وفرنسا في غيظ شديد ، لما يسببه ذلك من تزايد النفوذ الألماني في المنطقة (٢)

جاء في مذكرات مدحت باشا والى سورية وصف لأحوال البلاد في الفترة الثانية من ولايته على بلاد الشام فيقول :«وجدت الحالة متغيرة عن ذي قبل، فقد صبغت أحوال الولاية الملكية والسياسية بصبغة غير صبغتها

---

١) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، (الطبعة الأولى ، الرياض، شركة مطابع نجد التجارية : ١٤٠٥/١/١هـ/١٩٨٤/١٠/٢٦م) ، ص ٨٤.

٢) رفيق النتشة : المرجع السابق ، ص ٨٨.

الأولى لأن الانجليز والافرنسيين يبذلون مساعيهم من أربعين سنة لتقوية نفوذهم في هذه البلاد ، وقد أوصلوا جبل لبنان الى حالته الحاضرة وهم يحاولون إيصال بقية البلاد الشامية الى ما وصل اليه الجبل ، والدول تنظر إليهم بعين المقلد، فالأمريكان يريدون إعلان حمايتهم لجبل النصيري فيفتحون المدارس ، ويشوقون الأهالي الى قبول الحماية الأمريكية ، والألمان يرسلون مهاجرين الى سواحل القدس ، لإسكانهم في القرى المجاورة ، والخلاصة فان كل حكومة تريد وضع يدها على قطعة من بر الشام ، فالاسبانيول قد أنشأوا كنيسة ومدرسة بجهة يافا ، للوصول الى نصيبهم من الاستعمار ، ولذا فان أبناء المسيحيين (النصارى) قد أنقسموا الى أحزاب ، فمنهم من يحاول الالتحاق بانكلترا ، ومنهم المتزلف الى فرنسا ، وحاول الدروز أيضاً تأسيس حكومة درزية اعتماداً على دولة انكلترا ، أما المسلمون فقد صاروا في حيرة من هذه الأحوال وبين تلك المفاسد ، وقد شغلت المسألة الحربية دار الخلافة ولم يتح لرجال الدولة النظر الى حالة سورية المحزنة ، فالأوامر التي ترسل من الآستانة قاصرة على طلب المال والجند ، وهذه الحالة تفتح للأجنبي باب الاستعمار ، خصوصاً بعد أن اشتغل موظفو الولاية بمصالحهم الشخصية دون المصلحة العمومية ، فأخلوا بواجباتهم ، وفسدت أخلاق الأهلين بسبب أعمالهم ، وكثر القتل والنهب ، واختل الأمن العام ، فوصل عدد الجنايات من جهتي (عكار) و (صافيتا) تسعين في أربع سنين. ولم تقف الحكومة على أشخاص القاتلين بل لم تجازي أحدهم ، وطالما سجنت الجناة وأفرجت عنهم ، ويوجد في سجن طرابلس قوم سجنتهم الحكومة أحدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد أخلينا سبيلهم في هذه الآونة ، والحالة في القرى والبلاد التي يحكمها القائممقامون توجب الأسف. أما إيرادات الحكومة فقد أخبرتكم منها بلائحة غير هذه ، فقلت أن الوركي قد وصل الى النصف ، وأن الأعشار قد خرجت لبيوت الأهالي ، وقد زادت الطين بلة مسألة القائمة التي نزلت بسببها واردات العام الماضي الى النصف. هذه مختصر خلاصة أحوال الولاية الاجمالية والذين يشتكون في هذه الحالة ، هم الافرنج ، لأنهم يريدون التهام البلاد بهذه الواسطة ، فاذا لم ننته من هذه الأزمة ونخلص الأهالي من براثنها بسرعة ، تداخل الانكليز في أحوال الأناضول (هكذا) بحجة الاصلاح ، وتداخل الافرنسيون في أحوال سوريا بهذه الحجة والخلل سائد في البلاد ، وليس ثمة اسم للإصلاح ، وجرائد أوروبا تكتب المقالات تلو المقالات مظهرة سوء المغبة ، فاذا تعرضت لاستقلالنا دولة أو أكثر من دولة وافقها الرأي العام الأوروبي ، وقام المستعمرون بإنشاء المدارس في بر

الشام طالبين الاشتراك في اقتسام السلب... (١)».

هكذا كان التنافس الاستعماري الغربي دائراً بين الدول الكبرى، والذي كانت له أسبابه السياسية والاقتصادية، والتي اختلطت بها العواطف الدينية (٢)، فتذرعت روسيا بالدفاع عن النصارى الأرثوذكس في القدس، وشنت الحرب علي الدولة العثمانية في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م فوقفت الدولتان الاستعماريتان - فرنسا وبريطانيا، الى جانب الدولة العثمانية، لوقف تقدم نفوذ روسيا القيصرية، وانتهت الحرب عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م بصلح باريس، وتعهدت الدولة العثمانية نتيجة لذلك باتخاذ إجراءات إصلاحية ، وبالفعل فقد أعلن بيان الإصلاح - الذي عرف بخط الكلخانة الشريف ، أو التنظيمات الخيرية - فصاغ الحقوق الديمقراطية البرجوازية كتلك التي كانت قد أقرتها الثورة البرجوازية الفرنسية.

وحسب بنود هذا البيان كان على الدولة العثمانية أن تتخذ الاجراءات العملية لصيانة حرمة الشخص وممتلكاته ، وتحريم مصادرتها ، وتحديد الضرائب حسب ميزانية مقررة ، تلغي التزام جباية الإتاوات وسائر أشكال الابتزاز من الفلاحين والمنتجين. ولكن هذا الإصلاح تعثر بسبب مقاومة القوى السياسية والاجتماعية النافذة وأصحاب الاقطاعات ورجال الدين الكبار والملتزمين والمنتفعين عامة (٣).

ولعل ما يهمنا في الإصلاحات - التنظيمات الخيرية - قانون الأراضي الذي صدر في ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، والذي أدخل تعديلات جذرية على قانون عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م، وكان تعديلا خطيراً جداً، بموجبه ، منح الأجانب حق تملك الأراضي في مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، والذي استغلته بريطانيا أسوأ استغلال ، لصالحها وصالح الصهيونية العالمية فيما بعد ، حيث عملت على تملك اليهود لأراضي فلسطين ، وبريطانيا التي تؤكد أن الحركة الصهيونية هي نتاج الفكر الاستعماري ، ولم يكن يقصد منه مصلحة اليهود بل مصلحة الاستعمار والصهيونية (٤).

---

١) مدحت باشا : مذكرات مدحت باشا، تعريب يوسف كمال حتاتة، (الطبعة الأولى، ١٩١٣م)، ص ١١٥ - ١١٦.
٢) محمد ضياء الدين الريس: تباشير النهضة ، ص ١٠٩.
٣) اميل توما : فلسطين في العهد العثماني، ص١٠٣-١٠٥.
٤) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين، ص١٨١. أنظر بالتفصيل حول هذا الموضوع، الفصل الرابع من هذا البحث.

يتبين لنا من العرض السابق ، ما كانت عليه أحوال بلاد الشام من الفرقة والانقسام والثورات المستمرة، والحروب المتواصلة بين الولاة العثمانيين ، مما سهل تدخل الدول الأجنبية في شئون الدولة العثمانية الداخلية، وكيف بدت مطامع الدول الغربية واضحة جلية ، عندما بدأت كل دولة منها تدعي أن لها حق حماية فئة معينة من النصارى في بلاد الشام لتفرض حمايتها عليهم، ولتجعلها ذريعة للتدخل السافر في أملاك الدولة العثمانية، ولكنها في بعض الأحيان تتدخل بحجة حماية الدولة العثمانية نفسها. فعندما قامت بريطانيا بالوقوف ضد أطماع محمد علي في بلاد الشام كانت في الحقيقة ، تخشى من تزايد نفوذ فرنسا حليفة محمد علي، ومنافستها الشديدة في المنطقة، والذي يهدد وجود بريطانيا ومستعمراتها، الى جانب كرهها في نجاح دولة إسلامية قوية يرأسها محمد علي، لترث الدولة الإسلامية الضعيفة ، لأنها- أي بريطانيا - أصلا تحاول القضاء على أي دولة تمثل الاسلام في المنطقة ، لذلك عملت ما في وسعها لفرض حمايتها على البروتستانت في بلاد الشام ، بل وتعدتهم الى حماية اليهود ، وساعدتهم في إنشاء وطن قومي لهم على أنقاض جزء من أراضي الدولة العثمانية بعد تقسيمها ، وزرعتها شوكة في حلق المسلمين، تعمل للسيطرة على مقدراتهم وخبراتهم.

وهكذا لاحظنا كيف شجعت أحوال بلاد الشام المضطربة على مدى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وماسبقه، ابتداء من حملة نابليون بونابرت على بلاد الشام، والقلاقل المتواصلة بين الأمراء والولاة العثمانيين، مروراً بحملة ابراهيم باشا على الشام ، وخروجه على الدولة العثمانية التي كان تابعاً لها، وانتهاء باسقاط السلطان عبدالحميد الثاني على يد اليهود وأتباعهم والمنتفعين بسقوطه ، وسقوط دولته الإسلامية ، ليتم اقتسام أملاكها بينهم ، هذه الأحوال هي التي جعلت البلاد الشامية ، أرضاً خصبة ممهدة لقدوم الإرساليات الأجنبية المكثفة اليها، التي عملت بكل جد ونشاط لهدم الدين الإسلامي، وتحقيق أطماعها السياسية والاقتصادية.

هذا وسوف نقوم باستعراض النشاط التنصيري للإرساليات ، والذي جاء منذ وقت مبكر جداً الى بلاد الشام ، من معظم دول الغرب ، بعد أن تم التخطيط له من عهد بعيد، قبل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، حيث نكشف عن أهم تلك الارساليات ونبين مدى الحقد التنصيري على الدين الإسلامي ، وعلى ديار المسلمين ، وهو موضوعنا للفقرة التالية ، إن شاء الله .

- النشاط المبكر للإرساليات الأجنبية في بلاد الشام

في الواقع ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق والتنصير(١) ، ولو أن تاريخ التنصير، يرجع الى صدر النصرانية ، ومبتدأ تأسيسها. حتى إذا وقع لويس التاسع في الأسر أثناء الحروب الصليبية الأولى ، وسجن في المنصورة ، أيام الملك الصالح نجم الدين ، جعل يفكر في سجنه ، فلما فك أسره وعاد الى وطنه فرنسا، كان قد توصل الى شيء خطير، ورأي أراد به تدمير الإسلام فقال : «أن التغلب على المسلمين بالسلاح وحده غير ممكن ، وأن على أوروبا إذا أرادت التغلب على المسلمين ، أن تحاربهم من داخل نفوسهم ، وأن تقتلع العقيدة الاسلامية من قلوبهم».

وبالفعل وصل القديس فرانسيس الى مصر في عام ٦١٦هـ/١٢١٩، وقدم مواعظه الدينية في حضرة السلطان الكامل بكل جرأة ووقاحة، ثم استمر أتباعه، وكذلك أتباع القديس دومينيك، في النصف الأول من القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي في مواصلة الجهود لبث سمومهم بين المسلمين (٢).

وفي عام ٦٩١هـ/١٢٩١م قدم الراهب الفرنسي «فدنزو» الى البابا (٣) نيقولا الرابع ، تقريراً شرح فيه تاريخ الأرض المقدسة ، وجميع الطرق

---

١) محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص٢٦

٢) نذير حمدان : الغزو الفكري ، المفهوم - الوسائل - المحاولات، ص٨١.

٣) البابا الكلمة اغريقية الأصل مشتقة من الكلمة PAPAS وقد شاع استخدام هذا اللقب في الكنيسة الغربية منذ القرن الخامس الهجري/القرن الحادي عشر الميلادي ، أما في الكنائس الشرقية فإن لقب بابا يعني بطريركاً وفي الحولية السنوية يسمى البابا بعدة ألقاب منها : أسقف روما، نائب يسوع المسيح ، وخلف الحواريين ، والحبر الأعظم لكنيسة العالم ، وهذه الصفات تتوافق مع بعضها البعض، ولا يمكن فصلها عن منصب البابا لأنها تمثل جزء من الدستور المقدس للكنيسة الكاثوليكية. راجع كتاب :

The Catholic Encyclopedia For School And Home, (New York : 1963), VOL.II, P.714.

نقلا عن كتاب ابراهيم عكاشة : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل، ص٢١.

المفضلة لاسترجاعها. ثم ظهر نشاط المستشرق والراهب ريموندلول الأسباني كأول من تولى التنصير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها (١) وكان ذلك في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م حيث ظفر بمقابلة البابا سلستين الخامس، وقدم له كتابين فيهما خطة للتنصير بين المسلمين، وكانت خطته ذات شقين، أولهما : أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتنصير، وثانيهما: أن ينصر المسلمون بالقوة إذا لم تنجح فيهم الجهود السلمية (٢).

وقد رأى النصارى، بعد فشل صراعهم العسكري في تحقيق آمالهم، الى ارجاع مجد امبرطوريتهم الرومانية القديمة على حساب الإسلام وبلاد المسلمين. والاسلام الذي يجد له المؤيدون والأنصار والأتباع في كل مكان، وكل زمان، يثير في نفوس النصارى الحقد والكراهية والحسد، لكونه دين الفطرة الذي نزل به الوحي الإلهي من عند الله تعالى، ودحض أكاذيبهم، وافتراءاتهم على الله تعالى وعلى أنبيائه الكرام(٣). ولهذا لجأ النصارى الى الاتجاه الفكري، يحاربون المسلمين عن طريقه،لعلهم يستطيعون بواسطته أن ينالوا بعض ما لدى المسلمين من ثقافة وفكر راقي، فيأخذوا منه سر عظمتهم ومجدهم وبطولاتهم، ومن ثم ينسبون كل خير في الاسلام لأنفسهم بهتاناً وزوراً، ومن ثم يعمدون الى الدس، والتشويه فيه بعد ذلك، لترجع المؤلفات الاسلامية الى المسلمين على غير حقيقتها الصحيحة، وذلك لتحقيق الأهداف الخبيثة القديمة للنصارى في القضاء على الاسلام ونشر النصرانية على أرضه ان استطاعوا، وسحق المسلمين وجعلهم عبيداً أذلاء في أرض آبائهم وأجدادهم، لا يملكون حتى حرية العبادة، وهذا ماحدث فعلا في معظم الأقطار الاسلامية.

وكان أول ما قام به ريمون لول لتنفيذ خطته، أن تعلم اللغة العربية بكل مشقة، وجال في بلاد المسلمين وناقش علماءهم في بلاد كثيرة. ومن أهم الأعمال التي قام بها ريمون لول أنه قام بالتأثير على مجمع فينا الذي ترأسه البابا (٤) كليتان الخامس الذي قرر في عام ٧١١هـ/١٣١١م أن ينتدب أساتذة لتدريس اللغة العربية (٥)، والعبرية، والكلدانية، والتترية، في جامعات، باريس، ولوفين (بلجيكا)، وسلافيكا (أسبانيا)، وبرلين، وبولون،

---

١) ا. ل شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي، تلخيص وترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، (الطبعة الثانية، جدة، الدار السعودية للنشر : ١٣٨٧هـ) ، ص ٢٨ .
٢) نذير حمدان : الغزو الفكري ....، ص ٨٢.
٣) أحمد شلبي : الهجمات الصليبية على العالم الاسلامي، ص٩٥.
٤) أ. ل شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي، ص٢٩.
٥) نذير حمدان : الغزو الفكري :، ص١٣٤-١٣٥.

وأكسفورد (١). وذلك لتخريج أجيال تستطيع تنصير المسلمين، وتشويه عقيدتهم ومسخ أبعاد الحق والخير فيهم، والتي تكشف عن زيف وباطل قوى التناقض الأوروبي (٢).

وبما أن سورية الكبرى التي تتكون من لبنان وسورية وفلسطين والأردن، كانت دائماً موضع اهتمام البعثات الدينية الأجنبية وخاصة، الايطالية والفرنسية الكاثوليكية، وذلك منذ أيام الحروب الصليبية، فقد تطلعت بعد انتهاء هذه الحروب الى القيام بغزو صليبي بطريقة سلمية في ظاهرها، لنشر المذهب الكاثوليكي، في بلاد الشام على حساب الدين الاسلامي الحنيف.

وقد كان التفوق في هذا المجال والأسبقية، للفرنسيسكان الذين جاءوا قبل الايطاليين، ثم للكابوشيين ، ولسوء الحظ أنهم وجدوا المساعدة من بعض أمراء البلاد من غير المسلمين، والذين عاشوا في أمن وسلام سنين طويلة، في ظل الحكم الاسلامي المتسامح، فما كان جزاء المسلمين من هؤلاء، إلا أن ردوا المعروف وحسن الجوار، بأن تعاونوا مع النصارى القادمين الى البلاد لهدم الاسلام، وكان من هؤلاء، الأمير فخرالدين المعني الثاني. حتى اذا ما انتهى حكم فخر الدين، لم يبق للكابوشيين من سند، وأخذ اليسوعيون الفرنسيون مكانهم، وتابعوا نشاطهم العدائي ضد الدين والفكر الاسلامي، على نطاق واسع تساندهم بطبيعة الحال في بغيتهم، دول الاستعمار الأجنبي وعلى رأسه الحكومة الفرنسية (٣).

وهذا يدل على أن نشاط الفرنسيسكان التنصيري قد بدأ أبكر نسبياً من نشاط الطوائف النصرانية الأخرى ، لأن الفرنسيين الكاثوليك أرادوا أن يكون لهم قصب السبق في نشر النصرانية في العالم أجمع ، وبشكل خاص في الأماكن المقدسة في فلسطين وبيت المقدس (٤).

ففي نهاية القرن السادس الهجري الموافق بداية القرن الثالث عشر الميلادي، أصبح الفرنسيسكان مدفوعين بحماس ديني عظيم ، وتحركوا تبعاً لذلك تحركاً غير مستنفذ ، فعقدوا الاجتماعات العامة لرجال الكنيسة ، والتي كانت تتم بشكل لقاءات دورية لتقرير التطورات والسياسة

---

١) صابر طعيمة : الاسلام والثورة الاجتماعية، (الطبعة الأولى، القاهرة، دار الثقافة العربية للطباعة : ١٩٧٠م)، ص٤٩٧.
٢) نذير حمدان : الغزو الفكري، ص١٣٤-١٣٥.
٣) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، (الطبعة الثانية، بيروت، دار أقرأ : ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٢٦٦.
٤) نجيب العقيقي : المستشرقون، حـ١، ص ٧.

المستقبلية ، ففي اجتماع عام ٦١٤هـ/١٢١٧م قرر الفرنسيسكان (الكاثوليك) أن ينشروا تعاليم الإنجيل عبر العالم. ولقد اقترح هذا القرار القديس فرانسيس ، الذي اعتقد أن كل مشاكل البشرية يمكن أن تحل تحت تعاليم الإنجيل.

واختتم إجتماع مجلس الفاتيكان الثاني ، بالقول :
«كل الرجال مدعوون لتكوين شعب الله الجديد ، سواء الكاثوليك المسيحيين (النصارى) ، وغير الكاثوليك ، وغير النصرانى من المسلمين ، والبوذيين أو غير المؤمنين».
وتنفيذاً لهذ القول ، قرر القديس فرانسيس الدعوة لتنصير العالم أجمع بقوله : «دعونا نبشر العالم بالانجيل» ، أي ننشر الدين النصراني في العالم. ونتيجة لهذا القرار الذي اتخذ في المجلس العام سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م أصبحت بعض مناطق العالم القديم ، مناطق مميزة للفرنسيسكان والرهبان لينشروا النصرانية (الكاثوليكية) فيها. وكانت هذه الخطوة قد أعادت حقن الكنيسة بحماسة تنصيرية ، أصبحت فيما بعد الملامح الطبيعية والرسمية لدى الأساقفة الكاثوليك في المراكز الدينية الأخرى في العالم. (١)وكان أول ما قام به الرهبان هو الإقبال على تعلم الثقافة الاسلامية واللغة العربية ، تمهيداً لإرسالهم الى الشرق ، ولقد اعتبرت كل من أسبانيا وفرنسا وايطاليا ، من أوائل الدول التي أرسلت منصريها الى هذه المنطقة.

ومن الجدير بالذكر أن المثقفين من أهل ملقه ، وغيرهم من رجال الدين الذين اختلفوا الى مدارس المسلمين ، ومكتباتهم ومجامعهم ، هم الذين قبعوا في ديارهم - بعد ذلك - ينقحون ذلك التراث ، ويترجمونه ، ويفسرونه ، ويصنفون فيه ، ويذيعونه بين الرهبان ، وطلاب العلم ، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل مدارسهم في أديرة : ديبول ، حيث تعلم رجل الدين : جربر - الذي ترجم الى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية ، كالزيج المنصوري - وسان كوجان و سان ميليان و ثيلاتوبا ، وسائر مدارس المستعربين في قرطبة . ومنذ القرن السادس الهجري/ العاشر الميلادي حملت الكاتدرائيات (٢)العبء الأكبر عن الأديرة ، فذاعت شهرة مدارس : أوبيدو ، وليون ، وبيك ، وبرشلونة . وكانت

---

١) Franciscan Group: The Custody of The Holy Land,(Jerusalem:1981),P.8

٢) الكاتدرائيات : جمع كاتدرائية وهي عبارة عن الكنيسة الكبيرة المساحة بالنسبة لغيرها ويرعاها أساقفة يحتلون أعلى الوظائف .

هناك مدارس أخرى في باريس ، وشارتر ، وأوليان ، وتور وريمس.. وقام رجال الدين بترجمة التراث الاسلامي العلمي منه والشرعي ، وصنفوا مؤلفات جدلية ، وكان إنتاجهم زاداً تنصيرياً حملته الارساليات المختلفة كما تشبعت به فئة كبيرة من المستشرقين. وعلى إثر ذلك قام الرهبان الفرنسيسكان بإنشاء دير عكا في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م، وعلم اللغة العربية فيه رجل الدين : روبرك ، كما قرر مجمع طليطلة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م الإنفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكان .. وأنشئت مدرسة ميرامار في عام ٦٧٢هـ/١٢٧٦م وأشرف عليها ريموند لول خلال عشر سنوات، وتعلم فيها العربية أحد عشر راهباً (١).

ومن أهم المناطق المعنية في اجتماع عام ٦١٤هـ/١٢١٧م منطقة الأرض المقدسة لأن هذه المنطقة تشتمل على وطن السيد المسيح (عليه السلام) .(٢) فاعتبرت أهم منطقة في أنحاء العالم أجمع. ولهذا قام القديس (فرانسيس) بزيارتها بنفسه ، عن طريق مصر وسوريا الى فلسطين، في رحلة استغرقت عدة شهور خلال الفترة من ٦١٦هـ -٦١٧هـ/١٢١٩-١٢٢٠م ، وفي خلال هذه الرحلة ، أعطى فرانسيس مثلا معبراً للتعاون الكاثوليكي -البروتستاني ضد ما اعتبروه العدو التاريخي للنصرانية - وهو الاسلام - فوضع الاقتراحات ، وحدد نقاط استقبال أو وصول بعثاتهم الى فلسطين خاصة ، وبلاد الشام ، بل والعالم أجمع ، فجمعهم تحت الدين النصراني ، في سبيل تحقيق مصالحهم السياسية والدينية. كما ساعد فرانسيس في تأسيس رهبانية كانت الأخيرة حتى الفترة المهيجة للحملات الصليبية. وكان يهدف من وجودها ، تقديم الضمان للأعمال الدينية (الطقسية) في الأماكن المقدسة لمصلحة النصرانية الكاثوليكية.

وقد استمرت سلطات النظام الكاثوليكية ، وخصوصاً في أوقات الازدهار ، في معالجة اهتماماتها بالأرض المقدسة ، وخصوصاً في الاجتماع العام في (بيزا) Pisa عام ٦٦٤/١٢٦٥م برئاسة القديس بونافينشر Bonaventure ، وحددت المناطق التابعة للأرض المقدسة وهي فلسطين وقبرص وسوريا ولبنان ، وقامت هذه السلطات بالعمل على الاتساع المطلق لهذه المنطقة مع تنظيم الهدف البابوي المناسب لاحتياجات هذه المنطقة الخاصة. وبالإضافة الى ذلك ، فقد قسم النظام منطقة الأرض المقدسة الى مناطق أصغر سميت بالبشارات - أو مركز خدمة - والتي أخذت في الاعتبار الأديرة في كل منطقة . فكان هناك مركز لخدمة النصرانية في كل من

---

١) نذير حمدان : الغزو الفكري ، ص ١٣٣ - ١٣٤.

٢) Franciscan Group : The Custody Of The Holy Land ,P.8

قبرص ، وسوريا والأرض المقدسة (فلسطين) في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، وكانت خدمة الأرض المقدسة تتكون من رهبانيات في كل من : عكا ، أنطاكية ، صيدا ، طرابلس ، صور ، القدس ويافا ، وهذه الأديرة عاشت حياة قصيرة جداً (حوالي عشر سنوات). وكان النشاط التنصيري في خلال هذه الفترة يتخذ صفة العمومية ، ولم يكن محصوراً داخل الأقاليم التي احتلتها الحملات الصليبية. وفي جماد أول عام ٦٩٢هـ/١٨ مايو(آيار)١٢٩١م أعلن القديس جون ، نهاية الوجود المبكر للفرانسيسكان في الأرض المقدسة.

ومع قدوم الفتح الاسلامي الحاسم لفلسطين ، تم طرد الفرنسيسكان الى قبرص ، فاتخذوها مأوى لهم ، وبدأوا في التخطيط لرجعة مباشرة وتدريجية الى القدس والأماكن المقدسة في فلسطين. وأصدر البابا جون الثاني والعشرين أمراً بابوياً ، يمنح فيه السماح للوزير الاقليمي الرئيسي في قبرص ، بإرسال اثنين من رهبانه في كل سنة الى الأماكن المقدسة لتدعيم مركز الفرنسيسكان فيها.

ومما سبق نستطيع أن نلمس أن منح الموافقة من البابا ، كانت قبل كل شيء ، تحدد المشاريع التنصيرية مسبقاً الى جانب الرغبة في وجود كاثوليكي ثابت في الأرض المقدسة (١).

النشاط الكاثوليكي:

من الثابت تاريخياً - كماسبق بيانه - وجود الفرنسيسكان في أماكن (القبر المقدس) خلال الفترة ما بين ٧٢٢هـ -٧٢٨هـ /١٣٢٢م-١٣٢٧م. ثم حصل الراهب روجرو جاريني Ruggero Garini في عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م على اعتراف رسمي من سلطان مصر - السلطان الإسلامي آنذاك - بالوجود الفرنسيسكاني كرسميين عاديين في كاتدرائية الأماكن المقدسة Basilica of The Holy Sepulchre الخاصة بالقبر المقدس. وقد قام ببناء دير لرهبانه على نفقة الملكة Sancia ملكة نابلي (بإيطاليا) ، وكانت العودة الحاسمة للفرنسيسكان الى الأرض المقدسة ، عن طريق الامتلاك بطريقة قانونية لأبرشيات معينة ، وحقوق استعمال لأخرى ، جاءت بعد أن تكرم الملك روبرت Rebert Of Anjou وزوجته الملكة سانسيا Sancia ، بإنابة الراهب المذكور - روجيرو جاريني Ruggero Garini - بقيام مفاوضات فعلية مع سلطان مصر ، فاشتروا بالمال الحقوق الرسمية والفعلية لتشغيل الأبرشية ، وأصدروا مرسوماً يقضي بأنه من المفروض على الفرنسيسكان أن يستعملوا أو

---

١) F. G. : The Custody of The Holy Land: P 10.

يجربوا هذه الحقوق نيابة عن الكنيسة النصرانية. وفي بيانين بابويين (١) صدرا في رجب من عام ٧٤٣هـ/٢١نوفمبر(تشرين ثاني) عام١٣٤٢م، أشاد البابا كلمنت الرابعClement IV بأعمال الملك النابولي والملكة ، وأبدى توجيهات مفيدة بخصوص النمو التدريجي للمنظمة الكنسية والدينية الجديدة. وكان لهاتين الوثيقتين أثراً أساسياً للبدء في العمل التنصيري الجديد في الأرض المقدسة ، بالرغم من أن مثل هذه الوثائق لم تكن بهذه الصراحة من قبل ، فقد أوجدت مبادؤها الأساسية ، منطلقاً دينياً للإدارة الجديدة بشكل رسمي بحيث يمكن للرهبان المعينين للخدمة في الأرض المقدسة أن يأتوا من أي منطقة تنصيرية ، وبالتالي تأمين العالمية للخدمة التنصيرية ، على أن يكونوا في الأرض المقدسة تحت سلطـــة الوصي الأكبر في دير جبل صهيون في القدس ، والذي كان مسئولا أمام الوزير الإقليمي للأرض المقدسة ومركزه قبرص.

وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م توطد الفرنسيسكان على أسس دائمة في مدينة بيت لحم Betlehem قرب كاتدرائية ميلاد المسيح. ولقد اشترط القانون التشريعي الأول المتعلق بالأرض المقدسة المؤرخ في عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م أن يقوم عشرون راهباً على الأكثر بالخدمة في الأرض المقدسة، وكان نشاطهم الأساسي أن يؤمنوا الحياة الطقسية الدينية في هذه الأديرة ويقدموا المساعدة الروحية للزوار الأوروبين.

وفي وثيقة مؤرخة في عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م تقرر على أساس أن منطقة الأراضي المقدسه يجب أن تشمل خدمة التنصير في سوريا من خلال أربعة أديرة هي : جبل صهيون ، القبر المقدس ، بيت لحم وبيروت . (٢)

وفي عام ٨١٧هـ/١٤١٤م منح المجلس العام في لوزان Lausanne التصريح بالتنصير في الأرض المقدسة في فلسطين مع العمل على زيادة عدد الرهبان الذين يخدمون هذه الأماكن. وأصدر المجلس العام في عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م مرسوماً ينص على أن راعي جبل صهيون (راعي الأرض المقدسة) يجب أن ينتخب بموجب القانون العام. وذلك يعكس مدى الأهمية العظيمة بكل أمر متعلق بخدمة الأراضي المقدسة في فلسطين.

هذه القوانين بقيت قوية طيلة ثلاثة قرون على الرغم من أن انتخاب القائم بخدمة الأماكن المقدسة يمر عن طريق الوزير العام ومستشاريه

---

١) البابوية : أعلى سلطة دينية روحية مكانها روما وتقوم بالإشراف والإرشاد في كل الكنائس الكاثوليكية الموجودة في العالم.

٢) F. G. : The Custody Of The Holy Land, p.11

الدائمين. وحتى عام ١٥١٧/٩٢٣م بينما حافظت (الخدمة الكنسية الكاثوليكية) على اسمها ضمنت كذلك استقلالية تامة وحققت صفة المنطقة (صفتها الخاصة) وبامتيازات خاصة ، ومع التأسيس التدريجي للصفة الرسمية منحت الخدمة في الأماكن المقدسة بواسطة (الابرشية المقدسة Holy See) وبالتحديد الحقوق والفروع على مختلف الأصعده. وبصفة دائمة للعمل من أجل المزيد من الوجود الفعال (المتحرك) للفرنيسكان في فلسطين. لذلك فوضوا لوضع أفضل السبل الروحية لمساعدة الزوار النصارى للأرض المقدسة. والأهم هي مبادرتهم في الحقل الدعوي الذي وصلت ذروتها في قنصلية فلورنسا في عام (٨٣٥هـ-٨٤٧هـ) / (١٤٣١-١٤٤٣م) عندما تصالح (مسيحي) نصارى الشرق المنفصلين مع الكنيسة الكاثوليكية.

وخلال قرنين بعد ذلك مثل فرنسيسكان الأرض المقدسة فعلياً القوة الوحيدة التي تملك علاقة رسمية ومباشرة مع الكنائس المنفصلة في الشرق وحتى يومنا هذا، مكيفة نفسها مع الظروف المتغيرة حيث تتقدم بمبادراتها من الأبرشية المقدسة لتجديد الارتباط بهذه الكنائس، لذلك فهي تعمل على تقوية روح الرعاية الكنسية للأماكن المقدسة في فلسطين (١).

وكان للفرنسيسكان دوافعهم الدينية منها الاهتمام بالخدمة في الأراضي المقدسة ، الى جانب الإهتمام باللغة العربية ودراستها ودراسة الاسلام ، وإرسال المنصرين الى بلدان الشرق، بهدف ربط الكنائس الشرقية أمثال الموارنة، واليعاقبة بكنيسة روما، وللوصول الى هذا الهدف كان لا بد من دراسة العربية وأمهات الكتب الاسلامية. ومن هنا فقد ترجم القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية على يد راهب انجليزي اسمه روبرت الكيتوني، الذي كان يدرس وقتذاك الفلك العربي والرياضيات في الأندلس، وقد طبعت هذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم لأول مرة في عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م، وذلك بعد اختراع آله الطباعة على يد غوتنبرغ ، أما المعاجم فقد صدر منها أول معجم عربي - لاتيني في أسبانيا في القرن السادس الهجري الموافق الثاني عشر الميلادي.

ومن المستشرقين المهتمين في العصور الوسطى بدراسة اللغة العربية المستشرق بدرودي الكالا الذي كلفه مطران غرناطة في عام ٩٠٥هـ-١٤٩٩م بوضع قاموس أسباني - عربي يسترشد به المنصرون في غرناطة، فقام بتنفيذ ماطلب منه حيث أتم قاموسه في عام ٩١١هـ-١٥٠٥م (٢).

ومن فعاليات تاريخ الفرنسيسكان في الأرض المقدسة وجهودهم في العمل التنصيري الذي لم يلق عليها الضوء، واحدة تطل علينا من خلال

---

١) The Custody Of The Holy Land , p13

٢) بدون مؤلف : «الحضارة العربية الاسلامية بعيون انجليزية، (مجلة الدعوة عدد ١٢٠١، تاريخ ١٤١٠/١٠/٢هـ)، ص٢٨.

القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي تتعلق بما يسمونه بالخدمة الروحية للتجار الأوروبيون سواء منهم المقيمون أو المارين عبر المدن الرئيسية المصرية واللبنانية والسورية. وكانت هذه الخدمه تظهر بشكل غير منتظم (١). وفي النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي أصبح نشاطهم التنصيري أكثر ثباتاً.. هذا التقدم في النشاط الفرنسيسكاني، أستمر حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وتلك الفعاليات تمخضت رسمياً عن ثبوت اقامة الرهبان في فلسطين.

لذا نجد أن الفرنسيسكان عملوا كمستشارين وقساوسة في المستوطنات الأوروبية التجارية، وظلوا يعملون كمرسلين لصالح خدمة الجميع ينشرون الخدمة النصرانية وسط المجموعات العمرانية التي مع مرور الزمن أصبحت مركزاً للأبرشيات (٢)، وأصبحت ذات نشاطات مترابطة. ومع ذلك فان وجود الفرنسيسكان في الأرض المقدسة في فلسطين من الأهمية بمكان، بسبب دورهم في حفظ المعابد كحجة في التدخل لنشر النصرانية. وبتحليل نهائي نجد الهدف الأساسي فان كل النشاطات نمت وتوافقت بجانب الخدمة الكنسية، لتمتد وتنمو الى مواقع أخرى مثل الناصرة ، وجبل طابور ، وحديقة الزيتون Gethsemane ولقد حصلوا على هذه الممتلكات من جراء العمل المتواصل لكسب الأنصار للكنيسة الكاثوليكية في فلسطين .

ومما يجب ذكره أنه بعد حصولهم على تلك الممتلكات ، والمكتسبات ، فقد فقدت الخدمة الكنسية عدة مكتسبات ، وفرض عليها بعض القيود المهنية من قبل بعض الحكام العثمانيين ، الذين بدورهم تصرفوا - في بعض الأحيان - تحت ضغط مختلف الطوائف النصرانية في فلسطين. ومثال على ذلك كان الطرد من الهيكل المقدس Cenacle في عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م وهنالك أيضاً التغيير في المكتسبات والمفقودات لحقوق القبر المقدس وبيت لحم. واستمرت هذه التغيرات طوال ثلاثة قرون، بصورة متواصلة من عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م مع فترات تجديد مفاجئة وفعالة(٣).

---

١) F.G.: The Custody Of The Holy Land,P.13

٢) الأبرشية : منطقة من البلاد تخضع لسلطة أسقف، أنظر المعجم الوسيط، ص٢.

٣) F.G.:The Custody Of The Holy Land ,P.14

ومسعود ضاهر:الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١م ، (الطبعة الثانية، بيروت ، معهد الاتحاد العربي : ١٩٨٤)، ص٢٩٦.

ولقد عمل الفرنسيسكان على المحافظة على حقوقهم القديمة ، إما بصورة مباشرة أو عن طريق (الأبرشية المقدسة) Holy See . فجاءوا على دفعات الى بلاد الشام حيث يعتقد أن الجزويت (الكاثوليك) جاءوا لأول مرة الى منطقة بلاد الشام في عام ٩٨٩هـ-١٥٨١م وأقاموا ديرين في مدينة طرابلس وعين طورة وذلك حتى عام ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م وفي هذه الفتره اشتد نفوذهم، فتم إغلاق مؤسساتهم من قبل البابا.

قدم الرهبان الكبوشيون الفرنسيون (كاثوليك) الى طرابلس في عام ١٠٣٦هـ/١٦٢٩م، وتملكوا فيها بعض البيوت في حوالي عام ١٠٦١هـ/١٦٥٠م ، ثم توسعوا نحو عين طورة وغيرها، في حين أن رهبان الأرض المقدسة ، بنوا لأنفسهم أديرة في القدس وفي سائر أرجاء فلسطين (١) ، ولقد سعت جميع القوى الكاثوليكية التي تملك علاقات دبلوماسية مع السلطان المسلم للحصول على حق الحماية للأقليات النصرانية في بلاد الشام ، حيث جاء في وثيقة مؤرخة عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م من السلطان العثماني الى البابا أوربان السابع URBAN VII بأن ذلك من واجب أمراء الكاثوليك الى جانب البابوات لحماية الفرنسيسكان في الأرض المقدسة ، لأن الفرنسيسكان طالبوا بامتلاك الأماكن المقدسة ، وسيطرة الكنيسة عليها ، ولقد كرر ذلك الطلب في عدة وثائق بابوية. كما أنه من الواضح بأن علاقات الوصاية مع الكاثوليك الغرب كانت ذات طابع اقتصادي أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أن الفرنسيسكان لم يستطيعوا تأمين عاصمة لهم، أو رأس مال في منطقة نشاطاتهم ، فلم يكن لهم أي مصدر يعتمدون عليه. لذا وجب على الوصاية الفرنسية الاعتماد على مصادر خارجية. وعلى مر العصور ومن خلال عدة وثائق أصدرها البابوات ، بخصوص (الخدمة الكنيسية للأرض المقدسة) ، أصدر الفرنسيسكان مجموعات منتظمة من الأوامر لجميع الأبرشيات. حيث أن المعونة الاقتصادية التي زودتهم بها الحكومات الأوروبية ، كانت بدون شك محل ترحيب من الفرنسيسكان الذين نادراً ما أشتكوا قصوراً في الاحتياجات المادية ، كما أكدوا على ضرورة الحصول على الامتيازات المعنية، وكلاهما ضروري للتوسع في نشاط الخدمة الكنسية في الشرق(٢) .

---

١) F.G.:The Custody Of The Holy Land, P. 14

٢) F.G.:The Custody Of The Holy Land ,P 10.

ولقد كانت الدولة العثمانية ، خصماً قوياً للنصرانية الأوروبية ، وخصوصاً بعد امتداد الفتح الإسلامي ، ونشر الاسلام فى قلب أوروبا، مما أجج نار الحقد الصليبي على المسلمين ، فانتشرت الدعوة بين رجال الدين والرهبان ، لتحريض الملوك على إعادة بلدان البحر المتوسط الى النصرانية ، كما كانت قبل قرون عدة ، وقبل قدوم الفتح الاسلامي الى بلاد الشام ، ومحاولة طرد المسلمين من الأماكن المقدسة في فلسطين ، والمناداة بسقوط العثمانيين . ووصل بهم الأمر الى تأليف القصائد الشعرية التي تنادي بهدم الاسلام والاستيلاء على بلاد المسلمين، وخير مثل على ذلك ما قام به أحد الرهبان اليسوعيين ، ويدعى جوزيف الى تأليف قصيدة بلغت ٤٠٣٧ بيتاً باللغة اللاتينية، حيث يتحدث فيها هذا الراهب عن ضرورة الحرب المقدسة التي يجب أن تشنها الدول النصرانية ضد الاسلام، وأطلق على قصيدته أسم (La Turchade) نسبة الى تركيا، حيث لم يكن لديهم من القوة العسكرية لشن حرب صليبية على الدولة العثمانية في ذلك الوقت ، لطرد المسلمين من القدس بقوة السلاح ، فعملوا على التركيز على وسائلهم الخبيثة ، في نشر بعثاتهم التنصيرية ، في أنحاء الدولة العثمانية ، أملا في التمكن من القضاء على دولة المسلمين نهائياً (١).

ولقد اعتبر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي بداية النشاط اليسوعي التنصيري في بلاد الشام ، حيث وصل الى اسطنبول في عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م ، أربعة من المنصرين اليسوعيين بقيادة كانيلاك ، وأقاموا قرب السفارة الفرنسية ، التي قامت بحمايتهم ، والتوسط لدى السلطات العثمانية ، بشأن السماح لهم بالقيام بعملهم التنصيري بحرية في البلاد العثمانية ، ومن ثم قاموا بالإشراف على العمل التنصيري داخل السلطنة العثمانية من مركز في عاصمتها اسطنبول ، تمهيداً لتنفيذ خطة للانتشار في بلاد الشام فيما بعد ، وحدث ذلك بالفعل. ففي روما، أنشئ ما سمي بـ «مجمع انتشار الايمان» في عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م بأمر من البابا غريغوريوس الخامس عشر ، ثم في عهد البابا أريانس الثامن ألحقت به مدرسة ، غايتها تدريب كهنة ومنصرين يشتغلون بالعمل التنصيري بين الأمم البعيدة (٢)، وبالفعل، فقد تخرجت من هذه المدرسة ، مجموعة من السريان. وكان توزيعهم حسب درجاتهم كالتالي : ثلاثة بطاركة ، وستة مطارنة ، وأربعون

---

١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص ٢٣ - ٢٤.
٢) اسحق ساكا : السريان إيمان وحضارة، (حلب ، مطرانية السريان الأرثوذكس : ١٩٨٣م) ، الجزء الرابع ، ص ١٠٤.

كاهناً (١). ولقد وصل اليسوعيون في أول بعثة لهم الى حلب عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م (٢).

وكان لويس الرابع عشر، قد أسس مدرسة في باريس سماها: مدرسة لويس الرابع عشر، وخصصها للملل الشرقية التابعة للمذهب الروماني، حيث أن الكثيرين تلقوا فيها العلوم الدينية النصرانية (٣). وقام اليسوعيون باستئناف نشاطاتهم في عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م فأسسوا أديرة لهم في دمشق ثم في صيدا عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م، وفي طرابلس عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م ثم أغلقت مؤسساتهم وعهد بها الى الرهبان العازاريين في عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، ولكن اليسوعيون عادوا مرة أخرى الى بلاد الشام في عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، حيث استأنفوا نشاطاً مكثفاً وعلى نطاق واسع هذه المرة(٤).

أما الكبوشيين فقد جاءت مجموعة منهم الى سورية عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م وتمكنوا من تأسيس مركز لهم في مدينة حلب عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م. كما أرسل الراهب جوزيف ثلاث مجموعات من البعثات عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م، واحدة منها توجهت الى اسطنبول واليونان، والثانية توجهت الى مدينة صيدا في لبنان، وامتدت منها بعد ذلك الى سوريا ومصر، والثالثة كانت من نصيب بلاد فارس في زمن الشاه عباس. إلا أن عقبات كثيرة، واجهت تلك البعثات، لعل من أهمها، تشدد السلطات العثمانية حيالها، حين رأت فيها بوادر التدخل الأجنبي في البلاد(٥).

---

١) بطاركة جمع بطريرك وهو رئيس الكهنة ويعتبر أب الآباء عند النصارى، وهو البابا.
مطارنة: جمع مطران: ويأتي بعد البابا مرتبة، وهو راهب لا يتزوج وهو مساعد للبابا.
كاهن: الذي يقوم بتلاوة الصلوات في المناسبات الدينية، كما ويقوم بأداء الطقوس، وله مساعدون، وهو كل من يتعاطى علماً دقيقاً، ومن العرب من كان يسمي المنجم كاهناً، وعند اليهود والنصارى هو من ارتقى الى درجة الكهنوت، وعند أصحاب الديانات الأخرى من غير المسلمين، من سمح له أن يقدم الذبائح والقرابين ويتولى الشعائر الدينية. أنظر ابراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، المجلد الأول، ص٨٠٣.
٢) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، حـ٢، ص ٧٤٥.
٣) اسحاق ساكا: السريان: إيمان وحضارة، ج ٤ ص١٠٤.
٤) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، حـ٢، ص٧٤٥.
٥) طلال عتريسي: البعثات اليسوعية، ص٢٤.

بينما قام الايطاليون في أول نشاط لهم ، بتأسيس أول مطبعة عربية في إيطاليا، بأمر من البابا يوليوس الثاني في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وقد نشرت هذه المطبعة أول كتاب باللغة العربية ، وهو كتاب «صلاة السواعي» وطبع عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ثم انتقلت الطباعة العربية الى مدينة جنوة حيث نشر عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م سفر الزبور بأربع لغات : هي العربية واليونانية والعبرية والكدانية مع ترجمة لاتينية ، ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلك للبندقية ، حيث طبع بها القرآن باللغة العربية عام ٩٣٧هـ/١٥٣٠م.

ثم توالى نشر الكتب النصرانية والكتب العربية من المطابع الإيطالية ، وأكثرها كتب دينية ، وذلك لحاجة البعثات التنصيرية الكاثوليكية لها في بلاد الشام ، وكذلك قامت بنشر كتب علمية منها كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان ، وفي مطبعة مدرسة الآباء اليسوعيين بروما تم طبع كتاب مبادىء اللغة العربية عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ، وكتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق للإدريسي عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م، وقانون ابن سينا في الطب وفي آخره كتاب النجاة ، وتحرير أصول إقليدس لنصر الدين الطوسي عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م، وغيرها من الكتب الدينية والعلمية واللغوية.

وفي عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م أنشئت مطبعة ليدن بهولندا ، وكانت تقوم بنشر الكتب الدينية وغيرها من كتب الاستشراق والمطبعة الملكية بباريس. وفي عام ١٠٦١هـ/١٦٥٠م أسست مطبعة في لندن، ثم مطبعة في أكسفورد في منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وقد نشأت الطباعة بحروف عربية في أوروبا مرتبطة بجهود البعثات التنصيرية الكاثوليكية ، كذلك نشأت على هذا النحو في بلاد الشرق ، وكانت مطبعة الآستانة العبرية ، أول مطبعة في الشرق ، فقد أنشئت عام ٩٥٩هـ/١٥٥١م ، ولم تبدأ فيها الطباعة بحروف عربية ، إلا في أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وفي أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، أنشئت أول مطبعة في بلاد الشام لطبع الكتب العربية ، وهي مطبعة دير قزحيا جنوبي طرابلس. وقد طبع فيها كتاب «المزمار» باللغتين السريانية والعربية بالخط الكرشوني عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م، وقد أهدتها روما الى رهبان دير قزحيا. وأنشأ بطريرك أنطاكية أول مطبعة عربية في حلب عام ١١١٠هـ/١٦٩٨م ، وكان من ضمن مطبوعاتها كتاب الطقوس

الدينية ، وذلك عام ١١١٤هـ/١٧٠٢م (١)، كما قامت بنشر الإنجيل في عام ١١١٨هـ/١٧٠٦م. وأنشئت ثالث مطبعة عربية بالشرق في دير مار يوحنا بالشوير ، من أعمال لبنان عام ١١٤٦هـ/١٧٣٣م ، وكان أكثر مطبوعاتها كتباً دينية.

وتبعت هؤلاء، الإرسالية اللعازارية (كاثوليك) لتبدأ عملها عام ١١٦٩هـ/١٧٥٥م، فقامت بتأسيس مدرسة للصبيان ، وهي أقدم مدرسة عصرية في دمشق. وقد ساء وضع اليسوعيين بشكل خاص - إثر حملات النقد والطرد التي أدت الى إصدار قرار بمنع جمعيتهم عام ١١٦٩هـ/١٧٥٥م - وانعكس ذلك على مشاريعهم في سوريا ولبنان ، فغادروا هذه البلاد تاركين مراكزهم للمرسلين العازاريين ، ولم يعودوا إليها إلا مع استئناف نشاطهم التنصيري في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م ، حيث نشطت البعثات اليسوعية وعادت الى لبنان لتأسيس حلقة مركزية لرجال الدين الشرقيين، ثم أعقبها سيل من البعثات في السنوات اللاحقة (٢). بحيث تتنافس البعثات المختلفة فيما بينها، لنشر النصرانية ، في ربوع الشام ، بين المسلمين خاصة. ومما أوجب عودة تلك البعثات الى بلاد الشام ، وصول البعثات التنصيرية الأمريكية (البروتستانية) الى البلاد ، والتي اجتهدت في تحويل وكسب الأتباع من الطوائف الكاثوليكية الى مذهبها (٣).

ويؤكد أحد المؤرخين ، أن أولى الارساليات التي قامت بنشاط ديني في بلاد الشام، منذ القرن السادس عشر هي الكاثوليكية ، ممثلة في الكبوشـيين Capucins، ورهبان الأرض المقدسة Terra Sainta وقد تمثل هدفهم في جذب أتباع المذاهب النصرانية الأخرى الى مذهبهم (الكاثوليكية)، وتنظيم الموارنة الشرقيين وربطهم بروما، ولكنهم لم ينجحوا في هذه المهمة إلا عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م(٤).

وقام الكاثوليك بعمل جاد ، ولكن بالتدريج ، وذلك لكسب أتباع لهم ، وبالتالي استحداث كنائس كاثوليكية بين الطوائف الأرثوذكسية والأرمنية

---

١) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، ص ٢٦٩ - ٢٧٠. وعبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ١٥١٦ - ١٩١٦ ، (الطبعة الأولى ، دمشق : ١٩٧٤م) ، ص ٢٤٩ ، ٤٣٠.
٢) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص ٦٧ ، مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، ص٢٩٦.
٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة ناصر الدين الأسعد، احسان عباس، (بيروت، دار العلم للملايين)، ص٩٨.
٤) عبدالكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٤٢٩.

والسريانية والنسطورية، ورغم أن الدولة العثمانية لم تعترف بالكنائس الكاثوليكية حتى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، وأن رعايتها انحصرت للأرثوذكس الذين تمتع بطريركهم في اسطنبول بنفوذ كبير، فان الكنائس الكاثوليكية - بعد صدامها مع الأرثوذكس في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي - أصبحت تتمتع بكيان مستقل.

وكانت بداية تأسيس المدارس المارونية ، في لبنان تعود الى الأفواج الأولى من خريجي مدرسة الموارنة في روما، فقد أنشأ البطريرك الدويهي - عندما عاد من روما الى لبنان - مدرسة «مارت مورا» في قرية أهدن ، في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، ومدرسة مار يوسف في زغرتا، التي درس فيها اللغة العربية والسريانية الراهب جبرائيل فرحات.

وتتابع ظهور المدارس في لبنان طوال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، من حوفا وبقرقاشا حتى مشموشه ووادي شحرور عام ١١٦٥هـ/١٧٥١م وجميعها تدرس العربية والسريانية ، ويؤمها الطلاب من جميع طبقات الشعب.

ثم قام الروم الأرثوذكس بإنشاء مطبعة عربية في دير القديس جاورجيوس عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م ، لينافسوا بمطبوعاتهم الدينية مطبعة الشوير، (١).

من العرض السابق ، يتضح أن الأرثوذكس هم النصارى الذين عاشوا في الأصل في بلاد الشام منذ القدم ، واعترفت بهم الحكومة العثمانية ، على أنهم من رعاياها ، بينما اعتبرت البعثات الكاثوليكية التي جاءت من فرنسا وايطاليا من أوائل البعثات التنصيرية القادمة الى بلاد الشام من الخارج لبث سمومها بين سكان بلاد الشام الأصليين - من مسلمين ونصارى أرثوذكس - فعملت على كسب الأتباع لتؤسس لها بذلك أرضية ، تمكنها من السيطرة والبقاء في البلاد فيما بعد، والبعثة الكاثوليكية متقدمة من حيث العمل التعليمي على البعثة الأمريكية البروتستانتية والتي تبعتها في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، لتحصل هي الأخرى على قسم من السيطرة التي تأملها في بلاد الشام عن طريق إرسالياتها.

---

١) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، ص٢٧٠.

وفي الواقع ، بعد أن وضح التسلسل الزمني لقدوم الارساليات التنصيرية ، وما كان يخطط لها منذ وقت مبكر ، أصبح من الواجب علينا أن نبين الأهداف التي كانوا يخفونها من وراء تلك الإرساليات ، والدوافع الظاهرة ، وهل لهم أطماع أخرى لم يطلع عليها البعض ؟ وللإجابة على تلك الأسئلة خصصنا الفصل الأول من هذه الدراسة ، لتجيب على جميع هذه التساؤلات ، والذي جاء بعنوان الإرساليات الأجنبية الى بلاد الشام دوافعها وأهدافها.

الفصل الأول

الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام
دوافعها وأهدافها

- الدوافع والأهداف الدينية
- الدوافع والأهداف السياسية
- الدوافع والأهداف الاقتصادية

الــدوافع والأهــداف الــدينيــة

مقــدمــة:

منذ بداية القرن العاشر الهجري الموافق السادس عشر الميلادي ، انقسم العالم الى قسمين رئيسيين : العالم العربي الاسلامي ، والعالم الأوروبي النصراني. وكان الأخير يعتمد على ما حمل اليه الحاملون من تراث العرب والمسلمين في العلم والأدب ، وذلك عندما ارتدت جيوشه خائبة بعد الهزائم المتواصلة التي لقيهتا على يد الجيوش الإسلامية ، في الوقت الذي ظهرت فيه الدولة العثمانية وفتحت أرضه ودياره ونشرت فيها الإسلام دين الحق، وآخر الأديان والرسالات السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد «صلى الله عليه وسلم » لتبليغة إلى العالم كافة (١).

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» (٢)

وفي هذه الفترة كان العالم الأوروبي النصراني ثائراً لا يهدأ، يملأ الحقد والكراهية قلبه ضد العالم الإسلامي الذي استطاع أن ينشر نور الاسلام في أكبر مركز للتحركات الصليبية ضد الأمة الإسلامية في القسطنطينية ، والتي تحولت بعد الفتح الاسلامي الى مركز إشعاع ، يضيء القارة الأوروبية بنور الحق واليقين - نور الاسلام. مما جعل الحقد النصراني يخطط لغزو البلاد الاسلامية ، وتدمير اقتصادها، ونهب خيراتها وثرواتها وإبعادها عن مصدر قوتها وهو الدين الحنيف. فوقفت لهم بالمرصاد ، الجيوش المملوكية ثم العثمانية ، حتى ردتهم على أعقابهم مدحورين. وعندما فشلت محاولاتهم الحربية في مواجهة الجهاد الاسلامي ، سعوا الى سلوك وسائل جديدة لمواجهة انتشار الاسلام ، فكان الغزو الفكري ، من ضمن تلك الوسائل التي سلكها الغرب النصراني - منذ مطلع العصور الحديثة - في أنحاء متعددة من العالم الاسلامي ، وخاصة بلاد الشام . وهذا الغزو لم يكن بجيوش منظمة برية ، وبحرية واحتلال للأراضي بالقوة ، بل كان غزواً أقل ما فيه نكاية هو الجيوش وأبلغه افتراساً هو التجارة ،

---

١) محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة المدنى ، ١٩٧٢م)، جـ١، ص ١٨٢

٢) سورة المائدة : آية ٣

و أفتكه بالانسان هو التنصير (١).

وبهذه الأهداف قامت - في كل الاتجاهات - القوى الصليبية النصرانية مجتمعة ، ضد الاسلام ، وبلاد المسلمين ، بجهودها التنصيرية المكثفة ، فتعددت الارساليات الأجنبية والبعثات التنصيرية والديرية الى مختلف البلاد الاسلامية . وقد نشطت هذه الارساليات في القرن الثالث عشر الهجري الموافق القرن التاسع عشر الميلادي (٢). وكان هدفها واحداً وهو القضاء على ما يعتبرونه العدو التاريخي للنصرانية وهو الاسلام. ولكن الله حافظ دينه ولو كره المشركون، قال الله تعالى :«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». (٣) وقال تعالى: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» (٤).

ونبين فيما يلي أهم الدوافع والأهداف الدينية لتلك الارساليات الأجنبية التي وصلت الى بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي وهو فترة دراستنا في هذه الرسالة:

١) هدم الاسلام ونشر النصرانية في بلاد الشـــام:

قامت الارساليات الأجنبية الحاقدة بمختلف طوائفها بدور خطير في حياة الأهالي في بلاد الشام ، من الناحيتين الدينية والثقافية. فمنذ أن وفدت هذه الارساليات الى بلاد الشام ، قام المنصرون بمختلف جنسياتهم بالعمل على نشر تعاليم الإنجيل ، والدعوة والترغيب بالنصرانية ، بين السكان جميعاً - المسلمين منهم والنصارى على حد سواء ، وخاصة أبناء الطوائف النصرانية الأخرى - وضمهم الى المعتقد القادم من الخارج ، مع حرصهم على هدم عقيدة الاسلام وتشويهها. وقد كان التنافس كبيراً بين البعثات التنصيرية التى تنتمي الى الطوائف الكبرى في الدين النصراني وهي:

أ) البروتستانت ، ويمثلهم الانجليز والأمريكان والألمان.

ب) الكاثوليك ، وكانت تمثلهم عدة دول من أهمها ايطاليا وفرنسا والنمسا.

---

١) محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار ، ص ١٨٣

٢) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام (الرياض ، ادارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ص ٤٧٤

٣) سورة الحجر : الآية ٩

٤) سورة الصف : آية ٨

ج) الأرثوذكس ، وكانت تمثلهم روسيا (١).

وكانت حركة هذه الطوائف تظهر بشكل مباشر وصريح أحياناً ، وأحيانا أخرى بشكل مستتر متخفية تحت أقنعة متعددة (٢) من أهمها: إنشاء المدارس والمؤسسات والمستشفيات والأندية والكليات والصحافه والمكتبات والتصوير والاستكشاف، ونشر التعليم المجاني والدعوة الى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، محاولين بذلك اخفاء نواياهم العدوانية على دين الاسلام ، تحت دعوى نشر المدنية (المادية) والحضارة الحديثة بين المسلمين (٣) ودعوى الأخذ بيدهم الى طور الرقي والتطور، ولقد ثبت كذب ادعاءاتهم كلها حين كشفت ألاعيبهم ونواياهم الخبيثة ضد الاسلام والمسلمين. ولذلك فان المنصرين يحاولون نشر النصرانية في بلاد الشام، ثم ادخال الحضارة المادية بعد ذلك. فلبست الدول الأجنبية القناع الديني لتثبيت نفوذها ونشر مبادئها وخدمة مصالحها كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ، أملا في القضاء على شخصية المسلمين أو محو انتمائهم (٤).

ولقد وجد من يهلل للحضارة المادية الأوروبية، من أهل البلاد المثقفين والعامة ، وكان أغلبهم من النصارى ، وقد نسي هؤلاء الذين يفخرون بالمادية الغربية الحديثة، أنها لا تمت الى النصرانية بصلة ، فهي تقوم على أسس مادية صرفة ، جنحت بأهلها الى الإلحاد - الممثل في الشيوعية والوجودية وغيرها - بينما ينادي الباقون منهم بالفصل بين الدين والدولة. وان دل ذلك على شيء، فانما يدل على أن الدين النصراني لا دور له في التقدم المادي الغربي الحديث ، ويجب أن يكون واضحاً أن الغرب - الذي كانت تقوده الكنيسة في العصور الوسطى - عاش في جهل وتأخر وانحطاط بسبب انحراف رجالها عن نصرانيتهم وموقفهم العدواني تجاه العلم والعلماء (٥).

---

١) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ، ص ٤٧٤

٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ٢ . ومحمد محمد حسين : حصوننا مهددة من داخلها ، (الطبعة السابعة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص ١٦٥-١٧٤

٣) مصطفى خالدى وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٢

٤) طلال عتريسى : البعثات اليسوعية ، مهمة إعداد النخية السياسية فى لبنان ، ص ١٣٦

٥) عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، (الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية : ١٩٧٧م) جـ ١، ص ٥٠٩-٥١١

وتفشت في المجتمعات الغربية - ذات المدنية المادية الحديثة - مشاكل اجتماعية كثيرة كان من أهمها ، الانحلال الخلقي وما نتج عنه من القلق والميل الى الانتحار والعنف، على الرغم مما يتوفر لها من الرفاهية ورغد العيش. أما الحضارة الاسلامية فقد قامت وازدهرت بفضل انتشار الاسلام، الا أن التقاعس عن تطبيق تعاليمه في معظم البلدان الاسلامية والبعد عن روحه أدى الى اضمحلال هذه الحضارة الرائعة(١). لذلك يحاول المنصرون بشتى طوائفهم طمس روح الاسلام، وزعزعته في النفوس حتى يظل الغرب هو المرجع للمسلمين، الذين اذا بعدوا عن دينهم لم يجدوا مايستندون اليه فيضطرون الى اللجوء الى الغرب الملحد، يسيرون في ركابه ، تابعين له دائماً.

ولذلك جاءت الارساليات الأجنبية تحمل الأحقاد الظاهرة والباطنة، ومنذ فشل الحروب الصليبية والغرب يحمل الحقد ويجرد الحملات الفكرية لتغزو الشرق الاسلامي ابتداء ببلاد الشام (٢).

ويتكون جيش الغزو الفكري من مجموعة من المنصرين والمستشرقين الذين يشتركون في هذا الدافع الخطير وهو الرغبة القوية في نشر النصرانية في بلاد المسلمين عامة، وهم قوة محركة ومنعشة وراء الدراسات العربية والاسلامية التي تعكس موقف التفوق الثقافي والحضاري عند المستشرقين، فنظرتهم الى الاسلام كانت موازية لنظرتهم الى الديانات والثقافات غير النصرانية التي تنتظر انتشار النصرانية بينهم كما يزعمون (٣).

والهدف التنصيري الذي لم ينسوه أبداً في دراساتهم العلمية - كرجال دين - هو تشويه سمعة الاسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن في العقيدة الاسلامية، والتشكيك في التراث الاسلامي والحضارة الاسلامية وكل مايتعلق بالاسلام من علم وآداب وتراث (٤). بينما لم يفعل ذلك أحد من أصحاب الديانات الأخرى مع النصرانية ، ولم يتطرق

---

١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ٤٤
٢) على محمد جريشة ومحمد الزيبق : اساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى ، ص ٢٠
٣) محمد بن عبود : الاستشراق والنخبة العربية (المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ٢٧-٢٨ ، السنة التاسعة ، ديسمبر ١٩٨٢) ص ٢٠٣
٤) مصطفى السباعى : الإستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم ، ص ١٥-١٦

لها بالتشويه - وهي المحرفة بكل تأكيد عن مصدرها الإلهي الأصيل - فعل النصارى ذلك لأنهم يعرفون تماماً قوة الحقيقة التي جاءت من عند الله تعالى والتي تتمثل في القرآن الكريم المعجز، وهم يسعون لتشويهه حتى يقل أتباعه، وينصرفوا عنه الى النصرانية فعملوا على تكثيف نشاطهم في بلاد الشام في تلك الفترة.

ومن الملفت للنظر، أن حروبهم على بلاد المسلمين سميت بالحروب الصليبية، لأنها كانت تسير تحت راية الصليب، وكان البابوات والرهبان على رأس جيوشهم، فاتخذت تلك الحروب طابعاً دينياً، شكلا وموضوعاً، وهدفهم في ذلك واضح جلي. إذ أنهم كانوا يحملون معهم - الى جانب جنودهم - الكثير من المستشرقين والمنصرين الذين تكاثروا في بلاد الشام بعد الحروب الصليبية، ليقوموا بدراسة أحوال البلاد وليمهدوا لقدوم الاستعمار، مستغلين بذلك كل ثروة، هادمين كل حضارة ودين، حتى يكون الدين النصراني هو الدين الوحيد في العالم أجمع، ولكن هيهات هيهات أن يتحقق هدفهم، لأن الدين عند الله الاسلام، وهو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله للعالمين الى يوم القيامة، وقد بين الله لنا أهدافهم هذه بقوله تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» (١).
وقال تعالى: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» (٢).
وقال تعالى: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (٣).
ويأمرنا الله تعالى بمواجهة أعداء الاسلام ومحاربتهم بكل ما أوتينا من قوة وعزم على ألا نكون من المعتدين، قال تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» (٤).
وقال تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» (٥).

ويرجع بعض المؤرخين أسباب حقد النصارى على المسلمين، الى العهد الذي فتح فيه المسلمون بقيادة السلطان محمد الفاتح، مدينة القسطنطينية - عاصمة الدولة الرومانية آنذاك - عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وكان

---

١) سورة البقرة: آية ١٢٠
٢) سورة البقرة: آية ١٢٧
٣) سورة البقرة: آية ١٣٥
٤) سورة البقرة: آية ١٩٠
٥) سورة البقرة: آية ١٩٣

فيها مركز البابوية للكنائس الشرقية ، فقام المسلمون بتحويلها الى مدينة إسلامية تقيم شرع الله ودينه في وسط أوروبا ، وأطلقوا عليها اسم اسطنبول ، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية الاسلامية ، فهب رجال الكنيسة - يدفعهم التعصب الأعمى - بشن نوع من الحرب النفسية على المسلمين ، فأخذوا بالافتراء والتشنيع على الاسلام ، لأنهم نظروا للفتوح الاسلامية في أوروبا نظرة حاقدة ، واعتبروا أي انتصار للدولة العثمانية بمثابة هزيمة لهم أمام الاسلام ، مما جعل الدول الأوروبية تمتلىء فزعاً وهلعاً من هذه الدولة الاسلامية الكبرى. فقامت التكتلات الأوروبية الصليبية الكبرى التي نادت اليها البابوية في روما، في الكيد لهدم الاسلام. وبدأت حملات التشهير ضد الدولة العثمانية الاسلامية ، وتركزت على أهم مناطق حكمها في بلاد الشام بوجه خاص - لكونها بيئة صالحة لنمو هذه الحملات ، بسبب التنوع البشري واللغوي والديني فيها - مكثفة عدد البعثات التنصيرية إليها ، واعتمدت على تدخل الحكومات الأوروبية، وعلى نظام الامتيازات الأجنبية التي منحته الدولة العثمانية لبعض الدول الأوروبية في عصر قوتها ومجدها (١). فلم يكف هؤلاء أبداً عن الطعن في أحكام الاسلام ومحاولة الحط من قيمته .

والمستشرقون ، عدة أصناف ، إلا أن أهدافهم واحدة ، فمنهم من حاول أن يدعى أن الاسلام أداة عنصرية ، أمثال «برنارد لويس» ، ويقوم هو وأمثاله بالافتراء على الاسلام بأنه رمز للتأخر ينبغي تثقيف أتباعه ، عاملين بكل ما أوتوا من قوة وعزم وثروة مادية ، على إزاحته من طريقهم باعتباره أكبر عائق لهم في الوصول الى أهدافهم وأغراضهم(٢). لذلك عملوا على تشويه جميع قضايا الاسلام الكبرى مثل الجهاد في سبيل الله ، ومعنى حقوق المرأة في الاسلام ، وفقدان التطلعات الروحية وطغيان المادية ، ومفتريات حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومفتريات حول اللغة العربية والتاريخ الاسلامي (٣). ولم يكن عمل المستشرقين منفصلا عن عمل المنصرين بل كانت مهمة كل من الطائفتين تدخل في الأخرى لوجود الهدف المشترك بينهما وهو القضاء على الاسلام. وبعد أن تأكد عدم جدوى

---

١) عبدالعزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ١٤

٢) ساجدة عمر فوزى : حول طبيعة الإستشراق ، (المؤرخ العربى ، العدد ٢٢١٤ ، بغداد : ١٩٨٠م) ، ص ٣٦٣

٣) نذير حمدان : الغزو الفكرى : المفهوم - الوسائل - المحاولات ، ص ١١١

الحملات العسكرية على بلاد المسلمين ، تحولت الى الغزو الفكري، عن طريق الثقافة. فقد أكد (القديس) لويس ملك فرنسا - قائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة عندما وقع في أسر المصريين في مدينة المنصورة ، حيث دفع فدية عظيمة للخلاص من الأسر - بعد عودته الى فرنسا ، أنه لا سبيل الى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية، لأن تدينهم بالاسلام يدفعهم للمقاومة، والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية ديار الاسلام، فهو دين عزة وكرامة، وهو يصون الأعراض والحرمات، والمسلمون قادرون دوماً للانطلاق من عقيدتهم الى الجهاد ودحر الغزاة. وأنه لا سبيل الى قهر المسلمين وتحويل فكرهم الاسلامي سوى طريق الغزو الفكري، فأخذ العلماء الأوروبيون بدراسة الحضارة الاسلامية ليأخذوا منها السلاح الى معركة يدخلونها في ميدان العقيدة والفكر ، بتزييف عقيدة المسلمين الراسخة ونقل الأكاذيب والافتراءات عن هذه العقيدة التي تحمل طابع الجهاد وتدفع المؤمنين الى الاستشهاد (١).

ولقد سار الأوروبيون على طريق وصية القديس لويس ، فعملوا على دراسة العقيدة الاسلامية، والتعمق فيها ليتزودوا مما فيها من قوة وجهاد وإيمان، ويعملوا على التفرقة بينها وبين الشريعة، وتصوير الاسلام بصورة الدين الذي يركز جل اهتمامه في العبادة ، كالنصرانية ، الى أن وصلوا الى الفصل بين الدين والدولة حتى يفقد المسلمون ذلك السر القوي الكامن في أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم .

٢) العمل على الحيلولة دون توسع الاسلام وانتشاره:

اتفق المنصرون والمستشرقون جميعاً على تحقيق هذا الهدف ، حيث اعتبروا أن الخطر الأكبر يكمن في وصول مفاهيم الاسلام الصحيحة العادلة الى عالم الغرب نفسه (٢). لأن الاسلام دين الفطرة ، فاذا وصلت مفاهيم الاسلام الخالدة الى أي انسان وتفهم تعاليمه جيداً فلا بد أن يدخل في الاسلام عن اقتناع وإيمان خالص. ومن هنا كان لا بد أن تمتلئ قلوب النصارى رعباً وخوفاً من مجرد فكرة وصول الاسلام الحق الى ديارهم حتى لا تكون كلمته هي العليا.

---

١) على جريشة ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ، ص ١٩

٢) على جريشة ومحمد الزيبق : المرجع السابق ، ص ٢٠

وتعتبر خطة البعثات التنصيرية خطة واسعة مرتبطة بتغيير الدين الاسلامي، الى جانب تحويل عقل المسلم ونفسيته ، وإخراجهما من مفهوم الاسلام الصحيح، ومن قيمه الحقة ، بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، وإدخاله في دهاليز الفكر البشري الرطبة المظلمة، وصهره في الوثنية والمادية والعلمانية، وفتح الطريق أمام عقل المسلم ليتقبل كل فكر جديد ويتلقى كل ماتطرحه أعاصير الماركسية والتلمودية وغيرها من السموم.

ويؤكد المنصرون حقدهم فيقولون بصراحة : إن الاسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم فهم لا يخشون اليهودية، ولا البوذية، ولا الهندوكية ، إذ أنها جميعاً ديانات قومية لا تحاول الانتشار خارج بيئتها ، وهي في نفس الوقت أقل من النصرانية رقياً.

أما الاسلام فهو كما يسمونه دين متحرك زاحف، وهو يمتد بنفسه بقوة الله عز وجل وليس بأية قوة مادية وهذا هو وجه الخطر فيه (١).

ويبين الكاتب الفرنسي الحاقد مسيو ايتن لامي دور النصارى في تدمير الإسلام فيقول : «إن من الواجب على الأمم النصرانية ، أن تعاكس الاسلام في كل طريق، وتحارب أهله بكل سلاح ، وأن مقاومة الاسلام بالقوة لا يزيده إلا انتشاراً ، فالواسطة الفعالة لهدم أركان الاسلام ، وتقويض بنيانه ، هي تربية بنيه في المدارس النصرانية ، وبث الإلحاد في نفوسهم منذ النشأة ، فتفسد عقائدهم الاسلامية من حيث لا يشعرون ، وإن لم يتنصر أحد منهم ، فانهم يصيرون لا مسلمين ولا نصارى». ثم قال : «إن طريقة تربية أولاد المسلمين في المدارس النصرانية وإن كان لها من التأثير ما بيناه ، فان تربية البنات في مدارس الراهبات ، أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، بل أقول إن تربية البنات على هذه الكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام على يد أهله ، وإن التربية النصرانية - أي تربية الراهبات لبنات المسلمين - توجد للاسلام - في داخل حصنه المنيع -عداوة شديدة لا يمكن للرجل قهرها (٢).

وليس هذا رأي الأفراد من النصارى والكتاب المعروفين فحسب، بل هو رأي الكنيسة نفسها أيضاً ، حيث عملت على إرسال بعثات المستشرقين والمنصرين الى الشرق ليقوموا بمهامهم الخبيثة ضد الاسلام ، وبموافقة

---

١) أسامة حسن : الإرساليات النصرانية ، (مجلة الفيصل ، السنة العاشرة ، العدد ١٢٦ ، ١٤٠٧/١١/٨هـ) ، ص ١٢٦

٢) محب الدين الخطيب : المسلمون ومدارس الرعاية المسيحية ، (جريدة الفتح ، القاهرة ، العدد ١٦١ - السنة الرابعة يوم الخميس ١٧ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/٢٢ أغسطس ١٩٢٩م) ، ص ١٤

من البابا نفسه ، وعمدت الكنيسة أيضاً على تصوير الدين الاسلامي أمام شعوبها بصورة الدين الوثني المتخلف المنحرف ، مع أنها تعلم علم اليقين أنه الدين الحق الذي بشر به عيسى عليه السلام، وهم يخشونه ويحسبون له ألف حساب والله سبحانه وتعالى يحميه ويحفظه وينصر المؤمنين به حقاً، ولهذا خشيت الكنيسة أن تفقد أتباعها اذا هم تعرفوا على الاسلام، أو وصل الى ديارهم . ولهذا عبأت الكنيسة نفوس أتباعها بالتشويه والكراهية للدين الاسلامي، والمقت البالغ للاسلام والمسلمين، وأصبح النصارى يتوارثون هذا البغض، بلا فهم ولا تمييز، ومما يؤسف له أن هذه الروح لا تزال سابرة في أغوار النفس الأوروبية الى يومنا هذا ، وهم يلقنونها لأطفالهم منذ نعومة أظفارهم فتتوارث هذه الأجيال الحقد على الاسلام(١).

ومن العجيب أن أوروبا، ارتدت الى أصولها الوثنية، وأحيت تراث الرومان، واليونان القائمين على إلحادية مادية، فصارت أوروبا بذلك أعجب مركب حضاري فقد اقتبس من الاسلام القيم العالية من الالتزام وحب العمل، والسعي وراء العلم، وأخذ من الرومان واليونان إلحاده ووثنيته ، وهذا ما حال بين أوروبا وبين الدخول في الاسلام ، ومن العجيب أن هذه الحضارة عندما تمت لها الجولة، أخذت تتعامل مع العالم الاسلامي بروح هي خليط من هذه المتناقضات. فكانت ملحدة في كل شيء، إلا مع المسلمين فهي صليبية نصرانية، تتحالف فيها الدولة العلمانية مع الكنيسة، ويقوم فيها الرجل بدور الراهب المنصر والعالم المستشرق، والجاسوس المحترف في آن واحد أحياناً (٢).

ولكن حتى يتسنى للنصارى تحقيق أهدافهم في بلاد المسلمين ، قاموا بمحاولة تشكيك المسلمين في دينهم وإثبات تفوق المادية الغربية عليه ، والقضاء على كل وحدة للمسلمين، وهذا في مجمله مهمة المستشرقين، وكان هدفهم في البداية هو عرقلة تيار التحول من النصرانية الى الاسلام . ثم تطور هذا الهدف فيما بعد الى محاولة تشكيك المسلمين في أنفسهم وعقيدتهم ، بزعزعة المثل العليا للاسلام في نفوس أبنائه عن طريق المقررات المدرسية والمجلات والمطبوعات المتنوعة (٣). وهذا الهدف من شأنه أيضاً أن يقلل من جهود نشر الاسلام كذلك، فاذا بعد عن الاسلام أبناؤه فمن الذي سيقوم بمهمة نشره وتبليغه الى العالمين.

---

١) عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكرى والتيارات المعادية ، ص ٢٦
٢) عبدالستار فتح الله سعيد : المرجع السابق، ص ٢٧
٣) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص٤٣

وبعد هذه الخطوة الجريئة حاول المرسلون الأجانب إثبات تفوق الحضارة الغربية وعظمتها. ووصل بهم الكذب والافتراء أن أنكروا فضل الحضارة الاسلامية على الحضارة الغربية الحديثة، بل وتمادوا في ذلك ونسبوا تراث المسلمين ومؤلفاتهم للغرب مع أن معظم المؤلفات العربية كانت تدرس الى عهد قريب في جامعات أوروبا مثل كتاب القانون لابن سينا وغيره. ولقد قام المرسلون الأجانب باللجوء الى تلك المحاولات بعد أن ثبت صعوبة تحول المسلم الى النصرانية مباشرة (١). فعملت الدسائس الأجنبية ومازالت تعمل حتى يومنا هذا، على تفريق المسلمين والقضاء على كل وحدة لهم. ويفضح القس «كالهون سيمون» عن رغبة التنصير القوية في القضاء على الوحدة الاسلامية بقوله: «ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التنصير عاملا مهماً في كسر شوكة الحركات الاسلامية ويعمل على إظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب وتجريد الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها».

جاء في مجلة العالم الاسلامي الانجليزية: «أن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب منها: ان الاسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً بل دائماً في ازدياد واتساع، ثم أن الاسلام ليس ديناً فحسب، بل من أركانه الجهاد، ولم يحدث قط أن شعباً دخل في الاسلام ثم عاد نصرانياً (٢).

ويشترك المنصرون جميعاً مع المستشرقين من النصارى في كونهم يريدون نصرة دينهم على كل دين غيره لتتم الغلبة لهم ولدولهم، فكان للمستشرقين دورهم أيضاً في بث السموم في كتاباتهم، وأتسمت أبحاثهم بالخبث، والحقد على الاسلام والمسلمين وهؤلاء يمثلون الأغلبية الساحقة من المستشرقين.

ومن المستشرقين من تأثر بسياسة الدولة التي ينتمي اليها، فأصبحت أبحاثه صورة لاتجاهاتها وأهدافها السياسية والاستعمارية ، فباعوا بذلك أقلامهم لساسة بلادهم أو للصهيونية العالمية (٣).

ولم يكن الدافع وراء اهتمام الأغلبية الساحقة من المستشرقين المتعصبين ، بالدراسات العربية والاسلامية راجعاً الى رغبتهم في دراسة

---

١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الإستشراق ، ص ٤٣
٢) نذير حمدان : الغزو الفكري (المفهوم - الوسائل - المحاولات)، ص١١٠
٣) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ٤٨

تاريخ العرب أو الاسلام في حد ذاتهما، بقدر ما كانت رغبتهم في تلبية واجب ديني وتقديم خدمة للكنيسة التي ينتمون اليها ، والتي قامت بتوجيه دراساتهم بالكيفية التي تخدم أغراضها(١).

ولقد ساهم دافع التنصير في حركة نمو الدراسات العربية ، ويرجع ذلك الى حد بعيد للمواجهة التاريخية بين العالم النصراني والدول الاسلامية ، ولا يمكن ابراز الحقيقة الكاملة لهذا الاتجاه الا من خلال ملاحظة الانتشار الواسع للبعثات التنصيرية في بلاد الشام خاصة والعالم العربي عامة.

ولقد كان تطور الحركة التنصيرية موازياً لانتشار الاستعمار، فكان التعاون متبادلا بين الحركتين ، حيث ساهمتا معاً في تطورهما المشترك. وهذا ما دفع جاك واردنبور أن يصف العمل التنصيري بأنه التبرير الثقافي للاستعمار (٢). وتحقيقاً لهذا الدافع والهدف المشترك بين المنصرين والمستشرقين ، عمل هؤلاء المرسلون على محاولة منع روح الاسلام من الانتشار خارج ديار المسلمين والحيلولة دون تصدير مبادىء الحق الى الخارج، وذلك لأن الاسلام هو الدين البسيط في مثاليته وفي واقعيته وهو الذي يتفق والفطرة الانسانية التي فطر الله الناس عليها (٣).
قال تعالى: « ان الدين عند الله الاسلام ، وما أختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم» (٤).
قال تعالى: « ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين» (٥).
قال تعالى: « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» (٦).

ولأن الاسلام بهذه القوة العليا من الله تعالى، فان الخوف منه يملأ قلوب النصارى ومن مالأهم، فسلكوا شتى الطرق والوسائل لنشر النصرانية بين المسلمين، وعندما فشلوا في ذلك، لجأوا الى محاولة تشكيك المسلم في دينه وسنة رسوله الكريم والتي هي التشريع الثاني بعد القرآن ، قال تعالى : «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على

---

١) محمد بن عبود : الإستشراق والنخبة العربية ، ص ٢٠٣
٢) محمد بن عبود : المرجع السابق، ص ٢٠٣
٣) عبدالصبور مرزوق : الغزو الفكرى أهدافه ووسائلة ، ص ٢٠
٤) سورة آل عمران : آية ١٩
٥) سورة البقرة : الآيتان ، (١،٢)
٦) سورة الأعراف : الآية ١٥٨

رسولنا البلاغ المبين» (١).

وبهذا، فإنه اذا دخل الشك قلب المسلم فإنه لا يهتم بالكبائر وتهون عليه الفضائل والآداب، بعد أن هانت عليه عقيدته، فيصبح المجتمع المسلم بالتالي ضعيفاً متخاذلا بعد فصل دينه عن حياته العامة والخاصة. وبذلك تسهل السيطرة على العالم الاسلامي والمقدسات الاسلامية وثرواتها.

إلا أن المستقبل لدين الاسلام، باعتباره منهج حياة - حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها - منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الانسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الانساني. ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي، وتستند اليه وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته.. وهذه هي المقومات المنظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، الملبية لحاجات الانسان الحقيقية، المهيمنة على شتى أوجه النشاط الانساني (٢).

ولقد كانت هذه الخصائص في هذا الدين.. خصائص الشمول والواقعية والهيمنة.. هي التي قاومت الصليبية العالمية في هجومها على الأمة المسلمة في الوطن الاسلامي، وقاومت الصهيونية العالمية كذلك، منذ عهد بعيد. ومن ثم لم يكن بدأ أن تبذل هاتان القوتان معاً، تلك الجهود الجبارة لحصر هذا الدين في دائرة الاعتقاد الوجداني والشعائر التعبدية، وكفه عن التدخل في نظام الحياة الواقعية، ومنعه من الهيمنة على نشاط الحياة البشرية.. وذلك كخطوة أولى، أو كموقعة أولى في معركة القضاء عليه في النهاية (٣).

٣) الدوافع الشخصية والمنافع الدنيوية

تختلف أساليب الدول التنصيرية باختلاف الدوافع والأهداف الشخصية والسياسية والتجارية وغيرها، كما تختلف من شخص الى آخر،

---

١) سورة المائدة : آية ٩٢

٢) سيد قطب : المستقبل لهذا الدين، (الكويت، الإتحاد الإسلامى العالمى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ٣

٣) سيد قطب :المرجع السابق، ص ٥

كل حسب غرضه ، ومن أكبر الأمثلة الواضحة على ذلك ، ما نراه من أن فرنسا مثلا دولة علمانية في بلادها، ولكننا نجدها تحمي رجال الدين النصراني الكاثوليكي في الخارج. كما أن اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصومها في الداخل ، بينما هم أبناؤها الأعزاء وأصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها، وتنفق عليهم الأموال وتوفر الدعم لهم، طالما هم في الخارج يخدمون مصالحها. وكذلك نجد إيطاليا، التي ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمنصرين المنتشرين في بلاد الشام وغيرها.

وروسيا - التي حذت حذو هذه الدول - والتي تؤمن بالأرثوذكسية في بلادها، وحينما أرادت أن تحقق لنفوذها توسعاً إقليمياً وسياسياً تظاهرت بالعطف على رجال الدين وساهمت معهم في ارسال بعثات دينية.

وحتى الأفراد الذين ينتشرون في الأرض للتنصير لم يخرجوا في واقع الأمر للتنصير في حد ذاته، ولكن منهم من استهوته المغامرات والأسفار، ومنهم من يطمع في السيطرة الشخصية على من حوله، ومنهم من يحب فرض رأيه على الآخرين، فإذا لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك في بلاده خرج الى العالم تحت ستار التنصير ليشبع رغباته الشخصية. وكثيراً ما كشفت الجمعيات التنصيرية عن أطماع المنصرين الشخصية. وأكتشفت بينهم المكرهون، وبينهم الذين أحبوا أن يستغلوا الجمعيات التنصيرية ليسافروا حول العالم على حسابها، وهم في الحقيقة إما تجار أو رجال دعوة اقتصادية أو اجتماعية لا صلة لها بالتنصير، كما أن بعضهم لا يتحلى بالأخلاق الحميدة (١) بل يسعى الى الوصول الى أماكن الرذيلة، ونشر الفساد في الأماكن الأخرى التي يصل اليها. وكما هو حال المنصرين فإن للمستشرقين دوافع شخصية قد تكون ذات فائدة عامة، ومنهم أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة العلمية المجردة وهم قلة ، فحققت رحلاتهم العلمية الى بلاد الشرق فائدتين :

أ) ربط المعلومات النظرية والدراسات السابقة والتي حصلوا عليها من أمهات الكتب العربية بالمعاينات الواقعية ومحاولة الموازنة بينها في قربها أو بعدها عن الحقيقة العلمية والتاريخية.

ب) كتابة مذكرات مقتضبة أو مفصلة عن تطور الأحداث والآثار المادية والمعنوية في تلك البلاد.

ولقد حققت لهم جولاتهم العلمية الاتصال بالمراجع والمصادر الأولية ، وبما تبقى من ذخائر التراث المتناثر في المكتبات الإسلامية ، ثم دراسة

---

١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ٣٥.

الأحوال الاجتماعية ومايشمله من المآسي والبؤس الذي خلفه الاستعمار، ومعايشة بعض الأجواء الروحية التي افتقدوها في عالمهم المادي. وهذا مادفع الكثير من المستشرقين الى الدخول تحت راية الاسلام الخالدة، وعرف عن بعضهم حسن إسلامه ، حتى أنهم قاموا بإصدار مؤلفات ودراسات كانت لها أصداء حسنة بوجه عام (١).

وهذا مايدلنا دلالة واضحة لا ريب فيها، وهي أن الاسلام دين صالح لكل زمان ومكان والى أن تقوم الساعة. بخلاف ما يزعمه بعض المستشرقين الذين يقولون أن الاسلام كان صالحاً لفترة من الزمن وانتهى، وهو لا يصلح لعصر وصل الانسان فيه الى القمر، ولكن اذا تجرد المستشرقون من أهوائهم الشخصية عرفوا حقيقة الاسلام وهو دين الفطرة. ومهما يكن من أمر، فإن بعثات المستشرقين التي كانت تأتي الى البلاد الاسلامية لتمهد الطريق الى المنصرين كان لها دوافعها وأهدافها التي تقوم بتحقيقها عن طريق دراستها الاستشراقية في بلاد المسلمين.

والغزو الفكري الاستشراقي يستهدف بوجه عام تغيير الإيدلوجية الإسلامية، ويدرس آثارها على السلوك والأخلاق والنظام. وهو في هذا يصوب سهامه المسمومة الى القلاع القوية والحصون المتينة التي إن سقطت أو ضعفت ، سقط أو ضعف كل ما وراءها. ومن أهم الميادين التي يباشر فيها الاستشراق مهمته واختص فيها هي:

أولا : الطعن في القرآن الكريم والتشكيك في الاسلام عامة:

طعن المستشرقون في القرآن الكريم، وقالوا عنه أنه غير موحى به من عند الله تعالى، وأن كثيراً من سوره وآياته لم يتم تدوينها، كما طعنوا في كيفية جمعه وكتابته، واتخذوا من تعدد القراءات مطعناً كبيراً يثبتون به أنه ليس من عند الله. فقام المستشرق «أرثر جفري» بنشر كتاب المصاحف لابن داود، لأن فيه شبهات تخدم غرض المستشرقين في الطعن بالاسلام، وصورها هو بقلمه الخاص مجتهداً في إبراز هذه الصورة المشوهة حتى تتزعزع ثقة المسلمين في كتابهم المنزل من عند الله تعالى (٢). وبالتالي يشككونهم في دينهم بشكل عام. ولكن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ الكتاب من التحريف والضياع بحيث لم يعهد بحفظه للناس. كما حدث من قبل للتوراة والإنجيل عندما عهد للناس بحفظها فضيعوها وحرفوها.

---

١) نذير حمدان : الغزوالفكرى (المفهوم - الوسائل - المحاولات) ، ص ١٩٩-٢٠٠

٢) عطية صقر : الإسلام في مواجهة التحديات ، ص ٣٣.

ومن المستشرقين ممن كتب في علوم القرآن ، أمثال فلوجيل ، الذي كتب دليل القرآن ، ومالير الذي جمع مفرداته وأفعاله حتى حروف الجر والعطف فيه ورقم آياته وسوره. والمستشرقين برجشتر اسر، وبرتيسل، اللذان كتبا مجموعة علوم القرآن ودونا كل آية في لوح خاص يحوي متنوع الرسم في مختلف المصاحف مع بيان قراءاتها وتفاسيرها، وقد نشرا في هذا العدد ثمانية كتب من الأمهات، وترجما بعضها الى الألمانية. ومن هؤلاء أيضاً نولدكه الذي صنف تاريخ النص القرآني ، وغيرهم كثير ممن أرادوا تشويه صورة القرآن، كتاب الله الى العالمين والذي أكرم الله به المسلمين(١).

ولقد ادعى بعض المستشرقين وبمكر شديد، أن القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن سذاجة الصحابة وإيمانهم بمحمد، دفعهم الى نقله على أنه من عندالله. ويزعم «سدركي» أن جانباً مما ورد في القرآن أو التفاسير والسير من الأخبار، إنما يرجع الى الإجادة اليهودية والتوراة والأناجيل إلا أن الدكتور بشر فارس بين فساد هذا الرأي فقال : «إن بين النصوص الاسلامية والنصوص اليهودية مسافات، وإن اتفق بعضها أو تقارب» (٢).

ولقد قاد اليهودي جولدتسيهر والمنصر صموئيل زويمر معركة تشويه الاسلام، والقرآن وسيرة الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم. وهاجم جولدتسيهر القرآن واتهمه بالتناقض وعدم وضوح الفكرة الالهية والتوحيد فيه (٣). قال تعالى يدحض افتراءاتهم: قل إنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) (٤).

ومن المؤامرات اليهودية على القرآن الكريم قيامهم بالتعاون مع الهيئات التنصيرية في التزييف في القرآن الكريم ، وطبعوا منه آلاف النسخ. واكتشفت حكومة المغرب العربي القرآن المزيف وفيه عدد من الآيات المحرفة لتلائم أهداف اليهود وترفع عنهم لعنة الله تعالى. ومن مؤامراتهم أيضاً أن نشرت «دار ديفز» اليهودية ما أسمته «بالقرآن القصير» أوجزت فيه القرآن على هواها. وتنبه الأزهر الشريف لهذه المؤامرة الخبيثة.

---

١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق، ص٥٣.

٢) علي جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي، ص١٨-٢٠

٣) عبدالله التل : جذور البلاء ، (الطبعة الثانية، بيروت : ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٢٧٧.

٤) سورة الكهف : آيـة، ١١٠ .

ولقد سارعت الجمعيات الاسلامية في المناطق التى وزع فيها القرآن المزيف الى جمعه وحرقه. وأحبطت مؤامرات التنصير واليهودية العالمية، فالقرآن كتاب الله الخالد ولا تقوى سلطات الدنيا بأسرها على تحريفه أو تقليده لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي تعهد بحفظه من التحريف أو التأويل. قال تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد». (١)

إن أقوال المستشرقين عن القرآن الكريم مردودة الى نحورهم، فهم يشوهون ما به من هدى وينقلون ما تهوى أنفسهم المريضة الى الضالين أمثالهم باذلين الجهد والمال في سبيل صرف الناس عنه بالقوة أو تحريف ما جاء فيه. ولكنهم متيقنون أن القرآن كلام الله نزل بها الروح الأمين على محمد خاتم الأنبياء المرسلين. فهم في رعب مما جاء في هذا القرآن لأنه يكشف كل آلاعيب اليهود ومكرهم ودهائهم وكرههم وقتلهم الأنبياء بغير حق، كما أنه يحث المؤمنين على الإطاحة بروؤس الكفر والإلحاد الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم.

قال تعالى: «تنزيل من رب العالميـــــن». (٢).
قال تعالى: «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل» (٣).
قال تعالى: «لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » (٤).
قال تعالى: « قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون» (٥).

ثانيا :الطعن في شخصية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وجه المستشرقون انتقاداتهم، لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فأنكروا أنه نبي مرسل وقرروا أنه رجل عادي، إلا أن بعض المعتدلين منهم شهد له ، وكذب ادعاءات المتشددين من المستشرقين. حيث وصف «كارلايل»

---

١) سورة فصلت ، آية ٤٢.
٢) سورة الواقعة : آيـة، ٨٠ .
٣) سورة الأسراء : آيـة، ١٠٥.
٤) سةرة النساء ، آيـة، ١٦٦ .
٥) سورة البقرة : آيـة، ١٣٩ .

محمداً في كتابه الأبطال ، فقال : «من العار أن يصغي أي انسان متمدن من أبناء هذا الجيل الى وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب، وأن محمداً لم يكن على حق، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التي أداها محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادق من العالم المجهول، وما هو إلا نور أضاء العالم أجمع » ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١).
قال تعالـى: «وإنك لعلى خلق عظيم» (٢).
وقال تعالى: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٣).
وقال تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» (٤).

ويعتبر تولستوي - وهو من أكبر كتاب روسيا- من المستشرقين المعتدلين كذلك، كتب رأيه معبراً عن الإعجاب بالإسلام، وتحدث عن النصرانية، فأنكر على النصارى اعتقادهم بألوهية المسيح، وخلص الى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح بل طمسها. كما أن الكنيسة زادت تعاليم المسيح في العقيدة غموضاً.. ويقول: «إن النصارى واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحي الإلهي، فالمسلمون يعتقدون نبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانتين، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء، وأنه أوضح في القرآن تعاليم موسى وعيسى كما أوحى بهما عليه دون زيادة ولا نقص».. وينتهي بالحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالإكبار والتعظيم، وكان مما قاله تولستوي : « لا ريب أن هذا النبي - يقصد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء، وتقديم الضحايا ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص ذو قوة وحكمة وعلم، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».

وللمستشرقين المتعصبين طعون لا تعد ولا تحصى على شخص الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. ويعتبر إنكارهم لنبوته إنكاراً للاسلام

---

١) علي جريشة ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكري، ص٢٨ .
٢) سورة القلم : آيـة، ٤ .
٣) سورة الجمعة : آيـة، ٢ .
٤) سورة الأحزاب ، آيـة، ٢١ .

بكونه دين سماوي جملة وتفصيلا. ويقولون عنه أنه شخص عادي، وإن كان له امتياز فهو بعبقرتيه وبطولته، ومواهبه العظيمة. وأنكروا الوحي، وقالوا إنما هي أفكار منبعثة من نفسه أو خيالات منامية - أي تأتيه في المنام - أو أشياء أخرى من هذا القبيل ليس لها علاقة باتصال سماوي. وبالتالي فلا قدسية لكتاب المسلمين وأنه كلام البشر من تأليف محمد . وهذا كلام مفترى ومردود عليهم ، «كبرت كلمة تخرج من أفواهم ، إن يقولون إلا كذباً»(١) وبعضهم يعرف كذب ادعاءاتهم ولكنهم يتغاضون عنه لغايات في أنفسهم.. ولم يكتفوا بذلك بل اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالشهوانية لتعدد زوجاته أكثر مما حدده القرآن لبقية المسلمين(٢)، وللرد عليهم ، بين علماء المسلمين بأن زواجه كان ينزل بوحي من الله سبحانه وتعالى في معظم الحالات. قال تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأةً مؤمنةإنَ وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين، قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لِكَيلا يكون عليك حرجٌ وكان الله غفوراً رحيماً» (٣).

ويقول الدكتور جرينييه الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال : « إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتي درستها من صغري، وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، دون أن يكون له معلم أو مدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً كما قارنت أنا، لأسلم بلا شك إن كان عاقلا خالياً من الأغراض» (٤). قال تعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٥) وقال تعالى:إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم (٦)

أما الجانب الشخصي للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فلقد اشتهر بتفوق في القدرات الذهنية من الذكاء والفطنة وحسن التدبير والقيادة، ولقد أصطفاه الله من قومه وأعده لرسالته، وبعثه رحمة للعالمين.

---

١) سورة الكهف ، آية ٥.
٢) عطية صقر : الاسلام في مواجهة التحديات ، ص٣٢ ، ١٨٣.
٣) سورة الأحزاب : آيـة، ٥٠ .
٤) علي جريشة ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكري، ص٢٩.
٥) سورة فصلت : آية، ٥٣ .
٦) سورة البقرة : آية، ١١٩ .

وكذلك كان « أمياً» لم يتعلم القراءة والكتابة، مثل غالبية قومه الذين قال الله فيهم ، «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم..» (١) والله سبحانه وتعالى كما أعد نبيه لرسالته قادر على أن يهيئ له من يعلمه القراءة والكتابة مثل القليل من العرب ولكنه اختاره كذلك لتظهر حكمة الله في الوحي القرآني الذي صرح بها في قوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» (٢). وهذا إعلان من الله تعالى بالحقيقة التاريخية وهي أميته صلى الله عليه وسلم ثم بيان الحكمة منها، وهي إبعاد الشكوك عن الوحي القرآني. وعندما ثبتت أميته فلا مجال لإنكار حقيقة أن القرآن جاء بوحي من الله تعالى ، وثبت أنه ليس من عند محمد - الذي عرف بعبقريته وذكائه - كما أدعى المغرضون والمرجفون (٣) كما أن القرآن الكريم عرف بالاعجاز العظيم في لغته وفصاحتها، وتحدى فصحاء العرب وشعرائهم، بأن يأتوا بسورة من مثله لو استطاعوا فعجزوا، وهذا خير دليل على أنه نزل به الوحي من عند رب العالمين على رسوله الكريم.

قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »(٤).

ثالثا: التشكيك في العقيدة الإسلاميـــة:

ان عقيدة التوحيد تربط المؤمن بالله الواحد الذي له كل صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص، ومايتبع ذلك من إيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره.

ولقد جاء في كلام المستشرقين عن الله - الذي يعبده المسلمون - افتراءات كثيرة تعالى الله عن افتراءهم علواً كبيراً. قال تعالى : « قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» (٥).

وقالوا إن عقيدة القضاء والقدر عند المسلمين هو تواكل واستسلام وتخاذل، وكانت من أكبر العوامل في تأخرهم، وبهذا كان دينهم كالأديان

---

١) سورة الجمعة : آية، ٢ .
٢) سورة العنكبوت : آية، ٤٨ .
٣) نذير حمدان : الغزو الفكري - المفهوم - الوسائل - المحاولات، ص٣٢٥.
٤) سورة البقرة : آية، ٢٣ - ٢٤.
٥) سورة الإخلاص : آية، ١-٤ .

الأخرى مخدراً لهم ومثبطاً لهمهم وحائلا بينهم وبين الجد والنشاط واللحاق بركب الحضارة الزاحف. ولا شك أن هذا مايردده ماركس وأتباعه من الشيوعيين في أكثر من مكان.. بأن الدين أفيون الشعوب ومخدر الفقراء، وأنه انعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء(١).

وهذا افتراء مردود عليهم ، فديننا واضح في كل شيء، وهو دين الفطرة السليمة والإخلاص بالوحدانية لله. بعيد عن التعقيد في العقيدة. وليس فيه أقانيم.. ولا تثليث.. ولا إشراك. وليس فيه شيء من التحريف والتشويه.

رابعا: تشويه مصادر التشريع الاسلامي:

خلط المستشرقون - في عرض مصادر الأحكام الإسلامية - بين القرآن والسنة وبين الاجتهاد. سواء كان ذلك بشكل متعمد أو عن جهل. فنظروا اليها جميعاً على أنها من صنع البشر ووضعوها في ميزان واحد وفي نفس المنزلة!! وقاموا بنقد الكثير من أحكام الشريعة في العبادات والمعاملات في المجالات المختلفة حسب مقاييسهم وأفكارهم الدينية الخاصة بهم. فهاجموا من التشريع تعدد الزوجات وإباحة الطلاق(٢). ومن المفارقات العجيبة أنه بعد سنوات على هذا النقد صارت أوروبا تدعو الى إباحة الطلاق ، لما يعانيه مجتمعهم من كثرة الخيانة الزوجية والزنى ، كما أن تعدد الزوجات يتيح للزوجة العاقر أو المريضة أو الزوجة المقعدة أن تظل في عصمة زوجها ليرعاها ويقوم بالإنفاق عليها، ويحتفظ بها مكرمة معززة ، بينما لا يحرم نفسه من الزواج بأخرى.

ولقد قام المستشرقون أيضاً بنقد تشريع القصاص والحدود ووصفوه بالوحشية في عصر المادية الحديثة. مع العلم أنهم عندما قاموا بإلغاء نظام الإعدام ، انتشرت الجرائم بينهم ، حتى أن المجرم تجرأ على قتل الأطفال والنساء دون وازع من ضمير ولا رادع من تشريع يوقفه عند حده، ونسوا أن مشرع القصاص هو خالق الناس جميعاً، قال تعالى : «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون» (٣). فقصاص فرد مجرم مذنب هي محافظة على المجتمع من بوائقه. وربما كانت جريمته أبشع ألف مرة من إعدامه. وقد عادت بعض المحاكم في أمريكا وغيرها بإقرار الإعدام بعدما ثبتت فائدته، وبعد تفشي الإجرام والفاحشة في بلادهم.

---

١) علي جريشة، ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكري، ص١٢٠ .
٢) علي جريشة ومحمد الزيبق : المرجع السابق ، ص١٨.
٣) سورة البقرة : آية، ١٧٩ .

وبهذا نرى أن أعداء الاسلام من المستشرقين اليهود وغيرهم، يشنون هجوماً عنيفاً على الشريعة الاسلامية الغراء، ووصفوها بالتخلف والقسوة ، أملا في زعزعة مكانتها في نفوس المسلمين، ولأنها أعظم قوة دافعة ومثبتة للدين الاسلامي، وتستند الى القرآن والسنة والفقه الاسلامي الذي أنتجته قرائح صفوة من العلماء لا يجود الزمان بمثلهم، وهي التي بينت أن الاسلام دين ودنيا، وميزته عن سائر أديان البشر.

فشريعة الله التي قضت بقطع يد السارق ورجم الزاني، حكيمة عادلة رحيمة لأنها انما تفعل ذلك لردع النفوس الشريرة وقطع دابر الجريمة وحماية أمن الملايين. وخير دليل على ذلك، أن روسيا التي تستهوي أنظمتها الكثير من الشباب، لا تكتفي بقطع يد السارق وإنما تحكم عليه بالإعدام. وقد نفذت الحكومة الروسية هذا الحكم في عدد كبير من الذين يسرقون ويتلاعبون بالعملة ويختلسون أموال الدولة، دون أن يوجه لروسيا أي نقد من المستشرقين والمنصرين وعملاء اليهود في العالم.

والى جانب ذلك كله ، طعن المستشرقون في النظام الاقتصادي وربطه بالدين في محاولة غزوه بنظمهم ومعاملاتهم الربوية الاستغلالية، والتي تؤدي الى فساد في الضمير والوجدان، مع أن جميع الأديان السماوية حرمت الربا، إلا أن اليهود أضافوا بعض النصوص الى التوراة المحرفة، وجعلوا استغلال غير اليهودي مباح ، فانتشرت البنوك الربوية في جميع أنحاء العالم برؤوس أموال يسيطر على معظمها اليهود، تستنزف ثروات الشعوب عن طريق الربا، وهو محرم تحريماً أبدياً في القرآن الكريم حفاظاً على حرية الانسان وكرامته وعدم استغلاله(١).

قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا...» (٢).

وقال تعالى : «يمحق الله الربا ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم» (٣).

فالربا حرام في نظر المؤمنين، وحلال في نظر الكافرين، سواء أكان في الشرق أم في الغرب (٤).

---

١) علي جريشة ومحمد الزيبق : أساليب الغزو الفكري، ص١٨ .
٢) سورة البقرة : آية، ١٧٩.
٣) سورة البقرة : آية، ٢٧٦ .
٤) أبو الأعلى المودودي : الربا (جده، الدار السعودية للنشر والتوزيع: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١٣-٨٤.

كما نقد المستشرقون حجاب المرأة المسلمة في الوقت الذي عجز فيه المجتمع الغربي عن صيانة المرأة لأنها متكشفة متبرجة في الشارع والعمل، فيطمع فيها كل من يراها فانتشر بذلك الزنى وكثرت الفواحش وازداد عدد اللقطاء. فأرادوا أن ينشروا هذه الرذائل في المجتمع المسلم. ولقد روج لهذه السموم الكثير من كتاب المستشرقين المتعصبين ضد الاسلام في القرون الثلاثة الأخيرة أمثال باسكال، ومالدانش، ومونتسكيو، وفولتير، ورنيان، وكازانوفا، وديرمنجم، ولامانس وغيرهم، وكان هؤلاء يصورون مزايا الاسلام على أنها عيوب ونقائص ويعملون كل ما في وسعهم لمنع الإسلام من الانتشار في بلادهم، مع سعيهم الدائم للانتقاص من التشريع الاسلامي (١).

وقالوا عن الاسلام أنه دين الكسل والخمول والاتكال والجهل وأنه سبب تأخر المسلمين. وهذه افتراءات باطلة وجهل بتعاليم الاسلام، فالإسلام دين العلم والعمل. فكانت أول سورة من القرآن نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » (٢).

ولقد ذكر لفظ العلم أكثر من مائة مرة، في آيات بينات، تقديراً للعلم وبياناً لنوره الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور. قال تعالى :

- «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون...» (٣).
- «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (٤).
- «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك» (٥).
- ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذاً لمن الظالمين (٦)
- «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم» (٧).
- «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٨).

---

١) عبدالصبور مرزوق : الغزو الفكري ، ص ٢٣-٣٣.
٢) سورة العلق : آية ١ - ٥ .
٣) سورة الزمر : آية، ٩ .
٤) سورة المجادلة، آية ١١.
٥) سورة النساء : آية، ١٦٢ .
٦) سورة البقرة : آية، ١٤٥
٧) سورة العنكبوت : آية ٤٩.
٨) سورة فاطر : آية، ٢٨ .

وكذلك حض الاسلام على العمل بصراحة وقوة. ولم يعرف الاسلام الكهانة أو الانقطاع للعبادة و الابتعاد عن الدنيا. قال تعالى:
- «وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله و المؤمنون» (١).
- «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» (٢).

ويأمر القرآن الكريم المسلمين بالعمل أثناء مناسك الحج، وبعد صلاة الجمعة إمعاناً منه في تشجيع العمل و البعد عن البطالة و الكسل.
قال تعالى : «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» (٣).
وقوله تعالى : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» (٤).

ولقد اتجه تفكير أعداء الاسلام وكتاباتهم الى السنة بالطعن و التشكيك ، وقد تولى رجال الدين النصراني أو اليهودي - وهم أشد الناس كرهاً للاسلام وتعصباً عليه - المهمة في أبحاثهم التي اتسمت بالمظاهر الآتية :
١ - سوء الظن و الفهم لكل مايتصل بالاسلام في أهدافه ومقاصده.
٢ - سوء الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهـم.
٣ - تصوير المجتمع الاسلامي في مختلف العصور وخاصة في العصر الأول بمجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه.
٤ - تصوير الحضارة الاسلامية بأنها لا ترقى الى حضارتهم، تهويناً لشأنها و احتقاراً لآثارها.
٥ - الجهل بطبيعة المجتمع الاسلامي على حقيقته و الحكم عليه من خلال مايعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.
٦ - إخضاع النصوص للفكرة، وتحريفها في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً، وتحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، كل ذلك انسياقاً مع الهوى، وانحرافاً عن الحق.

و المطلع على تاريخ الاستشراق تتضح له الحقائق التالية :
أ) أن المستشرقين في جمهورهم لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، وقد يشذ عن ذلك أفراد قلائل.

---

١) سورة التوبة : آية، ١٠٥ .
٢) سورة الملك : آية، ١٥ .
٣) سورة البقرة : آية، ١٩٨ .
٤) سورة الجمعة : آية، ١٠ .

ب) أن الاستشراق في الدول الغربية غير الاستعمارية - كالدول الاسكندنافية - أضعف منه في الدول الاستعمارية الغربية.

ج) أن المستشرقين المعاصرين في الدول غير الاستعمارية يتخلون عن جولدتسهير وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة.

د) أن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية ، نرى أن الكنيسة تقوم بتوجيه السياسة الخارجية فيما يختص بنشاط المستشرقين في البلاد الإسلامية ، حيث تلقي منها كل تأييد.

هـ) أن الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا، ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية ، من كونه أداة هدم للاسلام وتشويه لسمعة المسلمين (١).

و) تمثل هجوم المستشرقين وخلفائهم المنصرين على الاسلام ، في كتب ألفوها، أو كتب قديمة مشبوهة نشروها وعلقوا عليها من وجهة نظرهم، ومن أخطر ماألفوه ، دائرة المعارف الاسلامية ، التي تعتمد في موادها على كتابات المستشرقين المتخصصين في كل فن، وليس على المراجع الأساسية الصحيحة، ولليهود فيها ضلع كبير (٢).

خامسا : التشكيك في صحة السنة النبوية المطهرة:

اتجه المستشرقون الى دراسة الأحاديث النبوية في وقت متأخر ، ولعل أول من قام بمحاولة دراسة الأحاديث النبوية، هو المستشرق اليهودي جولدتسهير، الذي نشر نتيجة بحثه في عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م بعنوان دراسات اسلامية باللغة الألمانية. وحظي كتابه هذا بمكانة مرموقة في دائرة الاستشراق حتى الآن ، الى درجة أنهم اعتبروه إنجيلا مقدساً عندهم. وبعد أكثر من نصف قرن نشط المستشرق شاخت ، حيث أمضى وقتاً طويلا في البحث والتنقيب حاملا حقده ونواياه للدس على الحديث الشريف ، وهو المصدر الثاني بعد القرآن ، حيث قال : «إنه ليس ثمة حديث واحد صحيح ، وخاصة الأحاديث الفقهية» ولقد ترك كتابه هذا أثراً عميقاً في تفكير دارسي الحضارة الاسلامية.

وقال المستشرق جسب : «إنه - يعني كتاب شاخت - سيكون في

---

١) محمد طاهر حكيم : السنة في مواجهة الأباطيل، (مجلة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة،السنة الثانية، ربيع الأول ١٤٠٢هـ العدد ١٢.) ص٤٢-٤٣ .

٢) عطية صقر : الاسلام في مواجهة التحديات، ص ٣٤ .

المستقبل أساساً لكافة الدراسات عن الحضارة الاسلامية والتشريع، على الأقل في الغرب». هذا ولم تنشر بحوث في السنة بأقلام المستشرقين في غضون ثلاثة أرباع قرن عدا هذين الكتابين، اللهم إلا عدة مقالات لا تمس الموضوع من قريب(١).

ولقد ساد في أوساط المستشرقين رأي جولد تسهير القائل : بأن القسم الأكبر من الحديث ليس صحيحاً، وما يقال من أنه وثيقة للاسلام في عهده الأول - عهد الطفولة - ولكنه أثر من آثار جهود المسلمين في عصر النضوج . وهذا القول لا يستغرب من يهودي يريد أن يقضي على الاسلام بأسره لو استطاع وأن المستشرق لا يهمه إقامة الدليل على دعواه بقدر ما يهمه الدس والتشكيك والتشويه في عقيدة المسلمين، ويتأثر بكلامهم من لم يدرس الدين من المسلمين ولم يعرف أبعاده وحقيقته، وهؤلاء لم يتمكن الاسلام من قلوبهم، فيجد كلام المستشرقين مدخلا جاداً الى عقولهم(٢) . فما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وكان الاسلام ناضجاً متكاملا وليس طفلا .

سادساً : الطعن في الفتوحات الاسلامية:

يدعي المنصرون والمستشرقون أن الإسلام انتشر بحد السيف، وان الناس لم يعتنقوه إلا مرغمين . كيف يجبر الناس على اعتناق الاسلام بقوة السلاح!! مع أننا ما زلنا حتى يومنا هذا نسمع كل يوم عن أناس يشهرون إسلامهم في كل مكان من العالم، وقد انتهى عهد الفتوحات الاسلامية الظافرة دون إجبار أو إشهار للسلاح. وكان أهل البلاد المفتوحة يلمسون حسن المعاملة والرحمة والعدل من الولاة والحكام المسلمين عامة، وما هم عليه من نهج كريم ومعاملة حسنة ووفاء بالعهود والأمانة والصدق مما دفعهم الى الدخول في الاسلام دون ضغط من أحد. فالإسلام دين الاقتناع والوضوح بعد كونه دين الفطرة الصحيحة، فكان من يعرض عليه الاسلام - اذا كان بعيداً عن التعصب والحقد - فإنه يصل الى الحقيقة التي تدعوه لاعتناق الاسلام لا محالة. ولقد جاءت آيات بينات تحث على الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال الله تعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون

---

١) محمد طاهر حكيم : السنة في مواجهة الأباطيل ، ص ٤١.
٢) محمد طاهر حكيم : المرجع السابق، ص ٤٥ .

بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (١).

وهذا يوضح لنا أن الله يأمر المسلمين باتباع الخير والدعوة اليه، وأن المسلمين مكلفون بإبلاغ رسالة الاسلام الى كل الناس في أقطار الدنيا. قال تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم آمراً اياه بتبليغ رسالته للناس كافة.

قال تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين» (٢).

فالاسلام هو خاتم الرسالات السماوية، أوحى الله به الى رسوله الكريم عليه السلام ليبلغه الى الناس كافة، هداية من الله وتوجيها للخير والصلاح والعدل والمساواة، والنعيم المقيم في الآخرة، ومن هذا المنطلق كان لزاماً على المسلمين في حياة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وبعده أن يبلغوا رسالة الاسلام الى خارج الجزيرة العربية للأقطار المعروفة آنذاك، ولقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته بتبليغ رسالة الاسلام الى كل الأقطار المعروفة في عهده صلى الله عليه وسلم، وكانت دولة الروم في بلاد الشام وشمال افريقيا والتي عرفت بالإمبرطورية الرومانية من النصارى، وكذلك دولة الفرس في إيران والعراق من الوثنيين.

ولا بد أن تصل رسالة الاسلام لهذه الأقوام الكافرة وهم جميعاً مشركون بالله تعالى فاعتبرهم من الكفار في قوله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» (٣).

والمعروف أن النصارى يعتقدون بالتثليث، وعليه يجب عرض التوحيد عليهم، حيث أمر الله تعالى رسوله بذلك ولكن دون إجبارهم بالقوة على اعتناق دين الاسلام، فكان قواد المعارك الاسلامية الأفذاذ من المؤمنين الذين يعرفون كل شيء يتعلق بدينهم وكل مايوجبه عليهم من حقوق وواجبات تجاه مايصلون اليه من بلاد.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يختارون قواد المعارك

---

١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤
٢) سورة المائدة: الآية ٦٧
٣) سورة المائدة: آية ٧٢ - ٧٣

من حفظة كتاب الله وسنة رسوله، حتى اذا عرضت لهم أي مسألة في أثناء الحرب، كان لهم فيها اجتهاد ورأي حسب علمهم بعد تحكيم الكتاب والسنة.

وكان أول شيء يجهز به الجيش الاسلامي قبل خروجه الى أي معركة، التوصية من ولي الأمر بحسن معاملة سكان البلاد المفتوحة، وأكبر دليل على ذلك عندما جهز أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد الذي بعثه الى أرض الشام، أوصاه بوصايا كثيرة منها : « لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» (١).

وكذلك لم يكن المسلمون يخوضون معركة إلا بعد أن يعرضوا على الناس أحدى ثلاث خصال: أما الدخول في الاسلام فيصبح لهم ما لهم وعليهم ما عليهم في الحقوق والواجبات، فإذا أبوا ذلك فلهم الثانية وهي دفع الجزية التي تؤخذ حسب المقدرة مقابل الخدمة العسكرية التي يؤديها المسلمون عنهم ، حيث أن المسلمين لا يكلفون جنداً من أهل الذمة ، فإن لم يستطع المسلمون الدفاع عن مدينتهم أرجعوا لهم أموالهم كما حدث في بعض المعارك، وإلا فالحرب.

وهكذا فان الاسلام لم يفرض الجزية في جميع الأحوال ، وإنما خصها بحالات معينة واشترط لفرضها شروطاً، فالجزية لا تفرض على أهل الكتاب الا برفضهم الدخول في الاسلام، فإن قبلوا الاسلام فلا إكراه في الدين، وما عليهم إلا أن يدفعوا جزية رمزية مقابل عدم مشاركتهم في الحروب، وهي أيضاً مقابل سلامتهم وأمانهم مع أهليهم وأموالهم داخل بيوتهم وأوطانهم في الدولة الاسلامية الجديدة، وخير دليل على ذلك ما فعله أبو عبيدة بن الجراح - أمين هذه الأمة - لما علم بأن هرقل قد جهز لمهاجمة المسلمين كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد الجزية الى أهلها وكتب للناس يقول : «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإننا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن على شرط ما كتب بيننا إن

---

١) أبى الحسن على أبى الكرم الشيبانى أبن الاثير : الكامل فى التاريخ ، (الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار الكتاب العربي: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) حـ ٢ ، ص ٢٢٧

نصرنا الله عليهم» (١) وتؤخذ الجزية على رؤوس الأشخاص الذين يستطيعون خوض المعارك ولا يدخلونها لاختلاف دينهم فتؤخذ منهم مقابل الأمان الذي يوفره المسلمون لهم (٢). «إذن هي لا تفرض على النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والعبد المملوك ودون الحلم كما أنها تسقط عن بعض القساوسة» . وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل حالم ديناراً أو عدله ، وتقبل الجزية من أهل الكتاب والمشركين وعبدة الأوثان والنيران من العجم، ومن الرجال منهم فقط (٣).

وهذه الجزية - مبلغ دينار واحد عن الرجل - يعتبر مبلغاً رمزياً لا يحمل الطامع على التضحية بروحه في سبيل الحصول عليه، فضلا عن سقوطه إذا اعتنق أهل تلك البلاد الاسلام. ولا يلزم المسلمون غير المستطيع من أهل الذمة بدفع الجزية حتى «ان المسلمين لم يلزموا أهل الذمة ببيع ماشيتهم لسد الجزية اذا لم يجدوا غيرها» (٤).

وكان المسلمون يطالبون الحاكم بالجزية عندما كان يرفض أن يدخل هو وشعبه في الاسلام. فان لم يدخلوا في الاسلام أو يدفعوا الجزية هنا لا بد من الخيار الثالث ألا وهو الحرب والذي اختار الحرب هنا ليس عامة الشعب وإنما الحاكم الطاغية الذي منع الناس من الاختيار الحق خوفاً على كرسيه، فوجب على المسلمين أن يزيلوا هذا الحاكم من وجه عامة الناس، وتشهد الكتب التاريخية كلها والمعاصرة للأحداث الأولى للفتوحات أن المدن التي فتحت على أيدي المسلمين لم يحدث فيها السلب ولا النهب ولا القتل ، ولا انتهاك للأعراض كما يحدث الآن على يد الاستعمار الحديث، فكانت التعليمات الالهيه تصدر للمسلمين في كتاب الله تنير طريقهم للحق، قال تعالى: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» (٥).

«وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» (٦).

---

١) أحمد محمد جمال : مفتريات على الإسلام ، (الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ص ٦٧

٢) عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامى ، ص ٥٦

٣) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم :الخراج ،(الطبعة الخامسة ، القاهرة ، المطبعة السلفية :١٩٣٦هـ) ، ص ٣٧-٣٨، ص ١٣٢

٤) عبد الكريم على باز : إفتراءات فليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامى ، ص ٥٦

٥) سورة المائدة : الآية ٣٢

٦) سورة التوبة : آية ٦

أما إذا لم تدخل فئة في الاسلام، فإنه يكون لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما يحفظ لها حياتها ويبقي عليها دينها، يقول الله تعالى: «لا إكراه في الدين...» (١) بمعنى أن نقوم بعرض الاسلام عليهم دون إكراه، وإفساح المجال لهم أن يحتفظوا بدينهم إذا رغبوا بذلك . ولقد نظم الاسلام الأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات التي تحكمها شريعة الاسلام إن هم تحاكموا الى المسلمين (٢).

قال تعالى: «فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك» (٣). وقال تعالى «وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه» (٤).

فان لم يتحاكموا الى المسلمين ، كان عليهم الرجوع الى شرائعهم ما دامت تنتمي عندهم لأصل إلهي . وهكذا يدع الاسلام لأهل الذمة حريتهم الدينية والمدنية، حيث يحميهم من كل اعتداء ويجعلهم آمنين مطمئنين. وقد شرع الله القتال لحماية الدعوة من الأذى لا لإجبار الناس على اعتناق الاسلام، كما يدعي المنصرون والذين في قلوبهم مرض «وشتان بين هذا العدل والتسامح والإنصاف، الذي يقدمه الاسلام وبين ما فعله اليهود من إهلاك للحرث والنسل. فكيف يرضى المنصرون من اليهود هذه الشدة والقسوة ، ولا يرضون من المسلمين هذه الشفقة والرحمة حقاً (٥) ولو أن المستشرقين أنفسهم كانوا يعرفون البحث الموضوعي ، لعلموا أن بعض الأهالي في بلاد الهند وجنوب شرق آسيا، قد اعتنقوا الاسلام عن طريق احتكاكهم بالتجار المسلمين - الذين عرفوا بحسن أخلاقهم الاسلامية - دون أي جهد.

وقد ارتبطت الفتوحات الاسلامية بكملة « الجهاد» الذي شرعه الله للمسلمين ، لتحرير الانسان في الأرض مهما كان جنسيته أو منزلته من كل سلطان غير سلطان الله ، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده، وسيادة الشريعة

---

١) سورة البقرة : آية ٢٥٦

٢) محمد الصادق عفيفى : المجتمع الإسلامى وحقوق الانسان ، (مجلة دعوة الحق ، السنة السادسة ، العدد ٦٢ : جمادى الأول ١٤٠٧هـ/ يناير ١٩٨٧م) ص ٢٤١

٣) سورة المائدة : آية ٤٢ - ٤٣

٤) سورة الشورى : آية ٣٨

٥) مصطفى أحمد الرفاعى عليان : مناقشة هادئة للمبشرين (الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٩هـ) ، ص ٧٠

الالهية وحدها، ويتجلى ذلك في قوله تعالى :«قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (١).

وقد اكتسبت حركة الجهاد - بتحريرها للإنسان - صفتها العالمية وطابعها الانساني المميز والرحيم، لأنها لم تقصر رسالتها على العرب بصفة خاصة، وإنما اتجهت الى الانسان بصفته الإنسانية مهما كان نوعه أو سلالته، كما لم تنشر رسالتها على أرض العرب وحدها، وإنما اتسعت مجالاتها لتشمل كل الأرض، وأن الشواهد التاريخية بحركة الجهاد لتوكد تلك الحقيقة، فإن المجاهدين الأوائل قد انطلقوا في الأرض، لينشروا دين الله الحق لتحرير الانسان من عبودية الانسان الى عبادة الله الواحد القهار.

سابعاً : التشكيك في التراث الحضاري للمسلمين

يعمل المستشرقون دائماً على تشكيك المسلمين في تراثهم الحضاري، حتى أنهم يدعون أن الحضارة الاسلامية منقولة عن الحضارة الهيلينية (٢) وهي التي كانت قائمة في تلك الفترة في الشرق ، وتأثرت بالحضارات الشرقية خاصة بعد فتح الاسكندر للشرق ، وادعوا أن العرب والمسلمين يعتبرون نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري، وذلك بغرض محاولتهم لإضعاف ثقة المسلمين بذاتهم ، وبتراثهم الحضاري. وهذا تعطيل لقدراتهم في المستقبل ليظلوا تابعين للغرب ، ناقلين عن أعدائهم ما يضرهم ولا ينفعهم ، حتى لا يتمكنوا من إقامة حضارة خاصة بهم(٣).

ثامناً : الدعوة الى إحياء العنصريات بين المسلمين

قام أعداء الاسلام من المستشرقين والمنصرين بالدعوة الى إحياء الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والفينيقية في لبنان وفلسطين ،

---

١) سورة آل عمران : آية ٦٤
٢) الحضارة الهيلينية أى اليونانية
٣) عبدالكريم على باز : إفتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامى ، (رسالة ماجستير من جامعة الملك عبدالعزيز ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص ٢٢

والبربرية في شمال وغرب أفريقيا ، وذلك من أجل إضعاف وحدة العالم الاسلامي، وسهولة السيطرة عليه فيما بعد ، فدأبوا على عقد المؤتمرات العامة لتنظيم نشاطهم منذ عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ونشر المقالات في الصحف وتأليف الكتب المشبوهة ونشرها في البلاد الاسلامية (١).

تاسعاً: الهجوم على الفصحى ومحاربتها وتغليب العامية عليها

عرف أعداء العروبة والاسلام قدر اللسان العربي، وأدركوا تماماً عمق تأثيره، وأبعاد خطورته، وأنه سد منيع يقف دون تحقيق الكثير من أهدافهم ومآربهم. وكان الغزو اللغوي والفكري أخطر ما صنعه الاستعمار الحديث. فعمل في أول الأمر على بث روح الكراهية والازدراء للسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم ، والمتعلمون في المدارس الوطنية الحكومية التي تدرس باللغة العربية ، يهزأ بهم أولئك الذين تعلموا في المدارس الأجنبية، حيث تنشط فيها خلايا التنصير .

ومن مظاهر هجومهم على اللغة العربية في أدبياتهم ، يقول وليم جيفور بلجراف : «متى توارى القرآن في مدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه». وهذا يؤكد ظنهم أنه بالقضاء على اللغة العربية يتم القضاء القرآن الكريم. وبالطبع لا يمكن أن يتوارى القرآن بالقضاء على لغته.

ويقول زويمر في معرض تحذيره من خطر هيمنة اللغة العربية :«إنه لم يسبق وجود عقيدة دينية، مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الاسلامي الذي اقتحم قارتي آسيا وافريقيا الواسعتين وبث في مائتي مليون من البشر عقائده، وشرائعه وتقاليده وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية»(٢) وهو بهذا لا يريد أن يشير بالفضل لأهله، وانما يريد أن يحذر قومه ليمضوا فيما يكيدون له، ويعدون خطة للمواجهة.

ففي وثيقة تاريخية بعث بها شكيب أرسلان أمير البيان العربي لمصطفى صادق الرافعي بعد أن كتب الأخير مقالا بعنوان الحملة القرآنية.. في مجلة الزهراء التي كانت تصدر أوائل القرن الرابع عشر

---

١) عبدالقادر محمود : الإسلام فى مواجهة الحركة التنصيرية والإستشراقية (مجلة الفيصل ، ذو الحجة ، ١٤٠٧هـ العدد ١٢٦)، ص ٢٨

٢) السيد رزق الطويل : اللسان العربى والإسلام معاً فى معركة المواجهة ، (مجلة التوعية الإسلامية ، السنة السادسة ، العدد ٦٠ ، ربيع الأول ١٤٠٧هـ/ نوفمبر ١٩٨٦م) ص ٤٠-٤١

الهجري/ القرن العشرين الميلادي، يقول فيها: «كلا أيها الأخ، إن هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي، ولا تحارب اللغة العربية نفسها، ولكنها تحارب فيها القرآن. ان هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية، وتريد أن تتبدل بها من كلام الجاهلين ومن كلام الفصحاء، حتى المخضرمين والمواليد، وكل كلام لا يكون فيه مسحة دينية. حتى اذا تم لهم مايبتغون من مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الاسلام طعنة سياسية في أحشائه على حين يزعمون أن الموضوع لغوى لا دخل له بالسياسة إن هي إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود بها الاسلام، لا القرآن من حيث كونه قرآناً، ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة.

ومن أهم الخطوات المطروحة تحت التنفيذ للقضاء على اللغة العربية :

١) الدعوة الى العامية.
٢) الدعوة الى ما يسمى باللغة الوسيطة.
٣) طرح تعبيرات خبيثة واصطلاحات مشبوهة عن طريق عملائهم في الساحة الأدبية.
٤) الدعوة بالكتابة بالحرف اللاتيني ، كما حدث في تركيا على يد عميلهم مصطفى كمال أتاتورك.
٥) الدعوة الى تجديد النحو والبلاغة.
٦) تغريب الآداب (١).

وقد تمت الاستعانة في هذه المجالات بمدارس التعليم الأجنبي المنتشرة في بلاد الشام، بجانب المراكز التنصيرية مثل الكلية السورية الانجيلية في بيروت التي تأسست في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م وجامعة القديس يوسف التي تأسست عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م.

كما اتخذت من الصحافة سبيلا هاماً في الدعوة لتغريب اللغة الفصحى ، فقد لعبت مجلة المقتطف التي تأسست عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م في بيروت، وكذلك جريدة المقطم وأصحابها فيما بعد دوراً بارزاً في تمجيد الاستعمار، والمناداة بالحركة الوطنية، وبالتالي لما يسمى بالحزب الوطني الحر، وكانت مجلة المقتطف بالغة السوء، لأنها خدعت الناس بأوهام استعمارية زائفة، مع أنها كانت تصدر بالعربية وبأقلام من يملكون اللسان العربي (٢). وفيما بين عامي ١٢٨٠-١٣٠٠هـ/ ١٨٦٣-١٨٨٢م، ظهرت بوادر تأسيس الجمعيات الكبرى للتنصير في مصر وسورية، وغيرهما من البلدان الاسلامية. ولكن الهدف الأكبر كان مصر والشام.

---

١) السيد رزق الطويل : اللسان العربى والإسلام ، ص ٤٢ - ٤٣
٢) السد رزق الطويل : المرجع السابق ، ص ٥٤

ويقول د. محمود شاكر : « فلست أجده عجيباً إذن أن يتفق في عام واحد تقريباً وهو عام ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، وعام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م، ظهور كتاب «سبتيا» الداعي الى استعمال العامية بدلا من الفصحى، وظهور مقالة « المقتطف»، الداعية الى مثل ذلك، وأن تكون حجتهما واحدة وهي صعوبة الفصحى وأنها بعيدة عن لغة المحادثة العادية كبعد الايطالية من اللاتينية». إن هذا الاتفاق بين ألماني أعجمي اللسان مستشرق باحث في دار الكتب المصرية، وعربي اللسان يقيم في بيروت ، تخرج على أساطين التنصير في الكلية السورية الانجيلية التي أنشئت بأموال الانجليز والأمريكيين ، لهو دليل ظاهر وباطن أنهما تلقيا إشارة البدء في الهجوم على الفصحى في كل من الشام ومصر بأوامر من جماعات التنصير أو مؤتمراتهم الأخيرة (١).

ولكن ما كاد يخرج المقتطف على الناس في بيروت بهذا الضلال وذلك في ذي الحجة عام ١٢٩٨هـ الموافق نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٨٨١م حتى سارع بالرد عليه رجل غيور، وهو الشيخ خليل اليازجي فكتب في العدد التالي من المقتطف الصادر في صفر عام ١٢٩٩هـ كانون الأول سنة ١٨٨١م مشيراً الى نقطتين:

١) أن اتخاذ العامية للكتابة، فيه هدم ببناية التصاريف العربية من أساسها واضاعة الكثير من جهود المتقدمين، ثم تكلف مثلها في المستقبل.
٢) هي أن عامة الناس وجهالهم، يفهمون العربية الصحيحة الفصيحة، ويتذوقونها على عكس ما يدعيه خصوم العربية.

وقد قامت الأقلام بين مدافع عن العامية، وبين مدافع عن الفصحى لغة التعليم ولغة القرآن حتى من المستشرقين أنفسهم حيث كانت آراؤهم تقترب من الحق، أوتبتعد عنه قليلا لكنها تكاد تجمع على ضرورة الفصحى ولذلك كان هناك بعض النتائج الهامة:

١) أن المسلمين لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث، وسائر كتب الدين.
٢) أن العربية ليست غريبة على أفهام العامة إلا إذا أريد بها التعقيد، واستخدام الألفاظ الغريبة، أما لغة الإنشاء العصرية، فهي شائعة في الصحف والمجلات، يفهمها العام والخاص.
٣) أنه لا يجوز قياس العربية على اللاتينية، لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيراً من الفرق بين الفصحى والعامية.

---

١) محمود محمد شاكر : أباطيل وأسمار ، جـ ١ ، ص ١٩٠-١٩١

٤) أن الزعم بأن اللغة العربية بدع في اللغات - بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللغة المحلية - زعم باطل، فالانجليز مثلا يكتبون العلم بلغة لا يفهمها عامتهم، وكذلك الفرنسيون، والألمان وغيرهم من شعوب أوروبا.

٥) ان المنادين باتخاذ اللهجات المحلية العامية في كل شعب عربي لغة للكتابة، هم الراغبون بانحلال العالم العربي، وتشتت شمل الناطقين بالعربية.

وكانت نتائج الاستفتاءات التي استخلصتها مجلة الهلال في مطلع القرن الرابع عشر الهجري/القرن العشرين الميلادي ، إيجابية لصالح الفصحى، كما نرى فيها دحضاً لكل شبهة أثارها أنصار العامية(١) .

وفيما يلي فقرات من كلام رجل من رؤوس المنصرين، تغني عن الاكثار والتطويل وهو المسيو شاتليه الذي قال : «إن إرساليات التبشير (التنصير) الدينية، التي لديها أموال وفيرة، تدار أعمالها بتدبير وحكمة، تأتي بالنفع الكثير في البلاد الاسلامية، من حيث أنها تبث الأفكار الأوروبية» . ثم يقول : «ولا شك في أن ارساليات التبشير (التنصير) من بروتستانتية وكاثوليكية ، تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس معتقديها ولا يتم لها ذلك الا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية، يحتك المسلمون بصحف أوروبا، وتتمهد السبل لتقدم اسلامي مادي وتقضي ارساليات التنصير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية، التي لم تحفظ كيانها الا بعزلتها وانفرادها(٢).

وأخيراً نحمد الله حمداً كثيراً على أن أعداء الدين الاسلامي الحنيف يضطرون الى الكذب والافتراء عليه، وهذا ما يدل على أنه ليس فيه ما يشينه ويعيبه.

ولقد استغل المنصرون الجماعات الصهيونية، لأنها كانت تتفق معهم في عدائهم للعرب والمسلمين. ولم يصروا على إنشاء الوطن القومي اليهودي ، إلا لأن إنشاءه يضعف العرب إضعافاً شديداً ، ويفتح أبواب فلسطين أمام الدول الأجنبية للقيام بأعمالها التنصيرية في المنطقة للسيطرة عليها لاحقاً ولأن فلسطين إحدى نقاط الهجوم على العالم العربي الاسلامي.

---

١) السيد رزق الطويل : اللسان العربى والإسلام معا فى معركة المواجهة ، ص ٦٧

٢) محمود شاكر : أباطيل وأسمار ، جـ ١ ص ١٨٦

ومنذ قرن ونصف القرن، فكر المنصرون باستغلال اليهود، لنشر النصرانية بينهم ولمقاومة العرب والمسلمين بهم وزرعهم في فلسطين المسلمة. ففي عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م أسس الانكليز الجمعية اللبنانية لنشر النصرانية بين اليهود، ولقد كانت آمالهم عند تأسيسها عظيمة جداً. وكانوا يرون أن العمل يجب أن يبدأ عندما يساق اليهود المتفرقون في الأرض الى فلسطين. وهكذا بدأوا يشجعون اليهود على الهجرة، وعزموا على أن يبدأ التنصير بينهم بعد ذلك مباشرة. وقد انتهز المنصرون موقف محمد علي المشجع لهم ووضعوا أساس ما دعوه «بكنيسة صهيون»، أول كنيسة بروتستانتية في الدولة العثمانية. ولكن فأل المنصرين قد خاب، حيث أن محمد علي خرج من الشام عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، فعاد العثمانيون الى موقفهم المتشدد من الارساليات التنصيرية. ولقد رأى المنصرون بأن جمع اليهود في فلسطين قلب العالم الاسلامي يسهل لهم مهمتهم في الوصول الى المسلمين. من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين على مصراعيها لهجرة اليهود، فليس من المستغرب إذاً أن نجد سبعاً وعشرين جمعية تنصيرية مختلفة الجنسيات ، كانت كلها تعمل بلا ملل في فلسطين.

وهكذا نجد عوامل دينية مختلفة تستر المنصرون وراءها وترمي الى استعمار فلسطين توصلا الى أهداف خاصة ، بينما أخذت البابوية والبروتستانتية والصهيونية تتنافس فيما بينها في فلسطين ، وقد ساعدهم جميعاً الممول اليهودي روتشيلد(١).

ومن الوسائل التي اتبعها المرسلون الأجانب من مستشرقين ومنصرين:

١) اصطناع عصبيات جديدة بدل عصبيات الجاهلية : وقد تأكد ذلك مما جاء في البروتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون : «لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين - أي غير اليهود -الشخصية القومية، بنشر العصبيات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً ...» (٢).

٢) طرح النظريات والأفكار المناهضة للدين : ومن الأفكار التي روجت في

---

١) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ١٧٩-١٨٢

٢) برتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة خليفه تونسى ، ص ١١٦

العالم الاسلامي ، ما أطلق عليه تعبير العلمانية -أي فصل الدين عن الدولة ، وهو اصطلاح مخادع كاذب، استخدم بدل كلمة اللادينية والتي هي التعبير الأصلي لشعار الحركة المناهضة للدين، والتي ظهرت في ظروف لا تتوافق مطلقاً مع عالمنا الاسلامي. وخلاصة «الاتجاه العلماني» حسب الشعار المرفوع وليس حسب الحقيقة المستكنة وراءه، أن الانسان لا ينبغي أن يؤمن بشيء إلا من خلال مدركاته الحسية، أو من خلال التجارب والأعمال العلمية (١). ولقد كذبتهم التجارب العلمية ذاتها، اذ لو أردنا أن نطبق نظرتهم لفشلوا وخابوا عند أول تجربة ، «ولا يزال العلم يضيف كل يوم جديداً.. وهل المادة هي ما يحس فحسب، وقد أثبت العلم أن ماتقع عليه الحواس من المواد يمثل ٧٪ وما لا تقع عليه الحواس ٩٣٪ (٢) . قال تعالى: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون» (٣).

٣) ترويج نظرية النشوء والارتقاء : وهي ما تعرف بنظرية داروين ، وهي تدرس في المدارس والكليات في بلاد الشام، وهي تزعم بأن الانسان ما هو إلا كائن تم تطوره عبر آلاف السنين أو ملايين السنين عن حيوانات أخرى وخاصة القرد. وداروين هذا يهودي له مآرب شتى من وراء نظريته الاستشراقية والتي أراد منها تشكيك المسلم في دينه. ويؤيده نيتشه فيما ذهب اليه ليقول : إن الانسان ما هو إلا قنطرة بين القرد والسوبرمان. مع العلم أن النصارى واليهود يعلمون بكذب هذه النظرية فلا يعلمونها لأولادهم في المدارس بل يصدرونها للمسلمين لتشكيكهم في دينهم، ولكن الله يكذبهم جميعاً وهو الذي خلق آدم أبو البشر جميعاً من تراب ثم كان من نسله كل أمم الأرض .

هكذا يتبين مدى حقد العالم النصراني على العالم الاسلامي ، حيث عمل النصارى جاهدين على تحطيم العلم الإسلامي بشتى الوسائل ، فكان لا بد من مواقف إيجابية ضد هذه الارساليات في بلاد الشام ، فإذا كان لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه ، إذاً لا بد للمسلمين - والغزو في عقر دارهم ، بل وعلى أعز ما يملكون وهي عقيدتهم ، عقيدة التوحيد ، ودينهم الذي رضي الله عنه وجعله خاتم الرسالات السماوية - أن

---

١) عبد الصبور مرزوق : الغزو الفكرى ، ص٦٠-٨٠
٢) على جريشة والزيبق : أساليب الغزو الفكرى ، ص ١١٦
٣) سورة الطور : آية ٣٥-٣٦

تكون لهم القوة العظمى المضادة لقوة الارساليات ، بل لا بد أن تزيد قوة المسلمين، لأنهم يدافعون عن دينهم الحق .

«ولقد نظر المسلمون والسلطات العثمانية الحاكمة لتلك البعثات نظرة الشك والريبة وأوجسوا منها خيفة، لأنهم رأوا فيها بوادر تسلل استعماري غربي وأنهم يتسترون وراء وظيفتهم التنصيرية، كما رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك تهديداً خطيراً لكيانهم الديني في بلاد الشام» (١).

وكانت هنالك مقاومة لتلك البعثات، التي لم تجد الإقبال الشديد عليها، لأنهم أول الأمر لم يعرفوا نواياها ، بل تخوفوا منها فقط، وتعاملوا معها معاملة الحذر والريبة. فقامت الجمعيات الاسلامية مثل جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي تأسست في عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م لدرء الأخطار التي تعرض لها المسلمون على إثر الهجمة الشرسة من الارساليات التنصيرية الأجنبية المختلفة التي غزت بيروت وقرى جبل لبنان بعد حوادث عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م.

وانتشرت المدارس الإسلامية في بيروت بعد ذلك ، فأنشأ والي سوريا حمدي باشا المدرسة الإعدادية السلطانية للبنات، وحتى عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م أنشئت عدة مدارس تابعة للدولة العثمانية، مثل المدرسة العسكرية، فضلا عن ١٢ مدرسة ابتدائية قديمة و٤ مدارس للذكور، و٤ مدارس ابتدائية للبنات. ونشط المفكرون المسلمون في إصدار المجلات والجرائد والكتب الاسلامية لمواجهة الحملات المسعورة من الارساليات، فأسسوا المطبعة العثمانية في بيروت ومجلة النبراس وصحيفة بيروت، وصحيفة حديقة الأخبار والمصباح ولسان الحال، والأحوال (٢).

وهكذا يتضح لنا مدى تآمر الدول الأجنبية كافة على المسلمين وعقيدتهم، فكانت جيوش الارساليات من منصرين ومستشرقين، يعملون لها بكل إخلاص في بلاد الشام ضد الاسلام فقاموا بالتشويه والتشكيك في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشككوا بالعقيدة الاسلامية ومصادر التشريع الاسلامي، وهاجموا فتوحات

---

١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ٧٤٥

٢) عصام شبارو : تاريخ بيروت ، ص ١٩٧-١٩٩

المسلمين وكيفية نشرهم لآخر الأديان السماوية والتي أمر الله بتبليغها للعالمين الانس والجن، بل شككوا في التراث الحضاري للمسلمين، ودعوا الى إحياء العنصريات الجاهلية، ذلك ليمحوا الاسلام من أذهان الجاهلين، وهجموا على اللغة العربية لينتصروا بذلك للغة العامية، ظناً منهم أن ذلك أقصر طريق للقضاء على الاسلام ككل، وطرحوا النظريات الإلحادية في العالم الاسلامي، وما أرادوا من ذلك سوى الهدم والخراب والتدمير للعالم الاسلامي كافة متذرعين لذلك بالذرائع المختلفة، متبعين أخطر الوسائل. وماذا بعد ذلك؟ هل توقفت أطماع النصارى واليهود عند الأهداف والدوافع الدينية، أم لهم أطماع لا تنتهي في المنطقة العربية، بل وفي العالم الاسلامي ككل ؟. إذا تنبهتم معي الى الخطر الداهم على الدين الاسلامي فتابعوا معي دوافع البعثات التنصيريه السياسيه في الفقرة التالية من هذه الدراسة.

الدوافع والأهداف السياسية:

غدا النشاط التنصيري من أقوى الركائز الاستعمارية، حيث ما يزال ماثلا للأذهان حتى الوقت الحاضر خصوصاً الدور الذي قام به أعضاء البعثات التنصيرية في بلاد العالم الاسلامي، في القرن الثالث عشر الهجري الموافق/ القرن التاسع عشر الميلادي، ولقد تزايد خطر البعثات التنصيرية على ولايات الشام، بعد أن أصبحت هذه البعثات أدوات للمطامع السياسية، بحيث شكلت تهديداً للدولة الاسلامية العثمانية في وقت كانت تجتاز فيه دوراً خطراً من أدوار الأضمحلال، وتعرضت فيه لهزات عنيفة من الضعف، وفي وقت انتزع الاستعمار الأوروبي منها ولايات هامة سواء في أوروبا وافريقيا وآسيا، وأصبحت الدولة عاجزة فعلا عن وقف التدفق التنصيري على بلاد الشام.

وفي أوائل النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري الموافق القرن التاسع عشر الميلادي أرادت الدول النصرانية الأجنبية أن تجني ثمار نشاط بعثاتها التنصيرية، الأمر الذي أدى الى احتدام التنافس بينها. حيث طالبت روسيا بأن يكون لها الحق في بسط حمايتها على الطوائف النصرانية الأرثوذكسية، التي تسكن الدولة، أي من التنازل لها عن قطاعات كثيفة العدد من سكان الدولة العثمانية. وكذلك طالبت فرنسا بأن يكون لها حق حماية رجال الدين الكاثوليك، وفي غمرة هذا الصراع انتقل بطريرك الأرثوذكس الشرقيين اليونانيين من قصره في اسطنبول الى القدس، وقام البابا بايس التاسع في الفترة ما بين عامي ١٢٦٢هـ -١٢٩٥هـ/١٨٤٦-١٨٧٨م بإرسال بطريرك كاثوليكي ليقيم في القدس، واشتعل النزاع حاداً بين الرهبان الكاثوليك والرهبان الأرثوذكس في القدس ولم تستطع الدولة العثمانية إرضاء الطرفين، وأسرعت روسيا فأخلت ولايتي الدانوب ورومانيا في شوال١٢٧٠هـ/يونيو(حزيران)١٨٥٣م، واندلعت بذلك حرب القرم في الفترة ما بين عامي ١٢٧٠هـ -١٢٧٣هـ/١٨٥٣-١٨٥٦م وكان من بين أحداثها المفجعة تحطيم الأسطول العثماني في مياه البحر الأسود عندما فاجأه الأسطول الروسي في ميناء (سينوب) في الثلاثين من صفر عام ١٢٧١هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٨٥٣م (١) ولقد استغلت الدول الأجنبية الفرصة فبعثت بمنصريها ليساهموا في إذكاء حدة التعصب الديني بين الطوائف النصرانية وفي إثارة العداء بين البروتستانت والكاثوليك ورجال الدين النصارى المحليين في بلاد الشام ويكسبوا الأتباع لكنائسهم الغربية.

---

١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ١٠٣ - ١٠٦

وعملت البعثات التنصيرية الأمريكية على إيجاد قاعدة دينية جديدة لها في بلاد الشام هي الكنيسة السورية المشيخية (البربسبتيرية) على الرغم من أنه لم يكن في بلاد الشام طائفة بروتستانتية عندما هبط الأمريكيون في بيروت في عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م قادمين من مالطة. وكان عدم وجود مثل هذه الطائفة في مقدمة العقبات التي واجهها الأمريكيون وقتذاك في بلاد الشام، فعملوا على نشر مذهبهم في البلاد لمواجهة تلك العقبة.

وهكذا عملت الولايات المتحدة الأمريكية على زيادة عدد المذاهب الدينية، وبالتالي الى زيادة التنافس والشقاق بين المسلمين والنصارى، على الرغم من أنها كانت تعتبر بعيدة بعض الشيء عن الصراع السياسي لأنها لم تكن تظهر لها أطماع سياسية ظاهرة في المنطقة حتى ذلك الوقت على الأقل.

وفي نفس الوقت لم تكن الدولة العثمانية تملك حرية الإرادة ولا حرية التصرف حيال نشاط البعثات التنصيرية، والذي كان له أوخم العواقب في زيادة الاضطراب الطائفي والسياسي في ولايات الشام، وإظهار عجز الدولة عن إرضاء عدد كبير من مذاهب دينية وطوائف تنصيرية، أرادت أن تتخذ من التنصير ذريعة لإنشاء مراكز قوى لها داخل ولايات الدولة، فهذا النشاط التنصيري كان بعيداً كل البعد عن أن يضفي على الدولة الطابع العالمي. وكلما كانت الدولة العثمانية تزداد ضعفاً، كانت الدول الاستعمارية تزداد نهماً في الحصول على الامتيازات التي تخولها مزيداً من التدخل في شئونها الداخلية.

وكان المنصرون يدخلون البلاد تحت ظل نظام الحماية حتى أصبح الكثير من اليهود والنصارى الوافدين على الدولة العثمانية بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها المنتشرين في كافة أنحاء الدولة، بعد أن فقدت السلطات العثمانية الإدارية والتشريعية، صلاحياتها تجاههم، وأصبحت بحد ذاتها إحدى الوسائل لتدخل تلك الدول في الشئون الداخلية للدولة العثمانية وكانت الدولة قد منحت امتيازات الحماية عام٩٤٢هـ/١٥٣٥م لفرنسا، وفي عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م لكل من بريطانيا وهولندا والنمسا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة. وكذلك

افتتحت القنصلية الألمانية في القدس في عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م (١). فاستغلت تلك الدول الامتيازات التي منحتها لها الدولة العثمانية في وقت قوتها ومعاملتها لتلك الدول كأصدقاء، فقامت بنشر بعثاتها التنصيرية في طول بلاد الشام وعرضها، ولكن النشاط التنصيري في بلاد الشام عامة وفلسطين بشكل خاص، كان محصوراً ومتعثراً قبل فترة حكم محمد علي في بلاد الشام فيما بين عامي ١٢٤٧هـ -١٢٥٦هـ/ ١٨٣١-١٨٤٠م وذلك بسبب العقبات التي واجهت التنصير في تلك الفترة، والتي كان أولها وأهمها معارضة الحكومة لنشاط تلك البعثات في البلاد، ووضع العراقيل الرسمية في طريق تنفيذ مشاريعها التنصيرية في بلاد الشام.

غير أن احتلال محمد علي لفلسطين، وبقية بلاد الشام في عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، خلق المناخ المناسب لنمو الارساليات التنصيرية في البلاد، بسبب السياسة العلمانية غير الحكيمة التي اتبعها محمد علي في تلك الفترة نحو الملل غير الاسلامية والتي ساعدت على نمو هذه الارساليات (٢) . فقد وجه محمد علي بياناً الى السلطات المدنية والدينية في فلسطين، يطلب منها رفع القيود عن النصارى واليهود المقيمين في البلاد، وكذلك وجه نفس الدعوة لصالح الزوار الأجانب. وبذلك ألغيت جميع الرسوم المفروضة على الزوار النصارى للأماكن المقدسة في فلسطين، وسمح لليهود ببناء كنيس لهم في القدس. وكذلك منحت جمعية يهود لندن(٣)، حرية العمل التنصيري ، فأصبحت فلسطين منذ ذلك الوقت تشهد تنصيراً مكثفاً وتنافساً حاداً بين الارساليات التنصيرية الأجنبية من مختلف الكنائس المعروفة. وسار الحال من سيء الى أسوأ، في بلاد الشام في فترة حكم محمد علي، وعند زوال حكمه ورجوعه الى مصر في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، اضطرت الحكومة العثمانية أن تغمض عينيها عن استمرار النشاط التنصيري في فلسطين، بسبب مساندة الدول الأوروبية الكبرى لها في قهر محمد علي وإعادة بلاد الشام الى سلطتها. كما انتهزت الدول الأوروبية، والمؤسسات الدينية التنصيرية هذا الوضع الجديد لتزيد من نفوذها ونشاطاتها في الشام بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص (٤). وكان لأفراد هذه البعثات نشاط تعليمي وثقافي

---

١) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ص ٩٥-١٤٢
٢) سوسن سليم اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، (القاهرة ، دار الطباعة للجامعات : ١٩٨٥) ، ص ١٤٣
٣) تأسست جمعية يهود لندن فى العاصمة البريطانية عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م بقصد نشر المذهب الأنجليكانى بين اليهود فى فلسطين
٤) على محافظة :العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥م (الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر : ١٩٨١م) ، ص ٣٧

واسع النطاق (١).

ورغم أن سياسة محمد علي تجاه الدول الأجنبية، رفعت القيود التي وضعتها الدولة العثمانية أمام البعثات التنصيرية الأجنبية، إلا أن هذه الدول الأوروبية الاستعمارية أثارتها انتصارات محمد علي باشا في بلاد الشام، ووصوله الى حدود عاصمة الدولة العثمانية، جاءت في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية، من أشد حالات الضعف والتفكك، فأصبح من السهل عليه أن يقضي عليها، ويقيم على أنقاضها دولة موحدة قوية تحت حكمه، وهذا ما لا تريده دول أوروبا بصفة عامة وانجلترا بصفة خاصة.

لذلك نجد الدول الأوروبية تتفق في القضاء على قوة محمد علي، واقتلاعه من طريقها، ليطول عمر الدولة العثمانية ، وذلك حتى تستمر مصالح أوروبا، وخاصة انجلترا التي كان همها الأول والأخير هو حماية طرق تجارتها الى الهند . ومن أجل ذلك نجد الدول الأجنبية التي تتمثل في بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا تقوم بالضغط على السلطان العثماني بالموافقة على معاهدة لندن التي عقدت عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، والتي كان من أهم نصوصها، أن يقتصر حكم محمد علي على مصر ، وينحصر هذا الحكم في أسرة محمد علي(٢).

وفي الواقع ، فإن الدول الأوروبية لا تسعى الى القضاء على قوة محمد علي لأجل حماية الدولة العثمانية أو خوفاً عليها..، ولكن حتى لا ترث قواته أملاك الدولة العثمانية الاسلامية، فتقوم بذلك دولة اسلامية أخرى، قوية . وعليه فان اوروبا ساندت الدولة العثمانيه الضعيفة لتملي شروطها باقتسام ممتلكات المسلمين أولا، والقضاء على كل دولة إسلامية تفكر في تقوية أمتها ووحدتها، ترجع بالاسلام الى عهد قوته وازدهاره، وفي سبيل ذلك تقوم الدول الأجنبية، رغم ما بينها من خلافات وصراعات مذهبية أو سياسية، بالاتفاق ضد كل قوة إسلامية ناشئة، تفكر بالوقوف أمام الأطماع الاستعمارية وكانت انجلترا تحاول وقف زحف محمد علي باشا ونصيرته فرنسا - التي كانت الى جانبه - المنافسة الرئيسية لإنجلترا .

---

١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ، ص ٩٩

٢) نوال سراج ششة : الحجاز تحت حكم محمد على ١٢٢٦-١٢٥٦هـ ، (رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ، ص ١٢٥ - ١٢٦

وهكذا كان للدول الأجنبية مواقف متباينة تجاه سياسة محمد علي باشا ، فكانت فرنسا قد امتنعت عن الانضمام الى إنجلترا ضد قوات ابراهيم باشا في الشام. أما انجلترا فان موقفها قد اختلف تماماً عن موقف فرنسا، حيث كانت تسعى عن طريق قنصلها في سورية الكولونيل روز للوصول الى المرتبة التي وصل إليها النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، ان لم يتفوق عليه، مستنداً في ذلك الى تأييد سفارته في اسطنبول لأعماله. وفعلا تزايد نفوذ القنصل البريطاني لدى السلطات المحلية.

وكانت نتائج اتفاقية الاسكندرية في ١ شوال ١٢٥٦هـ/٢٧ نوفمبر(تشرين ثاني) ١٨٤٠م، تزايد النفوذ الانجليزي في اسطنبول وحصول بريطانيا على هذه النتيجة في فترة أربعة شهور، مع الأخذ في الاعتبار أن مجهوداتها الدبلوماسية قد فشلت في الوصول الى هذه النتيجة طوال ثماني سنوات . بينما لم تجد روسيا، وألمانيا، والنمسا، ذلك التأييد من قبل الدولة العثمانية لأنها لم تقدم سوى الدعم المعنوي في الوقت الذي كانت فيه الدوله تسعى للحصول على الدعم المادي.

أما روسيا فقد عملت على الإفادة من الوضع الجديد ، وذلك بعد أحداث عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، من أجل زيادة مصالحها عن طريق التدخل تحت اسم الدين النصراني مدعية، حماية المذهب الأرثوذكسي، ولقد استثمرت روسيا جميع الفرص المتاحة لها، لزيادة نفوذها لدى الروم الأرثوذكس والأرمن في الشام ، وعلى حساب الكاثوليك، ونجحت في توسيع نفوذ قناصلها في بيروت حتى وصل الى القدس، وبعدها بدأت تطالب ببعض الأماكن المقدسة التي كانت للكاثوليك في الكنيسة المقدسة في القدس(١).

وقد صرح فكبكو قنصل النمسا في بيروت ، منذ وصوله «أن حماية الكاثوليك في الشرق أصبحت الآن من حق النمسا، بعد أن فقدت فرنسا كل حق لها في أن تستقل بهذه الحماية» (٢)، وقدم لبطريرك الموارنة مبلغاً وقدره ٤٥٠٠ ليرة ذهبية لبنانية ليوزعها على المتضررين من أبناء طائفته في حوادث عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، وأخذ يوزع مبالغ أخرى على رجال الدين من الروم الكاثوليك وأعلن في حضور البطريرك، بأن حكومته مستعدة لدفع مبلغ مليون

---

١) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ١٧٤ - ١٧٦

٢) أنظر بالتفصيل الفقرة الأخيرة من الباب الثانى من هذه الدراسة ففيها بحث مفصل عن دعوى حماية الأقليات الأجنبية

فرنك فرنسي إذا قبلت الطوائف الكاثوليكية حماية امبراطورية النمسا (١).

ولقد بلغ من اهتمام أوروبا بجبل لبنان، أن الأمير مترنخ، مستشار النمسا في ذلك الوقت، أبدى اهتماماً كبيراً بشكل الحكم الذي يجب أن يطبق على جبل لبنان ، ليكون في مصلحة الدول الأجنبية، قبل مصلحة الدولة العثمانية، أو مصلحة جبل لبنان ذاته. واقترح مترنخ أن يقسم لبنان الى قائمقاميتين أحداهما إسلامية والثانية نصرانية. وليس من العجيب أن توافق الدولة العثمانية على قبول مثل هذا الاقتراح، فقد كانت مضطرة بسبب أوضاعها الداخلية، وبالفعل قسمت لبنان الى قسم جنوبي وآخر شمالي ، تفصل بينهما الطريق الممتدة من بيروت الى دمشق وجعلت القائمقامية الجنوبية الاسلامية تحت حكم الأمير أحمد أرسلان ومركزه بيت الدين . وانحصر لبنان الجديد في ثلاثة أخماس لبنان القديم، حيث أرادت الدول الأوروبية من ذلك المشروع جعل لبنان بلداً نصرانياً، غير مهتمة للخسائر الاقتصادية التي تنجم عن سلخ هذه المناطق (٢).

وهنا يطرح السؤال نفسه : لماذا عملت الدول الأوروبية على تقسيم جبل لبنان ؟، ومن هو المستفيد الأول والأخير من هذا التقسيم ؟.

لقد كان لبنان منذ القدم بلداً واحداً، وعاش في ربوعه جميع الطوائف المختلفة دون نزاع يذكر، ولكن عندما بدأت الأطماع الأجنبية تظهر في بلاد الشام، اتبعت سياسة فرق تسد التي عرفت عنها في كل زمان ومكان. وبذلك عملت على تقسيم لبنان الى قسمين أو دولتين إحداهما مسلمة والأخرى نصرانية، فوضعت بذلك بذور الخلافات الطائفية، وزرعت الحقد والكراهية بين أبناء البلد الواحد، وهي تريد من القائمقامية النصرانية التي صنعتها بأيديها وربتها على عزيز مالها، أن تكبر وتترعرع لتصبح دولة نصرانية وسط جميع الدول العربية الاسلامية، حتى يكون للدول الأجنبية حرية التدخل في أي وقت تشاء، بحجة حماية هذه الدولة النصرانية، وللأسف فقد تم لها ما أرادت بالفعل، وأصبحت لبنان - التي تضم أكثرية مسلمة - دولة نصرانية وتغلب عليها الفتن والحروب المتواصلة بين طوائفها المختلفة، والتي ظلت الدول الأجنبية تخطط لها دائماً. حيث تهدف من حروبها القضاء على الاسلام في لبنان الى الأبد.

---

١) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ١٧٦

٢) مصطفى الخالدى وعمر فروخ :التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ١٣٨-١٣٩

أما عن فكرة استعمار فلسطين واستيطانها ، فإنها تهيمن على تفكير مؤسسي الجمعيات التنصيرية منذ بداية عهدها في المنطقة، وبخاصة مع انتهاء حكم محمد علي في بلاد الشام عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، واعتقاد الكثير من الأوروبيين أن الدولة العثمانية أوشكت نهايتها، وأنه لا بد من اقتسام ممتلكاتها والسيطرة بصفة خاصة على فلسطين التي تحتل موقعاً استراتيجياً ممتازاً بين هذه الممتلكات بالاضافة الى أهميتها الدينية.

ففي الخامس عشر من صفر عام ١٢٥٦هـ/ أبريل ١٨٤٠م طلب «شبتلر» من البارون بونزن وزير بروسيا المفوض في «بيرن» لدى زيارته لمقر جمعيته في بازل السعي لإقامة مستعمرة بروتستانتية نموذجية، في الأرض المقدسة.

وقدم بونزن في ٢٥ صفر من عام ١٢٥٦هـ/٢٩ أبريل(نيسان) من عام ١٨٤٠م مذكرة الى وزير الخارجية البروسي فيرتر تتضمن مشروعاً حول مستقبل فلسطين وينص المشروع على فصل فلسطين عن بقية الولايات العثمانية وربطها مباشرة بالباب العالي، ووضع سكانها النصارى تحت حماية الدول الأوروبية بحيث تتولى فرنسا والنمسا حماية الكاثوليك، وروسيا حماية الأرثوذكس، وانجلترا وبروسيا حماية البروتستانت وأن تصبح القدس وبيت لحم والناصرة ممتلكات - مستعمرات - نصرانية ، وكان هذا المشروع وراء فكرة إنشاء مطرانية بروتستانتية بروسيـة إنكليزية مشتركة في بيت المقدس (١).

ومن الجدير بالذكر أن بريطانيا تود استعمار فلسطين منذ القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وتريد إقامة حامية فيها لحراسة طريق الهند. فعملت على نقل فلسطين الى المذهب الانجليكاني - مذهب الدولة في انجلترا - وإرسال اليهود المنصرين الى فلسطين، أو تنصيرهم بعد وصولهم إليها، وإعلان الحماية البريطانية عليها.

ولقد روج اللورد بالمرستون، وزير الخارجية البريطانية، لهذه الفكرة التي دعى إليها شافتسيري ، وأيدها في رسالة نشرتها له جريدة التايمز اللندنية بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة من عام ١٢٥٦هـ/١٧ أغسطس (آب) عام ١٨٤٠م. ومن الشخصيات الانجليزية التي المشهورة في السياسة الشرقية والغربية والتي عملت على الترويج لتلك الفكرة ، رئيس الوزارة البريطانية ليفنغستون، والممرضة الشهيرة فلورانس ناتينفايل وغيرهما، كل هؤلاء - رغم تخفيهم تحت براقع وضعوها على وجهوهم - كانوا ذوي اتجاه تنصيري

---

١) علي محافظة : العلاقات الألمانية ، الفلسطينية ، ١٨٤١-١٩٤٥ ، ص ٨٩-٩٠

استعماري، وكلهم كانوا يريدون اختراع الوسائل للدفاع عن الامبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها (١).

ولهذا عملت كل من بريطانيا وفرنسا على إثارة الاضطرابات والفتن في الدولة العثمانية لتتمكن من التدخل في شئونها الداخلية بعد ذلك، وكان معظم تلك الفتن مابين عامي ١٢٥٦هـ-١٢٧٧هـ/١٨٤٠-١٨٦٠م ولم تخف كل من انجلترا وفرنسا اهتمامهما بسورية، حيث تتنافسان عليها علناً في سبيل تثبيت نفوذهما فيها بشكل خاص. فمثلا لما تدخلت انجلترا وفرنسا في شئون جبل لبنان بعد فتحه عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م أراد نابليون الثالث أن يمد أجل بقاء الجيش الفرنسي في سورية، ولكن انجلترا رفضت ذلك، ولما أصر نابليون الثالث على رأيه أعدت انجلترا عشرة الاف جندي في قبرص ومالطة وجبل طارق. ولو لم تسحب فرنسا جميع جنودها من سورية في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ١٢٧٧هـ/ الخامس من حزيران عام ١٨٦١م لأخرجتها انجلترا بقوة السلاح (٢).

ولقد كانت الدولة العثمانية تمثل الجدار - وان يك واهياً - ضد الغزو الأوروبي الصليبي المتآمر على العالم الاسلامي، ذلك الغزو الذي شرع فعلا في التهام الوطن العربي للاجهاز على الاسلام ، في وقت كانت فيه الأحقاد الصليبية تنطلق بغير حياء.. مما جعل كاتباً فرنسياً يقترح القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأن تنقل عظامه الى متحف اللوفر في باريس.. ، مما يظهر مدى حقدهم على الاسلام وعلى رسوله الكريم .

وكانت فرنسا تحتل سوريا ولبنان ، وفي نفس الوقت بدأت الصهيونية تفكر في غزو فلسطين وأخذت تساوم السلطان عبدالحميد عليها فيكون رده ضربة من حذائه لشيلوك مندوبهم اللئيم، فيتوعده رجل الصهيونية.. وينفذ وعده بعد ذلك بمساعدة حزب الأحرار (الأشرار) الذين اختاروه ليبلغ السلطان بنفسه قرار خلعه (٣).

ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، بدأت تتضح أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية في بلاد الشام، حيث جاءت

---

١) مصطفى الخالدى وعمرفروخ : التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ١٨٥

٢) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٣٥

٣) محمد جلال كشك : الغزو الفكري، (الطبعة الرابعة، القاهرة، المختار الاسلامي: ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص١٥٣-١٥٤

الى لبنان فئتان من المنصرين أحداهما من فرنسا وهي كاثوليكية وأخرى انجيلية بروتستانتية من أمريكا وانجلترا، وكانت تلك الفئات هي النموذج الأمثل للارساليات التنصيرية، ومثلا حياً للاستعمار والاستغلال ، مستخفية تحت ظل التنصير، واجتهدت البعثتان الكاثوليكية والبروتستانتية في بناء عدد من المدارس، فشيد الأمريكان الكلية السورية، الانجيلية في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م في بيروت، وهي الجامعة الأمريكية اليوم. وشيد الآباء اليسوعيون كلية القديس يوسف عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م في بيروت، وكان الطابع المميز لهاتين الكليتين ولغيرهما من مدارس المنصرين هو الطابع التنصيري السافر ، ولقد تجاوز نشاطهم بعد ذلك الى إنشاء المطابع وإصدار الصحف والمجلات التي تزين الدخول في النصرانية وتعمل على تشويه الاسلام.

وعلى الرغم من وجود الفوارق الثقافية والاجتماعية بين مختلف الطوائف، وتقرب بعض النصارى واحتكاكهم المباشر بالدول الأوروبية ، فإن السلام والوئام ظل قائماً في لبنان. ولم تبدأ الخلافات بينها إلا بعد أن دس الاستعمار أنفه في هذا التركيب الاجتماعي المتنافر، وأصبح قناصل الدول الأجنبية الأوروبية ومنها فرنسا وانجلترا يتنافسون في كسب ولاء هذه الطوائف تمهيداً للاستيلاء على المنطقة واستغلالها فيما بعد، وإخضاعها مباشرة لمؤسسات الاستعمار وثقافته (١).. فكانت الدول الكبرى تتدخل بحجة رعاية مصالح الأقليات النصرانية في الشام، فأصبحت تعنى بافتتاح المدارس وبعث الارساليات اليها، فكان هذا مصدر تنبيه للتطورات الفكرية والسياسية والقومية خارج الدولة العثمانية (٢).

ومن هذا المنطلق يتضح لنا أن الدول الأجنبية الكبرى - وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا - نشطت في ذلك الوقت في ارسال بعثاتها التنصيرية، الى بلاد الشام من أجل غايات وأهداف غير نبيلة، منها أهداف سياسية واستعمارية استغلالية ليس في بلاد الشام فحسب بل في المنطقة العربية بأسرها.

---

١) إبراهيم خليل : الجذور التاريخية والسياسية للنزعات الإنعزالية والإقليمية فى الثقافة العربية (المجلة الثقافية الأردنية : العدد ٢٠ ، السنة الثانية)، ص ١٢١

٢) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر : ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ص ٢٣٢

ويمكننا فيما يلي أن نجمل الدوافع والأهداف الاستعمارية السياسية لهذه الارساليات في بلاد الشام :

١) الدافع الاستعماري:

قد يظن البعض أن الدوافع الحقيقية للإرساليات التنصيرية الى بلاد المسلمين هي دوافع دينية بحتة لتشكيك المسلمين في عقيدتهم ودينهم، والواقع أن هذا صحيح الى أبعد الحدود، إلا أن المرسلين قاموا بإخفاء أهدافهم السياسية من وراء هذا الدافع لتحقيق مآرب دولهم. فقام المنصرون والمستشرقون وهم الآداة المنفذة للارساليات، بالانضواء تحت لواء حكوماتهم الاستعمارية، فكانت تعدهم الإعداد اللائق والمناسب لينفذوا مهمتهم في بلاد المسلمين لتحقيق الغايات الاستغلالية الاستعمارية لبلادهم، فاعتمدت عليهم تلك الحكومات في بسط نفوذها على البلاد الإسلامية والشرقية.

وقد سهلت الحكومات الأجنبية للمنصرين والمستشرقين مهمتهم، وزودتهم بالمال والدعم السياسي. فتفرغوا لدراسة أحوال تلك البلاد في كل شئونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها، وعلى مواطن الضعف فيغتنموها (١). فكانت انجلترا مثلا تسعى جاهدة الى مساندة الاستعمار اليهودي في فلسطين. وأصبح نشاط الارساليات الدينية طريقاً آخر تستغله انجلترا للتغلغل في الشرق العربي بأكمله (٢).

ولقد اشتدت قوة نشاط الارساليات في منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، بفتح المدارس والمؤسسات في سوريا وفلسطين، ناشرين بحماس التعاليم النصرانية بالإضافة الى بسط نفوذ الدولة التي ينتسبون اليها. بينما كان من الثابت أن الارساليات الكاثوليكية للعازاريين والجزويت من أوائل البعثات القادمة الى الشرق ، والذين يعتبرون من أكثر الارساليات نشاطاً، حيث كانت أعمال هؤلاء

---

١) محمد عبدالفتاح : أضواء على الاستشراق ، ص ٤٥ ، مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، ص ١٣-٢٥

٢) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، (موسكو ، ١٩٧١م) ، ترجمة : عفيفة البستانى ، إعداد : ايفانون ، مراجعة بورى روشين ، ص ١٥٧

المنصرين تدار من قبل الفاتيكان(١) وتحظى بمساندة فعالة من قبل فرنسا .

وافتتحت الارساليات الكاثوليكية شبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية. وفي عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م بعث البابا نظام بطريركية القدس اللاتينية ، الذي كان قائماً في وقت من الأوقات في عهد الصليبيين. ولحقتها روسيا الى القدس في عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م لتكون لها إرسالية دينية ، تعتمد عليها لتعزيز نفوذها بين السكان الأرثوذكس في شبه جزيرة البلقان أيضاً. أما إنجلترا ، فأقدمت على مخاطرتين في آن واحد. إذ ساندت البروتستانت وخطط المستعمرين الألمان في فلسطين ، وأنشأت في القدس عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م أسقفية انجليزية - بروسية. ومن جهة أخرى، شجعت بريطانيا خطط الاستعمار اليهودي وبدأت تحتضن مختلف أنواع المشاريع الصهيونية (٢).

ومع أن انجلترا ليست وحدها في تشجيع المشاريع الصهيونية في فلسطين ، بل كانت الفكرة الصهيونية هدف مشترك للدول الاستعمارية الأخرى مثل فرنسا، والمانيا، وايطاليا. ولو أن دور إيطاليا كان متواضعاً - بالنسبة لاستغلال المشروع الصهيوني - بالمقارنة مع دور بريطانيا وفرنسا وألمانيا (٣).

وكانت أقوى دولتين - بريطانيا وفرنسا - تتنافسان على الشرق الاسلامي وبلاد الشام خاصة، فتعارضت المصالح البريطانية والمصالح الفرنسية في أراضي الدولة العثمانية، فتواجدت بريطانيا في مصر ومابين النهرين في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وذلك عبر سلسلة من المعاهدات المختلفة مع الزعماء المحليين الذين كانوا دون حول ولا قوة أما فرنسا علاوة على أطماعها في المنطقة والتي تهدد بها المصالح البريطانية وتهدد طريقها الذي يربطها بمستعمراتها في الهند، فقد كان لها ادعاء بأنها حامية للأقليات النصرانية مثل الموارنة، الكلدانيين، والنسطوريين إلا أن بريطانيا وفرنسا كانتا متفقتين مبدئياً على ضرورة تقسيم

---

١) الفاتيكان : المقر الرئيسى لإقامة البابا
٢) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ١٥٨. وعلى محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص ٥٠ - ٧٠. وعبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية فى سورية وفلسطين ١٨٤١-١٩٠١م ، (الطبعة الأولى ، بيروت ، معهد الانماء العربى : ١٩٨٧م) ، ص ٢٨-٣٨
٣) رفيق شاكر النتشة : الإستعمار وفلسطين ، ص ٩٣-١١٣

تركيا الاسلامية الآسيوية حين يحين الأوان (١). ومع نهاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي أصبحت سورية الكبرى المحرق الرئيسي للنشاط الفرنسي، ولكن الى حد ما ثمة اجماع بين السياسين على أن الفرنسيين غير قادرين على مضاهاة البريطانيين سواء في نوعية الموظفين أو في درجة النفوذ السياسي.

ولقد قرر أحد المستشرقين المعاصرين وهو الكونت دوكريساتي : «أن سورية هي شرق فرنسا الخاص، ومحط أنظار المصالح الفرنسية السياسية، والأخلاقية والاقتصادية وهي مصالح يجب أن يدافع عنها»، ولكن من الملاحظ أن فرنسا كانت مهددة ليس من قبل بريطانيا فقط، بل أيضاً من قبل النمسا، وألمانيا، وروسيا، وذلك برغم وجود الشركات التجارية الفرنسية في الشرق، ورغم وجود أكبر عدد من الطلاب الشرقيين في مدارس فرنسية ، وإذا كان لفرنسا أن تستمر في منع عودة الاسلام، فقد كان من الخير لها أن تحتل الشرق، وكانت هذه منظومة طرحها دوكريساتي وأثنى عليها السناتور بول رومر. وقد تكررت هذه الآراء في مناسبات كثيرة وبالفعل نجحت فرنسا بالانفراد في سوريا وشمال إفريقيا بعد الحرب العالمية الأولى وذلك بعد سقوط دولة الخلافة العثمانية (٢).

٢) إعداد الركائز الاستعمارية:

ولما كانت مهمتهم خطرة، اختاروا لها جنوداً صنعوهم على أعينهم في مدارس الارساليات وفي المختبرات النفسية وغيرها. وحرصوا على نجاحهم في التفنن في شئون التربية والدعوة، مع الثقافة الواسعة والتحلي بالصبر والأمل، مع التركيز على اختيار منصرين ممن تنصر من المسلمين. وذلك حسب توصية المنصر الخطير زويمر الذي يقول : « إن الشجره يجب أن يقطعها أحد أصحابها» (٣).

ولذلك عمل المنصرون على تربية جيل من الشباب في مدارس الارساليات يستقطب مفاهيم وقيم الغرب، حتى تصبح حقائق أساسية لا سبيل الى إنكارها، وذلك بمولاة ترديدها، مع وجود الفرص المتاحة لها من النشر

---

١) إدوارد سعيد: الإستشراق ، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص ٢٣٠
٢) إدوارد سعيد : المرجع السابق ، ص ٢٣٣-٢٣٤
٣) عطية صقر : الإسلام فى مواجهة التحديات ، ص ٢٦

والاذاعة في مجالات الصحافة والتعليم بصوت مسموع. ولهذه الأسباب مجتمعة فان حركة التنصير تعتبر حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده وتعميقه (١).

وهكذا نجد أن هذه الفئة من المستشرقين والمنصرين لا يعوزهم الخبث ولا العقل، فنجدهم تارة يمدحون الاسلام ، ورسول الاسلام ، حتى نثق بكلامهم، ثم يقومون بعد ذلك بالطعن والتشويه ، وتارة يذمون كل ما جاء في الاسلام حتى نفقد الثقة بأنفسنا، واذا بهم يلقوا إلينا بما أرادوا، وتارة يستعملون تلامذتهم الذين تربوا على أيديهم لينفذوا خططهم ويحققوا أهدافهم ، وكان من المستشرقين ممن استعمل هذا الأسلوب - أسلوب المدح والطعن في النقط الأساسية في الدين - جوستاف لوبون. ومنهم من اتخذ طريق الهجوم دائماً ، رينان ، وبروكلمان ، وجولد تسهير وأمثالهم ، فهؤلاء يطعنون في كل ما جاء به الاسلام تقريباً، وإن كان بينهم خلاف في هذه المطاعن.

لقد عمل المستشرقون على استحالة عدد ليس بالقليل من أبناء المسلمين وربوهم على أيديهم. وأخلص التلاميذ لأساتذتهم وحاولوا أن ينفذوا تعاليمهم بعناية وبذلك تورطوا في الدفاع عن أمور كلها خروج على الشرع ولكن للانصاف نقول إن بعض هؤلاء التلاميذ يشعر بما يقوم به، وبأن نجاحه في دعوته معناه القضاء على الأمة، وهو يعلم ذلك تماماً، ويعمل من أجله عمداً. ومنهم من بريء من سوء النية، ولا يشعر بخطر مايقوم به ولكنه لم يتعمق في معرفة دينه حتى يقيم نهضته عليه، وبذلك اندفع في الدفاع عما جاء من الغرب دون تبصر.
وقد يؤدي للعدو خدمة أعظم مما لو كان يشعر بما يقوم به ، لأنه مندفع بلا حدود ، اعتقاداً منه أنه يحترم وطنه (٢).

٣) القضاء على الوحدة الإسلامية :

يقول القس سيمون : «إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب

---

١) أنور الجندى : عالم الإسلام المعاصر ، (القاهرة ، مطبعة الأنصار) ، المجلد الثالث ، ص ٣٠٩-٣١٠

٢) بركات عبدالفتاح دويدار : الحركة الفكرية ضد الإسلام ، (مكة المكرمة ، المركز العالمى للتعليم الإسلامى : ١٤٠٦هـ) ، ص ١٠٢

السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية. ولذلك كان التنصير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التنصير يعمل على إظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصري القوة والتمركز ، إذ كانت الوحدة الاسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوروبي، ثم استطاع المنكرون أن يظهروا الأوروبيين في غير مظهر المستعمر، فإن الوحدة الاسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من أسباب وجودها من أجل ذلك قالوا يجب أن نحول بالتنصير مجاري التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في فكر المسلمين، وكان الفرنسيون يخافون من المساعي التي تحقق الوحدة الاسلامية (١).

وعلى هذا الأساس أصبح العثمانيون خطراً على أوروبا منذ دخلوا الاسلام، لا لأنهم مسلمون بل لأنهم قد أصبحوا قوة تستطيع أن تقف في وجه الأطماع الأوروبية.

وهكذا نرى أنهم جعلوا الدين طريقاً للسيطرة السياسية، وكان الدين هو الوسيلة، أما السياسة فكانت الهدف الحقيقي، والسياسة هنا معناها استبعاد الغرب للشرق.

ونعتبر أن الوسائل التي اتبعها المرسلون الأجانب في رحلاتهم الى بلاد الشام خاصة وفي بلاد المسلمين عامة متشابهة ومدروسة، رغم أن بين بعثاتهم التنصيرية الكثير من الاختلافات والنزاعات الحقيقية بسبب مطامع دولهم جميعاً في بسط النفوذ على بلاد الشام عامة ، وبيت المقدس في فلسطين خاصة، والعمل على إخراج المسلمين من دينهم وإلحاقهم بالدول الاستغلالية ، وتغيير الهوية الاسلامية بشكل أخص وأهم ، واستغلال ثروات بلادهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا.

٤) إثارة الفتن والحروب الداخلية في الدولة العثمانية :

تحركت أطماع الدول الأوروبية لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينها، عندما بدأ الضعف يدب في كيان الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وفي ذلك الوقت أخذت دويلات البلقان التي خضعت لحكم الدولة العثمانية تتطلع الى الخروج على الحكم العثماني ، وترنو الى الاستقلال. بل لقد طالبت بعض

---

١) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار فى البلاد العربية ، ص ٣٧ - ٣٨

تلك الدول بطرد العثمانيين كلية من أوروبا، ولقد شغلت هذه المسألة أذهان ساسة أوروبا طوال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وأصبحت حجر الزاوية في السياسة الأوروبية في ذلك الوقت، وأثرت في مجريات الأحداث الأوروبية تأثيراً خطيراً

فروسيا مثلا كان حلمها في ذلك الوقت الوصول الى المياه الدافئة في البحر المتوسط، ولن يتحقق لها ذلك الا بالقضاء على الدولة العثمانية والسيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل. ولذا كان شغلهم الشاغل اثارة الفتن والعقبات أمام الدولة العثمانية حتى لا تفكر في إدخال الإصلاحات الضرورية اللازمة لاستعادة قوتها ومنفعتها .

بينما كانت الحكومة البريطانية تتصدى للأطماع الروسية، لأنها لا تقبل أن تسيطر روسيا على منطقة المضايق، حتى لا يزاحم أسطولها الحربي الأسطول الانجليزي في مياه البحر المتوسط، لأن ذلك يهدد المصالح البريطانية في البحر المتوسط ويخل بتوازن القوى في نفس الوقت . وكانت تعمل على المحافظة على الدولة العثمانية ضعيفة كما هي، ليبقى الطريقان التجاريان الرئيسيان المؤديان الى الشرق في حوزة الدولة العثمانية حتى لا تهدد المصالح البريطانية بالخطر عند وقوعهما في أيدي دولة قوية (١).

ولقد اتبعت روسيا طرقاً غير مباشرة في العمل على الإضرار بالدولة العثمانية، فاستغلت العامل الديني في إثارة الدويلات النصرانية المحكومة ضد السلطان العثماني الحاكم المسلم، وكانت معظمها تدين بالمذهب الأرثوذكسي وهو مذهب الكنيسة الشرقية، ويعتبر القيصر الروسي الرئيس الأعلى للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، فكان من السهل عليه أن يوجه النواحي الدينية وجهة سياسية اتخذت أشكالا متعددة تحقيقاً لأطماعه في ممتلكات الدولة العثمانية.

وقامت حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا بسبب ديني ظاهر، حيث أن روسيا كانت تستغل زعامتها الروحية لشعوب البلقان مما أضفى

---

١) محمد محمود السروجي : المسألة الشرقية فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، الحرب التركية الروسية ١٢٩٤-١٢٩٥هـ/١٨٧٧-١٨٧٨م (مجلة كلية العلوم الإجتماعية ، العدد الخامس ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠١هـ) ص ١٥٢ - ١٥٣

على المسائل الدينية طابعاً سياسياً، وادعت روسيا أن من حقها تمثيل الطوائف النصرانية وحمايتها في دويلات البلقان. حسب ما فهمته من معاهدة كوتشك كينارجه التي عقدت بين الدولتين في عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ولما رفض السلطان العثماني بحزم الرضوخ لمطالب الروس لثقته أن بريطانيا لن تتركه وحيداً في نزاعه مع روسيا، أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م وتدخلت بريطانيا وفرنسا الى جانب العثمانيين وآثرت النمسا وبروسيا الوقوف على الحياد، وانتهت الحرب بهزيمة روسيا، ووضعت الدول المعنية شروط الصلح في مؤتمر باريس عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م . وهذه الشروط أعطت الدولة العثمانية فرصة لاصلاح نفسها، ولكنها لم تستفد من تلك الفرصة ، ولم تعمل بإخلاص على تقوية نفسها حتى تستطيع الدفاع عن كيانها أمام تطلعات ولاياتها المختلفة الأجناس والأهواء. بل إن أوضاع الدولة سارت من سيء الى أسوأ، وخصوصاً في زمن السلطان عبد العزيز الذي عرف عنه الاسراف والتبذير، وترتب على سوء تصرفه هذا أن ارتفعت الديون في عهده من ٢٥ مليون جنيه انجليزي الى ٢٥٠ مليون جنيه، فأعلنت الدولة عجزها عن سداد الديون عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م. ولهذا السبب الخطير، أخذت الدول الأجنبية تتدخل في الشئون المالية للدولة العثمانية لضمان مصالحها، فأنشأت ما يسمى بدائرة الديون العمومية تحت إشراف هيئة دولية تتولى تنظيم سداد الديون وفوائدها، مما أدى الى التدخل الأجنبي في شئون البلاد الداخلية (١).

وإذا تحدثنا عن الوسائل التي اتبعها المرسلون الأجانب من شتى الطوائف ، في سبيل الوصول الى ما يصبون إليه ، فهي كثيرة ومتعددة ، نذكر منها ما يلي :

أولا : فتح المدارس التي تهدف الى جانب الوسائل الأخرى، خدمة للدين النصراني. ومما يدل على ذلك بصراحة المنشور الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م - وهي كلية بروتستانتية تأسست عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م - رداً على احتجاج الطلاب المسلمين على الدخول يومياً الى الكنيسة . وقد نصت المادة الرابعة من ذلك المنشور على :

«أن هذه الكلية نصرانية أسست بأموال شعب مسيحي هم الذين اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية، وأنشأوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن

---

١) محمد السروجي : المسألة الشرقية ، ص ١٥٤-١٥٩

لمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافع الحقيقة النصرانية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه» (١).

ثانياً: تقديم الخدمات الصحية بإنشاء المصحات لتكرار اللقاء بالمرضى المسلمين بشكل انفرادي ، أو جماعي. ومن وصاياهم في ذلك وجوب ملازمة المريض، خصوصاً عند الاحتضار، حتى يطمئن على نجاحه وتحويله الى النصرانية، كما أوصى الدكتور أراهارس - المنصر بطرابلس الشام - بأن طبيب إرساليات التنصير لا يجب أن ينسى أنه مبشر أولا ثم طبيب ثانياً (٢).

ثالثا: الترويج للإنجيل وبيعه بثمن زهيد ، وترجمته الى اللغات الحية ، ونشره بكل لغة يتكلمها الكثير من الناس ، وفتح مكتبات لبيع هذه الترجمات وكتب التنصير بأسعار زهيدة. والاهتمام بتعليم اللغات الأوروبية لقراءة أفكار الأوروبيين في كتبهم وصحفهم، وفي الوقت نفسه ذم اللغه العربية واتهامها بالصعوبة، حتى ينصرف المسلمون عن تعلمها ، وبالتالي عن كتبها لقطع صلتهم عما فيها من ثقافة إسلامية، وقطع صلتهم بالقرآن مصدر قوتهم. وكذلك دراسة القرآن للدس فيما جاء فيه وتشويهه.

رابعاً: الاهتمام بتنصير النساء المسلمات عن طريق منصرات تم تجنيدهن في عملية التنصير، حيث يسهل دخولهن الى البيوت وعمل صداقات مع الأسر، وتشجيع فتياتها على الخروج من بيوتهن بدعوى التحرر.

خامسا: التنصير عن طريق الحيلة ، فمحاولة التقرب من المسلمين وعمل صداقات معهم، ومحاولة ترجيح النصرانية على الاسلام، في الدعوة الى حرية المرأة وانتقاد تعدد الزوجات عند المسلمين ، ومحاولة تقليد الغرب في كل ما هو بعيد عن الأخلاق والدين الاسلامي. وتصويره على أنه حضارة وتقدم.

سادساً: الاكتفاء بزعزعة المسلم عن دينه والتشكيك فيه، وعدم عرض النصرانية عليه إلا بعد أن يتهيأ تماماً لذلك ، وبعد فراغ روحي شامل، وإلقاء

---

١) عطية صقر : الإسلام فى مواجهة التحديات ، ص ٢٧
٢) »أ. ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٦٢

الخطب والمواعظ بطريقة مبسطة، محببة للنفوس مع الاستعانة بالموسيقى والألحان، حتى يفقد السامعون الثقة في أنفسهم ويرتموا في أحضان الغرب بعيداً عن المقاييس الأخلاقية والمبادىء العقائدية، وبذلك يخضع المسلمون للاستعمار خضوعاً لا تقوم لهم من بعده قائمة (١).

سابعـاً : إظهار الطوائف النصرانية القائمة على التنصير بمظهر الوحدة والتعاون ، خشية أن يرى عقلاء المسلمين في اختلافهم طعناً في جهودهم وهم أبعد ما يكونون عن الاتفاق(٢).

ثامنـاً: احتضان الدول الأجنبية للأقليات النصرانية في بلاد الشام ، ففرنسا فرضت حمايتها على الأقلية المارونية في لبنان عام ١٢٧٦هـ/١٨٦١م ، وعملت على فصلها لتفتيت المجتمع ، ودعت الى ما يعرف اليوم باسم الانعزالية. وأظهرت هذه الفكرة، العرب بمظهر الغزاة المحتلين الطامعين بابتلاع النصارى، واستغل عملاء فرنسا أحداث عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م لإبراز هذه الأفكار والتي جعلت ركيزة الدعوة الانعزالية فيما بعد (٣).

تاسعـاً: التشكيك في التراث والحضارة الإسلامية وتزيين الحضارة الغربية حيث كان من أهداف المستشرقين والمنصرين أن يعملوا على إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين على وجه الخصوص. وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم، وذلك عن طريق التشكيك في فائدة ما بأيديهم من تراث، وما عندهم من عقيدة وقيم إنسانية ، حتى يفقدوا الثقة في أنفسهم، ليرتموا في أحضان الغرب، وليتم للدول الاستعمارية ما تريد وتخطط له من خضوع المسلمين للمادية الغربية (٤). بل ويجعل من أهل البلاد من يؤمن بنظرياته ويعمل على تطبيقها ، فلا يعمل لمصلحته ولا لدينه. وكان حرياً بمن عرف نواياه أن يقضي عليه ويبيده كالحشرات الضارة.

ومن هذا المنطلق يجد الاستعمار له رواداً، يحاولون إقناع الرأي العام أن ما يقوم به الاستعمار، ما هو إلا عمل حضاري إنساني يهدف الى

---

١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ٤٥
٢) عطية صقر : الإسلام فى مواجهة التحديات ، ص ٢٨
٣) ابراهيم خليل : الجذور التاريخية والسياسية ، ص ١٢٢
٤) مصطفى السباعى : الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ص ٣٠٩

ترقية البشرية باعتبار أن الجنس الأبيض هو صاحب الحضارة المسئول عن تحديد الأجناس الملونة، دون الانتباه لما تخفيه تلك العبارات من استعمار سافر ، يبيح للأبيض استعمار الملونين - حسب تعبيرهم - في شتى بقاع الأرض.

وهم يحاولون تحويل العقلية الاسلامية عن مفاهيمها الأساسية وإثارة الشبهات حول مقومات الفكر الاسلامي، وذلك في محاولة لتذويبها وقهرها في الفكر الغربي باعتباره هو الفكر المسيطر. وبذلك يحل مفهوم التقبل والرضى للنفوذ الاستعماري باسم الحضارة والمدنية. ولقد أيد الاستعمار هذا النفوذ الجديد وهو التنصير المتمثل في الارساليات بكل مؤسساتها، حتى أنها كلما عقدت عقداً مع أي دولة اسلامية كانت تنص في صلب المعاهدة على حماية الارساليات ودعمها (١).

ومن أخطر ما يقال في هذا المجال أن هذا التشويه قد وصل الى أطفالنا عبر الموسوعات والمسلسلات المختلفة المترجمة حيث ينسب كل شيء الى الغرب، وتحاول كل موسوعة أن تشمل شرف الاختراعات والنقاط الانعطافية في التاريخ للأمة صاحبة اللغه المترجم عنها. بل وأن صدور هذه الكتب يحدث نوعاً من الارتباك في أذهان الأطفال الذين يوازنون بين كل هذه المبارزات، فلمن نسجل شرف المخترعات والسبق الحضاري، لفرنسا أم لإنجلترا ، لروسيا أم لأمريكا، يمكن أن يكون لأى دولة من تلك الدول (٢).

والى جانب ما تزرعه الارساليات الأجنبية في عقول أولادنا من التشويه المتعمد في المناهج والعقيدة، تعمل جاهدة على التشجيع على هجرة الأدمغة العربية الى الخارج. ولمطلع على هذه الظاهرة المحزنة ، لا يستطيع أن يتناسى الدور الذي تلعبه الدول العربية نفسها في التشجيع على ذلك. لكن لا يستطيع أحد أن يفكر أن حركات الجذب الشديدة التي تهيؤها الدول المتقدمة للاختصاصيين - مثل المرتبات العالية والوضع الاجتماعي المتميز وغيرها - تلعب دوراً حاسماً في عملية الهجرة. ولعل قضية هجرة الأدمغة العربية النابغة من أكبر المشاكل التي تعاني منها الدول الحديثة الاستقلال دون استثناء ، وخصوصاً في بلاد الشام . وهذا التخطيط المتعمد لإغراء العقول الذكية والأدمغة المتخصصة للهجرة الى

---

١) أنور الجندى : عالم الإسلام المعاصر ، ص ٣٠٩

٢) عماد حاتم : الغزو الثقافى ... ، ص ٧٠-٧١

الخارج ، يؤكده كلام جون افريك الذي قال :
«إن البعثات الأمريكية تنقب في العالم الثالث بحثاً عن المادة الشديدة الحيوية بالنسبة للاقتصاد المعاصر وهي المادة الرمادية لدماغ الرأس. فيتم إغراء الشباب من الاختصاصيين والعلماء والأطباء نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ومثل هذا الوضع يعوق تطور الدول الافريقية والآسيوية، ويضيف الى العائق الذي يسببه نقص الرساميل ، عائقاً آخر وهو نقص التقنيين المحليين والذي يصبح لازماً استبدالهم بالاختصاصين الأجانب ممن يطلبون التعويضات المرتفعة»(١).

وبموجب تقديرات منظمة اليونسكو ، فإن ما يقارب من ١٠ آلاف شخص، في مقدمتهم العلماء والمهندسون وعلماء الفيزياء والفنيون والطلاب ، يهاجرون سنوياً من البلدان العربية الثمانية الشمالية : سوريا والأردن وليبيا والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر، وتسافر أغلبيتهم الساحقة الى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وجمهورية ألمانيا الفيدرالية ، فتمتص تلك الدول أقوى ثروة وأشد وأفتك سلاح ، ألا وهي العقول الشابة المفكرة.

ونرجو أن لا يفهم مما سبق أننا ضد خروج أبنائنا لاكمال دراستهم في الخارج، ولكن لا بد أولاًمن تربيتهم منذ الصغر على الاسلام ، وبصورة مجابهة للغزو الثقافي الاستعماري الذي يجتاح حياتنا ويواكب تدرج أطفالنا من دور الحضانة الى ما بعد التعليم الجامعي . وكذلك إنشاء أكاديمية عربية تشرف على برامجنا التعليمية عبر تخطيط مبرمج شامل، وتقوم بإصدار الموسوعات العلمية العربية الخالية من التشويه والتحريف، والتي تساهم في تقديم الحقائق العلمية الصحيحة للأجيال القادمة، والتي تبحث بصدق عن المعرفة ، فلا تجد ضالتها الا في مكتبات الغرب وعبر دعاياته التي تتفنن في استغلال الفراغ الثقافي الذي نعاني منه(٢).

ولقد وصف المستشرقون الغربيون الشرقيين بالتخلف والانحطاط وعدم التحضر، وأن عقليتهم قاصرة، ولقد ربط الشرقي بهذه الأوصاف وبهذه الصورة البشعة في جميع وسائل الاعلام الأوروبية، التي نادراً ما نظرت الى الشرقيين والمسلمين بصفة خاصة على أنهم بشر، بل كمشكلات تتطلب الحل أو الحصر ضمن حدود الاحتلال الغربي لبلادهم، وخصوصاً حين

---

١) عماد حاتم : الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الإستعمار الحديث في الوطن العربي، ص ٧١
٢) عماد حاتم: المرجع السابق ، ص ٧١.

بدأت القوى الاستعمارية تشتهي أراضيهم بشكل علني (١). ولقد نظروا الى الشرقي من خلال نظرتهم الى الدولة العثمانية الضعيفة المنقسمة فقامت الدول الأجنبية بعزل الولايات العثمانية لتجعل لها مكاناً على أنقاضها مستغلة بذلك أوضاع الدولة. فقامت فرنسا مثلا بتشجيع الموارنة في لبنان على المطالبة بالاستقلال الكامل، وشرعت بعض المؤسسات المارونية بالفعل تطالب باستبدال الحكم العثماني بالاستعمار الفرنسي. وكانت من هذه المؤسسات «جمعية النهضة اللبنانية». ونظراً لأهمية الدور الذي عولت فرنسا على الموارنة في أدائه - وهو تمكينها من إخضاع المنطقة، ونهب ثرواتها، ونشر ثقافتها، لاحتلال الشعوب والعقول بعد أن احتلت الأرض - فقد اهتمت بهم اهتماماً زائداً وقامت بتجنيد أعداد كبيرة منهم لهذه الغاية (٢). بينما قامت روسيا لتتدخل في شئون الدولة العثمانية بحجة حماية مصالح الأرثوذكس فيها. وطالبت بإعطائهم الأولوية في الأماكن المقدسة نظراً لتفوقهم العددي على الكاثوليك في الدولة. ومع أحداث الثورة الفرنسية - وما رافقها من إهمال فرنسا للقضايا الدينية في الخارج - وتزايد نفوذ روسيا، فقد ازداد نفوذ الرهبان الأرثوذكس في فلسطين، وخاصة في القدس وتراجعت مكانة الرهبان الكاثوليك، وبقي الوضع كذلك حتى عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م ، فقام نابليون الثالث بالتدخل في الأمور الدينية في محاولة منه لإرضاء الحزب الكاثوليكي القوي والذي كان يستند عليه في حكمه، ولذلك وجه رسالة الى السلطان العثماني فيها لهجة الصداقة طالب فيها باستعادة الامتيازات الفرنسية القديمة في الأماكن المقدسة. فوافق السلطان على ذلك ، وأعطيت لهم ثلاثة مفاتيح لكنيسة بيت لحم. وهذا التصرف هو الذي جعل السيطرة الفعلية في بيت لحم للاتين ، مما أساء الى حد كبير الى القيصر الروسي الذي كان يهمه دائماً أن يبقى مهاباً ومرهوب الجانب من قبل العثمانيين.

وكان للقيصر الروسي مآخذ على سياسة فرنسا آنذاك، فكان يعتقد أن تزايد نفوذ فرنسا في الدولة العثمانية وأوروبا سيعتبر بمثابة دعم وتأييد للنزعات الثورية والتحررية في كل من ألمانيا وإيطاليا (٣).

ورأى القيصر الروسي أن يتصل بالعثمانيين مباشرة مستغلا قضية

---

١) إداورد سعيد : الإستشراق ، المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ص ٢١٨
٢) ابراهيم خليل : الجذور التاريخية والسياسية ، ص ١٢٢
٣) عبدالعزيز نوار ، وعبدالمجيد نعنعى : التاريخ المعاصر ، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣م) ، ص ٢٣٣

الأماكن المقدسة، فأوفد في الأواخر من شهر جمادى الآخرة عام ١٢٧٠هـ/فبراير(شباط) سنة ١٨٥٣م الأمير منتشيكوف بمهمة خاصة الى اسطنبول تهدف الى الوصول الى معاهدة بين الدولتين تكفل لروسيا موقفاً متفوقاً في تركيا يعطيها مبرراً قانونياً للتدخل في شئونها الداخلية، وقد عرض المندوب الروسي على السلطان مشروع معاهدة من ثلاث نقاط :

١) سحب جميع الامتيازات الممنوحة للرهبان الكاثوليك في فلسطين وإعطائها لرهبان أرثوذكس.
٢) الاعتراف لروسيا بحق حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية.
٣) عقد تحالف دفاعي مشترك.

ولكن السفير الانجليزي (اللورد ستراتفورد) أشار على السلطان العثماني أن يقبل البند الأول ويرفض البندين الآخرين. لأن اعطاء الروس حق حماية الرعايا الأرثوذكس يعتبر أمراً خطيراً للغاية باعتبار أن هؤلاء ليسوا كالكاثوليك ، أقلية ضئيلة العدد ، فهم يشكلون في بعض المناطق العثمانية غالبية السكان. ثم لتلاصق البلدين وللمطامع الروسية المعروفة في الدولة العثمانية، فكان مثل هذا المطلب يعتبر خطيراً للغاية. ونصيحة السفير الانجليزي كانت لمصلحة بلاده أولا وليس حباً في السلطان(١).

عاشرا: ترويج فكرة القومية العربية:

إذا أرادت السياسة الأوروبية أن تتحرر من العقبات التي ترهق مستعمراتها ينبغي عليها أن تسعى لتفكيك الهوية الاسلامية التي تتحرك ضدها، وأن تظل ضائعة بين المفاهيم العربية والمفهوم الاسلامي، وعندما تتجرأ على حل المسألة العربية، فإنها تحطم آلياً التشابك الموجود بين المفهومين وتفتت الوحدة الاسلامية، كما أن القوميات الاستعمارية الأوروبية تؤكد هذا المفهوم في وجدانها منذ أمد طويل. إن نظرية الوحدة العربية هي خير علاج وأفضل ترياق ضد الوحدة الاسلامية، فهي إنما تشكل خطراً أكبر مما تشكله القومية التركية الحالية ، عرقية أساسية تصبح عنصراً صحيحاً للتوازن السياسي في العالم القديم. وإن تفتيت الهوية التي تجمع بين الاسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط - في نظر الأوروبيين - مجرد واجهة للقارة الآسيوية التي تطل على العالم الغربي ورأس جسر لأوروبا نحو آسيا الكبرى.

---

١) عبدالعزيز نوار وعبدالمجيد نعنعى : التاريخ المعاصر ، ص ٢٣٤

إن الوحدة العربية تصبح قادرة على مقاومة الوحدة الاسلامية إذا ما نظمت سياسياً. فإيقاظ الشعور القومي العربي هو الذي يهيمن على المسألة. وأن هناك نقطة لا بد أن نتوقف عندها وهي أن النزعة القومية التي ابتدعت الحركة الصهيونية ، هي نفسها التي أوجدت حركة القومية العربية ، فقد تمت الحركتان في وقت واحد(١). ولقد انبثقت فكرة القومية العربية من المدارس التنصيرية للدول الاستعمارية التي كانت تنتشر في بلاد الشام، وخاصة في لبنان، حيث كان التركيز في هذه المدارس على اللغة العربية والأدب العربي والشعر العربي، وشجعت الارساليات الاجنبية المطامع العربية، ونشرت الكتب بلغة سهلة مما أدى الى انتشار واسع للغة العربية وآدابها، كما أدى الى ظهور عدد كبير من خريجي تلك المدارس الذين أصبحوا أدباء وشعراء كباراً أمثال بطرس البستاني، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة ، وكان هؤلاء أول الداعين لحركة القومية العربية ، كما بدأ تنظيم القومية العربية في ظل تلك المدارس والكليات التنصيرية.

وهكذا نلاحظ أن الذين روجوا للقومية العربية هم من النصارى، أو الصهاينة أصحاب الجمعيات الماسونية ومن والاهم من المتمسلمين الذين غسلت أدمغتهم بالأفكار الهدامة، بسبب تعاملهم مع المثقفين النصارى وأصحاب المنافع السياسية أو الاستعمارية. فنشطت حركتهم في سورية ولبنان ، حيث البيئة الصالحة لازدهار الفكرة القومية العربية التي بدأت في الظهور في القرن الثالث عشر الميلادي. فقامت تشكيلات لبعض الجمعيات الدينية - هدفها التحريض على انشقاق اجتماعي - في الشام بمساندة من الدول الأوروبية . وفي نفس الوقت كانت الشام من أكثر الأماكن تقدماً من غيرها ، الى جانب الازدهار الاقتصادي وفق مطالب الصناعة الأوروبية، وهكذا أخذت هذه المنطقة تنفصل اقتصادياً عن الدولة العثمانية لتوطيد علاقاتها مع الدول الأوروبية الغربية (٢). ويعترف القوميون العرب - وكان معظمهم من النصارى الذين يكرهون السيادة العثمانية - أن الدعوة للقومية هي الفرصة السانحة لتفكيك الدولة العثمانية وفصل الأقطار العربية عنها (٣).

---

١) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثانى وفلسطين ، ص ٢٤٢-٢٤٤

٢) ألبير أورطايلى:إنفصال الولايات العربية الشرقية عن الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر والسياسة العثمانية فى هذا العصر (المجلة التاريخية المغربية، تونس، العددان ٣١،٣٢ ، ديسمبر ١٩٨٣م)، ص ٥٠.

٣) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ، القسم الرابع ، ص ٤٦٤

أحد عشر: القضاء على الرابطة الإسلامية :

عملت الدول الأجنبية كافة، عندما بدأت بإرسال الارساليات التنصيرية المختلفة لتعمل في حركة مطلقة وتتخذ منها حقلا لكل مخططات النفوذ الأجنبي، وفي مقدمته:

أ) القضاء على الرابطة الاسلامية الجامعة للمسلمين في العالم كله.
ب) إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والعثمانيين.
ج) إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين والنصارى.
د) تمكين الصهيونيـــة من السيطـرة على فلســـطين.
هـ) تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطات في مختلف اجزاء العالم العربي (١).

إثنا عشر: التمكن من السيطرة على القدس، والعمل على شراء الأراضي عن طريق الحيلة في مدينة القدس والسيطرة على المسجد الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى، ومسرى نبيهم صلوات الله وسلامه عليه وهكذا بدأت المؤامرة والمسلمون في غفلة منها.

وأقام الاستعمار مجلساً أعلى، باسم النصارى ووضع له خبراء سياسيين وعسكريين، وكان من أهداف هذا المجلس ، شراء أراضي القدس من أهلها الشرعيين وسكانها المسلمين، بطريق الحيلة والذين كانوا من المستحيل أن يبيعوا أراضيهم بشكل صريح ومباشر لليهود أو للاستعمار(٢) . ورصدوا لذلك أموالا طائلة، فبدأ الانجليز واليهود بشراء الأراضي الواقعة على منافذ القدس، ثم على منافذ المدن الأخرى مثل بيت لحم، ورام الله والبيره، وعمان وإربد ومادبا وغيرها بطرق غير شرعية، وحاولوا أن يقيموا على تلك الأراضي الكنائس الهائلة الشاهقة في بنائها وأشكالها الهندسية، حتى يخال الناظر اليها أنها ليست مراكز للعبادة وإنما هي مراكز حربية استراتيجية، وكذلك شرعوا في بناء المستشفيات والمستوصفات، ومدارس التنصير ودور الأيتام والمعاهد الدينية، وإقامة قرى محصنة على الطرق الرئيسية التي تربط الأردن ببقية العالم العربي،

---

١) أنور الجندى : التبشير والإستشراق والدعوات الهدامة ، (القاهرة ، دار الأنصار : ١٩٨٣م) ، المجلد الخامس ، ص ٧

٢) صالح مسعود بو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، (الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م) ، ص ٤٦٥-٤٨٥

ولو أن يقيموا القرية باسم مشروع لتربية الدواجن أو مشروع للصم والبكم؟ ثم يتوسع المشروع حتى يصبح سكناً لطوائف معينة منهم (١).

ثلاثة عشر: فصل الدين عن الدولة والترويج لفكرة«لا سلطان للدين علينا»:

إذا تحققت نظرية جسب ، وهي « لا سلطان للدين علينا» وأخذ المسلمون نهائياً بوجهة نظره ، ذهب استقلالهم، دون أن ترى جندياً أجنبياً بينهم. إذ لا يمكن أن نتحرر من الاستعمار الأجنبي بمجرد إعلان الاستقلال السياسي، أو بمجرد استيلاء أفراد منا يحملون أسماء عربية مثلا على الحكم في الوزارة أو الإدارة أو القضاء. إن معظم الدول الاستعمارية ترضى بأن يبقى لها النفوذ المادي والثقافي والقانوني على بعض المستعمرات دون أن تتدخل في شئونها الداخلية. فإذا رضينا بقوانين الأجنبي مكان شريعتنا، واخترنا لغته مكان لغتنا، وحضارته مكان حضارتنا، فإننا بذلك نكون قد ورثنا سلطته وقمنا مقامه في تطبيق البرامج التي كان يعمل لها جاهداً. وهكذا نرى أن أعداء الاسلام ينظرون الى انتصارهم في الغزو الفكري نظرة أهم من انتصارهم في الغزو العسكري (٢).

أربعة عشر: استغلال المعاهد العلمية كمراكز للتجسس ونشر المبادئ الهدامة:

قامت الدول الأوروبية بنشر الثقافة والعلوم والفنون الحديثة في البلاد المستعمرة على اعتبارها من مظاهر الاستعمار الحديث، ولو كان الهدف مجرد نشر الثقافة لهان الأمر - وهذا أمر خافٍ علينا - ولكنها تستغل هذه المراكز التنصيرية والمدارس والمعاهد الثقافية الأخرى من مدارس وجامعات وغيرها الى جانب كونها مراكز تنصير ديني، إما كمراكز للتجسس أو لنشر بعض الآراء التي تفسد أبناء الشعوب المستعمرة، وتمنعهم من أن يعيشوا حياة كريمة يعتمدون فيها على أنفسهم. إن الاستعمار الثقافي يعمل على شل تفكير أفراد المجتمع وأيديهم وقدراتهم فلم تعد هذه الأيدي تقاوم الاستعمار بل تسلم به كأمر واقع، وتصبح مؤمنة أن شعوبها لا تستطيع المشي دون الاعتماد على دولة استعمارية كبيرة،

---

١) محمد محمود الصواف : المخططات الإستعمارية لمكافحة الإسلام، (ب. م. ن) ، ص ٢٤٥

٢) بركات عبد الفتاح دويدار : الحركة الفكرية ضد الإسلام ، ص ١٠٧

وهكذا تنشأ نفوس مريضة كافرة بقدراتها ووحدتها (١).

ولقد مثلت دعوة التوجه الى الغرب واحداً من الأهداف التي سعت اليها دائماً الدول الغربية عند إقامة جامعاتها في بلاد الشام. فاعتبرت هذه الجامعات قنوات جديدة للتغلغل الذي يتم فيها تبادل المعلومات، ويستقدم اليها طلاب الدول الغربية للقيام بأبحاثهم في عين المكان. وذلك لمعرفة أفضل طرق التأثير على السكان بالصورة المطلوبة، كما أن هذه الجامعات اتجهت عادة الى طبقة معينة مرشحة لتولي المناصب القيادية في المستقبل، ونجحت في ذلك (٢).

بينما كانت الطريقة التي يزيفون بها المعلومات على الأجيال الأمريكية والأوروبية بشكل خاص، وتصدر من أجلها ملايين الكتب المدرسية الموجهة الى تشويه صورة الانسان العربي عبر منظورات ثلاثة : صورة البداوة، والاسلام المشوه، والصراع العربي الاسرائيلي، وهذه الكتب تتبارى في تقديم الصورة البشعة للبدوي وقساوة الصحراء. ولقد تجنوا على الحقيقة عندما أرجعوا أي فضل من نعمة الحضارة، التي وصلت اليها الدول العربية الى اليهود. ولا يتورع اليهود بالصاق أبشع التهم وأقذر الألفاظ بالعرب والمسلمين خاصة. فكان نتيجة تلك النظرة الظالمة تجاه العرب والمسلمين من قبل الأوروبين والأمريكين (٣).

خمسة عشر: استغلال الامتيازات الممنوحة للدول الإستعمارية :

استغلت الدول الأجنبية الامتيازات التي منحت لها من قبل الدولة العثمانية أسوأ استغلال وخصوصاً وقت ضعف الدولة، وكان أول امتياز يمنح لدولة أجنبية هو الذي تم بموجب المعاهدة التي عقدها سليمان المشرع مع فرنسوا الأول وعرفت باسم «معاهدة صداقة وتجارة» بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وتقرر فيها منح تجار فرنسا ورعاياها الذين يذهبون الى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً. ولكن الفرنسيين استفادوا من هذه المعاهدة أكثر من الرعايا العثمانيين لأن نشاط التجار الفرنسيين

---

١) حسين فريز وأخرون : تاريخ أوروبا الحديث ، (دار المعارف ،الرياض: ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) ، ص ٩٤-٩٥

٢) عماد حاتم : الغزو الثقافى الغربى ، ص ٦٨

٣) عماد حاتم : المرجع السابق ، ص ٧٠

كان أكثر داخل الدولة العثمانية، بينما لم يكن للتجار العثمانيين نشاط يذكر داخل فرنسا. والدوله العثمانية قد منحت هذه المعاهدة في أوج قوتها فلم تكن تؤثر على سياستها الداخلية، وعلى غرار هذه المعاهدة طلبت معظم الدول الأجنبية منحها امتيازات مماثلة لرعاياها، فمنحت الدولة العثمانية في عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م «براءة» لإنجلترا، وكان مما جاء على لسان مراد الثالث في هذه البراءة: «وعلى هذا فإننا نمنح جميع أفراد شعبها ورعاياها حرية المجيء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام، مع كل ما لديهم من متاجر وسلع بحراً في سفن كبيرة وصغيرة، وبراً في عربات، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى، ولهم ان يمارسوا عمليات البيع والشراء دون عائق، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم -الانجليزية» (١).

ولقد منحت الدولة العثمانية مجموعة من الامتيازات عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م لكل من بريطانيا وهولنداوالنمسا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة، وكذلك افتتحت القنصلية الألمانية في القدس عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٣م(٢).

ستة عشر: استغلال نفوذ القناصل داخل الدولة العثمانية :

كان يوجد في حلب حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي قناصل يمثلون دول النمسا، والمجر ودويلات ايطاليا وأسبانيا (من اليهود) وبلجيكا وإيران والبرتغال وهولندا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ونواب قناصل للسويد والنرويج واليونان وكانت بيروت حتى ذلك الوقت هي مركز عام قناصل الدول الأجنبية. وقد لعب القناصل في الدولة العثمانية دوراً خطيراً في حياة البلاد حيث كانوا يجندون أنفسهم أحياناً للتنصير. فمثلا، حاول مستر سكين قنصل انجلترا في حلب، للسعي في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م الى تحضير البدو في بادية الشام ليتوصل من هذا السبيل الى اجتذاب أبنائهم الى النصرانية. وبمساعدته تم في لندن عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م تأسيس جمعية للتنصير بين المسلمين في بلاد الشام ، ولكن لم يكتب لها النجاح.

---

١) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص ٧٠٨ - ٧١٦

٢) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبدالحميد الثانى وفلسطين ، ص ١٤٢. ويوسف بن على بن رابع الثقفى : دراسات متميزة فى العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، (الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مطابع الصفا فى ١٤٠٩/٦/٢م) ، ص ٨٧-١١٩

وفي وقت متأخر أغلقت الدولة العثمانية مدارس المنصرين الأمريكية، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة، ولكن المستر (بستنفر) قنصل أمريكا في بيروت والمستر (اسكار ستراوس) تدخلا في الأمر حتى سمح الوالي علي رضا باشا بأن تعود تلك المدارس الى فتح أبوابها على ألا تقبل إلا التلاميذ النصارى ولكن الوزير والقنصل استمرا في السعي حتى حملا الوالي على إلغاء هذا الشرط. وهكذا استغل قناصل الدول الأجنبية نفوذهم داخل الدولة العثمانية للعمل التنصيري السافر بين المواطنين(١).

وفي القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، كانت الدولة العثمانية تئن من وطأة هذه الامتيازات منذ أصبحت القنصليات الأجنبية في ولايات الدولة أوكاراً للفتن والدسائس. فأخذ القناصل يعتدون على الولاة والموظفين، بل كانوا يتوسطون لدى الباب العالي لعزلهم، وكانوا ينجحون في ذلك بعد أن كانوا يتملقونهم من أجل قضاء مصالحهم (٢) ، وتسبب ذلك في ارتباك لإدارة الشام ، بين الحكام والطوائف ، فعلى سبيل المثال : أثار قنصل بريطانيا متاعب في فترة حكم محمد علي عام ١٢٤٧هـ-١٢٥٥هـ/١٨٣١-١٨٣٩م في الشام، عندما اعتدى أتباعه على الفلاحين وانحاز كل قنصل من قناصل الدول الكبرى الى طائفة من الأهالي، يدافع عن مصالحها في مقابل اعتراف الطائفة بفضل القنصل عليها وولائها لدولته.

وكذلك عندما التزمت فرنسا، التي كانت تتمتع بالنفوذ الأول في سورية الى جانب محمد علي ، فقد قامت بدعاية قوية له ضد الدولة العثمانية، أما إنجلترا التي التزمت جانب الباب العالي، قامت بدعاية قوية للدولة العثمانية ضد محمد علي، وكان من الطبيعي أن تجد دعايات فرنسا ودسائسها أرضاً خصبة بين الموارنة، وأن تجد دعايات انجلترا ودسائسها أرضاً مماثلة بين الدروز. ولذلك وجدنا أن الموارنة ساعدوا محمد علي بينما ثار ضده الدروز. هكذا انتقل النزاع القائم بين فرنسا وانجلترا على نزاع بين الدروز والموارنة. وكان لذلك أثر كبير في الحوادث والفتنة التي حدثت في عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م.

---

١) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار ، ص ١٢٠

٢) سوسن سليم اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ١٢٦-١٢٧

كما انحاز الرهبان اليسوعيون الى العثمانيين، وأيدوا ثورة لبنان ضد حكم محمد علي في محرم ١٢٥٦هـ/مارس (آذار) ١٨٤٠م، كما ساهموا في اضعاف نفوذ فرنسا، فكان رد فعل فرنسا الانتقام بتأييد الرهبان الايطاليين، وعرقلة جهود اليسوعيين وانتهز قناصل النمسا الذين زادوا من نفوذهم على حساب فرنسا، ولذلك قوى مركز الأرثوذكس في القدس وتفوقوا على الكاثوليك بمساعدة روسيا، ولكن سرعان ما استعادت فرنسا نفوذها، لا سيما في عهد الامبراطور نابليون الثالث وبعد اشتراكها في حرب القرم بجانب الدولة العلية، وكان لذلك أثر خطير في حوادث عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م (١).

وتعتبر الدوافع والأهداف الاقتصادية للمنصرين الأجانب، هدفاً ثالثاً الى جانب الدوافع والأهداف الدينية والسياسية، والتي لا تقل أهمية عنها، وهي ما سنتحدث عنه في الدوافع والأهداف الاقتصادية في الفقرة القادمة من هذا البحث.

---

١) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ١٢٧- ١٢٨

الدوافع والأهـداف الإقتصـادية

تمتعت أقاليم الشام في العهد العثماني الأول، بانتعاش اقتصادي ملحوظ، فقد كانت الشام مركزاً لتجارة العبور بين الشرق والغرب، كما نشطت فيها التجارة الداخلية، وشارك في هذه العملية تجار أجانب تمركزوا بأعداد كبيرة في المدن الشامية مثل: حلب، وطرابلس، وصيدا، وعكا. ولقد اعتبرت مدينة حلب في ذلك الوقت المركز الأول، حيث كانت تقصدها قوافل من ديار بكر، والموصل، وبغداد، والبصره. وكانت قوافل ديار بكر والموصل تحمل اليها حرير إيران الشمالية والأصباغ الحيوانية، والنباتية، وشعر الماعز بينما تحمل قبائل الموصل، وبغداد، والبصرة اليها منتجات اليمن والهند والشرق الأقصى مثل البن، والتوابل، وعديداً من الأدوية، وتباع هذه المنتجات الى التجار الأجانب في حلب الذين راحوا يشحنونها الى موانيء الاسكندرية أو طرابلس أو اللاذقية، تمهيداً لنقلها عن طريق البحر الى دول أوروبا الغربية. ويتم البيع غالباً عن طريق المقايضة، بمقايضة هذه السلع بأقمشة صوفية أوروبية الصنع مع دفع الفارق بالنقد الفضي الأوروبي، وهذه الأقمشة الصوفية يعاد تصديرها الى إيران الشمالية مرة أخرى، كذلك صدرت الشام الى أوروبا بعض فائض إنتاجها من القطن والحرير والحبوب والمنسوجات الحريرية والقطنية والدخان. وهكذا اعتبر تجار الشام بمثابة وسطاء خلال هذه العملية، فاستفادوا منها ، كما استفاد منها عربان البادية بسبب حمايتهم لهذه القوافل وتزويدها بالجمال والحرس، وقد قدر دخل عربان بادية الشام كل عام، أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية (١).

ولقد شهد القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي إنشاء موانئ كبرى بالاضافة الى ازدهار المدن الساحلية. وفي تلك الفترة بدأ تطور المصانع في المدن مثل بيروت وانطاكية. ولقد شكلت بلاد الشام في تلك الفترة كذلك قطباً لنمو الشبكة الحديدية داخل الدولة العثمانية (٢).

وقد التقت السكك الحديدية المقامة بفضل رؤوس الأموال الفرنسية،

---

١) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ٩١-٩٢

٢) ايليا أورطايلى : بلاد الشام فى القرن التاسع عشر «المجلة التاريخية المغربية العدد ٣٩-٤٠ ، السنة الثانية عشرة ، ديسمبر ١٩٨٥م ، تونس) ، ص ٦٠٤

والممتدة من حيفا - بيروت - طرابلس. حتى المناطق الداخلية، على خط الحجاز العثماني، وهو الخط الرابط بين دمشق والمدينة المنورة. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار هذه المنطقة أهم منطقة بالدولة العثمانية، سواء من ناحية النقل البري، أو النقل الحديدي أو تجهيزات الموانئ.

ولقد تطور الانتاج الزراعي الفلاحي في بلاد الشام، تطوراً ملحوظاً أدى الى إثراء المنطقة، وذلك في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، وللأسف لم يندمج اقتصاد بلاد الشام ضمن الاقتصاد العثماني ، ولا ضمن اقتصاد أي منطقة أخرى في الدولة العثمانية، وقد نتج هذا الوضع في الغالب عن ضعف البنية الاقتصادية لآسيا الصغرى وكذلك تأخر جهاز المواصلات بها (١).

أهمية بعض المدن الشامية في التجارة الدولية:

كانت دمشق حتى بداية القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي مركزاً فكرياً هاماً، إلا أنها بدأت تتفوق على المدن الأخرى من الناحية التجارية والإقتصادية وانتزعت الزعامة التجارية والإقتصادية منها، كما أن بعض المدن الأخرى مثل عكا وبيروت بدأت تنمو لتنافس بذلك كلا من إسكندرونة وطرابلس .

وفيما يلي نذكر أهمية بعض المدن الشامية :

حلـــب :

تركزت مجموعة من تجار البندقية في مدينة حلب، حيث تصلهم قوافل محملة بالتوابل لحسابهم الخاص، كما كان يقيم بها تجار فرنسيون وانجليز، الى جانب أهل «جنـوة». وقامت بها قنصليات لدول أجنبية أوروبية(٢).

---

١) ايليا أورطايلى : بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، ص ٦٠٤
٢) عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ٢، ص ٧٤٨. وسوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص ٩٢.

وظلت مدينة حلب تتمتع بأهميتها التجارية، حتى فاقت بها على جميع بلاد الشرق الأدنى، وأصبحت بذلك مركزاً وسوقاً تجارياً عالمياً وكانت حلب في مقدمة المدن السورية التي رحبت بالتجار الأجانب، فأنشأوا فيها الخانات وكونوا الجاليات، والقنصليات وفتحوا الأديرة والمؤسسات الدينية مما جعل لحلب - فضلا عن أهميتها التجارية - أهمية سياسية خاصة، إذ كانت مركزاً أمامياً للإستطلاع وجمع المعلومات لحساب الدول الأجنبية عن أحوال البلاد في ذلك الجزء من الشرقين الأدنى والأوسط عن طريق المرسلين الأجانب الذين أقاموا في بلاد الشام(١).

وقد وصف الرحالة «فولتي» - الذي زار حلب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي - أهالي حلب بأنهم «أكثر أهالي الدولة العثمانية تمدناً».

ولقد كان لأهل «البندقية» الأولوية من بين الشعوب الأوروبية وكذلك في جميع بلاد الشرق الأدنى في تجارة حلب، حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري/السادس عشر الميلادي، عندما بدأت البندقية تفقد هذا التفوق بسبب تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح، وانهيار إمبراطورية البندقية أمام العثمانيين ، فضلا عن مشاكلها الداخلية ، وبهذا انفسح المجال أمام الانجليز والفرنسيين للتنافس فيما بينهم في حلب ، وفي بقية المراكز التجارية في الشرق القريب، واشتدت المنافسة بين الفريقين بصفة خاصة. وجاءت هذه المنافسة بعد أن أخذت حلب تفقد مكانتها التجارية السابقة (٢).

واعتبرت مدينة حلب بحلول عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م ، أكبر مركز للتجارة في الشرق ، حيث كان يباع فيها في يوم واحد ما لا يمكن تصريفه في دمشق أو القاهرة في مدة ثلاثة أشهر. فكانت مستودعاً للبضائع العجمية والهندية والعثمانية. تقصدها سنوياً قافلتان من بلاد العجم تحملان الحرائر

---

١) أحمد عزت عبدالكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ؛ (بيروت ، دار النهضة العربية : ١٩٧٠م) ، ص ١٢٤

٢) أحمد عزت عبدالكريم : المرجع السابق ، ص ١٢٥

والأصواف الحمراء وجلود الأغنام والرواند والعقاقير والأحجار الكريمة، عدا المنسوجات التي تقايض عليها بمصنوعات وطنية أو أفرنجية أو إفريقية أو أمريكية أو آسيوية وكانت تسافر منها في أربعة فصول أربع قوافل كبيرة الى أربع مدن كبرى في الشرق.

وتستورد حلب من ديار بكر والعجم وبلاد العرب والأناضول ومصر وسوريا وأوروبا أهم المواد الخام المتاحة اليها لمصنوعاتها ، وتبعث بقوافلها الى كل بلدان آسيا التجارية. ومن أهم مصنوعاتها الأقمشة الحريرية والأطلسية والأقمشة المزركشة بخيوط الحرير ذات الألوان الرائعة الثابتة. وكذلك صناعة العبايات والأقمشة البيضاء القطنية برسوماتها الجميلة ومن صادراتها، الأقمشة المذهبة والحصر والسجاد والمصاغات الذهبية والفضية والمجوهرات. وفيها إثنا عشر ألف نول - وهي آلة نسيج - ومئة معمل لخيوط القصب وصفائح الذهب والفضة، وفيها مئة مصبغة ومئة طاحون من جميع الأصناف، وواحد وثلاثين خاناً وفندقاً. وسبعة معامل للصابون وحديقة ومعمل للزجاج وورشة لصنع الحبال. وفيها خمسة وأربعون سوقاً. ولهذا كله اكتسبت حلب مكانتها التجارية الهامة واستحقت أن يتنافس التجار الأجانب أسواقها(١).

وقد اتخذ الفرنسيون من مدينة حلب قاعدة لانطلاقتهم التجارية في المنطقة فكانت أبرز مراكزهم التجارية لسنوات في المشرق العربي، ولقد جنى الفرنسيون أرباحاً طائلة، نظراً للضريبة المتدنية التي كان يدفعها التجار الأجانب لجمارك الدولة العثمانية، وهي ٣٪ فقط لذلك تجمع لديهم احتياطي كبير من الأموال النقدية. ولدى عزل كل والٍ ، كان التجار الأجانب يسعون للتهرب من دفع الضرائب والاستعاضة عنها بالرشوة ، التي كانت مفتاحاً جديداً لنيل امتيازات هامة(٢).

وبقيت حلـــب مدة طويلة تتمتع بتلك المكانة التجارية في المشرق العربي حتى امتد نفوذها الى كثير من المناطق المجاورة. وقد ساعد مرفأ الاسكندرون على تنشيط تجارة حلب، وأصبح محطة أساسية للتجار الفرنسيين، والإنجليز، للقيام بالتصدير والاستيراد والترانزيت. فكانت سلع الشرق تمر عبر حلب الى أوروبا، وسلع هذه الأخيرة تمر عبرها الى الهند

---

١) بولس أروتين : أهم حوادث حلب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر نقلا عن مفكرة مخطوطة للمطران بولس أروتين أسقف حلب المارونى ١٧٨٨-١٨٥٠م ، تحقيق بولس قرألى (القاهرة ، المطبعة السورية بمصر الجديدة) ، ص ٧٠-٧١

٢) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٥٤

عن طريق بغداد والبصرة والخليج العربي. وقد ارتبطت حلب بهذه المناطق عبر عشرات القوافل التجارية الناشطة في البر والمحمية من جماعات الأكراد. والتركمان وغيرها (١).

طرابلـــــس :

أما مدينة طرابلس فكانت تشتهر بمينائها الكبير على الساحل السوري، والذي تقع عليه عدة موانئ ، وفيها طوائف متعددة، من نصيريين واسماعيليين ودروز وموارنة. ولقد اعتبرت تجارتها الخارجية محتكرة في يد التجار الفرنسيين، فكان لهم بها قنصل وثلاثة مخازن تجارية.

اللاذقيــــة:

وتقع الى الشمال من ميناء طرابلس، وقد قامت المنافسة بينها وبين الاسكندرونه من ناحية وطرابلس من ناحية أخرى، ولقد عرفت اللاذقية بشهرتها الخاصة في تصدير التبغ، ولكن الاسكندرونه تغلبت عليها كميناء لحلب، كما تفوقت عليها طرابلس، بكونها مقر الحكم، وكان ميناؤها أكثر صلاحية لرسو السفن.

صيــــــدا:

أما صيدا فقد اعتبرت منذ أواخر القرن الثاني عشر أكثر الأساكل (٢) السورية رواجاً وقد كانت تعد ميناءً لدمشق وأقاليم سورية الداخلية، والثالثة بين أساكل الليفانت ، وكادت التجارة الخارجية فيها تكون وقفاً على الفرنسيين وخاصة في تجارة الحرير وغزل القطن، وقد كان لهم فيها قنصل وخمسة أوستة بيوت تجارية (٣). ولقد ظلت مدينة صيدا متمسكة بمكانتها التجارية حتى القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي، واعتبرت مركزاً تجارياً من الدرجة الأولى من الأهمية، رغم القلاقل الداخلية فيها. وذلك بفضل مينائها، ومايقدمه من تسهيلات للسفن ، وبفضل ماكانت تنقله مناطق سورية الجنوبية وفلسطين اليها

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٥٥

٢) أساكل : جمع أسكلة ، والأسكلة : الميناء

٣) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ١٢٩

من منتجات متنوعة من أهمها القطن. فقد كانت تلك المناطق تعد حتى عام ١٢٣٦هـ/١٨٢١م - حين بدأت زراعة القطن في مصر - أحد الأسواق الرئيسية للقطن في العالم، وأولى أسواق الليفانت ، وبفضل تصدير غزل القطن ، عانت أسكلة صيدا وتوابعها بسبب التنظيم التجاري الفرنسي الذي استفادت منه كل من عكا والرملة ويافا (في فلسطين) - ثم بيروت التي ورثت مكانة صيدا وطرابلس ، وعلى أنقاضهما شيدت بيروت مكانتها التجارية في القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي حتى الوقت الحاضر (١).

بيـــــروت :

انتعشت بيروت انتعاشاً ملحوظاً في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حتى عدها قنصل فرنسا المقيم فيها، رابعة مدن سورية، بعد دمشق وحلب وطرابلس، وذلك بفضل موقعها المتوسط على الساحل السوري، وقربها من دمشق، وجودة حريرها وهدوء خليجها، وفوق هذا كله أضفى عليها مجاورتها لجبل لبنان شخصية متميزة (٢).

ولقد اعتبر الدروز أن «بيروت» عاصمة الإمارة ، وحاول بعض الأمراء مساعدة فرنسا ورعاية مصالحها في بيروت فالأمير يوسف الشهابي قدم وعداً بإعفائهم من نصف الجمارك المترتبة على سلعهم في مرفأ بيروت، وهذا ساعد على ازدياد معدل الربح السنوي على المؤسسات الفرنسية التجارية في صيدا وطرابلس من جراء الاتجار بالحرير الذي صدر من مرفأ بيروت. مع العلم أن المكوس الجمركية على الأجانب ٣٪ فقط مقابل ١٠٪ للسكان المحليين(٣).

وبالرغم من أن ذلك الوعد لم يتحقق بوفاة الأمير يوسف الشهابي، فإن نوع التعامل الداخلي مع التجار الأجانب ، وكذلك الضريبة الجمركية المتدنية جداً، كانت مجال محاولات أوروبية حقيقية للتخلص منها ، وإغراق الأسواق المحلية بسلع أجنبية جيدة ورخيصة، تؤدي الى القضاء على الصناعات المحلية الحرفية الغير محمية والغير قادرة على المزاحمة

---

١) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ١٣٣
٢) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ، ص ١٣٣
٣) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٤٦

بسبب الضرائب الباهظة عليها.

وبسبب امتناع الدولة العثمانية عن فرض أية قيود على السلع الأجنبية، كادت بذلك أن تدمر الاقتصاد المحلي. أو بسبب هذه السياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية انهارت سلع كثيرة كانت تنتج محلياً، واستعيض عنها بسلع من الخارج. وربطت السلع المنتجة محلياً برباط وثيق من التبعية للأسواق التجارية، التي كان يفرضها الاحتكار الأجنبي. وإذا بقي هناك متنفس للانتاج المحلي، فذلك بسبب التنافس التجاري الخارجي للسيطرة على المواد الخام، والأسواق التجارية المحلية.

وهناك ملاحظة هامة في هذا المجال وهي أن الأديرة كانت إحدى المراكز الأساسية لانتاج السلع المعدة للتصدير، وبخاصة الحرير. وكانت هذه الأديرة معفاة من الضرائب. وقد أمن هذا وفراً كبيراً لصناديق الأديرة ، التي كانت تصدر في الوقت نفسه كميات كبيرة من الحرير الخام، والصمغ والخمور وغيرها.

وكذا استغلت هذه الأديرة العائد النقدي لديها بشراء أراضٍ جديدة واستصلاح أخرى، وتسخير النقود العائدة عليها من بيع الحرير في مشاريعها المختلفة فكانت هذه الاجراءات عاملا من عوامل تماسك تلك الأديرة - الطائفي والاجتماعي والسياسي - لمصلحة مشروع الكنيسة المارونية الرامي الى تمييز الموارنة داخل محيطهم الشرقي.

وبهذا تكون التجارة قد لعبت دوراً بارزاً في تفكيك معنى الحرف الطوائفية المدينية من جهة، وهي حرف طوائفية اسلامية الطابع. وفي تنشيط انتاج سلع معدة للتصدير الخارجي كالحرير . وهكذا أصبحت الكنيسة المارونية إحدى أكبر القوى المقاطعجية في الامارة (١).

وظل الأمر على ما هو عليه حتى ازدهرت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية، فتضاعف الإنتاج، وتراكمت رؤوس الأموال واشتدت الحاجة الى المواد الخام، والى الأسواق العالمية لتسويق هذا الانتاج بعد تصنيعه. وبهذا كانت الأسواق الآسيوية شرقيها وجنوبيها سوقاً تجارية للدول الأوروبية. وكانت الدول الغربية في حاجة الى مثل هذه الأسواق، بينما كانت الدولة العثمانية تمر بمراحل ضعفها ونهايتها. ولذا اهتمت الدول الصناعية بمصيرها، لوقوعها عبر الطريق الى الشرق، ولا سيما، أطرافها العربية في مصر والشام والعراق والجزيرة(جزيرة الرافدين). فراجت

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة اللبنانية ، ص ٣٤٨

السلع القطنية البريطانية رواجاً عظيماً في أسواق الدولة العثمانية، وكثر طلابها، فارتفع مجموع ما صدر منها من ثلاثمائة وخمسة وخمسين الف جنيه استرليني في عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م الى ثلاثين مليوناً وثمانمائة ألف جنيهاً استرلينياً في عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وقتلت مثيلاتها من المنتجات المحلية، لرخصها ومتانتها وجمال شكلها. ولقد تدفقت المحاصيل الزراعية من المستعمرات البريطانية مثل البن والسكر الى هذه الأسواق ، فطردت غيرها نظراً لرخصها وجودتها. وكان ذلك أيضاً الأمر بالنسبة لتجارة الفرنسيين والطليان، وغيرهما من شعوب أوروبا الغربية مع الدولة العثمانية . أما صادرات الدولة العثمانية الى الجزر البريطانية وحدها، فقد ارتفعت مما كانت قيمته توازي مئتين وثلاثة وأربعين الف جنيه استرليني في عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م الى مليون ومئتي الف في عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م ، وكان معظم هذه الصادرات العثمانية، العصفر الشامي، والحرير اللبناني، والقطن الفلسطيني، ولا سيما قطن عكا ونابلس وكذلك النيلة الأردنية (١).

«ولقد اشتدت عناية الفرنسيين بالحرير اللبناني ، حيث بلغ انتاج الشيخ بشير جنبلاط وحده أكثر من الف وأربعمائة أقة ، وإنتاج لبنان بكامله من الف الى الف وخمسمائة قنطار، وكان حله على دواليب خاصة تحرك باليد، وتوضع قرب الينابيع. وقبيل حملة محمد علي على بلاد الشام، جاء الى بيروت «نقولا بورتاليس» ابن ايتان بورتاليس الشهير فوجد الحرير اللبناني رخيصاً للغاية فعول على إنشاء معمل لحله بالطريقة الأوروبية ، ولكن الشهابي الكبير عارضه في ذلك. وعلى الرغم من هذا ابتاع الخواجه بورتاليس لنفسه قطعة من الأرض في قرية «بتاتر» في كنف المشايخ الملكيين. ثم أنشأ أخوة فورتوني أول معمل لحل الحرير فيها بالطريقة الأوروبية وذلك في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م أنشأ مورك دلك الفرنسي ورفيقاه سليجان وكروزي معملا أكبر من هذا في عين حماده من قضاء المتن» (٢).

وما لبث أن ازداد عدد الأوروبيين في بر الشام - في بيروت خاصة - وآثروها على غيرها، فبلغوا في بداية القرن الثالث عشر الهجري الموافق أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي الأربعمائة شخص، وجعلوا منها مركزاً لأعمالهم في بر الشام ، ووزعوا أعمالهم على عملائهم

---

١) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز ، ص ٢٢٥
٢) أسد رستم : المرجع السابق ، ص ٢٢٦

الوطنيين في دمشق وحمص وحماة واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا ونابلس ويافا (١).

وكذلك كان لروسيا امتياز خاص في سوريا في مجال التجارة. حيث أن معاهدة التجارة حددت للتجار الروس بدفع رسوم جمركية بمعدل ٣٪ ، بينما كان على التجار الأوروبيين دفع نسبة لا تقل عن ١٢٪ .

وكانت معاهدة «خنكار اسكلة سي» بين الدولة العثمانية وروسيا تلزم روسيا بالدفاع عن مصالح السلطان في سوريا وبذلك تمتعت روسيا بوضع مريح يمكنها الاستفادة من امتيازات تحصل عليها سوية، لدعم مصالح سياستها في روملي ، وهكذا أصبح العملاء الروس في سوريا أصدقاء للسلطات العثمانية المحافظة. ووافق الروس على محاولات تلك السلطات في اقتلاع اثار النظام الاقطاعي، الذي أبقى البلاد في حالة من الفوضى، حيث كان البريطانيون متورطين في الدفاع عنها.

وكذلك أيد الروس، جهود الدولة العثمانية التي كانت تبذلها في سبيل القضاء على الطائفية، التي طالما استغلها الفرنسيون منذ أن حصلوا لأول مرة على أمتيازات تساعدهم في ابطال حجم الأوروبيين في التدخل بالشؤون الداخلية للبلاد (٢).

وكانت روسيا تحاول كسب ود الدولة العثمانية وتحاول دعم وضع العثمانيين في سوريامن جهة، ومن جهة أخرى تحاول إضعاف التدخل الفرنسي والبريطاني ، وضرب مصالحها. لأن ذلك كان يعني تقوية لنفوذ روسيا في المنطقة، وفي نفس الوقت كان المسئولون الروس في اسطنبول وبيروت حذرين في تفاديهم لأي عداء قد ينشب مع العثمانيين، في حين فشل البريطانيون والفرنسيون في ذلك.

وهكذا نجد أن الاحتكاك المباشر بالغرب أدى الى تطور مادي كبير. فراجت سلع الغرب ومنسوجاته الصناعية، وأقبل الناس على شرائها، واستعاضوا بها عما كانوا يصنعون، فحلت مثلا : البفتة البيضاء - عنبر كيس - محل الأنسجة القطنية اليدويه القديمة، وحل الجوخ الأوروبي محل

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعى فى الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية (المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، ٩٢٢-١٣٥٨هـ) ، جـ ١ ، ص ٤١٠

٢) قيصر فرح : المرجع السابق ، ص ٤٠٩

الصوف المحلي، وبدأ حرير فرنسا يستهوي النساء فيستعضن به عما كان ينسج محلياً في حلب وحمص ودمشق (١).

وهذا يوضح مدى التدخلات الأجنبية في بلاد الشام، نتيجة لحصولها على امتيازات سياسية وتجارية ، ظهرت عيوبها بعد ذلك في صورة التدخلات الرامية الى الاستغلال والاستعمار.

والواقع أن الحكم العثماني لسورية قبل القرن الثالث عشر الهجري/القرن التاسع عشر الميلادي، يعد هو الآخر مسئولا عن رسوخ النظام الإقطاعي في لبنان خاصة ، فقد أقرت الدولة أولئك الزعماء الاقطاعيين وأطلقت أيديهم في جمع المال، وأن الباشوات قصروا همهم على تأليب أمير على آخر، أو إثارة فريق من المقدمين والمشايخ على أميرهم. أو تكرار الطلب. فيشتد الأمير في جمع المال. فيثور الناس وهكذا. فكأنهم بذلك ساعدوا على استدامة النعرات الاقطاعية وعلى تقويتها. حتى يأتي حكم محمد علي على الشام ١٢٤٦-١٢٥٦هـ/١٨٣١-١٨٤٠م فيضع أمام أهل البلاد ، وأمام العثمانيين أنفسهم ، مثالا للحكم المركزي القوي الذي يسعى للقضاء على النعرات والعصبيات الطائفية بمختلف ألوانها (٢) ، على الرغم من أن محمد علي سهل للارساليات الأجنبية للاستقرار في بلاد الشام في مدة حكمه فيها . وكانت بلاد الشام، وخاصة في أعقاب انسحاب جيش محمد علي في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، مهيأة لتدخل هذه الدول (٣).

وفي الوقت الذي كان يشهد فيه جبل لبنان ازدهاراً اقتصادياً ، فقد تبلورت فيه العصبية المارونية السياسية الجديدة. وكان النشاط الاقتصادي والانتاج السائد في المناطق السورية تؤكد الوقائع التالية :

أ) شكلت المناطق السورية الداخلية - حوران، حمص، حماة، حلب - مراكز كبرى لإنتاج الحبوب وتربية الماشية.

ب) شكلت المدن الساحلية المنافذ الرئيسية لهذا الانتاج الزراعي والحيواني.

ج) المناطق الواقعة بين الساحل والداخل السوريين، شكلت بدورها

---

١) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز ، ص ٢٢٧

٢) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ١٤٤

٣) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٤٢١

محطات مهمة للقوافل، وأسواقاً لتصريف جزء من المنتوجات القادمة من الداخل مثل النبطية، الخيام، بنت جبيل، سوق الخان، بعلبك وغيرها من المدن أو المناطق التي تمر بها طرق القوافل بين سورية الشمالية والجنوبية وفلسطين والساحل. وكانت هذه المراكز علاوة على الدور الذي لعبته كمحطات ومراكز تسويق محلي على مستوى القضاء والقرى المجاورة مورداً اقتصادياً مهماً لسكانها. وقد قامت على تبادل المنتوجات المحلية الزراعية والحيوانية، وكانت أهمية هذه الموارد مرهونة باستمرار العلاقة بين الداخل والساحل السوريين (١).

ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن تجار الساحل والمناطق الداخلية من المسلمين كانوا يرتبطون بشكل أساسي بالداخل السوري. فكانت مبادلاتهم التجارية، ترتكز الى عمليات تسويق المنتوجات الزراعية والحيوانية والحرفية. وأن مصر وبقية الولايات العثمانية، هي التي شكلت السوق الرئيسي لهذه المنتوجات. أما أوروبا فلم تكن تستورد الا المواد الأولية الضرورية لصناعتها مثل القطن وخيوط وشرانق الحرير (٢).

ولقد استطاعت أسواق بلاد الشام بالرغم من المنافسة الأوروبية لها منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي، أن تحافظ على وتيرة واحدة من النجاح حتى أواخر القرن، وذلك بفضل قدرتها على الاستجابة للحاجات والتقاليد والأذواق المحلية في شتى بقاع الدولة العثمانية. فلقد كانت مدن مثل دمشق، وحمص، وحماة، وحلب وبيروت وطرابلس ، تنتج كل أنواع النسيج القطني والحريري الذي يحتاجه سوق الاستهلاك المحلي وأسواق اسطنبول وبغداد ومصر ومناطق أخرى من أرجاء الدولة العثمانية، هذه الحرف شكلت أيضاً، أهمية اقتصادية كبرى بالنسبة لمجموعات سكنية في مدن واسعة ، إذ كانت تستوعب أعداداً مهمة من الأيدي العاملة (١٠-١٥٪ من السكان). إذ يقدر «كينيت» أن عدد عمال النسيج في ثلاث مدن فقط - وهي دمشق ، حماه ، حلب - في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي بلغ (٥٣٩٠٠) عامل. ولكن بالرغم من النجاح والصمود النسبي للمدن المحلية فقد أصبحت تعاني ضعفاً كبيراً،

---

١) وجيه كوثرانى : الإتجاهات الإجتماعية والسياسية فى جبل لبنان والمشرق العربى من المتصرفية العثمانية إلى دولـة لبنان الكبير ، (بيروت ، منشورات بحسون الثقافية : ١٩٨٦م) ، ص ٨٦

٢) وجيه كوثرانى : المرجع السابق ، ص ٨٧

ووضعاً سيئاً وحساساً جداً في أواخر الفترة المذكورة ، من جراء المنافسة الأجنبية الأوروبية لتلك الصناعات ، وذلك عندما بدأت الصناعات الأوروبية تعمل على تقليد الأنماط الخاصة بالنسيج السوري الذي يرضي الأذواق المحلية، وأخذت تزاحمه في أسواقه الخاصة وبأسعار مغرية جداً.

مما سبق يمكن أن نستنتج أن الفئات المدينية في المشرق العربي - التجار والحرفيون - وكل من ارتبط بالنشاط الاقتصادي من عمال وأصحاب دكاكين، شكلت عبر انتمائها الاسلامي وانتظامها في إطار من العلاقات البشرية ذات الجذور التاريخية العربية. الاسلامية البعيدة، قوى اجتماعية مناهضة للغرب الاستعماري (١).

العلاقات التجارية بين بريطانيا والدولة العثمانية:

شجعت الأحداث السياسية التي تعرضت لها الدولة العثمانية ، خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، على قيام الدول الأوروبية بمحاولة التدخل الاقتصادي الى جانب التدخل السياسي ، وذلك لكسب أسواق جديدة في الشرق العثماني. وعقدت معاهدة بلطا - ليمان Balta-Liman التجارية بين الدولة العثمانية وبريطانيا عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م ، وكانت تلك المعاهدة بمثابة قفزة هائلة لبريطانيا في هذا المضمار ، حصلت بموجبها على المميزات التالية :

أ) حصلت بريطانيا على مرتبة « أكثر الدول تقديراً » في الدولة العثمانية.

ب) حددت الجمارك المفروضة على الصادرات البريطانية الى الدولة العثمانية بنسبة ٥٪ ، بينما فرضت نسبة ١٢٪ على واردات بريطانيا من الدولة العثمانية.

ج) أزيلت جميع العقبات التي كانت تعترض تعزيز التجارة البريطانية مع الدولة العثمانية.

د) حصل التجار الانجليز المقيمون في الدولة العثمانية على وضع مساوٍ للتجار العثمانيين فيما يتعلق بالتجارة الداخلية.

ولقد أدت معاهدة بلطا - ليمان الى ازدهار التجارة البريطانية في الشرق والى سيطرتها على الأسواق العثمانية. وأدت أيضاً الى قيام الدول الأوروبية الأخرى بمحاولات مماثلة لتدخل السوق العثمانية. فسارعت

---

١) وجيه كوثراني : الإتجاهات الإجتماعية والسياسية فى جبل لبنان والمشرق العربى ، ص ٨٨ - ٩١

الى الاقتداء ببريطانيا لعقد اتفاقيات تجارية مع الدولة العثمانية ، مشابهة لمعاهدة بلطا - ليمان. وقد تم لها ذلك (١).

الاتفاقيات التجارية للدويلات الألمانية مع الدولة العثمانية :

كانت بروسيا أولى الدويلات الألمانية التي عقدت اتفاقيات تجارية مع الدولة العثمانية منذ عام ١١٧٥هـ/١٧٦١م. إلا أن «مدن الهنزا» ، عقدت بتاريخ ٣ ربيع الأول عام ١٢٥٥هـ/ ١٨ مايو (آيار) عام ١٨٣٩م «معاهدة صداقة وتجارة وملاحة» على نسق معاهدة بلطا ليمان. وفي شعبان عام ١٢٥٧هـ سبتمبر/ أيلول عام ١٨٤١م جددت هذه المعاهدة بإضافة ملحق لها. وفي ٢٥ شعبان عام ١٢٥٦هـ/٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٨٤٠م عقدت دول الاتحاد الجمركي الألماني - كولونيا، بفاريا ، ساكسونيا، فورتنبرغ، بادن، كورهسن، غروس هرنسو غتوم هسن، فرايه شتادت فرانكفورت، بروسيا - اتفاقية تجارية مع الباب العالي. وقد جددت كل من الاتفاقيتين مرة أخرى عام ١٢٥٩هـ/١٨٦٢م ، ورغم عقد هذه الاتفاقيات التجارية - بين الدويلات الألمانية والدولة العثمانية - لتوسيع حجم التجارة الألمانية في الأسواق العثمانية، فقد ظلت الصادرات الألمانية مع السلطنة متأخرة نسبياً عن صادرات الدول الأوروبية المعنية بالتجارة الشرقية (٢).

ولقد تميزت التجارة الألمانية السورية ، بعجز في الميزان التجاري ، لصالح الصادرات الألمانية الى سوريا التي كانت تصل المنطقة بصورة غير مباشرة عبر مرافئ أوروبية. ولقد كانت الواردات الألمانية المباشرة من سوريا ضئيلة جداً، حيث كانت ألمانيا تستورد المنتجات السورية عبر بيوتات تجارية في مرسيليا وليفربول وتريست. وذلك لأن الصادرات السورية في معظمها كانت من الحرير الخام أو الشرانق ، وكانت تذهب الى فرنسا.

أما الصادرات الألمانية الى سوريا فكانت في معظمها من المنسوجات والبضائع الزجاجية، والبورسلانية وخاصة ما يسمى بالصحون التركية، والورق، والكبريت والخردوات، والمصنوعات الكيميائية والصيدلية. ولقد ساهمت الخردوات بنسبة ٧٠٪ من جملة الصادرات الألمانية الى بيروت عام ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ، وأنها اعتبرت من الصادرات المهمة الى بيروت في ذلك الوقت . وفي عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ، تراجعت تجارة الخردوات الى المرتبة الثانية في قائمة الصادرات الألمانية الى سوريا وحلت محلها المنسوجات، وخاصة تلك المصنوعه في منطقة ساكسونيا.

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية فى سوريا وفلسطين ، ص ٢١٦
٢) عبد الرؤوف سنو :المرجع السابق ، ص ٢١٧ - ٢٢١

وهناك عدة عوامل ساعدت على إضعاف قدرة البضائع الألمانية المصدرة على المنافسة في الأسواق العالمية وفي الساحل السوري وفلسطين، من هذه العوامل:

١) الافتقار الى اتصال بحري مباشر بين المرافئ الألمانية والسورية.
٢) عدم أهلية الجهاز القنصلي الألماني في سوريا وفلسطين لدعم التجارة.
٣) عدم وجود وكالات تجارية ألمانية في المنطقة (١).

وتعتبر المطامع الألمانية في الدولة العثمانية أكيدة حيث جاء تقرير رسمي رفع الى غليوم الثاني يقول : ما يزال الشرق هو المنطقة الوحيدة البعيدة عن سيطرة الدول الأوروبية المباشرة وإمكاناته الاقتصادية والبشرية من السعة بحيث تجعلها حقلا مثالياً للاستعمار الألماني، لذا وجب أن تجد ألمانيا وسيلة للسيطرة عليه قبل أن تمتد اليه يد الغير» (٢).

ولقد قام برنامج الغزو الألماني للدولة العثمانية على استثمار أراضي الدولة العثمانية الواقعة ما بين البحر المتوسط وخليج البصرة، تلك الأراضي المشهورة بخصب تربتها وكثرة خيراتها ووفرة غلالها وغنى معادنها وكنوزها، وقد نفذت هذه الخطة عن طريق الجاليات الالمانية التي أخذت تتدفق على أراضي الدولة العثمانية. واتضحت مطامع ألمانيا في الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي، حيث وصل حال الدولة العثمانية الى ما يشبه المستعمرة الأوروبية، وكانت سياسة الإقتراض من أهم وسائل الاختراق الأوروبي للاقتصاد العثماني كما حدث خلال حرب القرم عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م - ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م ، حيث اضطر الباب العالي لأول مرة الى الاستدانة من البنوك الأجنبية. ومنذ ذلك الوقت سارت الدولة العثمانية في هذا الاتجاه، حتى بلغت ديونها الخارجية في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م نحو ٢٠٠ مليون ليرة عثمانية ذهبية، وبلغت فوائدها السنوية ١٤ مليوناً من الليرات الذهبية. مما عجل بالحكومة العثمانية الى إعلان إفلاسها، والتوقف عن دفع ديونها في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م. ومما ساعد على الإنهيار الإقتصادي في الدولة العثمانية ،الخسائر العسكرية التي منيت بها في حربها مع روسيا، عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م - ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م. فأعلنت افلاسها للمرة الثانية عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م. مما

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية فى سوريا وفلسطين ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣
٢) وجيه كوثرانى : الإتجاهات الإجتماعية والسياسية فى جبل لبنان والمشرق العربى ، ص ١٠٧-١٠٨

أفسح المجال أمام الدول صاحبة الديون بإحكام قبضتها على الاقتصاد والمالية العثمانية، فشكلت هذه الدول - وهي : بريطانيا، وهولندا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وهنغاريا وإيطاليا - «مجلس إدارة الدين العمومي العثماني» Conseil d'Administration de la dette Publique Ottomane الذي حصل على صلاحيات واسعة للإشراف على عائدات الدولة العثمانية المالية وتنظيم احتكارها، وهكذا وضع هذا المجلس مقدرات الدولة العثمانية الاقتصادية والمالية تحت سيطرته.

وبينما تقهقر نفوذ فرنسا الاقتصادي في الشرق، كان النفوذ الألماني آخذاً في الازدياد حيث نجحت المصارف الألمانية آنذاك، بتوجيه عنايتها الى الأناضول، ودخلت ميدان الاستثمار فيه ، كما سعت بكل طاقتها لامتصاص عناصر الحياة والثروة الموجودة في سوريا، وهو الإقليم المشهور بغناه، وتحقيقاً لأهداف ومطامع ألمانيا في سوريا، فقد افتتحت فروعاً للمصارف الألمانية، حيث تأسس البنك الألماني الفلسطيني برأسمال قدره (٤٥٠ر٠٠٠) مارك ألماني وفتح هذا البنك فروعاً له في القدس ويافا وحيفا. وعملت ألمانيا بعد ذلك على وضع يدها على المواصلات البرقية الدولية ، وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري الموافق القرن العشرين الميلادي نالت ألمانيا امتيازات الخطوط السلكية واللاسلكية، وبعد ذلك قرر الألمان ترقية مواصلاتهم البحرية. فقامت البواخر الألمانية برحلات ما بين الموانئ الألمانية، والشواطئ العثمانية الممتدة على طول البحر المتوسط مخصصة لذلك ثلاثين باخرة. ولقد نشأت منافسة بين الألمان والفرنسيين، على نشاط النقليات الألمانية البحرية في البحر المتوسط.

وقد أدى ازدياد تغلغل رأس المال الأوروبي في الاقتصاد العثماني الى تدهور الوضع الاقتصادي ، نظراً لأن سياسة الدولة العثمانية التجارية كانت تفرض من قبل الدول الأوروبية دون النظر الى مصلحة الاقتصاد الوطني العثماني، ذلك بسبب استغلال الدول الأجنبية للامتيازات التي حصلت عليها من الدولة العثمانية (١).

ونتيجة للتطور الصناعي الذي حدث في ألمانيا في أعقاب فترة الركود من عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م - عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، فقد بدأت فترة إنتعاش قصيرة ثم أزمة جديدة من عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م. ومن معالم الأزمات الاقتصادية التي عانتها ألمانيا في تلك الفترة، زيادة الانتاج الصناعي على القدرة

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص ٢٤٠

الاستهلاكية والتصديرية وزيادة السكان، وأخيراً الهجره الضخمة الى العالم الجديد التي بلغت ٥ر٣ مليون شخص ما بين عامي ١٢٧٨هـ/١٨٦١م و١٣٣٢هـ/١٩١٣م. هذه القضايا دفعت ألمانيا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي الى المناداة بزيادة صادراتها وممارسة سياسة استعمارية نشطة، وكمثال حي على المشاريع الألمانية في فلسطين، كانت المستوطنات الزراعية، التي أسسها مهاجرون من ورتنبرج Warttenberg ، ويعود نجاحها بدرجة كبيرة الى مثابرتهم وتبنيهم المشروع. وبالرغم من اعتزازهم الى قوميتهم واحتفاظهم بشخصيتهم المستقلة تمكنوا من تعلم اللغة العربية بسرعة ، وكونوا علاقات مع العرب المحيطين بهم. حيث كانت المستوطنات الألمانية بالقرب من حيفا ويافا والقدس وهي قرى نموذجية فيها جماعات تحكم نفسها بنفسها ولكل منها كنيسة ومدرسة خاصة بها، بالإضافة الى أنهم كانوا ينتجون غذاءهم بأنفسهم وسرعان ما أصبحوا يبيعون منتجاتهم في الأسواق المحلية ، ثم تمكنوا بعد ذلك من تصدير منتجاتهم الى الخارج.

جاء في تقرير للقنصل العام الفرنسي في بيروت عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م عن نشاط ووسائل البعثة التجارية الألمانية التي اشتملت على رجال الأعمال والبنوك والصناعة والمهندسين ، الذين قدموا تسهيلات وقروضاً طويلة الأجل كما عرضوا أسعاراً منافسة للمواد الأولية بالتبادل مع إنتاجهم من السلع المصنعة مثل منتجات الأدوية والأواني المنزلية والحصر والمنسوجات الصوفية والمصنوعات الجلدية (١)وعليه فقد كانت الولايات الشرقية العثمانية ذات أهمية كبيرة ومتزايدة في تصريف المنتجات الألمانية، وذلك نتيجة تطور العلاقات الألمانية العثمانية في حوالي عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م ، بعد وصول البعثة العسكرية الألمانية برئاسة الجنرال كولمار فون غولتز الى اسطنبول.

وفضلا عن ذلك ، فقد لعبت شركات السكك الحديدية دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية ، وذلك في تحديد تعرفة نقل أنواع البضائع ، والتسهيلات التي توفرها لأصحاب المصالح في الدولة العثمانية ، من حيث التعرفة الجمركية وغيرها. وكانت تلك الشركات تحصل في بعض الظروف

(١ A L. Tibawi: A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine,(Printed in Great Britain by R.&R. Clark Ltd. , Edinburgh : 1969.), p. 185

على منافع وامتيازات إضافية ، تتجاوز حدود أعمال السكة الحديدية. فمثلا نجد أن الشركة الألمانية، التي نالت امتيازاً لإنشاء سكة حديد بغداد، كانت قد حصلت أيضاً على حق التنقيب عن المعادن واستغلال ما تكتشفه منها في نطاق عشرين كيلومتراً عن كل جانب من جانبي السكة. ولذلك أصبحت امتيازات بعض شركات السكك الحديدية موضوعاً لمفاوضات ومساومات، ومنافسات سياسية ودولية خطيرة، حتى أن النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي أكتسبته بعض الدول بواسطة هذه المؤسسات ، كثيراً ما كان يسبق الاحتلال السياسي والعسكري، بل يمهد له السبيل (١).

أما فرنسا فقد تمتعت منذ وقت مبكر بامتيازات استطاعت عن طريقها حماية جالياتها من التجار والقناصل والوكلاء والعملاء داخل الدولة العثمانية واستفادت منها أيضاً الطوائف النصرانية الأخرى المرتبطة بروما ومن بينها الطائفة المارونية ، فاذا عرفنا أن الرهبان الموارنة المتواجدين في الأديرة الكثيرة ، ونشاطهم في أوقافها الزراعية الواسعة، أقاموا مع الخوارنة المنتشرين في القرى نوعاً من التنظيم الشعبي الفلاحي الواسع الانتشار والذي يهيمن على نشاطها الاقتصادي ، أدركنا أهمية ما يتمتع به الرهبان الموارنة من امتيازات المرسلين الفرنسيين والنتائج السياسية والاقتصادية التي يمكن أن تترتب على ذلك (٢).

ولقد تركزت التجارة الأوروبية في أيدي النصارى من الأوروبيين والمشارقة وكذلك اليهود والذين أصبحوا يشكلون ضرراً كبيراً. حيث كان تعاملهم مع التجار الفرنجة كوكلاء وتراجمة ومقاولين ، وكانوا يعملون لمصلحة حماتهم من الدول الأجنبية، ويحملون جنسية تلك الدول ، وفقاً لما جرى عليه العرف طبقاً للامتيازات الأجنبية التي كانت تخول السفراء في اسطنبول أن يمنحوا براءات أو خطابات حماية يصدرها الباب العالي لمن يرغبون من عملائهم . ويمكننا أن نتبين مدى سوء استعمال هذا الحق، ومما وصل الينا من أن باشا حلب شكا الى الباب العالي من أن عدد تراجمة القناصل، في حلب زاد حتى بلغ حوالي ألفاً وخمسمائة مترجم، وكلهم معفون من الضرائب، ويعملون في التجارة (٣).

---

١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٤٦-١٤٧
٢) وجيه كوثرانى : الإتجاهات الإجتماعية والسياسية فى جبل لبنان والمشرق العربى ، ص ٤١ - ٤٢
٣) وجيه كوثرانى : المرجع السابق ، ص ٤٣

وهكذا تراجع عدد الحرف النسيجية في الدولة العثمانية، وأصبح إنتاج الحرير مثلا في كل أنحاء الدولة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري يساوي ١٠٪ مما كانت عليه في النصف الأول من نفس القرن . وفي ذات المرحلة سقطت قيمة إنتاج النسيج في حلب من ١٠٠ مليون قرش الى أقل من ٨ ملايين قرش (١).

ولم يكن تراجع الانتاج الحرفي في البلاد هو النتيجة الوحيدة للغزو السلعي الأوروبي. فقد أدى هذا الغزو الى إفقار اقتصادي، واستنزاف رهيب للنقد المعدني سواء كان ذهباً أو فضة، نتيجة الخلل في الميزان التجاري ونتيجة استغلال بعض الدول الأوروبية لتدهور أوضاع الدولة العثمانية الاقتصادية.

وخير مثال نذكره على ذلك مافعلته فرنسا، عندما كانت الحكومة العثمانية قد اقترضت بعض المبالغ من «اورلانزو توبيني وشركاه» في اسطنبول في أواخر عصر السلطان عبدالعزيز. ونظراً لأن الدين كان يتصل بتصرفات الحكومات في ذلك الوقت، لم يجرؤ الوزراء على مفاتحة السلطان عبدالحميد في الأمر ، ولذلك بقي الدين المذكور معلقاً مدة ربع قرن من الزمان، مما أدى الى تراكم الفوائد الربوية الفاحشة عليه، حتى أنه أصبح يزيد على نصف مليون ليرة ذهبية. ولأن الدائنين المذكورين كانوا رعايا فرنسيين ، فقد تولت الحكومة الفرنسية أمر مطالبة الحكومة العثمانية بتلك الديون. التي لم تستطع تسديد ديونها فأخذت تماطل في دفعها ، فلجأت فرنسا الى القوة لتحقيق مطلبها. وأبلغ سفيرها لدى الباب العالي، بأنه سيغادر العاصمة، وأن حكومته ستحتل جزيرة «مدللي ميتلين» وتضع يدها على جماركها ، استيفاءً لديونها على الدولة العثمانية. وفعلا وصلت قوة عسكرية على ظهر بوارج حربية فرنسية، واحتلت الجزيرة ووضعت يدها على جماركها. عندئذ سارع الباب العالي لتسوية الدين المذكور، لتخليص الجزيرة من الاحتلال الفرنسي لها.

غير أن فرنسا استغلت هذا الحادث ، وقامت بتقديم قائمة طويلة بأسماء مؤسساتها ومدارسها الفرنسية، والتي يقع معظمها في سوريا، والتي ظلت بدون ترخيص رسمي، أو تعرضت الى بعض المشاكل ، وطلبت

---

١) وجيه كوثراني : الإتجاهات الإجتماعية والسياسية فى جبل لبنان والمشرق العربى ، ص ٤٤-٤٥

تسويتها بصورة عاجلة قبل الجلاء عن الجزيرة. مما أضطر الحكومة العثمانية الى تلبية جميع الطلبات المتعلقة بتلك المؤسسات، نتيجة ذلك الضغط عليها (١)..

وهكذا استغلت الدول الأوروبية الأوضاع الاقتصادية المتدهورة للدولة العثمانية ، فتدخلت فيها بشكل سافر وفاضح ، متخلية عنها وعن اتفاقيات الصداقة معها، وتحقيقاً للمطامع اللامتناهية لهذه الدول داخل أراضي الدولة العثمانية وولاياتها الغنية بالثروات الطبيعية والزراعية والصناعية ولموقعها الجغرافي الممتاز .

مما سبق اتضحت الأطماع الأوروبية الاقتصادية في بلاد الشام ، حيث بينا كيفية دخول بريطانيا وألمانيا للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية، أما بالنسبة لروسيا فقد كان تدخلها متأخراً عن الدول الأخرى وذلك لعدة أسباب هامة منها:

١) التخلف الاقتصادي الروسي.
٢) انخفاض الانتاج وارتفاع تكاليفه ، اذ تزيد أسعار البضاعة الروسية على أسعار البضاعة الأوروبية الأخرى بنسبة ١٥-٢٠٪ .
٣) ارتفاع أجور الشحن البحري الذي احتكرته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية، والأعمال غير الدقيقة التي تقوم بها ، والعطل المستمر لبواخرها.

ولقد ساعدت تلك الصعوبات في العلاقات التجارية الروسية العثمانية، على فتح وتوسع باب العلاقات التجارية الانجليزية والفرنسية والايطالية والنمساوية والهنغارية واليونانية بالدولة العثمانية (٢). وقامت معظم هذه الدول بتأسيس ملحقيات تجارية لها في العاصمة العثمانية والمدن الأخرى للقيام بدور الوساطة في العلاقات التجارية ، وتنظيم المعارض التجارية ، وكان التجار والسماسرة المصاحبون لهذه المعارض يجمعون طلبات التجار المحليين من البضائع التي يقومون بتسويقها.

وتعتبر تلك الفترة ، أنها فترة اهتمام الروس بأسواق بلاد الشام

---

١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٤٨
٢) سميليا نسكايا : العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام ، ١٩٠٠-١٩١٤ ، (المؤرخ العربى ، بغداد ، المجلد ١٤ عام ١٩٨٠م) ، ص ٣٧٤

لتصريف المصنوعات والبضائع الروسية، وذلك لما شهدته روسيا في تلك الفترة من تطور سريع في الانتاج الصناعي. وقد شهدت العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام نتيجة لذلك نمواً متزايداً باعتبارها جزءاً من نمو العلاقات التجارية الروسية العثمانية (١). فقد نظم التجار الروس صفقاتهم التجارية عن طريق المراسلات ، وكانوا يدفعون أجوراً وعمولات نقدية لقاء تخزين بضائعهم ، في المخازن التابعة للدولة العثمانية ، أو التابعة للدول الأجنبية داخل الدولة العثمانية. بينما امتازت الدول الأجنبية على روسيا في العلاقات التجارية مع الدولة العثمانية، بأن كان للشركات التجارية الكبرى ممثلون في المدن العثمانية، بينما لا تملك الشركات التجارية الروسية مثل هذه الممثليات حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي (٢).

ومما هو جدير بالذكر أن المنتجات الروسية مثل السكر والكحول وصناعة الفلزات والأحذية المطاطية والأقمشة تحتل الدرجة الأولى ضمن قائمة الصادرات الروسية للأسواق العثمانية.

ووقفت انجلترا في وجه المزاحمة الروسية في التجارة والمواصلات بعد أن افتتحت شركة الملاحة والتجارة الروسية خطاً ملاحياً منتظماً بين أوديسا وموانئ الخليج العربي مروراً بالموانئ العثمانية والسورية(٣).

وهكذا يتضح لنا مما سبق استعراضه مدى تغلغل نفوذ التجار الفرنسيين خاصة في بلاد الشام وغيرها من ممتلكات الدولة العثمانية منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، ويرجع ذلك الى معاهدة الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا وبدأ الفرنسيون باستغلال هذه الامتيازات أسوأ استغلال، بل وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة العثمانية الداخلية والخارجية عن طريق قناصلها لدى الدولة أو تجارها أو مرسليها من منصرين ومستشرقين ، وحذت الدول الأجنبية حذو فرنسا، حيث سيطرت هذه الدول على اقتصاد الدولة العثمانية وتحكمت في سياستها. مع

---

١) سميليا نسكايا : العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام، ص ٣٦٤

٢) سميليا نسكايا : المرجع السابق ، ص ٣٧٥

٣) خيرية قاسمية : روسية القيصرية والمشرق العربى ، (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، وثيقة رقم ٤٥٦٥٨ ، العدد ٩-١٠ محرم ١٤٠٣/ اكتوبر١٩٨٢م) ، ص ٦٣-٦٤

أن الأسباب التي أدت الى عقد هذه الاتفاقية في بادئ الأمر سياسية بحتة ، إلا أنه لا يمكن إنكار أن الأسباب الاقتصادية والدينية لعبت دوراً بارزاً أيضاً في هذه المعاهدة.

ومن المعروف أن فرنسا استفادت من هذه المعاهدة امتيازاً وفائدة منقطعة النظير بينما لم تستفد الدولة العثمانية شيئاً منها. وذلك لعدة أسباب وعوائق(١). وهكذا تتضح لنا الدوافع والأهداف الاقتصادية للدول الأجنبية في بلاد الشام والتي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١) السيطرة التامة على ممتلكات الدولة العثمانية في بلاد الشام، لحماية تجارتها فيها، ومع زيادة قوة تأثير الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية وخاصة كلما ضعفت الدولة، زاد نفوذ الأجانب والتجار ودخل معهم المنصرون، وأقاموا حيث شاءوا في الدولة العثمانية ، بل اتخذوا من ضعف الدولة سبباً الى التخلص من دفع الضرائب. وأن الأمريكان مثلا لم يكونوا معفون من الضرائب قبل عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م، وكان الرهبان اليسوعيون خاصة يتمتعون بالإعفاء الضريبي قبل المنصرين الأمريكان. وعندما أصبحت الدولة العثمانية من الضعف بحيث سمحت لجميع الأجانب بأن يتمتعوا في دولتها بامتيازات واسعة فلا يدفعون ضرائب على مايستوردون من الخارج، اذا كانت لحاجاتهم الخاصة ولكن عادت الدولة العثمانية وألغت الاعفاء الجمركي لأنها اكتشفت أن رجال الدين الأجانب (المنصرين) انما جاءوا الى البلاد بحجة مزاولة أعمال البر والاحسان بين الناس، كانوا يستوردون البضائع المختلفة ثم يبيعونها للتجار الوطنيين، أو بيعها مباشرة بواسطة التجار الوطنيين.

واستغلت الدول الأجنبية هذا الوضع لتبسط الحماية على بعثاتها التنصيرية في بلاد الشرق، لأنها تعتبرهم مروجين لتجارتها وآرائها وثقافتها في تلك البلاد. فعمل المنصرون - بواسطة التعليم مثلا - على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم السيطرة الأجنبية (٢).

---

١) سيأتى الكلام بالتفصيل عن المعاهدة العثمانية الفرنسية فى الباب الثانى من هذا البحث.

٢) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : التبشير والإستعمار في البلاد العربية ، ص ٥٦

٢) ومن المعروف أنه لم يكن هناك أية منافسة بين الدول الغربية الأوروبية في السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية مبكراً، ولكنها اتضحت مع بداية عصر الاستعمار الأوروبي، وبداية ضعف الدولة العثمانية. حيث بدأ معها صراع طويل بين القوتين الاستعماريتين، بريطانيا وفرنسا، بالدرجة الأولى، وانضمت اليهما فيما بعد، روسيا القيصرية ، فألمانيا ، من أجل المنافسة للحصول على أكبر مساحات ممكنة من أراضي الدولة العثمانية التي وصلت الى درجة الانهيار الكلي (١).

ومن المعروف أن للشرق العربي ، وعلى الخصوص بلاد الشام أهمية كبيرة لوقوع الأماكن المقدسة فيها (في فلسطين) من جهة، ولموقعه الاستراتيجي الواقع على الطريق المؤدي الى الهند والشرق الأقصى، ولقربه من أوروبا مما يسهل تصدير المنتجات المصنعة والرساميل، واستيراد المواد الخام.

٣) وجود جو مناسب لهذه الدول الأجنبية يساعدها على اغتنام الفرصة بحصولها على الامتيازات التي بدأت باستغلالها، في حماية رعاياها من الطوائف التي أصبحت بمرور الزمن غير خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وحماية السلطان.

٤) في عام ١٢٤٢هـ/١٨٣٨م، افتتحت بريطانيا قنصلية لها في القدس لرعاية مصالحها في فلسطين، ومن ضمنها (تقديم الحماية الى اليهود هناك عامة)، وهو ما أصبح عملا رئيسياً للقنصلية لفترة طويلة.

وهكذا حذت قنصليات الدول الأوروبية الأخرى حذو بريطانيا في القدس، والتي كانت تتنافس في ايجاد من تحميه مما أسفر في نهاية الأمر، عن ازدياد عدد اليهود في القدس الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية فبلغ مع منتصف القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي نحو ٥٠٠٠ نسمة تحت حماية النمسا، و١٠٠٠ تحت حماية بريطانيا، و١٠٠٠ تحت حماية ألمانيا وروسيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية(٢) وهذا يعني أن الدول الأجنبية لا تألو جهداً في استغلال أي طرف للتغلغل والاستعمار والاستغلال الاقتصادي والسياسي والثقافي في بلاد الشام خاصة، والعالم الاسلامي عامة، غير مهتمة بما تؤول اليه أمور

---

١) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثانى وفلسطين ، ص ٨٢
٢) رفيق النتشة : المرجع السابق، ص ٨٢

البلاد الاسلامية من الدمار و الفساد و الهلاك.

٥) كانت فرنسا وبريطانيا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي قد نبذتا فكرة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية، وتماسك ممتلكاتها، فقد احتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، و أخذت تحاول مد نفوذها الى المناطق التي تتحكم في طرق مواصلاتها وتجارتها سواء في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أو البحر الأحمر أو الخليج العربي. وكان لفرنسا ادعاءات في بلاد الشرق العربي، وخاصة في لبنان، فهي تعتبر نفسها حامية للأقلية الكاثوليكية في بلاد الشام، وللأماكن المقدسة في فلسطين، ولهذا تعارضت مصالح الدولتين الاستعماريتين. ورجحت فيما بعد كفة بريطانيا التي بدأت تستولي على مناطق مهمة في البلاد العربية.

ودخلت ألمانيا فيما بعد ميدان التنافس الاستعماري الاستغلالي ، مع كل من بريطانيا وفرنسا للسيطرة على بعض ممتلكات الدولة العثمانية، و أصبحت ألمانيا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ذات نفوذ وحظوة ، خاصة بعد حصولها على امتياز مد خط حديد برلين . وقد انعكس هذا التنافس بين ألمانيا و الدول الأوروبية على مناطق النفوذ في الدولة العثمانية، على التنافس في استغلال اليهود، و الحركة الصهيونية التي ستكون أداة المنتصر، وقاعدته الاستعمارية في فلسطين في المستقبل. ويمكن القول بأن الانشقاق بين صهيونيي بريطانيا و ألمانيا ليس إلا وجهاً من وجوه التنافس الدولي للسيطرة على مناطق النفوذ في العالم، فقد أصبح من مصلحة ألمانيا المتحالفة مع الدولة العثمانية و المستغلة لخيراتها، تشجيع الصهيونية لاستعمار فلسطين، و استغلال المهاجرين اليهود فيما اذا سقطت الدولة العثمانية. وذلك باسلوب منظم بواسطة السيطرة الاقتصادية و البشرية(١).

٦) العمل على توظيف قسم كبير من أموال التجار الأجانب في مجال التجارة المتحركة وذلك عبر أسواق الشرق العربي، وبلاد الشام خاصة، ويرجع ذلك لما لاحظه التاجر الأجنبي من عدم توفر رؤوس الأموال الكافية لدى التجار المحليين ، وعدم الرغبة في اقتراضها من الممولين اليهود و الأقباط ، بسبب الفوائد الفاحشة - فوائد ربوية يحرمها الدين الاسلامي - جعل المسلمين مكتوفي الأيدي نحو تطور

---

١) رفيق النتشة : السلطان عبد الحميد الثانى وفلسطين ، ص ٨٦-٨٧

اقتصادي بطبيعة الحال.

ونظراً لكثرة السيولة النقدية لدى التاجر الأجنبي وقدرته على توظيف قسم كبير منها في التجارة المتحركة ازداد بذلك حلول التاجر الأوروبي محل التاجر المسلم، وارتبطت بالتجار الأوروبيين مجموعات كبيرة من التجار النصارى المحليين ، الذين عينوا وسطاء لهم في الداخل وكانوا يتعاملون معهم عن طريق إقراضهم المال بفائدة ربوية فكانت لهم السيطرة المطلقة على التجارة.

٧) سيطرة التجار النصارى المطلقة حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي على التجارة حتى أتيح للكثير منهم الحصول على ثروات طائلة. وذلك لارتباطهم الشديد - كوسطاء - بأصحاب الرساميل الأجنبية والقنصليات والتجار الأجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة ، وكان أكثر هؤلاء الوسطاء من الأقباط (النصارى) واليهود.

٨) اتخاذ التجار الأجانب - الأوربيين - وكلاء من المحليين أصحاب الطقوس الدينية الكاثوليكية ، وقد توصلوا الى اشراكهم في امتيازاتهم. حتى أنه لم يصبح للحاكم سيطرة عليهم ولا يستطيع أحد تغريمهم، وأمر مقاضاتهم متروكة لديوان القنصل. ويعرف هؤلاء في الشرق بـ (بتراجمة أصحاب البراءة) والبراءة يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في اسطنبول(١) ويمنحها هؤلاء بدورهم الى الوكلاء المحليين ، الذين أصبحوا يبيعونها فيجنون منها أرباحاً وفيرة، وكان كل سفير يعطي خمسين براءة ، الواحدة تباع بألفي قرش عثماني أو يزيد.

٩) كسب أسواق جديدة لترويج تجارة الدول الأوروبية في بلاد الشام، وحماية طرقها التجارية. فكان التجار رواد السكن الطائفي في المدن الساحلية والتي لم تشهد أية حوادث طائفية خلال فترة الصدامات التي كانت في عام ١٢٥٦-١٢٧٧هـ/١٨٤٠-١٨٦٠م ، وذلك يرجع الى رغبة التجار الأروبيين في استغلال السواحل والمدن في النشاط التجاري ، وحتى لا تكسد تجارتهم ولتبقى الأسواق مفتوحة لها في المدن الساحلية الهامة .

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٤٩

ولقد كان النصارى يعملون بالتجارة بمعظم طبقاتهم ومراكزهم فالطبيب والادارى وحتى وزير المالية ، في عهد ظاهر العمر، ثم الجزار - ابراهيم الصباغ من طائفة الروم الكاثوليك - كان يعمل في التجارة أيضاً ، وكان يقدم للشيخ ظاهر العمر كل مايلزمه لمصاريفه ، ويستوفي منه في المقابل ، الزيت والقطن والحبوب. والتي لم يكن مسموحاً لغيره أن يتاجر بها (١).

١٠) كان النصارى المدبرون يتعاطون التجارة ويحثون الأمراء على تعاطيها وكان من نتيجة ذلك ازدياد الغنى في أوساط التجار النصارى والخراب في أوساط التجار والمقطعجيين المسلمين، حتى أن كثيراً منهم ، كانوا يرهنون مواسم الحرير لهؤلاء التجار ويبيعونهم الكثير من أراضيهم ، حتى سيطروا عليها بعد أن أغرقوهم بالديون . وهذا ماحدث بالضبط لأملاك «آل نكد» التي سيطر التجار من بيت «مشاقه» على مساحات كبيرة منها بذريعة وفاء الدين (٢).

وهذا ما يدلنا دلالة قاطعة على مدى تعاون التجار النصارى مع التجار الأجانب، على استغلال وإفقار التاجر المسلم وإرهاقه، حتى يضطر للاستدانة بفائدة ربوية، دون أن يدرك مدى خطورتها إلا بعد أن يطرد من أرضه بسببها.

١١) إيجاد قاعدة تجارية محلية للرساميل الأجنبية والتجار ، بسبب البراءات التي لعبت دوراً هاماً فيها مع ضعف الرقابة العثمانية.

١٢) شكل التجار المحليون حلقة الوساطة مع التجار والرساميل الأجنبية من جهة، ومع الدوائر الاستعمارية لتلك الرساميل من جهة أخرى. فقد منح بعضهم لقب قنصل فرنسي (من آل الخازن والخوري وسرور وغيرهم) وانخرطوا مباشرة في المشروع الفرنسي الذي بدأ تنفيذه لاحتلال المنطقة مع حملة نابليون على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م.

١٣) تمزيق الدولة العثمانية والسيطرة على مواردها، واحتكار مداخيلها واستغلال أسواقها وسواحلها ونهب ثرواتها، ومن ثم اقتسام

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٥٠

٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، ص ٣٥٢

أراضيها وممتلكاتها فيما بين الدول الكبرى.

١٤) وفي هذا الاطار يدخل ارتباط تجار الامارة الشهابية، وهم تجار حرير بالدرجة الأولى، وتجار المدن الساحلية في بيروت وطرابلس وصيدا وصور كحلقة ناشطة بدرجات متفاوتة بعجلة الرساميل الخارجية. فقد كانت هناك حرية كاملة لتلك الرساميل في غزو اقتصاديات الامارة وسواحلها تمهيداً لتوسيع سوقها الرأسمالية الى فلسطين، والمناطق الداخلية السورية ، وقد لعب التجار النصارى من موارنة وكاثوليك وأرثوذكس في الامارة وبيروت ، دوراً أساسياً في ارتباط الأمارة بعجلة الرساميل الخارجية. وكانت هذه العائلات التجارية المحلية ركائز للتوسع الرأسمالي، ولا سيما الفرنسي - الانجليزي، نحو الداخل، فجنت أرباحاً طائلة من ذلك الارتباط ، وبدأت تدخل بوضوح في علاقات ذات طابع رأسمالي واضح (١).

وهكذا يتضح لنا مما سبق، أن للساحل السوري أهميته الاقتصادية في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، حيث أن بلاد الشام كانت المركز الاستراتيجي الهام الذي اعتمدت عليه التجارة العالمية في ذلك الوقت، وهي نقطة الوصل بين الشرق والغرب وقارات العالم آسيا وافريقيا وأوربا ، فكانت تلك البلاد محلا للتنافس الاستعماري الأوروبي ، فانكشفت بذلك المطامع الأوروبية في منطقة الوطن العربي كله من خليجه الى محيطه. وعملت الدول الأوروبية على إغراق السوق السورية ببضائعها، مما أدى الى رواج سلع الغرب، ومنتوجاته الصناعية على حساب الصناعة المحلية اليدوية، وأصبحت هناك قوىً اجتماعية مناهضة لتدخل الغرب الاستعماري الاستغلالي في المنطقة العربية، والسورية بشكل أخص، حيث عملت هذه الدول على إفقار الدولة العثمانية، التي أصبحت كأنها مستعمرة أوروبية، فشملت سياسة الاستدانة من الغرب أهم وسائل الاختراق الأوروبي للاقتصاد العثماني. مما أدى الى إعلان إفلاس الدولة العثمانية والتوقف عن دفع ديونها في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م. مما جعل الدول الأوروبية تحكم قبضتها على الاقتصاد والمالية العثمانية ، عن طريق مجلس إدارة الدين العمومي العثماني. والذي حصل على صلاحيات واسعة للإشراف على عائدات الدولة العثمانية الحالية، وتنظيم احتكارها.

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤

ومما يثبت أن دوافع الدول الأوروبية لم تكن مقتصرة على الدوافع الدينية أو السياسية أو الإقتصادية، أن ما يبدو للعيان أنه دافع ديني، يكتشف أنه سياسي إقتصادي، وعندما يظهر أنه إقتصادي فيتضح أنه سياسي فيما بعد، وهذا يتضح لنا من موقف المانيا من الدولة العثمانية، فهي لم تكتف بالمطالبة بديونها عن طريق التحكم في إقتصاد الدولة العثمانية، بل تعدت ذلك الى أهداف ودوافع سياسية في أملاك الدولة العثمانية، فقام برنامج للغزو الألماني للدولة العثمانية من عدة نقاط ، كان من أهمها استثمار أراضي الدولة العثمانية الواقعة ما بين البحر المتوسط وخليج البصرة، والتي تعرف بخصب تربتها وكثرة خيراتها، وغنى معادنها وكنوزها وقد نفذت ألمانيا هذه الخطة عن طريق الجاليات الألمانية التي أخذت تتدفق على أراضي الدولة العثمانية ، ومن الغريب أن إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني الذي أخذ على عاتقه تنفيذ مشروع استثمار أملاك الدولة العثمانية، واستعمارها إقتصادياً، أخذ الدين ذريعة له للتأثير على سكان الشرق للوصول الى مقاصده، فأخذ يتقرب من الاسلام، ووثق صلته بالسلطان عبدالحميد الثاني وقام بزيارته فعلا فيما بعد.

أما بريطانيا فقد عملت من أجل مصلحتها ومن أجل المحافظة على مستعمراتها في الهند، وذلك بمحاولة السيطرة على بلاد الشام والعالم العربي الى أجل غير مسمى، حيث أنها افتتحت لها قنصلية في القدس لرعاية مصالحها في فلسطين، ولتقوم بفرض الحماية على اليهود الذين تستقدمهم ، وذلك على أمل نشر البروتستانتية بينهم، وليقيموا مستعمرة لها في وسط الشرق . ولكن اليهود عملوا لمصلحتهم أولا ثم لمصلحة بريطانيا ثانياً ونجحوا في إقامة الوطن اليهودي في فلسطين بمساعدة الدول الأوروبية الاستعمارية والتي كان لها اليد الطولى في تدليل اليهود ، ليكونوا ركيزة قوية تابعة لهم في وسط بلاد المسلمين .

وهكذا، وبعد أن بينا دوافع الدول الأجنبية وأهدافها الاقتصادية الخبيثة في بلاد الشام، أصبح لزاماً علينا أن نبين الوسائل التي اتبعها المرسلون الأجانب لتحقيق أهدافهم في بلاد الشام، وهذا هو موضوعنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة، تحت عنوان : وسائل الارساليات الأجنبية في تحقيق أهدافها في بلاد الشام.

الفَصْلُ الثَّانِي

وسائل الإرساليّات الأجنبيّة في تحقيق أهدافها في بلاد الشام

- تحقيق أهدافها عن طريق تقديم الخدمات الصحيّة .
- تحقيق أهدافها عن طريق التعليم .
- تحقيق أهدافها عن طريق الإعانات الماديّة .
- الإمتيازات والمعاهدات ودورها في تحقيق الإرساليات الأجنبيّة .
- دعوى رعاية مصالح الأقليّات الأجنبيّة .

أ) وسائل تحقيق أهداف الإرساليات عن طريق تقديم الخدمات الصحية

دخلت الحملات التنصيرية المسعورة تحت ظل الاستعمار الجديد معظم المدن والقرى في بلاد الشام، وخاصة في لبنان وفلسطين، وذلك بحجة نشر المدنية والحضارة المادية الغربية بين المسلمين في تلك البلاد. وتحت ستار تقديم الرعاية الصحية والتعليم للأقليات غيرالمسلمة في المنطقة(١).

وفي الحقيقة أن هذه الحملات التنصيرية، كانت تخفي وراءها هدفاً رئيسياً مهماً، وهو نشر الدين النصراني وتحويل سكان المنطقة من غالبية مسلمة الى غالبية نصرانية، حتى تصبح الغلبة للنصارى، فالذي لم تستطع الحملات الصليبية تحقيقه في السابق، حاولوا هذه المرة تحقيقه عن طريق تلك الحملات التنصيرية أو الارساليات الأجنبية، كما أنهم في الوقت نفسه أرادوا الاستيلاء على خيرات وموارد البلاد الاسلامية التي حباها الله بكل خير، وذلك لتدعيم اقتصادياتهم، وحصولهم على المواد الخام لمصانعهم والمتوفرة في البلاد الاسلامية وبلاد الشام خاصة.

لقد استغلت الدول الأجنبية كل ما تفتق عنه ذهنها الاستعماري الصليبي، من حقد على الاسلام ورسوله الكريم والأمة الاسلامية، مستغلة في ذلك كل مجالات الحياة، ومن أهم تلك المجالات بل ومن أسماها الخدمات الطبية، فدنست بذلك خدمة من أسمى الخدمات الإنسانية التي يقدمها الانسان لأخيه الانسان، فقد أبى المستعمرون ومن ورائهم المنصرون على اختلاف طوائفهم إلا أن يخلطوا المهنة الانسانية الشريفة السامية، بنواياهم الخبيثة، فيقدموها للمسلم مخلوطة بالسم الزعاف ، فنجدهم بتقديمهم خدمة صحية لشخص مريض ، فإنهم يحاولون التأثير عليه ، عن طريق شرح تعاليمهم النصرانية ، محاولين تشكيكه في دينه الاسلامي مستغلين بذلك حالته الصحية وحاجته الماسة الى الخدمة الطبية، وقد أقدموا على استغلال هذه المهنة في بث شعاراتهم التنصيرية ، لعلمهم بحاجة الناس الى الأطباء ولقلة الخدمات الصحية المتوفرة للمواطنين في تلك المناطق.

يقول أحد منصريهم حيث يبعث بنصائحه لجميع المنصرين في كل

---

١) على عبدالحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام، القسم الأول، ص٤٧٤.

مكان: «انسوا شيئاً اسمه العاطفة، ان التعامل بشرف مع المسلمين أكذوبة أخلاقية! ان لنا هدفاً نسعى لتحقيقه. فاذا وقفت الأخلاق في طريقنا نحو هذا الهدف، فلننس الى الأبد هذه الكلمة»(١)

وهكذا خرج المنصرون عن كل نبل في الطبيعة الانسانية، وسخروا الطب في سبيل غاياتهم المنشودة، حسبك دليلا على ذلك قولهم: «حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة الى الطبيب، وحيث تكون الحاجة الى الطبيب فهنالك فرصة مناسبة للتنصير». وهكذا اتخذ المنصرون الطب ستاراً يتقربون تحته من المرضى (٢).

ان الطبيب المنصر كما يقول بول هاريسون في كتابه الطبيب في بلاد العرب: «لايرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منفعته أمة بأسرها، لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها..نصارى».!!

كتب س. أ.موريسون في مجلة العالم الاسلامي التنصيرية يقول : «نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المرضى أن نأتي بهم الى المعرفة المنقذة معرفة ربنا يسوع المسيح.. وأن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة النصرانية الحية» (٣).» كذلك جاء على لسان الدكتور أراهارس طبيب ارسالية التنصير في طرابلس الشام: أنه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاماً وهو في مهنته، فلم يفشل الا مرتين فقط، وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لإثنين من زبائنه من الحضور اليه. وأورد إحصائية لزبائنه فقال : إن ٦٨ في المائة منهم مسلمون، ونصف هؤلاء من النساء، وفي أول سنة مهنية له في العمل التنصيري بين المسلمين، بلغ عدد زبائنه ١٧٥ شخصاً، ثم بلغوا فيما بعد الى ٢٥٠٠ شخصاً ولم يذكر السنوات لهذه الاحصائية.

ويقول المنصر سمبسون : في بيان له في فضل الارساليات الطبية وماتقوم به من خدمات في مجال التنصير، « أن المرضى الذين ينازعهم الموت بوجه خاص لا بد لهم من مراجعة الطبيب، ويستحسن أن يكون هذا

---

١) عبدالودود شلبي: دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الاسلامي، (الطبعة الأولى، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص١٤٣.

٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار ...، ص٥٩.

٣) عبد الودود شلبي: أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية، (الطبعة السادسة، جده، الدار السعودية للنشر والتوزيع: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٥٥، ومصطفى خالدي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص٥٩-٦٠.

الطبيب المنصر في جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار التي لا بد أن يبلغها كل واحد من أفراد البشر» (١).

ويعتبر استغلال العمل الطبي كواسطة للعمل التنصيري، أسرع وسيلة انتشار، حيث أن الطبيب بوسعه أن يصل الى جميع طبقات الناس بحكم عمله، حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم، وهنا تكمن الخطورة حين يكون الطبيب منصراً وله هدف يعمل من أجله متستراً وراء مهنته الانسانية. كما أنهم فرضوا على الطبيب المنصر أن يكون نسخة متحركة من الانجيل إذ بإمكانه أن يغير الذين حوله ويجعلهم نصارى حقيقيين أو أن يترك في نفوسهم أثراً عميقاً على الأقل.

ومن أجل ذلك، تصبح أمام الطبيب طريقتان للتنصير لهما تأثيرهما المباشر على المرضى وهما:

الطريقة الأولى: اذا زار الطبيب المنصر، المريض المسلم في بيته - حيث لا تسمح حالته بالانتقال الى الطبيب - حيث يكون الى جانب المريض عدد كبير من أقاربه المسلمين في انتظار زيارة الطبيب. وفي هذا الوقت العصيب والذي يحتاج فيه المريض للعلاج ، ويحتاج أهله للاطمئنان عليه ، يفكر الطبيب المنصر في هذه الفرصة السانحة له حتى ينصر أكبر عدد من المسلمين.

الطريقة الثانية: قيام المرضى بزيارة للأطباء في مستوصف أو مستشفى، عندها تكون مهمة الطبيب المنصر أسهل، حيث يجد الوقت والمكان لديه سواء في غرفة الاستشارة أو في العراء فتكون مرتعاً مناسباً لنثر بذور التنصير في قلوب المرضى، ومن أجل هذه الأهداف الخبيثة للمنصرين، اعتنوا في أول أمرهم بالتطبيب على أنه واسطة الى غاية. وبدأوا بتأسيس المراكز الطبية في سوريا الى جانب مراكز التنصير الأخرى. فبدأت مراكز التنصير عندهم كمراكز للتطبيب في أول الأمر. وفي هذه المراكز وجهوا عنايتهم الأولى الى كبار الموظفين والأعيان ، واضعين هدفهم الدائم أمام أعينهم وهو تنصير المسلمين والسيطرة على بلادهم(٢).

وفيما يلي نقوم باستعراض أهم المؤسسات الطبية للبعثات التنصيرية المختلفة في بلاد الشام :

---

١) أ. ل شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي، نقلها للعربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، ص ٦١ -٦٢ .

٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار ، ص٦١ .

المؤسسات الطبية الكاثوليكية:

اشتد تنافس الكاثوليك عامة مع البروتستانت في مجال الخدمات الطبية في لبنان وسورية، حيث كانت الظروف مواتية لكلا الفريقين لإنشاء مؤسساتهما في البلاد، حيث لم يكن في لبنان كلها حتى عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م الا كلية واحدة للطب هي كلية الطب التابعة للكلية السورية الانجيلية، وهي أكبر كلية منافسة لليسوعيين الكاثوليك في بلاد الشام والتي تأسست في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، فكان لزاماً على الكاثوليك أن يشيدوا لهم كلية توازي نشاط الكلية البروتستانتية في لبنان.

ومما جعل الكاثوليك يفكرون في إنشاء كلية للطب تابعة لهم في بيروت، انتشار الأمراض الوبائية مثل الكوليرا، والطاعون وخصوصاً في بيروت وذلك ما بين عامي ١٢٤٦-١٢٤٨هـ/١٨٣٠-١٨٣٢م أي عشية وصول اليسوعيين الذين قاموا بتقديم الخدمات الصحية اللازمة في الوقت المناسب، مستغلين تلك الفرصة الذهبية، ليظهروا كأنهم حمائم الرحمة والسلام والحب، قارنين عملهم الانساني بعملهم التنصيري السافر.

ولقد عملت البعثة اليسوعية بكل نشاط في ظروف انتشار الأمراض الوبائية في بيروت، حيث تم إمداد تلك البعثة في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م بكمية كبيرة من الأدوية المطلوبة، ساعدت في أداء عمل البعثة على أكمل وجه، ولم ينسوا تزويد تلك البعثة بمرسل يسوعي بصفة طبيب، ليساعد في العمل التنصيري المتواصل لكسب الأتباع حتى بين المرضى.

وهكذا يتضح مدى تعاون وتفاني الإرسالية الكاثوليكية في دعم مرسليها في بلاد الشام، فهم لا يبخلون على بعثاتهم بشيء من الدعم المادي والمعنوي، حتى يتسنى لهم توجيه نشاطهم التنصيري الى مختلف فئات الشعب (١).

ولقد واصلوا جهودهم لاتخاذ الاجراءات اللازمة لبناء كلية الطب اليسوعية التابعة للارسالية، تدعمها الحكومة الفرنسية نفسها، وهي التي

---

١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص٨١ - ٨٢ .

تقوم بتعيين أساتذتها، وتدار هذه الكلية من قبل مدير يسوعي فرنسي (١).

المؤسسات الطبية البروتستانتية:

تعتبر البعثات الطبية البروتستانتية الأمريكية من أسبق البعثات التنصيرية في بلاد الشام ، حيث أن أول بعثة طب تنصيرية أمريكية وصلت الى فلسطين في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، حيث اعتبرت الرائدة في مجال الطب التنصيري ، ففي عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م كان يوجد في العالم حوالي ٤٠ نقطة علاج تنصيرية تحصل أمريكا منها ٢٦ نقطة فاعتبرت المستشفيات بذلك منافذ جديدة للتنصير الأمريكي في العالم، بينما قام الألمان والانجليز البروتستانت بأول عمل تنصيري لهم في القدس في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، فأسسوا في المدينة المقدسة المستشفيات والجمعيات التنصيرية المختلفة ، أما في لبنان فقد تمثل نشاط البروتستانت الطبي في انشاء كلية الطب عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م وأخرى للصيدلة، وأخرى لطب الأسنان، ولكنها أنشئت متأخرة بعض الشيء(٢).

وقام الأمريكان كذلك منذ عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م بتوجيه عنايتهم تجاه العمل الطبي في فلسطين ، فأنشأوا مراكز طبية لهم في مدينة غزة ، ونابلس ، وغيرها من المدن ، وكان لهم أطباء يتنقلون في القرى يدعون الناس الى النصرانية ، ولكن نجاحهم كان نادراً جداً ولقد أوقع الأطباء البروتستانت البلاد في أضرار تفوق الخدمات الطبية التي أسدوها للأهالي أضعافاً مضاعفة (٣).

وعرف للبعثة الأمريكية عدا مستشفى الجامعة ثلاث مراكز للعمل الطبي في سورية ولبنان وهي:

١) مستشفى في الميناء بطرابلس ملحقة به مدرسة للتمريض.
٢) مستشفى في دير الزور ويضم ٨٥ سريراً.
٣) مستشفى في هملين بحمانا للمصدورين ويشتمل على ٢٠٠ سرير (٤).

---

١) نور الدين حاطوم : البعثات الدينية الأجنبية في العالم العربي، ص ١٢ .
٢) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : بداية التنصير الأمريكي في الشام، (مجلة العلوم الاجتماعية، السنة الرابعة، العدد الثامن، عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص١٠٦ - ١٠٩ .
٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار .... ، ص٦١ .
٤) نور الدين حاطوم : البعثات الدينية الأجنبية .... ، ص٢٤-٢٥.

ومما هو جدير بالذكر أنه في عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م دخلت الكلية السورية الانجيلية الأمريكية ، ممثلة بكلية الطب، طرفاً ثالثاً في الاتفاق، مما أضفى على المستشفى شهرة واسعة، وسمعة حسنة في البلاد، والتي كانت تفتقر فيه الى مستشفى حكومي على مستوى المسئولية. وهذا مما يؤكد تآلف واتحاد الأهداف بين الانجليز والألمان والأمريكان، ممثلا في تعاونهم المشترك في المستشفى البروسي في بيروت. والنوايا الظاهرة للمنصرين والتي تتمثل في ممارسة التنصير بين الفئات المختلفة من أبناء سوريا وتحويل الأتباع من المذاهب النصرانية الأخرى وكسبهم الى طائفتهم علاوة على مايخفونه من نواياهم السياسة والاقتصادية والاستعمارية في البلاد.

وكان المنصرون لا يدخرون وسعاً في كسب ثقة الشعب بالتودد اليهم، فكان مثلا مؤسس الكلية السورية الانجيلية «كرنيلوس فانديك يرتدى ثياباً عربية في زي أهل بيروت (١). ويظهر بها بين السكان المحليين. وذلك حتى ينال إعجاب أهل البلاد ويكسب ثقتهم، ويسهل عليه الاختلاط بهم، ومن ثم يسهل عليه بث سمومه التنصيرية فيما بينهم، فينخدع به البسطاء من الناس.

ومن أجل تحقيق الهدف التنصيري للمؤسسات الأمريكية (البروتستانتية) اجتمع رؤساء التنصير في الكلية السورية الانجيلية في بيروت في عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، حضره فانديك وفورد وجب وهرتر من الارسالية الأمريكية، والذي حضره جونسون قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في بيروت، وأصدروا قرارهم الذي جاء فيه :

«نحن نصر على الطابع التنصيري للكلية وعلى أن يكون كل أستاذ فيها منصراً (٢).

وبعد الأمريكان جاء المنصرون البروتستانت الألمان في عام ١٢٦٧هـ/١٨٥١م وافتتحوا لهم مستشفى في القدس الشريف ، حيث قامت شماسات الكيزرزفرتKaiserswerther Hospital بهذه المهمة ، وسمح بدخوله لجميع الطوائف والجنسيات ، وذلك ليتسنى لهم كسب أكبر عدد من الأتباع ومن جميع سكان البلاد على اختلاف طوائفهم وجنسياتهم.

---

١) عصام شبارو : تاريخ بيروت ، ص١٩٠ .

٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٦٦-٦٧ .

ولقد أطلق السكان المحليون على هذا المستشفى اسم : المستشفى البروسي، وعهد بالعناية الطبية فيه الى مجموعة من الأطباء العاملين في المستشفى الانجليزي الذين ابتدأوا العمل في المستشفى في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م ، وتولى إدارة المستشفى طبيب ألماني يدعى الدكتور ساندرسكي Sandresky وحل محله في عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م الطبيب هوفمان Hoffmann ، الذي عمل الى جانب عدد من الشماسات، تضاعف مع مرور الوقت.

وفي نفس الوقت، لو نظرنا الى حالة المسلمين سواء في القدس أو في القرى المحيطة بها، نجدهم في أمس الحاجة لوجود مستشفى يفي بحاجتهم العلاجية الملحة، وتشير التقارير المعاصرة، الى وجود مستشفى عثماني واحد في القدس، مقابل وجود ٩ مستشفيات أجنبية تملكها الارساليات الأجنبية (١).

ومن الطبيعي أن يتجنب المسلمون هذه المستشفيات ، مثل مستشفى الشماسات ، ولكن عندما أدركت الشماسات حاجة المسلمين الملحة للعلاج ، مع عدم إقبالهم على مستشفاهن، افتتحت لهم قسماً خاصاً في المستشفى التابع للارساليات في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م. وذلك حتى يفتح الباب أمام تنصيرهم قبل علاجهم ، وفعلا بدأت أعداد المرضى المسلمين المراجعين في الارتفاع وثمة دلائل على أنهم تلقوا عناية حسنة خلال إقامتهم في المستشفى.

وتعتبر شماسات الكيزرزفرت ، أن نشاطهن بين المسلمين هو بمثابة انتصار للنصرانية على الإسلام (٢). لأنهم في هذا ينظرون للناحية المادية بالنسبة لمؤسساتهم بالمقارنة مع المؤسسات العثمانية المتأخرة، مع وجود الحاجة الماسة اليها في بعض المدن والقرى ، ولكن هذا كلام مردود عليهم، أخرجه حقدهم الدفين على الاسلام ، فالاسلام قوي ، وجداره متين ، لا يهزمه تأسيس مستشفى، أو علاج فئة قليلة من المحتاجين في أمثاله من مستشفيات الارساليات ، وما هو إلا الغل والحقد ، وانتهاز الفرص لإظهار كرههم للاسلام والمسلمين.

---

١) عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٨٩.
٢) عبدالرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص٩٠ .

والى جانب اعتناء المنصرين البروتستانت في بناء مستشفيات الكبار ، فقد اهتموا أيضاً وبصفة خاصة بعلاج الأطفال ، واعتنوا بهم أكبر العناية ، لأنهم اللبنة اللينة التي يشكلونها كيفما شاءوا ، فقد تم بناء مستشفى للأطفال بتبرع من الدوق ميكلنبورغ شفيرين الكبيرDer Crossherrzg Von Mecklenberg-Schwerin. وزوجته حيث كلفا الطبيب ساندرسكي Sandresky ببنائه والإشراف عليه. وأطلق على هذا المستشفى اسم «مؤسسة ماريا الخيريةMarian Stift نسبة الى زوجة الدوق. ومع نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي كان المستشفى يعالج حوالي مئة وخمسين امرأة حامل وخمسمائة طفل في العام (١).

ويعتبر إقبال المسلمين على هذا المستشفى حسناً، حيث أن المستشفى ابتعد في الظاهر عن الأهداف التنصيرية الواضحة، ولذلك عندما انقطعت خادمة المستشفى عن العمل. بسبب المرض، حمل بعض الأمهات العربيات على العمل بدلا منها مجاناً، وذلك تقديراً لدور المستشفى الاجتماعي البعيد عن التنصير.

ولهذا السبب بالذات - وهو ابتعاد المستشفى عن الأهداف التنصيرية الملموسة -لم يستطع المستشفى الاستمرار، وازداد العجز في ميزانيته، وكثرت ديونه، ولم يجد معونة من أية جمعية بروتستانتية تعمل في بلاد الشام، فاضطر الى اقفاله بعد وفاة ساندرسكي في عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ، لأن الجمعيات التنصيرية لم تر في مشروع المستشفى ما يخدم أغراضها التنصيرية فضحت به (٢).

وكذلك أنشأت الارسالية الانجيلية الألمانية والتي تدعى معونة يسوع DAS Aussatzigenasyl Jesus Hilfe مأوى للمجذومين في القدس في عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م والتي كانت تؤدي لهذه الفئة من المرضى خدمة انسانية كبرى ، مع قيامها بتنفيذ سياستها التنصيرية (٣).

ولقد قام الألمان البروتستانت بتأسيس مستشفى أخستا فكتوريا في مدينة القدس باسم التي أسسته، وذلك في أواخر القرن الثالث

---

١) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص ٦٨ - ٦٩ .
٢) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٥٠-١٥٤.
٣) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص ٦٧. وعبد الرؤوف سنو: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٤١-١٤٤ .

عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وقام الألمان بتأسيس أول مستشفى في القدس ، يستقبل المرضى من كافة الجنسيات والطوائف الدينية وعرف باسم مستشفى الدياكونيس (١). وذلك في عام ١٢٦٧هـ/١٨٥١م.

وفي لبنان. قامت رهبنة «فرسان يوحنا» (٢) johanniterorden باستغلال وضع لبنان بعد الحرب الأهلية في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م وأسست المستشفى البروسي في بيروت والذي عرف أيضاً باسم خستخانة بيروتDas Preussische Krankennaus In Beirut .(٣).

وأنشأت الرهبنة مستشفى لها في صيدا كذلك لأنها كانت مكتظة باللاجئين النصارى بعد الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ثم انتقل نشاطهم الى مدينة بيروت بعد ثلاثة عشر شهراً من العمل في صيدا لوجود مستشفيات منافسة له، فكان هناك مستشفى فرنسياً كاثوليكياً، اضافة

---

١) على محافظة: العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٦٢ .

٢) فرسان القديس يوحنا: أطلق عليهم فرسان القديس وهم من أشرار الناس حيث أنهم من قراصنة البحار في العصور الوسطى، وأسس هذا النظام بعد استيلاء الصليبيين على القدس في عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، وكان يقودهم غودفروا دوبويون. وتأسست قاعدتهم في ملجأ نصراني، ووافق عليه البابا بنفسه في عام ٥١٤هـ/١١٢٠م وانصرف أفرادها لمهاجمة سفن المسلمين في عرض البحر ثم طرد نظامهم من القدس على يد صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثم نقل الى قبرص، وبعدها انتقلوا الى جزيرة رودس ابتداءاً من عام ٧١٠هـ/١٣١٠م، وظلوا فيها حتى فتحها المسلمون على يد السلطان سليمان في عام ٩٣٠هـ/١٥٢٣م. وانتقل فرسان يوحنا الى جزيرة مالطا من عام ٩٣٧ -١٢١٣هـ/ ١٥٣٠ -١٧٩٨م ثم أعيد انشاء هذا النظام في انجلترا تحت نظام مستشفى القديس يوحنا القدسي. ومقره العام في كنيسة جونز St.john' ويدعون أن هذا النظام من أنظمة الاحسان وحب الانسان وهذا مخالف للحقيقة، اذ كيف يطلق عليهم لقب فرنسان وهم أبعد الناس عن الشجاعة وكرم الأخلاق التي يتمتع بها الفرسان، حيث تمثلت أعمالهم في النهب والسلب، فهم جماعة من اللصوص، يعتدون على السفن وينهبونها ويستعبدون أصحابها أسوأ استعباد فكانوا يجعلون أسراهم يسيرون السفن بالمجاذيف، وعليهم الحراس النصارى يضربونهم بالكرابيج، بينما يموت الكثير منهم من دون رحمة ولا إنسانية. انظر نور الدين حاطوم: البعثات الدينية الأجنبية في العالم العربي، ص٧٥-٧٦.

٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص ١٧٣.

الى عزم السلطات العثمانية على تشييد مستشفى لها في منطقة صيدا . ومنذ انتقال المستشفى الى بيروت أطلق عليه السكان اسم المستشفى البروسي. والذي افتتح الى جانبه مستوصف وصيدلية مستغلين بذلك ظروف المنكوبين وذلك لكسبهم الى صفوف طائفتهم ويكونوا لهم ظهراً من أصحاب البلاد.

وقد حدث تعاون بين رهبنة فرسان يوحنا وراهبات الكيزرزفرت على ادارة المستشفى البروسي (١)، وهذا غير مستغرب حيث أن المذهب واحد بينهما وهو المذهب البروتستانتي والمصالح مشتركة بينهما.

هذا وقد أسس البروتستانت الانجليز جمعية أطلق عليها جمعية الكنيسة الأهلية، والتي قامت بتأسيس مستشفى في مدينة السلط في الأردن في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وأنشأت كنيسة في مدينة الحصن ألحقت بها مدرسة وعيادة خارجية، وكان العمل في مستشفى السلط والحصن في عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، الى جانب عيادة خارجية ، افتتحتها الجمعية في شمال الأردن. وفي عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م قسم الألمان والانجليز منطقة نشاطهم في القدس فيما بينهم ، حيث يكون الانجليز في الشمال والألمان في الجنوب، على أن لا يتعرض أحدهما لعمل الآخر (٢). بينما قام البروتستانت الانجليز بانشاء مستشفى مارل لوقا في مدينة نابلس، ومستشفى مارل لوقا في مدينة الخليل، واتفق الألمان على أن يكون مطران القدس انجليزي لفترة معينة، ثم يأتي بعده مطران ألماني، وهكذا بالتناوب.

المؤسسات الطبية الأرثوذكسية:

في الواقع لا تعتبر المؤسسات الطبية الأرثوذكسية على مستوى المنافسة مع المؤسسات الكاثوليكية والبروتستانتية في بلاد الشام عامة. وفي الغالب كان الرعايا الأرثوذكس يضطرون للذهاب الى المؤسسات الكاثوليكية والبروتستانتية سواء منها التعليمية أو الطبية لقلة ما لدى

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص١٧٤-١٧٥. وحسان حلاق : بيروت المحروسة في العهد العثماني، (بيروت، الدار الجامعية: ١٩٨٧)، ص١٠٤.

٢) إيليا خوري : مقابلة أجريتها مع البطريرك إيليا خورى رئيس الطائفة البروتستانتية في عمان، الأردن، في يوم الإثنين الموافق ١٥محرم من عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

الطائفة من الدعم لافتتاح مؤسسات خاصة بها.

وعلى الرغم من ذلك كان يوجد بعض المستشفيات المتفرقة للأرثوذكس في بلاد الشام تتوزع على المدن التالية، عكا، وصيدا، ودمشق وحلب (١). وللأرثوذكس مستشفى الروم الأرثوذكسي في الأشرفية في لبنان (٢). وفي فلسطين مستشفى في مدينة الناصرة، وعكا (٣). ومما هو جدير بالذكر، أن الارساليات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية قد اجتهدت في اكتساب الأتباع من الكنيسة الأرثوذكسية ومحاولة تحويلهم عن مذهبهم، كما عملت على تنصير بلاد الشام كافة.

وهكذا يتضح لنا أن الطب كان وسيلة الى غاية، وهي تحويل الأمة الاسلامية الى النصرانية، كما عملوا على استغلال التعليم لنفس الغرض، ولهذا فقد اختير رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت من منصري الارسالية السورية. وعلى هذا الأساس عاد دانيال بلس أحد رؤوساء الجامعة الأمريكية (البروتستانت) في بيروت الى أمريكا ليرغب الجمهور النصراني في بلاده، لمحاولة تأسيس معهد أدبي، ومعاهد طبية تعمل على نشر الارساليات البروتستانتية النصرانية في سوريا والأقطار المجاورة (٤).

هذا ويعتبر التعليم الوسيلة الثانية بعد العمل الطبي، وهو من أهم الوسائل التي اتبعها المنصرون في تحقيق أهدافهم الاستعمارية، حيث قاموا برصد المبالغ الطائلة لافتتاح رياض الأطفال والمدارس والمعاهد والكليات في بلاد الشام في محاولة للتأثير على أفراد المجتمع الاسلامي ونزع القيم الاسلامية المثلى من عقول مفكريه وشبابه واستبدالها بمثل مادية الحادية وأفكار نصرانية واهية لا تستند الى دليل. حتى يسهل السيطرة على البلاد الاسلامية فيما بعد واستغلال خيراتها وثرواتها.

ويتم في الفقرة التالية من هذا الفصل دراسة العمل التنصيري عن طريق التعليم، وكيف جعله المنصرون وسيلة من وسائلهم الاستعمارية الخبيثة.

---

١) أسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٣١.
٢) حسان حلاق:بيروت المحروسة في العهد العثماني،ص ١٠٥ .
٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٧٦.
٤) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ...، ص٩٩.

ب) وسائل تحقيق أهداف الإرساليات عن طريق التعليم

اعتبر التعليم من أهم وأعظم الوسائل المتعددة التي اتبعها المنصرون للوصول الى أغراضهم، وتحقيق أهدافهم، فلم يقفوا عند أسلوب معين، وانما استخدموا كل الأساليب، وكل الطرق، وكان من أهم ما توصل اليه المنصرون لغزو المسلمين والتغلب عليهم، بعد أن فشلوا من السيطرة عليهم عسكرياً. أن لجأوا الى غزو المسلمين فكرياً، ولقد أعطوا هذا الجانب اهتماماً كبيراً، حيث قدموا الدعم المادي الكبير من قبل حكوماتهم، الى جانب ماتقدمه من الغزو العسكري عند الضرورة. ويعتبر التعليم من أهم وسائل السيطرة الفكرية، لذلك أرسلوا البعثات التنصيرية التعليمية لنشر أفكار الغرب النصراني، على أن يتم التركيز على النشء بادئ ذي بدء.

ولذلك اهتم المنصرون بدور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية في جميع أنحاء بلاد الشام، إيماناً منهم بأن هذه المدارس هي أكبر قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم النصراني ويستمر هذا التأثير حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون في يوم ما قادة لأوطانهم وبيدهم مقاليد الأمور ، فكان التعليم بذلك قد اتخذه المنصرون كوسيلة مثلى في التأثير والتغريب الذي يسعون اليه، فقاموا تساندهم حكوماتهم بزرع عشرات المدارس التنصيرية في بلاد الشام، والتي تأخذ الطفل منذ نعومة أظفاره عجينة لينة، فتصوغه كما تريد وتنشئه كما تهوى، وتبعده عن الاسلام بقدر ما تقربه من النصرانية، وتحببه في حضارة الغرب بقدر ماتبغضه من حضارة الاسلام (١).

وتقول المنصرة آنا ميلجان في أهمية تعليم البنات لزرع الأفكار الغربية النصرانية بين شباب الجيل: «في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ النصراني، وليس ثمة طريق

---

١) يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، (الطبعة الثالثة، القاهرة، القاهرة الحديثة للطباعة: ربيع أول١٣٩٧هـ/مارس ١٩٧٧م)، ص٢٤، ومحمود شاكر: أباطيل واسمار، ج١، ص٢٥٣، ومصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص٦٧. ومحمد زين العابدين : أهداف المنصرين الاستعمارية، (جريدة المسلمون، السنة السابعة، العدد ١٢٤، ١٤٠٧/١٠/٢٤هـ)، ص٢٦.

الى دحض الاسلام أحسن من هذه المدرسة» (١). لأنهم يعلمون الفتاة المفاهيم النصرانية والعلمانية فتكون المرأة بعد ذلك طريقاً لإفساد الأجيال، لضخامة دورها التربوي والأسري في المجتمع.

بينما يقول مستر بثروز رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت «لقد أثبت البرهان أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المنصرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان (٢).

ويدعى المنصر زويمر فيقول: «لقد قبضنا أيها الاخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الاسلامية وأنكم أعددتم نشئاً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الاسلام، ولم تدخلوه في النصرانية، وبالتالي جاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار النصراني لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولايعرف همة في دنياه الا في الشهوات.. فاذا تعلم فللشهوات، واذا جمع المال فللشهوات، وان تبوأ المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شئ (٣).

وإذا صح هذا الكلام وللأسف يوجد فيه بعض الحقائق، التي تؤلمنا عندما نسمعها أو نقرؤها، ولكن ماذا فعلنا لنواجه مثل هذا الخطر الداهم على عرين الاسلام؟ هل نظل نقرأ ونتوجع فقط أمام ما يحدث للمسلمين في كل يوم وفي كل حين؟ ونكتم غيرتنا في صدورنا؟ أم نترك الأمر كأنه لا يعنينا كما يفعل الكثيرون منا وللأسف الشديد؟ فقليل منا من يقرأ.. وقليل منا من ظل يغار على ما يقع لاخوانه المسلمين المضطهدين في معظم بقاع الأرض، والذين تنشط بينهم الحملات التنصيرية المسعورة. فلننظر بتمعن للقول السابق، حيث استكثر الاستعمار التنصيري فيه على المسلمين حتى دخول النصرانية المحرفة، هذا اذا نجحوا في اخراج المسلمين من الاسلام. لأنهم يريدون تجريد المسلمين من دينهم الخالد، حتى يتحولوا بعد ذلك الى أعداء لدينهم بأنفسهم، فهو يأبى أن يترك للمسلمين دينهم بعد أن سلب منهم خيرات أرضهم وعمل على استعمارهم بعد ذلك، وكان لا بد أن يحقق لهم

---

١) محمود شاكر : أباطيل وأسمار، ج١، ص٢٥٣-٢٥٤.
٢) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ... ، ص٦٧.
٣) على جريشة ومحمد الزيبق: أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي، ص٦٣، وعبدالله التل : جذور البلاء، (الطبعة الثانية، دمشق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٢١٥ .

جهالتهم بالدين. وبذلك يبعد المسلمين عن سر قوتهم وشموخهم وعظمتهم، اذا هم بعدوا عن الدين الاسلامي الحنيف، والذي جعل المسلمين يحكمون الدنيا عندما تمسكوا به، فهو السر الكامن في قوتهم.

يقول جون تكلي المنصر المتحامل على الاسلام: «يجب أن نشجع انشاء المدارس، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي، إن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم، حينما تعلموا اللغة الانجليزية.. ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً (١).

ومعنى هذا الكلام أن الكتب الغربية المقصودة تشكك أيضاً في الإنجيل والتوراة، التي يدعي المنصرون الإيمان بما جاء فيهما، ويدعون اليهما فيما زعموا. فما الذي يفيد المنصرين إذا تزعزع اعتقاد الناس بالله والآخرة، وتزلزل إيمانهم بالكتب المقدسة، فلو لم يكونوا من عملاء الاستعمار ومطاياه لما أقدموا على مثل هذا العمل. فلا بد إذن أن لا تخفى على المسلمين عامة وطبقة المثقفين خاصة، مظاهر التنصير الغربي وأهدافه الخبيثة المختفية وراء المناهج التعليمية والكتب الدراسية(٢).

تسلط المنصرين على المرأة المسلمة:

ولقد شعر الاستعمار الحديث الممثل في جيوش المنصرين، قيمة الخطورة الكامنة في اخراج المرأة من بيتها، بحجة تعليمها وتمثل هذا الاهتمام من جانب المنصرين جميعاً، بانشاء المدارس العديدة للبنات، فافتتحوا أول مدرسة في بيروت في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م (٣).

كما اهتم المنصرون بالمدارس الداخلية للبنات أشد الاهتمام، حيث شعروا أن في هذه المدارس يكون النشاط التنصيري أشد حبكاً، لما يكون فيها من الأحوال المؤاتية والفرص السانحة، ولأن المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية، لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات المسلمات أوثق لأن الطالبات يقضين فترات طويلة في المدارس الداخلية ليلا ونهاراً، ولا يخرجن منها إلا في الاجازات الرسمية، ولأن تلك المدارس تنتزع الطالبات من نفوذ حياة بيئية اسلامية الى نفوذ حياة اجتماعية نصرانية

---

١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ... ، ص٩٨ .
٢) يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص٢٦-٢٧.
٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ... ، ص٨٧ .

صرفة فلا بد أن تؤثر فيهن هذه الحياة أشد تأثير. ويغتبط المنصرون، إذا اجتمع في مدارسهم الداخلية للبنات، طالبات من أسر إسلامية معروفة ومشهورة ومن علية القوم، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيوتهن أعظم وأكبر، وليس ثمة طريق الى هدم الاسلام أقصر وأيسر مسافة من مدارس البنات التي ينشؤها المنصرون في ديار الاسلام (١).

من أجل ذلك قام المنصرون الأمريكيون برصد مبالغ ضخمة لتأسيس المدارس التنصيرية للبنات في بلاد الشام، حيث أوجدت الجمعية التنصيرية الأمريكية البروتستانتية والتي يرجع عهدها الى ١٢٢٥هـ/١٨١٠م لجاناً حتى بلغت هذه اللجان والتي تتبع الوطنيين في مناطق التنصير ٥٦٨ لجنة اشترك فيها حوالي ٧٣ ألف وطني يدفعون لهذه الجمعية مبلغ ١ر٦٠٠ر٠٠٠ فرنك فرنسي للقيام بأعمالها التنصيرية. ولديها نساء منصرات يزداد عملهن وعددهن يوماً بعد يوم. ويهتم ذوو الشأن في هذه الجمعية بتوفير مبلغ مليوني دولار أمريكي ترصد ايراداتها لسد نفقات مدارس التعليم ومدارس التنصير. وتهتم هذه الجمعية بأمر التنصير في البلاد العثمانية ، وخصوصاً سوريا وفلسطين ، لأنها لا ترغب في ترك البلاد التي كانت مهبط التوراة تحت سيطرة الاسلام (٢).

ولما كانت المرأة المسلمة الملتزمة بآداب الاسلام بعيدة عن الاختلاط في مجتمعات الرجال، اضطر المنصرون في أول الأمر أن يضموا اليهم فريقاً من المنصرات اللواتي يحملن مهمة التنصير الى النساء المسلمات.

ولذلك قاموا بتأسيس جمعيات نسائية كجمعية الشابات المسيحيات (النصرانيات) وأن يؤسسوا مدارس للبنات على نسق المدارس التي أسسوها للذكور. وأن يوجهوا عناية لفتح المدارس الداخلية، لأن فرص التأثير فيها أكثر، وأن يشجعوا التعليم المختلط، وأن يفتحوا دوراً خاصة بالطالبات تشرف عليها طائفة من المنصرات ، وأن يقيموا الأندية النسائية والمخيمات الكشفية النسائية ، ثم ما زالوا يتدرجون في كسر الحواجز بين الذكور والاناث ، حتى شاعت فكرة الاختلاط في المجتمعات الإسلامية.

---

١) محمد محمود الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام، ص٢٢٠.

٢) ا. ل. شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي، لخصها ونقلها للعربية، مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، ص٢٣٢-٢٣٣.

ويقول نفر من المنصرين : «بما أن الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها ذكوراً واناثاً حتى العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التنصيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات، على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتحويل البلاد الإسلامية الى النصرانية».

وفي رأي لبعض المنصرات أنه : « لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات الى المسيح. إن عدد النساء المسلمات عظيم جداً.. فكل نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل الى الآن، نحن لا نقترح منظمات جديدة، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية (تنصيرية) أن تحمل فرعها النسائي على العمل ، واضعة نصب عينها هدفاً جديداً هو الوصول الى جميع نساء العالم المسلمات في هذا الجيل»(١).

وعندما سمع صموئيل زويمر قطب التنصير الشكوى من استعصاء المسلم على المنصرين، وعجزهم عن التأثير في قلبه ، أبان في تعقيبه : « أنه ليس غرض التنصير فقط هو نقل المسلم من الاسلام، ولكن أقصى ما يجب على المنصر عمله هو تفريغ قلب المسلم من الايمان بالله . وأن أقصر طريق لذلك هو اجتذاب الفتاة المسلمة الى مدارسهم بكل الوسائل الممكنة، لأنها هي التي تتولى عنهم مهمة تحويل المجتمع الاسلامي وسلخه من مقومات دينه».

وقد ابتكر المنصرون وسيلة لتنصير الفتيات اللاتي يتعرضن للأزمات العاطفية أو العائلية أو الاقتصادية، والتأثير عليهن وتنصيرهن، وقد لخص المنصرون هذه الوسيلة ، بأن الحاجة الملحة والمستعجلة هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار، ويجب أن لا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي، ثم تفرق فيها حسب أحوالهن وحاجاتهن، وكذلك فإن مكوث هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن. وبالتالي فإن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الإنجيل، ثم تختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يعملن أكثر من غيرهن، ليكن بدورهن منصرات بين قومهن (٢).

---

١) عبدالرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، (الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم: ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص٦٣-٦٤.

٢) عبدالرحمن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص٦٤-٦٥ .

الأهداف الاستعمارية من وراء التعليم التنصيري في بلاد الشام:

قد يتساءل البعض عن السبب الرئيسي الذي يدعو الدول الأجنبية الى تجنيد مرسليها الى العالم الاسلامي من المستشرقين والمنصرين، ودفع التكاليف الباهظة لتأسيس المعاهد التعليمية التنصيرية في بلاد الشام أو في غيرها من بلاد المسلمين، ولماذا يقضي المنصرون زهرة شبابهم في تلك المناطق باذلين الكثير من الصبر وقوة الارادة، للعيش في ظروف ربما تكون صعبة للغاية عليهم لأنهم لم يألفوها، ناهيك عن صعوبة اللغة وآلام الاغتراب، وموقف أهل البلاد منهم. والاجابة على هذه التساؤلات تظهر جلياً اذا عرفنا الأسباب والأهداف الحقيقية للتواجد الأوروبي النصراني في بلاد الشام، والذي يشمل أمور الحياة المختلفة من دينية وسياسية واقتصادية.

فعندما بدأ الاستعمار الغربي يعمل على توسيع رقعة نفوذه في العالم الاسلامي، خلال وبعد القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ظهرت أهدافه الاستعمارية الاستغلالية واضحة جلية، وأخذت الدول الأجنبية تحث موظفيها في مستعمراتها على تعلم لغات تلك البلاد، ودراسة آدابها ودينها وعاداتها ، حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بتلك المستعمرات أكبر مدة ممكنة(١). إلا أنهم بقدومهم الى بلاد المسلمين واجهوا سداً منيعاً وجداراً حاجزاً، وهو تمسك أهل البلاد بالدين السماوي الخاتم وهو الدين الاسلامي الحنيف، فعلموا أنهم لن يستطيعوا دخول تلك البلاد للسيطرة عليها الا بالقضاء على الدين الاسلامي، الذي يأمر أتباعه بالجهاد المقدس، وإعداد العدة لصد أي اعتداء خارجي على ديار المسلمين، فكانت للدول الأجنبية الاستعمارية وسائلها الخبيثة لزعزعة المسلمين وتشكيكهم في دينهم، وذلك عن طريق فتح المؤسسات التعليمية في شتى المراحل الدراسية في أنحاء بلاد الشام. ولجميع الأعمار ولكل الفئات، وفعلوا ذلك حقداً على المسلمين، وحباً في السيطرة على ديارهم، واستغلال ثرواتهم، والذين استحالت هزيمتهم عندما كانوا متحدين تحت راية الاسلام في العصور الذهبية للمسلمين. وتنحصر السياسة التعليمية عند المنصرين بأنها سياسة تهدف الى استخدام العلم كوسيلة لأغراض المنصرين من

---

١) محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٨٩-٩٠.

جهة ولأغراض الدول الاستعمارية من جهة أخرى.(١) وبمقدار ما يحقق التعليم لهم من هذه الأغراض يوسعون فيه أو يضيقون منه ويوجهون مناهجه وخططه الدراسية والكتب المصنفة له، والوسائل المستخدمة فيه، والعناصر التعليمية التي تمارسه وتشرف عليه. ونجد في أقوال المنصرين حشداً من النصوص الدالة على أن التعليم عندهم لم يكن إلا وسيلة لتحقيق أغراضهم. يقول نفر من المنصرين «أن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة، إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى وسيلة لتحقيق أهداف التنصير» حتى أن الموضوعات العلمية البحتة التي تعلم من كتب غربية وعلى أيدى مدرسين غربيين تحمل معها الآراء التنصيرية.

ويرى المنصر هنري هريس جسب: «أن التعليم في الارساليات التنصيرية انما هو وسيلة الى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً نصارى وشعوباً نصرانية. ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وعلماء طبقات الأرض وعلماء النبات وخيرة الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي، فـ إننا لا نتردد حينئذ في أن نقول أن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التنصيري الى مدى علماني محض. والى مدى علمي دنيوي».

ويقول جسب في مقام آخر : «إن المدارس شرط أساسي لنجاح التنصير، وهي بعد هذا وسيلة الى غاية، لا غاية في نفسها، لقد كانت المدارس تسعى بالإضافة الى التنصير ، الى «دق الأسفين» في الحقيقة ، حيث تعمل على إدخال الإنجيل الى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل اليها الانجيل أو المنصرون من طريق آخر» (٢).

ولم يكن هدف الاستعمار التنصيري، والتنصير الاستعماري، من وراء إنشاء مؤسساته التعليمية في بلاد الشام، ادخال المسلمين في النصرانية. لأن ذلك ضرب من المستحيل. ولكن أكبر همه كان في زحزحة المسلمين عن الاسلام، وزعزعته في نفوسهم، وتشويه صورته من كل جانب - شريعة، وتاريخاً وحضارة - في أعين الناشئين والشباب ، وعزلهم عن الثقافة

---

١) عبدالرحمن حبنكة الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص٦٠-٦١.

٢) عبدالرحمن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص٦٢

الاسلامية الأصيلة ، لأنهم هم مستقبل الأمة في كل زمان ومكان. فإذا استخف الشباب بالدين، أصبحوا أعداءه دون أن يشعروا، بل وأكثر حقداً على الدين من المنصرين الغربيين أنفسهم.

ولا ينسى الغربيون الى جانب زعزعة ثقة المسلم في عقيدته ، أن يبرزوا وجه الحضارة الغربية ويظهروه - زيفاً - بأنه جذاب فاتن ، ومبرأ من كل عيب ، منعوتاً بكل جمال وكمال. والحضارة الغربية ، كما هي واضحة للعيان تشجع على ارتكاب كل ما يأمر به الشيطان وتنهى عنه الكتب السماوية ، من زنى ، وشرب خمر، وفواحش وسرقة، وشذوذ أخلاقي. وهذه كلها جرائم خلقية.

ويسعى الاستعمار كي يبعد أبناء هذه البلاد عن التفكير بعقل المسلم - الذي رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً، وبالقرآن منهاج حياة، وبمحمد رسولا.. - بل يريدهم بالعقل الذي صنعه لهم وسجنهم فيه، وراء قضبان محكمة، غير مرئية ، يختفي وراء الحضارة المادية المصطنعة، والشعارات الغربية الزائفة(١) . وأن المنصرين في سياستهم التعليمية التنصيرية لا يمكن أن يتسامحوا في أمر يخص هدف التنصير، فلم يكن في استطاعة المنصرين أن يقبلوا في مدارسهم معلمين من المسلمين لأبناء المسلمين الذين يفدون الى مؤسسات المنصرين، مهما كانت قدرتهم العلمية وكفاءتهم التعليمية، لأن قبول مثل هؤلاء المعلمين تعتبر من وجهة نظر المنصرين مؤثراً على الأهداف التنصيرية، ولئن قبلت بعض المعلمين من المسلمين فلغرض التمويه، وإخفاء التعصب ضدهم (٢).

ولقد أدرك المسلمون الواعون، في كافة البلاد الاسلامية خطورة التعليم الذي تقوم به الارساليات الأجنبية في بلاد المسلمين، فوصفه بعضهم بأنه «الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء. إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية. وهو الذي يستطيع أن يحول جبلا شامخاً الى كومة من التراب (٣).

وفي مجال التعليم بين الأطفال يقول جون موط: «إن الأثر المفسد في

---

١) يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص٢٧ .
٢) عبدالرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص٦٢.
٣) يوسف القرضاوي : المرجع السابق، ص٢٨-٢٩.

الاسلام يبدأ باكراً جداً، من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار الى المسيح قبل بلوغهم الرشد، وقبل أن تأخذ طباعهم أشكالها الاسلامية ومن المراحل الابتدائية، التي يعتبرها المنصرون أثمن وسيلة، لنجاح التنصير، لأنه يمكن للمنصرين من تثبيت أقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج اليه القرى.. ولأن المدارس الابتدائية تمكن المنصرين من أن يصلوا الى عقول هؤلاء الصغار، وهي لا تزال تتأثر بما يلقي اليها»(١).

ولا ننسى أبداً الدور الخطير الذي يقوم به المنصرون، فالتنصير يستغل تفوق القدرات عند النابهين من الطلاب، للتأثير على أسلوبهم وسلوكهم ، فهم قادة الرأي - وهذا ما يمكن أن يسمى بصناعة الزعماء للمستقبل - وعلى هذا الأساس أنشأ المنصرون البروتستانت كلية بيروت في عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، وجعلوا على رأسها المنصر دانيال بلس Daniel Bliss، والتي أصبحت تعرف فيما بعد بالكلية السورية الانجيلية. وهي اليوم تعرف بالجامعة الأمريكية. وكذلك قام الكاثوليك بإنشاء جامعة القديس يوسف في بيروت في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م. وحاولوا أن يكون لها مثيلات في العالم الاسلامي، فافتتحوا كلية في القاهرة الى جانب الأزهر، وكلية روبرت في اسطنبول وكلية في لاهور، كما يوجد للانجليز كلية غوردن في الخرطوم(٢).

ومن أخطر ما يتبعه المنصرون في مجال الدراسات العالية، في الجامعات والكليات، أنهم كانوا يتخذون أسلوباً معيناً في المناهج الدراسية في البلدان الإسلامية يستهدفون به ما يلي:

١) عزل أي بلد إسلامي عن قيمه ومبادئ دينه، ومن ثم عزله عن العالم الاسلامي كله.
٢) الحيلولة بينه وبين الارتباط بجذوره التاريخية والأدبية واللغوية، بادعائهم أن العصر الحديث يبدأ بحملة نابليون، وهو منفصل تماماً عن العصر الذي سبقه والذي أطلقوا عليه زيفاً وبهتاناً «عصر الانحطاط» محاولة منهم لإيجاد شعور نفسي بالكراهية والانسلاخ عن الماضي كله.
٣) الدعوة الى إحياء القوميات مثل التاريخ الفرعوني والفينيقي والآشوري

---

١) نذير حمدان: الغزو الفكري، المفهوم، الوسائل، المحاولات، ص٣٠.
٢) نذير حمدان: الغزو الفكري، المرجع السابق ، ص٣٢ ، وفيليب حتي : لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، (بيروت، دار الثقافة: ١٩٥٩م)، ص٥٥١.

والبابلي وغيره، ليلجأوا الى الارتباط بالغرب، وحضارته، وإفهام أهل البلاد أن الحضارة الغربية لا تقهر ، وأن الغرب يسعى الى تمدين الأمم المتأخرة، الى آخر ما هنالك من الأفتراءات والضلالات(١) .

وهكذا يتم تلقين هذه التعاليم والضلالات في جامعات تحوي المئات من الطوائف المختلفة في بلاد الشام ومن بينهم أبناء المسلمين، الذين هم أقل من غيرهم عدداً في تلك الجامعات، لأن الآباء يخافون على عقائد أبنائهم من هذه المدارس، فهي نصرانية، ومديروها ونظارها من القساوسة (٢). وهم يلزمون التلميذ المسلم بدخول الكنيسة، وصلاة النصارى. ففي مدارس الجزويت (٣) كانوا يحولون بين الطالب المسلم وبين كل ما يذكره بدينه، حتى أنهم يحرفون ما يطبعونه من كتب المسلمين، فينسبون كلام الله فيها الى الناس المجهولين، وكذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكذبون على الاسلام والمسلمين في التاريخ لينفروا تلاميذهم منه. (٤).

وكان لجمعية المرسلين الكنسية مدارس مماثلة في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا ونابلس ورفيديا نصف الجبيل وزبابدة والرنية وكفر كنة ومجيدل وبرقين وشفا عمرو ومعلول والسلط وعجلون والحصن وإربد. وكان

---

١) أنور الجندي: اطار اسلامي للفكر المعاصر، (الطبعة الأولى، دمشق، المكتب الاسلامي: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٢٦٠.

٢) القساوسة جمع قسيس، والقسيس راعي الكنيسة النصرانية والقائم على شئونها الدينية.

٣) الجزويت: هم جماعة من اليسوعيين (الكاثوليك)، قاموا بالعمل التنصيري في سوريا وخصوصاً في حلب منذ عام ١٠٣٥/١٦٢٥م بين الموارنة الكاثوليك، وكانت هذه الجماعة تقوم بالتدريس في مدارسها باللغة الفرنسية على أسس غربية. وفي عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م أغلقت مؤسساتهم واضطروا الى تسليم نشاطهم الى الرهبان العازاريين لإتمام عملهم، ولكنهم عادوا للعمل في سوريا مرة أخرى في عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بعد قدوم الأمريكان للعمل التنصيري في سوريا. فأخذ اليسوعيون ينشئون المعاهد في بيروت وزحلة وغزير حتى عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، وقاموا بتأسيس المطبعة الكاثوليكية في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م في بيروت ثم أنشأوا بعد ذلك معاهد علمية في دمشق وحلب. أنظر: سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٤٦.

٤) محمد رشيد رضا : المدرسة الكلية الأمريكانية في بيروت، (مجلة المنار، المجلد ٦، العدد ٧٠، ج١٤)، ص٥٦٦-٥٦٧.

لهذه الجمعية أربع مدارس في غزة، اثنتان للصبيان واثنتان للبنات. وقد بلغ عدد مدارس جمعية المرسلين الكنسية في فلسطين والأردن ٣٥ مدرسة في عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م (١).

أما البعثة الألمانية، فقد فكرت في - أواخر القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي - بإنشاء مراكز إنجيلية من خريجي دار الأيتام السورية في فلسطين، ولقد سعى لإنشاء هذه المراكز قيصر ألمانيا فيلهلم الأول. وحاول الألمان أيضاً نشر مدارسهم في فلسطين، فأنشأوا مدرسة في بير سالم (٢) الى جانب اهتمامهم الواسع بالتعليم المهني، والتعليم الصناعي، الذي أدخلوه في دار الأيتام السورية.

واذا دخل الطالب المسلم مدرسة أمريكية، اشترط عليه حضور الدروس الدينية وأداء الامتحان فيها، والا كان في عداد الراسبين.

ومعنى حضور الدروس الدينية، أن الطالب المسلم يشارك النصارى في عبادتهم، ويدخل الكنيسة معهم، ويتناول قربانهم، وقد يكون دخل المدرسة النصرانية وهو لا يعرف عن الاسلام سوى أسمه، وأبوه لاهٍ عنه بعمله فينسلخ من دينه من حيث لا يشعر وينقلب حرباً عليه يتربص بهِ الدوائر، ويضحك من أتباعه الغيورين عليه.

ومن مساوئ هذه المدارس أنها تقوم بتوزيع المجلات النصرانية كالشرق والغرب ومجلة الهدى، وبشائر السلام، على الطلاب ليقرءوها. وهذه المجلات تحوي طعناً جارحاً في الاسلام، منطوياً على التغرير والكذب والاختلاق. وتقارير وهمية عن انتشار النصرانية في أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها. وعندما يقرأ الطلاب المسلمون هذه الافتراءات في مجلات المنصرين يظنونها معدن الحقائق فتغزوهم الشكوك ويغمرهم طوفان الوسواس الخناس ويساعد على ارتفاع الطوفان ما يرون من ضعف المسلمين في الأرض وتسلط الكافرين عليهم (٣).

---

١) على محافظة: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، ص٣٩-٤٠.

٢) عبدالرؤوف سنو: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٦٤.

٣) محب الدين الخطيب: المدارس الأمريكية (جريدة الفتح، السنة الرابعة، العدد ١٩٦، ١٢ شوال ١٣٤٨هـ/١٣ مارس ١٩٣٠م)،ص٧٢٨.

وفيما يلي نتكلم عن أهم المؤسسات التعليمية التنصيرية الأجنبية، ونبين نشاطاتها المختلفة في جميع مناطق بلاد الشام، وتبعيتها للدول الأجنبية ، وذلك حسب الطوائف النصرانية التي تتبعها من كاثوليكية وبروتستانتية و أرثوذكسية.

المؤسسات التعليمية الكاثوليكية:

أدى التنافس الكبير بين الارساليات الكاثوليكية و البروتستانتية على وجه الخصوص، الى زيادة إنشاء المؤسسات المختلفة لكل بعثة منهما، و الذي ظهر جلياً و اضحاً في بلاد الشام. حيث تقوم الحكومات المسؤولة عن تلك الارساليات بدعمها بالمال اللازم وتمدها بالمنصرين المتخصصين ، لأن كل و احدة منها تعمل جاهدة على أن تكون لها أرضية صلبة في بلاد الشام أكثر من منافستها، لتنطلق منها لتحقيق مآربها الاستعمارية و الاستغلالية في المنطقة بشكل عام.

وفي الحقيقة تعتبر البعثات الكاثوليكية، من أقدم الارساليات نشاطاً في مجال التعليم خاصة، ولقد تركز معظم اهتمامها في فلسطين، وبيت المقدس بشكل أخص. (١)

فقد أنشأ الكاثوليك مدرسة د اخلية للصبيان في دير الفرنسيسكان في القدس منذ عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م، غير أنها كانت مدرسة متو اضعة لم يزد عدد تلاميذها حتى عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م على عشرين تلميذاً، يقوم على تدريسهم ثلاثة معلمين فقط . ولكنها كانت تعتبر أول نقطة لهم حيث عرفتهم بأحو ال فلسطين ، فانطلقو ا بعدها في تأسيس المدارس المختلفة. كما افتتح الكاثوليك مدرسة الكرسي البطريركي للشباب عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، تبعتها في عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م مدرسة للصبيان سميت مدرسة الفرير للصبيان Le College Des Freres ثم مدرسة القديسة حنة للشباب والتي تم انشاؤها في عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م الى جانب مدرسة الروم الكاثوليك و التي افتتحت في نفس العام . ولقد اهتم الكاثوليك في تأسيس مدارس للبنات في فلسطين، حيث افتتحو ا عدة مدارس في القدس الشريف منها مدرسة مار يوسف للبنات

---

١) The Custody Of The Holy Land : Jerusalem, P.8

The Ponsionat St.Joseph، التي تأسست في عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م، الى جانب مدرسة للبنات في مدينة صفد. ومدرسة أخرى للبنات أسستها راهبات صهيون في عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م ، ومدرسة حنة تريزا للبنات والتي تأسست في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٨م (١).

ولقد قام الكاثوليك بتأسيس المدارس المختلفة في فلسطين، حيث بلغت ست مدارس للذكور في منطقة الجليل في شمال فلسطين. ومن هذه المدارس مدرسة ديرحنه، ومدرسة سخنين، ومدرسة عيلبون، ومدرسة حفار (٢) . وافتتحت الراهبات روضة للأطفال في حيفا والتي تحولت فيما بعد الى مدرسة للكبار. وافتتح اللعازاريون الكاثوليك مدارس لهم في فلسطين توزعت في قرى المغار وعيلبون وسخنين وعرابة (٣) ولليسوعيين مدرسة للبنات في عكا في فلسطين و١٧ مدرسة للذكور أضيف اليها فيما بعد ٥ مدارس للبنات (٤).

وفي جبل لبنان نشط الكاثوليك الفرنسيون في افتتاح المدارس ، فأنشأوا مدارس ابتدائية للبنين والبنات، توزعت في عدة مناطق منها:
بعلبك، غزير، بكفيا، تعنابل، كسارة، سيدة، القلعة، زحلة، صيدا (٥)، رأس العين والقاع (٦).

ولليسوعيين في بيروت عدد من المدارس بلغ ١٥٥ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٣٨٤٨ طالباً، ولهم ١٣ مدرسة ابتدائية للبنات . كذلك أنشأ اليسوعيون في سوريا عدة مدارس ابتدائية في مدنها الهامة مثل، دمشق، وحمص، وحماه، وجبل الدروز وبلاد العلويين حيث بلغ عدد المدارس حوالي ١٣٥ مدرسة في نفس الفترة، وفي دمشق بلغ عدد مدارس اليسوعيين ٣٤٨ مدرسة ابتدائية للذكور و٨ مدارس ابتدائية للاناث. وفي حماه ٦٢ مدرسة ابتدائية للذكور و٢٣مدرسة ابتدائية للاناث (وتدل الاحصائية السابقة على

---

١) علي محافظة: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع: ١٩٨٧م)، ص٣٧ - ٣٨.
٢) علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥، ص٨٦-٨٧.
٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين ، ص ٢٠٢.
٤) أنيس النصولي: أسباب النهضة العربية، ص٩٦.
٥) علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٨٦-٨٧.
٦) طلال عتريسي: البعثات اليسوعية، ص٢١-٢٢، ونور الدين حاطوم، محاضرات في نشاط البعثات الدينية الأجنبية الى بلاد الشام، ص١٣.

مبالغة في عدد المدارس، فاذا كان للكاثوليك ٣٤٨ مدرسة في دمشق وحدها، كذلك في حماه ٦٢ مدرسة،منها ٢٣مدرسة للبنات ، مع العلم أن مدينة كحماة لا تستوعب هذا العدد الكبير من المدارس في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولكن مؤلف مثل أنيس النصولي الذي سمى كتابه أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، والذي أرجع كل الفضل لحضارة الغرب ولمدارس الارساليات في القرن الماضي بالغ كثيراً فيما ذهب اليه من معلومات.) ، كما أن للكاثوليك مدرستان عاليتان للذكور في بيروت، ومدرسة ثانوية للذكور الى جانب مدرسة أخرى للبنات، كذلك في مدينة طرابلس مدرسة للذكور، وفي دمشق أيضاً ٤ مدارس ثانوية. وتعتمد جميعها على الاعانات المالية وجمع التبرعات (١).)

ومن أشهر المدارس اليسوعية الكاثوليكية الثانوية، التي أنشئت في لبنان في القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي. مدرسة غزير الثانوية التي تأسست في جمادى الأولى عام ١٢٨٢هـ/ تشرين الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٥م (٢) والتي كان هدفها واضحاً جلياً منذ تأسيسها، وهو نشر الثقافة الفرنسية والعمل على سيطرة أفكارها التنصيرية على عقول الناشئة من الشباب، وذلك لإعداد النخبة التي تحكم البلاد فيما بعد، هذا وقد تم نقل مدرسة غزير الثانوية بعد ذلك الى جبل لبنان في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ، وأصبحت ذات قيمة تاريخية بسبب تحولها الى مدرسة القديس يوسف ثم الى جامعة عرفت بجامعة القديس يوسف (٣). وهي مؤسسة منافسة خطيرة للكلية الانجيلية السورية ،البروتستانتية، ولقد اعتبرت مدرسة غزير الثانوية من أكبر المؤسسات الكاثوليكية التي تعبر عن رغبة فرنسا الجامحة في بسط النفوذ في بلاد الشام(٤).

وعندما تحولت مدرسة غزير الى جامعة القديس يوسف، قام أحد رجال الدين النصراني ويسمى عندهم امام الأحبار «لارون الثالث عشر» بمنح جامعة القديس يوسف في بيروت حق اعطاء الرتب الأكاديمية في الفنون الأدبية والعلمية ورتبة علامة «دكتور» في الفلسفة واللاهوت، وذلك تقديراً

---

١) أنيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص٩٦ - ٩٧.
٢) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص١٣٤.
٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص١٠٨.
٤) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص١٢٩.

للعلم النصراني في سوريا خاصة، وإظهاراً لثقافة الرهبانية اليسوعية على غيرها. ولقد تولى إدارة جامعة القديس يوسف أحد الآباء اليسوعيين ويدعى الأب هنري (١). وبعد مضي عدة سنوات على تأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت ثبتها البابا بنفسه كجامعة في عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م حيث اعترفت بها وزارة التربية الفرنسية، ووافقت على منحها مساعدة مالية سنوية، لفتح كلية للطب وألحق بها فيما بعد فرع للصيدلة. ومن غريب المتناقضات أن هذا العون المالي من قبل وزارة المعارف الفرنسية، جاء في وقت كانت فرنسا تطرد فيه اليسوعيين من بلادها. ولكن من أجل مصلحتها ، فلا ضير بأن تمدهم بالعون المادي المناسب (٢).

وكان للعازاريين الكاثوليك نشاط لا بأس به في مجال التعليم الابتدائي والثانوي ، وتمثل بفتح كليتهم في عينطورة، وأنشأوا مدرسة لهم في دمشق أيضاً، وكذلك قامت راهبات المحبة بالتعاون مع بعض المنظمات التنصيرية الكاثوليكية الأخرى بافتتاح عدة مدارس للبنات وصغار البنين في المدن السورية الهامة مثل : بيروت وبعلبك ودمشق ومناطق متفرقة من جبل لبنان (٣).

ولم ينس الكاثوليك القيام بالعمل التنصيري بين الفتيات المسلمات عن طريق المراكز والمدارس ، فأنشأوا مراكز نسائية، باسم أخوات مريم، ومركز في بكفيا، ومركز في زحلة، ومدرسة في صيدا، ومدرسة في دير القمر، وهي منطقة تكتظ بالموارنة (٤). وهم أنصار الفرنسيين وأحباؤهم في بلاد الشام ، وتدخلت فرنسا بحجة حمايتهم، حتى يتمكن الفرنسيون من السيطرة وبسط النفوذ في بلاد الشام وتحقيق مآربهم الاستعمارية الخبيثة عن طريقهم.

وإلى جانب كل مدرسة، يدفع فيها الطلاب النفقات المدرسية ، افتتح اليسوعيون أيضاً مدرسة صغيرة للفقراء ، وذلك للحفاظ على المظهر

---

١) اعلان منح مدرسة القديس يوسف : (مجلة البشير الاسبوعية، الخميس عدد ٥٦٩، شريط ميكروفيلم رقم ١٢٣، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان: ١٨٧٩م)، ص١ ولدي نسخة منه.
٢) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ، ص٥٥١.
٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص١٠٨-١٠٩.
٤) طلال عتريسي ، البعثات اليسوعية، ص١٢٥.

التنصيري بادياً على الصبيان. ولقد التزمت هذه المدارس الفرنسية بتقديم الكتب والطعام واللباس مجاناً بلا مقابل مادي(١)، ولكن المسلمين ، في الواقع كانوا يدفعون مقابل ذلك خسرانهم لدينهم باتباعهم المادية الغربية .

ولم يكتف الكاثوليك بتأسيس المدارس التي تم انشاؤها في بلاد الشام، بل قاموا بتحويل الأديرة الى مدارس خصوصية أيضاً، فقد تم في عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م تحويل «دير مار يوحنا مارون كفرحي» في بلاد البترون الى مدرسة خصوصية لأبرشية جبيل والبترون، وتم تحويل «دير مارون» في قرية الرومية من كسروان ، الى مدرسة عمومية للطائفة المارونية، وذلك في عام ١٢٣٣هـ/١٨١٧م.

كذلك سعي يوسف حبيش مطران طرابلس لتحويل «دير مار عبدا هرهريا» الكائن بين كسروان والفتوح الى مدرسة عمومية للطائفة المارونية، وذلك في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، كذلك فعل في «دير ركيس»، «وباخوس» بقرية «ريفون» في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م. ثم جعل مدرسة الموارنة الموجودة في عيطورا كسروان محلا للمرسلين اللبنانيين الموارنة وذلك في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، ولما جاء الى الكرسي البطريركي السيد مار يوحنا بطرس الحاج، جدد مدرسة مارونية للشباب الكاثوليك، وقام أيضاً بشراء معهد علمي في مدينة القدس الشريف (٢)، حيث يقوم بتخريج مجموعة من المنصرين المحليين ، ليقوموا بالعمل التنصيري داخل بلاد الشام، لأنهم أعرف بطبيعة أهلها، ولغتهم من المرسل الأجنبي.

وفي مجال الطباعة، فقد كان للكاثوليك قصب السبق ، حيث أسس اليسوعيون أول مطبعة لهم عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م وهي عبارة عن مطبعة حجرية، ولذلك كان إنتاجها ضئيلا جداً، ولم تبدأ الطباعة بحروف منفصلة إلا عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م. وتطورت المطبعة تدريجياً، مما جعلهم ينقلون مركز تعليمهم العالي الى بيروت عندما أصبحت لديهم أجهزة طباعة كاملة العدة (٣).

---

١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٢٠٩-٢١٠.
٢) مجلة المشرق : (السنة الأولى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين: ١٨٩٨م)، ص٣٩٥-٣٩٦. أرشيف مكتبة الجامعة الأردنية.
٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص١٠٩.

ومن أشهر منشورات المطبعة الكاثوليكية العلمية والكلاسيكية، كتب القواعد، والقواميس، والجغرافيا، والتاريخ الطبيعي، والتاريخ النصراني، وتاريخ لبنان والموارنة (١). وتعتبر مجلة البشير من أشهر المطبوعات التي أصدرتها المطبعة الكاثوليكية. ومجلة البشير مجلة أسبوعية، تأسست في عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م وكانت تصدر يوم الخميس من كل أسبوع، ويشرف عليها مرسلون فرنسيون يتمتعون بحماية حكومة فرنسا مباشرة (٢) . وأصدر الكاثوليك أيضاً مجلة المشرق الكاثوليكية اليسوعية، وهي نصف شهرية، وتحتوي على مباحث مختلفة من علمية وأدبية وفنية بإدارة آباء كلية القديس يوسف، وصاحب امتيازها الأب لويس شيخو اليسوعي، والذي عمل منصراً ومستشرقاً في بلاد الشام ، كما عرف عنه التعصب الأعمى(٣) .

ويبين الجدول التالي تطور المدارس الثانوية الكاثوليكية في لبنان منذ القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي.

---

١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص ١٣٣.

٢) بدون عنوان : (مجلة البشير، ميكروفيلم، شريط رقم ١٢٣، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان ١٨٧٩م)، ص١.

٣) سلسلة بطاركة الطائفة المارونية: (مجلة المشرق، السنة الأولى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين: ١٨٩٨م)، ص٣٩٥.

نشوء المدارس الثانوية اللاتينية فى لبنان منذ القرن الثالث عشرالهجرى/ التاسع عشر الميلادى[1]
(كاثوليك)

المدارس المنشأة فى القرن الثانى عشر الهجرى			المدارس المنشأة فى القرن الثالث عشر الهجرى			المدارس المنشأة فى القرن الرابع عشر الهجرى		
السنة	المؤسسة	المكان	السنة	المؤسسة	المكان	السنة	المؤسسة	المكان
١٧٣٤/١١٤٧هـ	الاباء اليسوعيين	عينطورة	١٨٣٤/١٢٥٠هـ	الاباء العازاريين	عينطورة	١٩٠٣/١٣٢١هـ	راهبات القلبين	زحلة
			١٨٤٣/١٢٥٩هـ	الاباء اليسوعيين	غزير	١٩٠٨/١٣٢٦هـ	راهبات البيزونسيون	بيروت
			١٨٤٧/١٢٦٤هـ	العازاريات	بيروت	١٩١٨/١٣٣١هـ	راهبات القلبين الاقدسية	جونية
			١٨٦١/١٢٧٨هـ	القلبين الاقدسية	بيروت			
			١٨٦٣/١٢٨٠هـ	العازاريات	طرابلس			
			١٨٦٨/١٢٨٥هـ	راهبات الناصرة	بيروت			
			١٨٧٢/١٢٨٩هـ	راهبات مار يوسف الظهور	بيروت			
			١٨٨٠/١٢٩٧هـ	راهبات ايطاليات الجبل بلادس	بيروت			
			١٨٨٦/١٣٠٣هـ	اخوة المدارس المسيحية	طرابلس			
			١٨٩٤/١٣١٢هـ	راهبات العائلة المقدسة	بيروت			
			١٨٩٨/١٣١٦هـ	راهبات العائلة المقدسة	جونية			
			١٨٩٨/١٣١٦هـ	اخوة مريمين	جونية			

(١) بطرس لبكى : تطور موءسسات التعليم فى لبنان خلال القرن الاخير من الحكم العثماني، (المجلة التاريخية المغربية، ص ١٧ ، ع ٥٧-٥٨ يولية ١٩٩٠)، ح١-٢ .

تطور مدارس الطائفة المارونية منذ القرن الثانى عشر، السابع عشر الميلادى [1]
(كاثوليك)

فترة التأمين	القرن ١٢هـ/ ١٧م	القرن ١٣هـ/ ١٨م	القرن ١٤هـ/ ١٩م
الموقع	حوقا اهدن زغرتا	رشيما طاميش سير مشموشة دير القمر تنورين عين ورقة وادى شحرور بقر قاشا مارليشع (بشرى) عجلتون اللويزة جبيل زحلة عنيطورة عين تراز	المتين بان كفر حى الروبية (القليعات) زكريت هرهريه حديدة غزير رأس المتن ريفون بعبدا حدبا بيروت(الحكمة)
العدد الاجمالى	٣	١٦	١٢

(١) بطرس لبكى : تطور مؤسسات التعليم فى لبنان خلال القرن الاخير من الحكم العثمانى ، (المجلة التاريخية المغربية ، س ١٧ ، ع ٥٧-٥٨ يوليو ١٩٩٠) جـ١-٢، ص ٤٦٨.

المؤسسات التعليمية البروتستانتية:

وللبروتستانت أيضاً نشاطهم التعليمي الوافر في بلاد الشام، وهو منافس شديد للنشاط الكاثوليكي، حيث قام البروتستانت بتأسيس العشرات من المدارس في طول البلاد وعرضها، وتركز نشاطهم التعليمي في الواقع في فلسطين - وذلك بسبب وجود الأماكن المقدسة فيها ، وموقعها الاستراتيجي الهام مما جعل الدول النصرانية تسعى جاهدة للسيطرة عليها منذ الحروب الصليبية - ووجد لهم بعض المدارس المتفرقة في سوريا . أما لبنان فقد تركز النشاط البروتستانتي فيه بين جميع الطوائف النصرانية، حيث يوجد في لبنان أكبر عدد من تلك الطوائف، الى جانب رغبة الدول الأوروبية السيطرة على جبل لبنان، والوصول عن طريقه الى فلسطين قلب العالم القديم ، ورغبتهم في إنشاء قاعدة لهم فيها تكون مركزاً لانطلاقتهم وسيطرتهم على بقية العالم العربي والاسلامي فيمابعد.

ولهذا قامت الارساليات البروتستانتية التنصيرية بإنشاء المدارس خاصة في مدينة القدس، فأسست فيها مدرسة للصبيان The Diocesan Boy's School وذلك في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م، والتي ألحق بها مدرسة أخرى للبنات. كما قامت بتأسيس مدرسة اعدادية للبنين، وأخرى للبنات تحمل الاسم نفسه The Diocesal Preparatory school. وبعد ذلك قامت البعثة البروسية بإنشاء مدرسة داخلية للبنات عرفت باسم The Prossian Deaconesses Girls School ، ثم مدرسة جمعية يهود لندن للبنين والبنات(١) The London Jewish Society School.

ولقد اشتد نشاط البعثات الألمانية البروتستانتية بعد فتنة الشام عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، فقامت تلك البعثات بتطوير نشاطها عن طريق مؤسسة دار الأيتام السورية، فقد استطاع شنلر Schneller وزوجته من جعل دار الأيتام داراً تربوية وتعليمية للأولاد، وحاولا ضمهم الى صفوف الطائفة البروتستانتية ، في محاولة جادة لكسب أتباع جدد على حساب الطوائف الأخرى في بلاد الشام(٢).

أما شماسات الكيزرزفرت (البروتستانت) في فلسطين فقد قمن

---

١) علي محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، ص٣٨-٣٩.

٢) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٥٩.

بتأسيس مركز لهن في القدس بإدارة أربع مبعوثات(١). وقمن بإنشاء عدة مدارس من أهم هذه المدارس، مدرسة طاليطا قومي للبنات التي تأسست في عام ١٢٦٨هـ/١٨٥١م (٢)، وهدفها اخراج المرأة الفلسطينية المسلمة من بيتها، للتأثير عليها بالتعاليم النصرانية، وجرها في طريق المادية الغربية ومن ثم تشكيكها في دينها، وهي الطريق الأسهل لتفكيك المجتمع ككل، لما للمرأة من يد فاعلة في التربية والأسرة والمجتمع.

وكان لدور جمعية المرسلين الكنسية Church Missionary Society أيضاً التي تأسست عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م دور بارز في إنشاء المدارس البروتستانتية في فلسطين ، فقد أنشأت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان عام ١٢٦٨هـ/١٨٥١م، ومدرسة يومية للبنات عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م.

وقد حافظ دخل هذه الجمعية على مستواه حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، والذي انعكست نتائجه في بناء الكنائس وانتشارها، الى جانب تأسيس العديد من مراكز التنصير من مدارس ومستشفيات وغيرها، حيث غطت معظم أنحاء فلسطين وخاصة في الأماكن المقدسة كبيت المقدس، وبيت لحم والخليل، وبيت جالا وحيفا ويافا وسارونا وغيرها (٣).

وعرفت جمعية الشبان المسيحيين في عملها داخل فلسطين وذلك عن طريق فرعها في مدينة يافا الفلسطينية الساحلية، ولقد أسست هذه الجمعية في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م في لندن ومؤسسها هو جورج ويليمس، والظاهر أن حكومة بريطانيا العظمى رأتها صالحة لبذر فكرة التنصير في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، ولذلك ساعدت هذه الجمعية على إنشاء فروع لها في كندا والولايات المتحدة وألمانيا وسويسرا وجنيف. وقد عقدت هذه الفروع مؤتمراً لها في باريس عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م وتقرر فيه توحيد العمل والقوى وتوثيق عرى الاتحاد بين أعضائها للقيام بالعمل التنصيري المشترك في البلاد المقصودة بالسيطرة والاستغلال لنفوذ بريطانيا العظمى لدخولها عن طريق منصريها.

وعرف عن البروتستانت نشاطهم الصحفي، حيث أنشأوا العديد من

---

١) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الدينية الأجنبية في العالم العربي، ص٣٦.
٢) علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٦٢.
٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٣٣.

الصحف في فلسطين، منها: جريدة يوم الرب، ورقيب صهيون والأخبار الكنسية وهي مجلة دينية شهرية، وجريدة الزنبقة وهي شهرية ، هذا الى جانب نشاط الجمعيات البروتستانتية في إصدار المجلات والجرائد المدرسية، والتي لها تأثير كبير على جيل الناشئة من الشباب والشابات، فأصدروا مجلة الباكورة الصهيونية والتي كانت تصدر بالانجليزية، وجريدة الدستور التي أصدرتها المدرسة الدستورية، ومجلة رائد النجاح التي أصدرتها كلية الفرير وقد صدرت باللغة الفرنسية، وأصدروا جريدة دار المعلمين ، وكذلك جريدة روضة المعارف التي ، وجميع هذه الجرائد انتشرت في مدينة القدس الشريف (١).

ومما هو جدير بالذكر أن المرسلين البروتستانت واجهوا معارضة شديدة من جانب الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، فقد حدث أول صدام بين الروم الأرثوذكس والارسالية الانجيلية في السلط في رجب من عام ١٢٦٨هـ/(ابريل) نيسان ١٨٥١م. إذ ثارت الأكثرية من نصارى المدينة على الأقلية البروتستانتية، فأغلقت المدرسة الانجيلية البروتستانتية وطردت معلمها الوحيد. وحصل الحادث الثاني في مدينة الناصرة في جماد أول عام ١٢٦٩هـ/فبراير (شباط) عام ١٨٥٢م عندما هاجم الكاثوليك مدرسة جمعية المرسلين الكنسية، واضطر القنصل البريطاني في القدس - الذي يحمي الطائفة البروتستانتية - الى الاحتجاج لدى بطريرك اللاتين (الكاثوليك) في القدس على هذا الحادث. وكذلك حدث صدام ثالث في مدينة نابلس حينما هاجم الروم الأرثوذكس دار الإرسالية البروتستانتية في شهر صفر عام ١٢٧٠هـ/نوفمبر تشرين ثاني ١٨٥٣م وطردوا المصلين النصارى من أتباعها.

أما في لبنان ، فكان نشاط البروتستانت الأمريكان واسعاً ومثمراً فقد بدأ بتأسيس المطبعة الأمريكية في مالطا، وذلك لتسهيل خدمة أغراضهم التنصيرية، وخدمة لمصالحهم في بلاد الشام والشرق الأوسط، وكان اختيار الأمريكان لجزيرة مالطا مركزاً لنشاطهم التنصيري في المنطقة، لأنها بحكم تبعيتها للاستعمار البريطاني لم تكن إدارتها تعارض التنصير البروتستانتي وكذلك لكون جزيرة مالطا نقطة التقاء في شبكة المواصلات التي تربط بين أجزاء البحر المتوسط (٢)

---

١) على محافظة : الحركات الفكرية ... ، ص٧٩-٨٦.

٢) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : بداية التنصير الأمريكي في بلاد الشام، (مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الثامن، ادارة الثقافة والنشر، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٩٨.

ولقد شهد عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م نشاطاً كبيراً للبعثة الأمريكية التي رافقت المطبعة في سوريا. وكان أول عمل خطير تقوم به المطبعة الأمريكية في بيروت هو ترجمة التوراة الى لغة عربية مبسطة. وقامت بتوزيع الكتب الدينية النصرانية المترجمة بالمجان ، أو تبيعها بمبالغ رمزية أحياناً. (١) .كذلك عملت المطبعة على نشر كتب في العلوم واللغة العربية والرياضيات والفلسفة وسلسلة كتب تسمى بالتهذيب التدريجي في التعليم النصراني، ومجموعة من المجلات والمعاجم (٢).

ولم يقتصر نشاط البروتستانت الأمريكان على المطبعة فقط، بل كان لهم نشاطاً وجهداً ملحوظاً في مجال التعليم أيضاً، وكان الهدف الواضح من التعليم - كما جاء على لسان بعض المنصرين الأمريكين - هو القيام بالعمل التنصيري بين السكان، حتى أن الموضوعات الدنيوية التي تدرس في تلك المدارس كالجغرافيا والتاريخ ، يجب أن تحمل في طياتها المؤثرات النصرانية ، وكان من رأي منصريهم أن التعليم هو أنجح وسيلة يمكن استغلالها لتنصير المسلمين. وبهذه القناعة انتشرت مدارس الارساليات الأمريكية في أنحاء بلاد الشام انتشاراً واسعاً (٣).

وكانت أولى المدارس هي التي أسسوها في بيروت وعبية، ومناطق متفرقة من جبل لبنان، ولقد نشطت الإرساليات الأمريكية في انتهاج الخطط التعليمية منذ عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م لتدريس الرياضيات والطبيعة على مستوىً عالٍ ، وأنشأت مدارس مماثلة لتخريج المعلمين الدينيين والوعاظ البِّروتستانت. حيث قاموا بافتتاح عدة مؤسسات تعليمية في سوريا مثل كلية حلب واللاهوت للشرق الأدنى في بيروت، واتحاد التهذيب النصراني ١٢٥١هـ/١٨٣٥م (٤).

وللأمريكان البروتستانت مدارس وكليات عالية مثل، مدرسة سيمون كالهون التي تأسست في عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م ، ومدرسة عبية الدرزية التي تأسست في عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م ، ثم كلية جيرارد التي تأسست في عام ١٢٦٨هـ/١٨٥١م وكذلك أنشأوا كلية في خربوط وعينتاب ومرعش وطرسوس

---

١) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : بداية التنصير الأمريكي في الشام ، ص ٩٨-٩٩.

٢) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الدينية ... ، ص٢٦.

٣) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : المرجع السابق، ص١٠٤.

٤) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الدينية ... ، ص٢٢.

وطرابلس في لبنان وكلية حلب في سورية. وكان روادها من أهل القرى المجاورة، ويقوم بالاشراف عليها المدرسون المنصرون الأمريكان البروتستانت. وكان يتم في هذه المدارس والكليات التركيز على مواد الانجيل والصلوات واللاهوت الى جانب المواد العلمية الأخرى (١) وجميع هذه الكتب والمواد الدراسية مليئة بالدس والتشويه الشديد على كل أمجاد المسلمين ورسولهم الكريم وعقيدتهم الاسلامية السمحة.

ولقد امتد نشاط الأمريكان البروتستانت كذلك الى سوريا، حتى بلغوا مدينة اللاذقية في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، وافتتحوا بها عدة مدارس ابتدائية للبنات والبنين، وامتد كذلك الى منطقة متن عرنون والسويدا من قضاء المرقب، وكان مدرسوها من الأهلين ، بينما يشرف على إدارتها الأمريكان، وتقوم هذه المدارس على أموال التبرعات الشخصية من الأمريكيين (٢).

ولم ينس المنصرون الأمريكان نشر التعليم التنصيري بين البنات ، فمنذ عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م، قاموا بافتتاح مدرسة في بيروت لتعليم البنات، وتبنت زوجات المنصرين هذا النوع من التعليم، وكذلك أسسوا مدرسة في عبية للبنات عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م. ومما يدل على اهتمام المنصرين المتزايد بتعليم البنات، أنهم طلبوا الى رئاسة بعثتهم في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م امدادهم بمبلغ ثلاثين ألف دولار لبناء مدرسة دينية في بيروت لتعليم البنات، وعللت البعثة الأمريكية في بيروت طلبها للمال، لإيمانها الشديد بدور المرأة في تربية النشء (٣). ورأوا في تلك المدرسة عاملا من عوامل تنصير سوريا في المستقبل (٤). وما أن جاء عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م حتى كان الأمريكان قد أسسوا ثلاثاً وثلاثين مدرسة تضم حوالي ألف تلميذ، خمسهم تقريباً من البنات، وهكذا ازدهر النشاط الأمريكي في مجال التعليم خاصة، حتى أن الإرسالية الأمريكية قامت بتأسيس الكلية السورية الإنجيلية البروتستانتية ، والتي كان لها دور كبير في عملية التنصير في بلاد الشام. وقد تأسست هذه الكلية في عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م (٥) وقام المنصرون الأمريكان الى جانب هذه الكلية بافتتاح العديد من المدارس الابتدائية

---

١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ :التبشير والاستعمار ... ، ص ٨٠-١١٠.

٢) يوسف الحكيم : سورية في العهد العثماني، (الطبعة الثانية، بيروت، دار النهار للنشر: ١٩٨٠م)، ص١٠٠.

٣) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم: بداية التنصير الأمريكي في الشام ، ص١٠٤.

٤) Jessup:Fifty Three Years In Syria نقلا عن مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٨٧.

٥) الكتاب السنوي للكلية السورية الانجيلية ١٩٠٢-١٩٠٣، ص٥.

ومعاهد المعلمين ومدارس البنات ، فبلغ عدد مدارس البنين والبنات ثلاثاً وثلاثين مدرسة في بيروت وحدها في عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م (١).

ولم يقتصر النشاط التعليمي على البروتستانت الأمريكان فقط، بل كانت هناك ثمة بعثات بريطانية وايرلندية وبروسية بروتستانتية. فقد أسست البعثة السورية البريطانية عدة مدارس لها في لبنان منها : مدرسة في بتاتر التي تأسست عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م. ومدرسة في بتختية التي تأسست عام ١٢٧١هـ/١٨٥٤م. ومدرسة في عاليه التي تأسست عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م.

ولقد أخذت هذه المدارس في الزيادة حتى بلغت ثماني عشرة مدرسة الى درجة غطت بها تلك المدارس، منطقة قضاء المتن وجزين ودير القمر والشوف وزحلة والكورة والبترون وكسروان وطرابلس وعكار وصافيتا والحصن ومنطقة حمص وحماه وقضاء الكورة(٢). ويرجع الفضل للبعثة السورية البريطانية British Syrian Mission التي تأسست عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م في تأسيس بعثة أدنبرة الطبية. كذلك قام الدانماركيون بإرسال بعثتهم لتلحق بالبعثات البروتستانتية الأخرى الى بلاد الشام ، فساهمت بافتتاح المدارس في عين عنوب وشملان. ولم تنس البعثات الايرلندية المشيخية، وبعثة الشرق الدنمركية أن تلحق بركب الارساليات البروتستانتية في بلاد الشام وتفتح مدارسها فيها(٣).

كذلك عملت البعثة الألمانية البروتستانتية في بلاد الشام منذ عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لأبناء البروتستانت من ألمان وسويسريين وفرنسيين وهولنديين (٤). ويوجد للبعثة البروسية البروتستانتية مدرستها الخاصة في لبنان أيضاً والتي أقامتها في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ، وقد ارتفع عدد طلاب هذه المدرسة الى ٧٣ طالباً بعد عدة سنوات .

ومما يلفت النظر ، أن الحروب الأهلية اللبنانية ، أعطت فرصة كبيرة للإرساليات في تجديد نشاطها في لبنان ، حيث نشطت شماسات الكيزرزفرت ورهبنة فرسان يوحنا في العمل التنصيري في لبنان ، وأخذتا تعملان بين

---

١) أسد رستم : لبنان في عهد المتصرفية ، ص ١٠١.
٢) أسد رستم : المرجع السابق ، ص١٠٤-١٠٥.
٣) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الدينية ...، ص ٣٢-٣٣.
٤) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص١٩١-١٩٥.

اللاجئين النصارى في بيروت وصيدا، والتي تحولت جهودها فيما بعد لتشمل طوائف المسلمين والدروز. وقامت راهبات الكيزرزفرت بإنشاء دار للأيتام في بيروت في عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م. وألحقت بها مدرسة عالية للبنات بالجناح الشرقي التابع لدار الأيتام في نفس العام. وبحلول عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م كانت هناك ٤٥ معلمة من خريجات دار الأيتام يعملن في بيروت(١).

وهكذا يتبين لنا مدى نجاح المدارس في تنفيذ الخطة التنصيرية، حيث اجتهد المنصرون في إنشاء المدارس في بلاد الشام، وخصوصاً مدارس البنات واستغلالها للتنصير بين المسلمين. وتبين الجداول التالية المدارس البروتستانتية في جبل لبنان. حيث يتضح منها مدى تواجد مدارس البعثات البروتستانتية بكثافة في مناطق الشوف والمتن التي يسكنها الدروز، والمدعومة من بريطانيا، فتمكن النفوذ الانجليزي من التغلغل بقوة أكثر عن طريق مدارسه.

١) عبد الرؤوف سنو: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص ١٥٩ -١٦٤.

ويبين الجدول التالى نشوء وتطور المدارس البروتستانتية فى لبنان فى القرن الثالث عشر الهجرى الموافق التاسع عشر الميلادى. (١)

فترة التأسيس	المؤسس	المكان
١٢٥٠هـ/١٨٣٤م	ارسالية امريكية	بيروت
١٢٥١هـ/١٨٣٥م	ارسالية امريكية	جبل لبنان
١٢٥١هـ/١٨٣٥م	ارسالية امريكية	بيروت
١٢٥١هـ/١٨٣٥م	ارسالية امريكية	بيروت وجبل لبنان ٥ مدارس
١٢٥٩هـ/١٨٤٣م	ارسالية امريكية	عبية
١٢٦٣هـ/١٨٤٦م	ارسالية امريكية	بيروت
١٢٦٣هـ/١٨٤٦م	ارسالية امريكية	بيروت
١٢٦٣هـ/١٨٤٦م	ارسالية امريكية	عبية
١٢٧٠هـ/١٨٥٣م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبي"	بحوارة
١٢٧٠هـ/١٨٥٣م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبي"	عرمون
١٢٧٠هـ/١٨٥٣م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبى"	بطلون
١٢٧١هـ/١٨٥٤م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبي"	بتاتر
١٢٧٢هـ/١٨٥٥م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبى"	عالية
١٢٧٢هـ/١٨٥٥م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبي"	سوق الغرب
١٢٧٣هـ/١٨٥٦م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبى"	بتخنية
١٢٧٣هـ/١٨٥٨م	المدارس اللبنانية "سليمان الصليبي"	٣مدارس نهى ١ فى بتاتة
١٢٧٣هـ/١٨٥٨م	ارسالية امريكية	سوق الغرب أنتقلت الى صيدا
١٢٧٧هـ/١٨٦٠م	ارسالية امريكية	شملان
١٢٧٧هـ/١٨٦٠م	ارسالية امريكية	حاصبيا
١٢٧٨هـ/١٨٦١م	ارسالية انجليزية	بيروت
١٢٧٨هـ/١٨٦١م	ارسالية امريكية	بيروت
١٢٧٥هـ-١٢٧٨هـ/١٨٥٨م-١٨٦١م	المدارس اللبنانية	٥ مدارس فى الجبل
١٢٧٨هـ-١٢٧٩هـ/١٨٦١م-١٨٦٢م	المدارس اللبنانية	٤ مدارس فى الجبل
١٢٧٩هـ-١٢٨٤هـ/١٨٦٢م-١٨٦٧م	المدارس اللبنانية	مدرستين
١٢٨٤هـ/١٨٦٧م	ارسالية امريكية	طرابلس
١٢٩٤هـ/١٨٧٧م	ارسالية انجليزية	برمانة
١٣١٨هـ/١٩٠٠م	ارسالية المانية	بيروت

يبين الجدول التالى مدارس الارسالية البروتستانتية الامريكية فى لبنان ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م[1]

موقع المدرسة	عدد الطلاب المسجلين	عدد الطلاب المواظبين	المعلم	ملاحظات
دارالمعلمين فى سوق الغرب	١٠	–	عبد الله شبلى	–
مدرسة سوق الغرب النهارية	٧١	٦٤	جرجس نمر	
مدرسة الشويفات	٧٥	٦٥	ناصيف طليبى	–
بتاتر	٥٢	٤٣	نسيم اسد	–
بحوارة	٣٢	٢٨	جبران طليبى	–
زحلة	٤١	٣٢	سمعان طليبى	–
المعلقة	٣٥	٢٦	متري طليبى	–
رأس المتن	١١٦	٦٠	خليل طليبى	مساعده يوسف طليبى
الخريبة	٤٩	٢٩	جرجس ابورعد	–
عالية	٤٧	٤٤	رشيد	–
العبادية	٨٣	٥٦	الياس طليبى	–
بحمدون	٥٧	٢٩	استناز كاترين	–
بسكنتا	٨١	٤٢	ابراهيم معلوف	
الشويفات للبنات	٥٦	٣٦	ميلينا فرحات	
الشوير للصبيان	٦٤	٤٠	رزق بطرس	افتتحت فى ١٥ ذىالحجة ١٢٧٩هـ/٦مايو ١٨٦٢م
ارصون	٤٣	٢٧	داوود طليبى	–

١) بطرس لبكى : تطور مؤسسات التعليم فى لبنان خلال القرن الأخير من الحكم العثمانى ص٤٧٤

جدول يبين المدارس البروتستانتية فى جبل لبنان قضاء المتن (١)

القرى	مدارس البنات	مدارس الصبيان
المتين	–	١
كفر عقب	–	١
عين القبو	–	١
الشوير	١	١
رأس المتن	–	١
برمانة (مع المستشفى)	١	١
رومية	–	١
بيت مرى	١	١
المنصورية	–	١
نابية	–	١
عاريا	١	١
برج البراجنة	١	١
حمانة	–	١
كفر شيما	–	١
وادى شحرور	–	١
القداد	–	١

(١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص ١٩١-١٩٢ .

٢ ـ منطقة جزين

القرى	مدارس البنات	مدارس الصبيان
الهلالية	–	١
صالحية	–	١
جزين	–	١

٣ ـ منطقة دير القمر

دير القمر	١	١

٤ ـ منطقة الشوف

القرى	مدارس البنات	مدارس الصبيان
بحمدون	١	١
عالية	١	١
سوق الغرب	١	١
شملان	١	١
عيناب	١	١
كفر متى	١	١
المختارة	١	١
غريفة	١	١
الباروك	١	١
عين زحلتا	١	١

(١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص ١٩٢ .

٤- تابع منطقة الشوف

القرى	مدارس البنات	مدارس الصبيان
الشويفات	١	١
عين بعال	١	١
عين عنوب	١	١
عرمون	–	١
الدامور	–	١
الدبية	–	١
المطلة	–	١
عماطور	–	١
بعقلين	–	١
بشامون	–	١
بتلون	–	١
القماطية	–	١
دير قوبل	–	١
جون	–	١

٥ - منطقة زحلة

زحلة	١	١

٦ - منطقة الكورة

كوسبا	١	–

٧ - منطقة البترون

البترون	–	١

٨ - منطقة كسروان

غرزوز	–	١
المنصف	–	١

(١) طلال عتريسى : البعثات اليسوعية ، ص ١٩٣ .

يبين الجدول التالى المدارس التى تديرها وتشرف عليها البعثة الاميريكية فى طرابلس:

١- قضاء طرابلس

المكان	عدد الاساتذة	عدد الطلاب	والطالبات
طرابلس المدنية (فتيات)	٥	–	٩٥
طرابلس المدنية (فتيان)	٣	٣٥	–
طرابلس البحرية	–	–	٥٠

٢- قضاء عكار

دابورا	١	٤٠	–
شيخ محمد	١	٣٥	–
جبرايل	١	٥٠	–
منيارة	٢	–	٣٠
بينو	١	٣٠	١٥

٣- قضاء صافيتا

برج صافيتا	١	٤٥	–
مشتا (فتيان)	٣	١٥٠	–
مشتا (فتيات)	٢	–	١٥

٤- قضاء الحصن

دير عمار	١	؟	–
خريبة	١	؟	–
عمرا	١	؟	–
مارمارتيا	١	؟	–

(١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص ١٩٤ .

٥ ـ قضاء حماة

الاقلنة	عدد الاساتذة	عدد الطلاب	والطالبات
حماه	١	–	٣٥
مهردا	٢	١٥٠	–

٦- قضاء حمص

حمص فتيان	٢	١٠٠	–
حمص فتيات	١	–	٦٠
فيروزة	١	٤٠	–
ام دربال	١	٣٠	–

مدارس جبل لبنان التى تشرف عليها البعثة الاميريكية

٧- قضاء الكورة

بشمزين	٢	١٥٠	–

(١) طلال عتريسى : البعثات اليسوعية ، ص ١٩٤-١٩٥

المؤسسات التعليمية الأرثوذكسية:

يعتبر نشاط الارساليات الأرثوذكسية أقل نسبياً من نشاط الارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية في منطقة بلاد الشام عامة، وكان الروم الأرثوذكس الذين يشكلون الأكثرية الكبيرة من النصارى في فلسطين والأردن، يعيشون في تخلف كبير، وتعتبر مدارسهم مجرد مدارس دينية أولية دون مستوى الكتاتيب الاسلامية. وقد أهملت البطريركية الأرثوذكسية في القدس رعاياها، واشتد الخلاف بين أساقفتها ورهبانها من اليونانيين والمواطنين العرب ، الذين شعروا أن الاكليروس اليوناني قد اغتصب الكرسي البطريركي ، والمناصب الدينية المهمة منهم.

ولهذا السبب، بالإضافة الى الإهمال العام من أساقفة الطائفة ، اضطر أبناء الطائفة الأرثوذكسية الى إرسال أطفالهم الى المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية ليحصلوا على تعليم متطور. ولأن روسيا تعتبر نفسها حامية للكنيسة الأرثوذكسية ، فقد اتجهت بأنظارها الى الروم الأرثوذكس في فلسطين والأردن لكسب ودهم، ومن ثم تبرير تدخلها في شؤون الدولة العثمانية

وفي عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م اشترى رئيس البعثة الروسية في القدس قطعة أرض في بيت جالا (في فلسطين) وذلك بأموال تبرعت بها القيصرة ماريا الكسندروفنا Marya Alexandrovna، وتم بناء مدرسة لبنات العرب الأرثوذكس عليها ، فكانت أول مدرسة روسية تخص الأرثوذكس في بلاد الشام كلها ، وتحولت هذه المدرسة الى معهد لتدريب المعلمات بعد عشرين عاماً، بعد أن أصبحت تحت إشراف جمعية فلسطين الروسية، التي باشرت نشاطها في وقت متأخر كثيراً عن منافستيها في بلاد الشام - الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية - حيث بدأ نشاطها بصورة منتظمة بعد عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م بإنشاء مدرسة في قرية المجيدل، لم يتجاوز عدد تلاميذها الأربعة ، بسبب وجود النشاط البروتستانتي المنافس في نفس القرية (١). ثم أنشأت جمعية فلسطين الروسية، مدارس مماثلة لمدرسة «المجيدل» في قرى الراحة، وكفر ياسيف، والشجرة في منطقة الجليل.

وهكذا نرى مدى تأخر نشاط الطائفة الأرثوذكسية في بلاد الشام

---

١) علي محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة ،٤٣.

بالمقارنة مع الطوائف النصرانية الأخرى في افتتاح المدارس في فلسطين. وقد تمثل نشاطها في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، فافتتحت عدة مدارس في فلسطين والأردن بلغ عددها عشرين مدرسة تابعة لجمعية فلسطين الروسية، وكانت تضم المدارس الداخلية والنهارية، والنموذجية، ومدارس في القرى والمدن، وخضعت هذه المدارس جميعها تحت الرقابة الروسية مباشرة (١).

هذا عن نشاط الأرثوذكس في فلسطين، أما عن نشاط الارسالية الأرثوذكسية في لبنان، فقد قامت بانشاء عدة مدارس متطورة وحديثة فيها، فأنشأت في عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م مدرسة الثلاثة أقمار في مدينة بيروت، وأنشأت في عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ثلاث عشرة مدرسة موزعة في لبنان، ثم أنشأت المدرسة الاكليركية في البلمند في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م بالقرب من مدينة طرابلس وتلتها مدرسة مطرانية طرابلس في نفس الفترة.

وقامت الارسالية بتأسيس مدرسة زهرة الاحسان (٢) عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وكذلك تأسست عدة مدارس في كل من كوسيا وزحلة ومنياره وبسكنتا وحاصبيا. ومما هو جدير بالذكر أن الارسالية الروسية الأرثوذكسية كانت تعمل على تنشئة الكوادر بالثقافة الكنسية في روسيا لترجع الى بلاد الشام ملمة بعملها التنصيري، فتقوم به على أكمل وجه (٣).

وللأرثوذكس عدة مدارس توزعت كالتالي : مدرسة خالكة الاكليركية (٤) ومدرسة ابتدائية في حي المزرعة في بيروت للبنين، ومدرسة للبنين في حي المصيطبة، ومدرسة ابتدائية للبنين في حي القديس نيقولا، ومدرسة ابتدائية للصبيان في حي الثلاثة أقمار Telat Akmar ، ومدرسة للفتيات ملحقة بها ،

---

١) على محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة ، ص٤٣.
٢) زهرة الاحسان : جمعية تنصيرية من سيدات الروم الأرثوذكس تأسست في عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م في بيروت بمساعدة الأم مريم جهشان التي أسست فيما بعد راهبات زهرة الاحسان ، وأسست الجمعية برعاية اميلي سرسق مدرسة وميتم زهرة الاحسان. أنظر المنجد في اللغة (الطبعة الثانية والعشرون، بيروت، دار المشرق عام ١٩٨٦م)، ص٣٤٠.
٣) بطرس لبكي : تطور مؤسسات التعليم في لبنان خلال القرن الأخير من الحكم العثماني، (المجلة التاريخية المغربية، العدد١٧٣،ع٥٧-٥٨، تونس، يوليه عام ١٩٩٠م)، ص٤٦٩. وأسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٣١.
٤) بطرس لبكي : المرجع السابق، ص ٢٣١.

ومدرسة داخلية للبنات تسمى باكورة الاحسان (١). ومدرسة مجانية مختلطة تشرف عليها الحكومة الروسية في حي المزرعة، ومدرسة أخرى مجانية في حي المصيطبة، ومدرسة للصبيان في طرابلس - البحرية، ومدرسة ابتدائية للفتيات وأخرى للصبيان في طرابلس (٢)، ومدرسة للفتيات في حمص.

وللأرثوذكس أربع جمعيات هي : جمعية القديس بداليمون لليتامى، وجمعية الترنيم والترتيل للبنات، وجمعية نور الاحسان الخيرية الأرثوذكسية، وجمعية مار منصور (٣).

بهذا القدر الرهيب من المدارس التي انتشرت في بلاد الشام، وبهذه الكيفية، كان التنافس كبيراً وخطيراً ومتآمراً على عرين الاسلام، وفيمايلي نورد مثالا للتنافس الكاثوليكي البروتستانتي في فلسطين في مجال التعليم والذي جاء منشوراً في مجلة البشير الكاثوليكية اليسوعية. «عندما وصل أحد الأوروبيين في سياحته الى الناصرة قال : إن فيها جمعية من الراهبات المعروفات براهبات الناصرة ولهن مدرسة جمعت عدداً وافراً من الفتيات وبينهن من المنفصلات عن الكنيسة. وأولئك الراهبات يطوقن الجميع بالمنن والعوارف ، فدعونني ذات يوم الى زيارة مدرستهن فزرتها وأعجبني ما رأيته فيها من حسن النظام ماتحققه من نجاح الطالبات وترقيهن في مراتب العلم والتهذيب. وبازاء المدرسة الكاثوليكية مقام كبير فسيح للبروتستانت (هكذا) الانكليكان في أجمل موقع وأغلى مكان من المدينة ويزدري بجماله واتساعه وكبره جميع أبنية البلد. فزرته ذات يوم واستقبلني أهله بأنسٍ خالطه التحرز. فرأيت جميع ما فيه أقرب الى التزخرف مما يشير الى الاحتشام والأدب ، ولا مرية فإن ذلك مما يغاير عادات الشرق أعظم مغايرة فأثاثه وأسرته وكل ما فيه من الزخارف والزيف يحاكي ديار الأكابر ، ولكن ليس فيه صورة من صور أولياء الله ولا شيء مما يقطف القلب الى ذكر الدين والتقوى، وذلك فضلا عن قلة الطلبة فلا يكاد عددهم يبلغ ثلاثين. وأما مدرسة الراهبات فقد جمعت بين النظافة وبهاء النظام وفرط الأدب وفريد الاحتشام ، وفيها من الطالبات ما يتعدد على مائة. فلم أشاهد في مدرسة البروتستانت (هكذا) تمثال ملكة انكترا ، فيما أن انتظار الفتيات والعذارى في مدرسة الراهبات كيفما تحولت تقع على صور

---

١) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٣٣.
٢) أسد رستم: المرجع السابق ، ص٢٣٤.
٣) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص١٨٤.

جميلة لمريم البتول والعائلة المقدسة عليها السلام. وعلى هذا النحو تنشأ عقولهن وقلوبهن على الفضيلة واقتفاء آثار من يشاهدن تماثيلهم. وفي وسط البلدة كنيسة كبيرة للبروتستانت وهي عبارة عن إنكار يدعو الى الضحك من كل تقليد شرقي. على أن الكنيسة جميلة الهندسة محكمة البناء ، لكنها فارغة من تقوى الله وعبادته ، وقد خلفهما فيها مذهب المماحقة وتأويل التوراة على ما يهواه المتاول وذلك مما يجفف من القلب ظل العبادة وندى الفضيلة (١)».

يظهر من النص السابق، أن البعثة الكاثوليكية تشوه سمعة المدارس البروتستانتية، وكذلك تفعل البروتستانتية عندما تسنح لها الفرصة، فهما في تنافس مستمر لكسب الأتباع من الطوائف الأخرى، والعمل جاهدين على تنصير المسلمين في بلاد الشام عامة.

وهناك من الوسائل الأخرى المشتركة بين جميع البعثات المختلفة في بلاد الشام والتي كانت أهدافها نشر التنصير بين السكان في بلاد الشام بشتى الطرق والوسائل، ومنها الاحسان المادي، ونشر الفساد، وتنصير المرأة وخروجها من بيتها، وفتح الأندية والتعليم المجاني وفتح المكتبات والتصوير والنشر والصحافة والمخيمات الكشفية وحيث الاختلاط المباشر، وتشجيع العامية والقضاء على الفصحى لغة القرآن وإنشاء الجمعيات العلمية والفنية، وفي التدخل في مجال الصناعة والزراعة وفتح المشاريع الاقتصادية في بلاد الشام. (٢)

وللأسف يوجد هنالك عدة عوامل واعتبارات جعلت المسلمين يضعفون أمام مقاومة هؤلاء المرسلين الأجانب ، ومنعتهم من مناهضتهم ، وقد لخصها أحد الباحثين في «الحماية الدولية التي كان يتمتع بها هؤلاء المرسلون وضعف السلطات المحلية العثمانية وتخاذلها أمامهم، ثم اتساع نشاط هذه البعثات والارساليات ورسوخ أقدامها في بعض الأوساط الشعبية، وان كانت محددة ، وكانت هذه المؤسسات قد استطاعت - بفضل ما أنفقته من

---

١) الآباء اليسوعيون: سياحة أحد الأوروبين في الأمصار الشرقية، (مجلة البشير، العدد٤٨٣، سنة ١٨٧٩، ميكروفليم شريط رقم ١٢٣، ص١، وتوجد لدى منه نسخة) مكتبة الجامعة الأردنية عمان.

٢) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والإستعمار في البلاد العربية، ص ١٩٥ -٢٠٢

أموال وحذقته من أعمال - أن تجد لها أنصاراً وأتباعاً يقفون الى جانبها ويعربون عن تأييدهم لها وترحيبهم بجهودها ونشاطها» (١).

وفيما يلي نبين أسماء بعض البعثات التنصيرية التي عملت في بلاد الشام :

أ) المؤسسات التربوية الكاثوليكية الفرنسية:

١) البعثة اليسوعية.
٢) بعثة الاخوة للمدارس النصرانية.
٣) بعثة الاخوة المريميين.
٤) بعثة الآباء الكبوشيين بدأ نشاطها منذ عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م.
٥) بعثة الآباء اللعازاريين التي عملت في الشام منذ عام ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.
٦) بعثة الآباء الفرنسيسكان للأرض المقدسة.
٧) بعثة أخوات إحسان بيزرانسون للقديس فانسان دوبول (أخوات المعونة).
٨) بعثة بنات الاحسان.
٩) بعثة سيدات الناصرة.
١٠) بعثة أخوات الرؤية Apparition .
١١) بعثة أخوات الأسرة المقدسة.
١٢) بعثة أخوات القديس يوسف.
١٣) بعثة الأخوات الفرنسيسكان للحمل البتول.
١٤) بعثة الأخوات الفرنسيسكان، مبعوثات مريم.
١٥) بعثة أخوات القلبين الأقدسين، قلب عيسى ومريم.
١٦) بعثة أخوات روزير Rosaire.
١٧) بعثة أخوات الراعي الصالح.
١٨) بعثة أخوات النظام الثالث لجبل الكرمل.

ب) المؤسسات التربوية البروتستانتية الفرنسية:

- البعثة البروتستانتية الفرنسية.

---

١) يوسف أبو هلالة : التبشير في الأردن وخطره، (بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، قسم الدراسات العليا، شعبة الدعوة، عام ١٣٩٩هـ/١٤٠٠هـ)، ص٣٤٣.

جـ) الحلف الاسرائيلي العام.

د) المدارس الكاثوليكية الايطالية. والرابطة القومية للبعثات الايطالية وبعثة الآباء الكرمليين الايطاليين.

هـ) المؤسسات التربوية البريطانية:
١) البعثة السورية البريطانية (B.S.M).
٢) رابطة أصحاب المنصرين في الخارج.
٣) المدارس البريطانية في عين عنوب وشملان.

و) المؤسسات الايرلندية:
١) البعثة المشيخية الايرلندية.
٢) البعثة المشيخية المصلحة الايرلندية.

ز) بعثة الشرق الدانيمركية: Danish Mission Totheorient

ح) المؤسسات التربوية الأمريكية:
١) جامعة بيروت الأمريكية.
٢) البعثة المشيخية الأمريكية.
٣) البعثة المشيخية المصلحة Reformed Prebyterian Mission.
٤) المجلس الأمريكي لمبعوثي البعثات الخارجية.
American Board Of Commissioners For Foreign Missions
٥) مدرسة البنات الأمريكية (في دمشق).
٦) مؤسسة الشرق الأدنى.
٧) رابطة الشابات المسيحيات ورابطة الشبان النصارى (١).

وتبين الجداول التالية عدد المدارس والتلاميذ حسب الطوائف المختلفة في جبل لبنان:

---

١) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الدينية الأجنبية في العالم العربي، جـ٢، ص ٣٢ - ٣٣.

توزيع المدارس ويبين عدد التلاميذ حسب الطوائف فى قضاء الكورة عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م

أسم القرية	الاسلامية		المارونية		البروتستانتية		الارثوذكسية		المجموع	
	مدارس	تلامذة	مدارس	تلامذة	مدارس	تلامذة	مدارس	تلامذة	مدارس	تلامذة
اميون	–	–	–	–	–	–	١	١١٥	١	١١٥
كوسبا	–	–	–	–	–	–	١	٤٥	١	٤٥
كفر عقا	–	–	–	–	–	–	١	٢٩	١	٢٩
بطرام	–	–	–	–	–	–	١	٣٧	١	٣٧
بشمزين	–	–	–	–	١	٧	١	٥٢	٢	٥٩
بترومين	–	–	–	–	–	–	١	١٨	١	١٨
فيع	–	–	–	–	–	–	١	٢٣	١	٢٣
أنفة	–	–	–	–	–	–	١	٢٣	١	٢٣
بصرما	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	١	٢٠
حامات	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	١	٣٠
دده	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	١	٢٠
بتوراتيج	١	١٠	–	–	–	–	–	–	١	١٠
ديربعشتار	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	١	٣٠
زكرون	–	–	١	٧	–	–	–	–	١	٧
شكا	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	١	٣٠
كفر حزير	–	–	–	–	–	–	١	٣٥	١	٣٥
المجموع	١	١٠	٣	٦٧	١	٧	١٢	٤٥٩	١٧	٥٤٣

عدد المدارس والتلاميذ في قضاء البترون

أسم المدينة	المارونية		الارثوذكسية		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	
البترون	١	٧٨	—	—	١	٧٨	مدارس مار يوحنا مارون
البترون	١	٢٠	١	٢٠	٢	٤٠	
صوران	١	٢٠	—	—	١	٢٠	
بجد رفل	١	١٨	—	—	١	١٨	
عبرين	١	٨٠	—	—	١	٨٠	
احد برا	١	١٥	—	—	١	١٥	
اده	١	٢٠	—	—	١	٢٠	
كفيفان	١	٢٥	—	—	١	٢٥	
تولا	١	٢٨	—	—	١	٢٨	
عبدللي	١	٤٥	—	—	١	٤٥	
سلفانا	١	٦	—	—	١	٦	
كور	١	١٠	—	—	١	١٠	
تنورين	١	٦٠	—	—	١	٦٠	
دوما	١	٤٠	١	٢٧	٢	٦٧	
بشعلة	١	٢٧	—	—	١	٢٧	
حردين	١	٢٣	—	—	١	٢٣	
آسيا	١	٣٠	—	—	١	٣٠	
كفورالعربي	١	٢٥	—	—	١	٢٥	
قنات	١	١٥	—	—	١	١٥	
طورزا	١	٢٠	—	—	١	٢٠	
عابدين	١	١٠	—	—	١	١٠	
حصرون	١	٢٥	—	—	١	٢٥	

(تابع) الذى يوضح عدد المدارس والتلاميذ فى قضاء البترون

أسم المدينة	المارونية		الارثوذكسية		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	
الحدث	١	١٥	–	–	١	١٥	
بقاعكفرة	١	١٨	–	–	١	١٨	
بزعون	١	٩	–	–	١	٩	
بشرى	١	٦٠	–	–	١	٦٠	
حدشيت	١	٢٠	–	–	١	٢٠	
بلورة	١	١٨	–	–	١	١٨	
بان	١	٢٠	–	–	١	٢٠	
كفرصغاب	١	٣٠	–	–	١	٣٠	
اهدن	١	٦٨	–	–	١	٦٨	
كفرشخنا	١	١٢	–	–	١	١٢	
كفرفو	١	١٠	–	–	١	١٠	
مزيارة	٢	٤٠	–	–	٢	٤٠	
تولا الحبة	١	٣٠	–	–	١	٣٠	
رأس هينا	١	٢٠	–	–	١	٢٠	
داريا	١	٣٠	–	–	١	٣٠	
عرجس	١	١٨	–	–	١	٢٨	
كفرياشيت	١	٩	–	–	١	٩	
صنون	١	٢٥	–	–	١	٢٥	
كفرزينا	١	٢٧	–	–	١	٢٧	
رشعن	١	١٢	–	–	١	١٢	
اردة	١	١٦	–	–	١	١٦	
الخالدية	١	١٣	–	–	١	١٣	
المجموع	٤٥	١١٦٠	٢	٤٧	٤٧	١٢٠٧	

عدد المدارس والتلاميذ فى قضاء كسروان

أسم المدينة	المارونية		ارثوذكسية		روم كاثوليك		ارمنية		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	
غوسطا (عين بركة)	١	٣٠	—	—	—	—	—	—	١	٣٠	
هرهريا (مار عبدا)	١	٣٠	—	—	—	—	—	—	١	٣٠	مدارس داخلية
قليعات (رديتة)	١	٢٥	—	—	—	—	—	—	١	٢٥	
ريفون	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	١٠	
عمشيت	١	٤٠	—	—	—	—	—	—	١	٤٠	
عمشيت	١	٤٠	—	—	—	—	—	—	١	٤٠	للبنات
بجة	١	٤٠	—	—	—	—	—	—	١	٤٠	
معاد	١	٣٥	—	—	—	—	—	—	١	٣٥	
فغال	١	١٥	—	—	—	—	—	—	١	١٥	
حالات	١	١٠	—	—	—	—	—	—	١	١٠	
اهمج	١	٢٥	—	—	—	—	—	—	١	٢٥	
العاقورة	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	٢٠	
قرطبا	١	٤٥	—	—	—	—	—	—	١	٤٥	
لحفد	١	٣٠	—	—	—	—	—	—	١	٣٠	
جاج	١	٢٥	—	—	—	—	—	—	١	٢٥	
مشمش	١	٣٠	—	—	—	—	—	—	١	٣٠	
فتقة	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	٢٠	
عين كفاع	١	١٠	—	—	—	—	—	—	١	١٠	
ميشوق	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	٢٠	
العذرا	١	١٠	—	—	—	—	—	—	١	١٠	
ساحل علما	١	١٥	—	—	—	—	—	—	١	١٥	
غكطا	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	٢٠	
دلبته	١	٤٠	—	—	—	—	—	—	١	٤٠	
دلبته	١	٢٠	—	—	—	—	—	—	١	٢٠	للبنات
عشقوت	١	١٥	—	—	—	—	—	—	١	١٥	
درعون	١	١٥	—	—	—	—	—	—	١	١٥	

(تابع) عدد المدارس والتلاميذ في قضاء كسروان

اسم القرية	المارونية		ارثوذكسية		روم كاثوليك		ارمنية		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلميذ	
شحتول	١	٢٥	–	–	–	–	–	–	١	٢٥	
عرمون	١	٣٥	–	–	–	–	–	–	١	٣٥	
جديدة	١	١٠	–	–	–	–	–	–	١	١٠	
حياطة	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
زوق مكايل	٣	٧٠	–	–	١	٣٠	–	–	٤	١٠٠	
زوق مصبح	١	١٥	–	–	–	–	–	–	١	١٥	
غزير	١	٦٠	–	–	–	–	–	–	١	٦٠	يسوعية
غزير	١	٦٩	–	–	–	–	–	–	١	٦٩	كبوشية
غزير	١	٧٥	–	–	–	–	–	–	١	٧٥	للبنات
غزير	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	
كفرديبان	١	١٠٠	–	–	–	–	–	–	٢	١٠٠	
ميروبا	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
بعقوتا	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	
قليعات	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	
ديغون	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
مراجل	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
الغينة	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	
الكفور	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
البوار	١	١٥	–	–	–	–	–	–	١	١٥	
الصفرا	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
طبرجا	١	٢٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	
يحشوش	١	١٠	–	–	–	–	–	–	١	١٠	للعزاريا
عنيطورة	١	٢٠٠	–	–	–	–	–	–	١	٢٠٠	
غرزو	–	–	١	٤٥	–	–	–	–	١	٤٥	
المنصف	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	١	٣٠	
ديرخشبو	–	–	–	–	–	–	١	٢٠	١	٢٠	ارمنية
المجموع	٥٤	١٥٩٩	٢	٧٥	١	٣٠	١	٢٠	٥٥	١٧٢٤	

عدد المدارس والتلاميذ في قضاء المتن

اسم القرية	الارثوذكسية		روم كاثوليك		المارونية		اللاتينية		البروتستانت		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	
الشوير	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٧٥	٢	٧٥	واحدة للبنات
عين السنديانه	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٢٥	١	٢٥	
خنشارة	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	
تبغرين	١	٤٠	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٤٠	
بشكنتة	١	٢٥	–	–	١	٢٥	–	–	١	٣٠	٣	٨٠	
بكفيا	–	–	١	٢٠	١	٤٠	١	٦٠	–	–	٣	١٢٠	واحدة يسوعية
محيدثة	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٤٠	٢	٤٠	واحدة للبنات
ساقية المسك	–	–	–	–	١	١٥	–	–	–	–	١	١٥	
بيت شباب	–	–	–	–	٢	٩٠	–	–	–	–	٢	٩٠	واحدة للبنات
شويا	–	–	–	–	١	١٠	–	–	–	–	١	١٠	
قرنة الحمرا	–	–	–	–	١	١٥	–	–	–	–	١	١٥	
قرنة شهوان	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠	
مزرعة يشوع	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠	
المتين	–	–	–	–	١	٤٠	–	–	–	–	١	٤٠	
عنيطورة	–	–	–	–	١	٢٥	–	–	–	–	١	٢٥	
بعبدات	–	–	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	١	٣٠	
برمانة	–	–	–	–	–	–	–	–	٣	٦٥	٣	٦٥	
رومية	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١٥	١	١٥	
جورة البلوط	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١٥	١	١٥	
نابية	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١٦	١	١٦	
بصاليم	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١٠	١	١٠	
بوشرية	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠	
الجديدة	–	–	–	–	١	١٥	–	–	–	–	١	١٥	
المنصورية	١	٢٥	–	–	–	–	–	–	١	٧	٢	٣٢	البروتستانت للبنات
بيت دي	–	–	–	–	١	٣٠	–	–	١	١٠	٢	٤٠	
البرج	–	–	–	–	١	١٠	–	–	–	–	١	١٠	
	٣	٩٠	٢	٥٠	١٦	٤٠٥	١	٦٠	١٥	٣٠٨	٣٧	٩١٣	

عدد المدارس والتلاميذ في قضاء الشوف

أسم القرية	الارثوذكسية		روم كاثوليك		موارنة		لاتين		بروتستانت		دروز		المجموع	
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ
الدامور	–	–	–	–	٣	١٥٥	–	–	–	–	–	–	٣	١٥٥
شملان	–	–	–	–	١	١٥	–	–	٢	٥٥	–	–	٣	٧٠
رمحالا	–	–	–	–	١	٢٥	–	–	–	–	–	–	١	٢٥
دقون	–	–	–	–	١	١٥	–	–	–	–	–	–	١	١٥
بسوس	–	–	–	–	١	٣٠	–	–	–	–	–	–	١	٣٠
بدادون	–	–	–	–	١	٢٨	–	–	–	–	–	–	١	٢٨
عين تراز	–	–	١	٢٢	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٢٢
الشويفات	١	٧٠	–	–	–	–	–	–	٢	١٦٠	–	–	٣	٢٣٠
سوق الغرب	٢	٧٥	–	–	–	–	–	–	١	٣٠	–	–	٣	١٠٥
عبية	–	–	–	–	–	–	٢	٩٠	٣	١٠٣	١	١٨	٦	٢١١
كفرشيما	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٧٠	–	–	١	٧٠
عين عنوب	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٤٥	–	–	١	٤٥
بشامون	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٤٠	–	–	١	٤٠
عرمون	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٨٠	–	–	٢	٨٠
عين زحلتا	–	–	–	–	–	–	–	–	٣	١٥٩	–	–	٣	١٥٩
المجموع	٣	١٤٥	١	٢٢	٨	٢٦٨	٢	٩٠	١٦	٧٤٢	١	١٨	٣١	١٢٨٥

تابع / قضاء المتـوف

اسم القرية	الارثوذكسية		روم كاثوليك		المارونية		اللاتينية		البروتستانت		المجموع		ملاحظات
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	
كفرشيما	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	١	٢٠	٢	٤٠	
الشياح	–	–	–	–	٢	٤٠	–	–	–	–	٢	٤٠	واحدة للبنات
حارة حريك	–	–	–	–	٢	٤٠	–	–	–	–	٢	٤٠	
الحدث	١	٢٥	–	–	١	٤٠	–	–	–	–	٢	٦٥	
بعبدا	–	–	–	–	١	٣٥	–	–	–	–	١	٣٥	
عبادية	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠	
رأس الحرف	–	–	–	–	١	١٠	–	–	–	–	١	١٠	
شبانية	–	–	–	–	–	–	١	٣٥	–	–	١	٣٥	
حمانا	–	–	–	–	١	٤٠	–	–	–	–	١	٤٠	
فالوغا	–	–	–	–	٢	٥٥	–	–	–	–	٢	٥٥	
قرنايل	–	–	–	–	١	٨	–	–	–	–	١	٨	
بزبدين	–	–	–	–	١	٢٥	–	–	–	–	١	٢٥	
صليمة	–	–	–	–	–	–	٢	٥٥	–	–	٢	٥٥	واحدة للبنـا
عربانية	–	–	–	–	–	–	١	٢٥	–	–	١	٢٥	
ارصون	–	–	–	–	١	١٥	–	–	١	١٥	٢	٣٠	
الكنية	–	–	–	–	٢	١٨	–	–	–	–	٢	١٨	
مزرعة عين الزيتونة	–	–	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠	
ديرموسى	–	–	–	–	١	١٥	–	–	–	–	١	١٥	
الفريكة	–	–	–	–	١	٥	–	–	–	–	١	٥	
المجموع	٤	١٧٠	١	٢٢	٣٨	٦٧٤	٥	٥٠٥	١٨	٧٧٥	٥٦	١٨٤٦	

عدد المدارس في دير القمر

الطائفة التي تنتسب اليها المدرسة	الذكور		البنات		المجموع	
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ
الموارنة	١	٤٠	–	–	١	٤٠
روم كاثوليك	١	٢٠	–	–	١	٢٠
يسوعيون	١	٤٥	–	–	١	٤٥
اخوات القديس يوسف الفرنسيات	–	–	١	٦٠	١	٦٠
الارساليات الامريكية	١	٥٠	–	–	١	٥٠
الراهبات البلدية	١	٥٠	١	٣٥	٢	٨٥
المجموع	٥	٢٠٥	٢	٩٥	٧	٣٠٠

عدد المدارس في قضاء جزين

أسم القرية	مارونية		روم كاثوليك		بروتستانت		المجموع	
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ
جزين	١	٣٠	١	١٢	–	–	٢	٤٢
عازور	١	١٢	–	–	–	–	١	١٢
قيتولي	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠
بكاسين	١	٣٠	–	–	–	–	١	٣٠
الصالحية	–	–	–	–	١	١٦	١	١٦
المجموع	٤	٩٢	١	١٢	١	١٦	٦	١٢٠

عدد المدارس والتلاميذ فى قضاء زحلة

الطائفة التى تنتسب اليها المدرسة	للذكور		للبنات		المجموع	
	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ	مدارس	تلاميذ
روم كاثوليك	٥	٤١٠	–	–	٥	٤١٠
روم ارثوذكسي	١	٢٥	–	–	١	٢٥
بروتستانت	٢	٥٠	٢	٣٠	٤	٨٠
يسوعيون	٦	٢٥٠	٣	٢٠٠	٩	٤٥٠
المجموع	١٤	٧٣٥	٥	٢٣٠	١٩	٩٦٥

عدد المدارس والتلاميذ فى مختلف الاقضية وحسب الطوائف

فى الاقضية	مدارس	صبيان	بنات	المجموع
الكورة	١٤	٥٣٨	–	٥٣٨
البترون	٥١	١٢٩٤	–	١٢٩٤
كسروان	٤٧	١١٤٦	١١٥	١٢٦١
المتن	٦٥	٢٠٢١	٣٨٩	٢٤١٠
الشوف	٥٥	١٩٤٣	٤١٢	٢٣٥٥
دير القمر	٧	١٠١	٢٣٠	٣٣١
جزين	٤	٩٠	–	٩٠
زحلة	٢٠	٦٣٢	٤٥٢	١٠٨٤
المجموع	٢٦٣	٧٧٦٥	١٥٩٨	٩٣٦٣

عدد المدارس والتلاميذ في لبنان
عند الطوائف الدينية

في الاقضية	مدارس	صبيان	بنات	المجموع
المسلمين والسنة	٨	١٢٤	-	١٢٤
الروم الكاثوليك	١٢	٦٥٠	١٥٥	٨٠٥
الموارنة	١٣٥	٣٥٧٣	١٣٥	٣٧٠٨
اللاتين	٢٧	٩١٠	٦٤٠	١٥٥٠
البروتستانت	٥٧	١٤٤٠	٦٦٨	٢١٠٨
الدروز	١٠	٤٢٤	-	٤٢٤
الارثوذكس	١٠	٤٢٤	-	٤٢٤
المجموع	٢٦٣	٧٧٦٥	١٥٩٨	٩٣٦٣

(١) بطرس لبكي : تطور مؤسسات التعليم في لبنان خلال القرن الأخير من الحكم العثماني، ص ٤٨١ - ٤٨٩.

ج -) تحقيق أهدافها عن طريق الإعانات المادية:

يعتبر المال من العناصر الهامة في الاقتصاد الوطني ، وعماد الحياة، الى جانب كونه القاسم المشترك لكل الأعمال والمشاريع الحيوية في العالم، لذلك عملت الدول الاستعمارية على البحث عن مصادره فيما وراء البحار، وهي تدفع الأموال الطائلة لإرسالياتها في الخارج ، حتى تحصل على أضعاف تلك الأموال بعد ذلك، ولذلك كان من الضروري على الارساليات التي قدمت الى بلاد الشام أن تكون مدعومة بالأموال الكافية حتى يتسنى لها أن تستمر في عملها التنصيري في البلاد المقصودة بعمليات التنصير، لتحقق أهدافها بعيدة المدى ، والمرجوة في البلاد الاسلامية، وعندما يتوفر لها رأس المال الكافي والمستمر في نفس الوقت، تستطيع عن طريقه انشاء المؤسسات التنصيرية التي تمكنها من ممارسة عملها على الوجه الأكمل. وهذا ما توفر لها بالفعل، سواء عن طريق الدعم المالي المباشر من الحكومات، أو عن طريق التبرعات من الموسرين والأغنياء النصارى في الخارج.

فاذا ما تحدثنا عن الاعانات المادية للارساليات المختلفة، يمكننا أن نلاحظ مدى الدعم الذي كان يقدمه الكاثوليك في فرنسا وايطاليا الى ارسالياتهم في بلاد الشام، ويمكننا أن نلاحظ أيضاً مدى المساعدة الفاعلة التي تقدمها الحكومة الفرنسية للنشاط التنصيري اليسوعي الكاثوليكي في بلاد الشام. وكان الدعم المادي للنشاط اليسوعي في الدولة العثمانية يأتي من الدول الغربية عموماً وفرنسا وايطاليا والبابوية خصوصاً. ويستغرب جسب Jessup كيف أن فرنسا قد طردت اليسوعيين من بلادها ثم هي تنفق عليهم في الخارج بلايين الفرنكات (١).

ولم تكتف الحكومة الفرنسية بإرسال الأموال لليسوعيين للقيام بالعمل التنصيري في بلاد الشام، ولكنها أرادت أن يكون لفرنسا مركزاً يمول نشاط منصريها في الخارج ، فعملت على إدخال مصانعها في جبل لبنان لتعمل برأسمال فرنسي، حيث تأسست خلال الفترة من عام ١٢٥٦هـ - عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٠ - ١٨٥٠م في جبل لبنان، خمس حلالات حديثة فرنسية خاصة بخيوط شرانق الحرير، مما دفعها الى زيادة المساحة المزروعة من أشجار التوت على حساب زراعات أخرى في البلاد. وكانت مدينة ليون الفرنسية

---

١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ... ، ص١٢١.

مركزاً رئيسياً لشراء هذا الحرير. لذلك تقاطرت الأموال من مدينة ليون لدعم تلك الصناعة، وتوسيع مرفأ بيروت وإقامة سكة الحديد، وحث تجارها على صناعة الحرير السوري من خلال قروض طويلة الأمد، وتكونت الى جانب هذه الصناعة، شبكة اخطبوطية من نوع آخر، هي شبكة البعثات التنصيرية والجمعيات الدينية (١).

هذه الإمكانيات المالية الضخمة، التي كانت تجمع لليسوعيين من أوروبا وفرنسا خاصة، الى جانب ما يتحمله أولياء أمور الطلبة الداخلين الى مدارس اليسوعيين، من دفع الرسوم الدراسية وإحضار الغذاء والملبس لأبنائهم. بالإضافة الى ما كان يشترطه المعلمون في هذه المدارس على كل طفل، من إحضار الطعام لمعلمه. كما يقوم بدفع مبلغ ثلاثمائة قرش للثياب. وكان الآباء يدفعون كل هذه المتطلبات الدراسية بصدر رحب مقابل تعليم أبنائهم. ولكن اليسوعيين بالرغم من ذلك، كانوا ينظرون الى العرب باحتقار وازدراءوبطريقة غير ودية (٢). وبالرغم من هذه النظرة من جانب اليسوعيين تجاه العرب، فقد اعتبر الكاثوليك أكثر استخداماً للاحسان المادي من غيرهم، حيث استغلوا الظروف التي مرت بها بلاد الشام من حروب أهلية، ولاجئين الى بيروت دون مأوى ووجود الفقراء، فقام اليسوعيون بمد يد العون الى هؤلاء بالمال، أو قاموا بتوفير الدواء اللازم للمرضى منهم أو سعوا الى تعليمهم، (٣). وتحمل هذه العناية الظاهرية للفقراء دعوة للتحبيب بالنصرانية الكاثوليكية على الخصوص، ونبذ كل دين غيرها، وذلك لتجعل لفرنسا مكانة مرموقة، وأنصاراً يتكلمون باسمها في البلاد. ولقد اتبعت الارساليات الكاثوليكية هذه الطرق الملتوية في تنصير المسلمين، لأنه من المعروف أنه من المستحيل تنصير المسلمين بطريقة مباشرة وصريحة. ولما عرف عن المسلمين من صفاء النية والسريرة والطيبة المتناهية التي تصل ببعض الفقراء الى تصديق من أحسن اليهم، غير متوقعين سوء النية لديه أبداً.

وللكاثوليك نشاطهم في فلسطين، فقامت جمعية لودفيغ التنصيرية الكاثوليكية بدعم النشاطات التنصيرية الأوروبية بمبلغ ٥١٥ ألف مارك خلال خمسين عاماً من النشاط، بينما استطاعت جمعية القبر المقدس أن تمول المؤسسات الكاثوليكية في الشرق خلال ثلاثين عاماً، بمبلغ إجمالي يزيد على

---

١) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية ، ص ٧٦-٧٧.
٢) طلال عتريسي : المرجع السابق، ص٨٦.
٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار... ، ص١٩٥.

٢ مليون فرنك فرنسي وكانت نصف مداخيل جمعية القبر المقدس في فلسطين تأتي من تبرعات تقدمها منطقة أسقفية كولونيا. كذلك قدمت أسقفية برسلاو Breslau و أبرشيات مونستر Munster تبرعات سخية. كذلك كانت تصلها أيضاً تبرعات كبيرة من بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية (١).

ولقد قام القساوسة في هذه الجمعيات التنصيرية الكاثوليكية وبتخطيطهم الخبيث. بنشر المنشورات الحماسية التي تدعو الى هدم الدين الاسلامي، دين الله الخاتم الذي أرتضاه للناس ، لجلب الهمم والتبرع بالأموال الفائضة، لتنصير سوريا والشرق، وهذا مثال لأحد المنشورات :

«إن الشرق يدعو الغرب لشد أزره، فجل ما نتوخاه أن نحرر الشرق بواسطة السيد المسيح، ونخلص الكنائس النصرانية من ظلم الاسلام - هكذا بكل افتراء وتعد على الحقيقة - ونفتح طريقاً للسيد المسيح بإرجاع هذه الكنائس لسيرتها الأولى. هلموا الى قلب العالم الاسلامي، لنحرز فوز الصليب على الهلال» (٢).

وحتى يتوفر العمل اللازم والمتواصل لدى المرسلين الأجانب ، كانت الدول الأجنبية تقوم بدعم الكنائس المحلية والأديرة المختلفة في بلاد الشام ، وذلك تحت إشراف البابا نفسه، حيث تقوم بتقديم الأموال اللازمة بسخاء كبير، ومن هذا المال ما كان يودع في روما لحساب المؤسسات الأهلية النصرانية في منطقة سوريا. أو من التبرعات السخية والأوقاف أو المال المقدم عن طريق الحكومات وأكبر مثال على ذلك، ماقام به المطران سفر العطار وأرسل من روما الى الدير (دير مار افرام الرغم) إسعافاً نقدياً ونسخاً من الأشحيم السرياني الذي طبعه في روما عام ١١٠٨هـ/١٦٩٦م . وكذلك أقيمت الأوقاف للأديرة، فبالنسبة لدير مار إفرام الرغم ، أوقف بعض الناس بعض الممتلكات لحسابه ، فتجمع للدير: طاحونتان وغابات من الصنوبر والسنديان وأرض بعل سليخ وأرض سقي وكروم عنب وأشجار تين وزيتون وملول ورقروق ولوز وأجاص. وكان للدير أيضاً أراض صخرية غير صالحة للزراعة، فعكف الرهبان على تربية الدواجن والمواشي وصنع الألبان، والخمور، وتخصص آخرون في الحياكة لصنع ثياب الرهبان. وهكذا نشأت الأوقاف للدير، من مساحات كبيرة أصيلة

---

١) عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٧٢.

٢) أ. ل شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، ص٢٣٩-٢٤٠.

في قرى الشبانية وقبيع والقتالة ودير خونا وبمريم.. تسجلت في الدوائر العقارية بأسماء مختلفة منها: وقف مار افرام السرياني، ودير مار افرام الطائفة السريانية، ودير مار افرام الطائفية السريان، وقف خيري لدير مار افرام السريان، وقف دير الرغم للسريان، وقف دير مار افرام الرغم الطائفة السريان الكاثوليك، وقف مار افرام الرغم لطائفة السريان الكاثوليك ، وذلك لتوفير المال اللازم للعمل التنصيري في بلاد الشام، مما يوضح مدى حقدهم على المسلمين ونشاطهم في نشر النصرانية(١).

وكان الأمراء أيضاً يقومون بدعم أديرة طائفتهم، فكان الأمير سليمان أبي اللمع الذي كان يسكن الدير مدة من الزمن، قد شمل الرهبان بعنايته واهتم بتوفير الأموال اللازمة لهم. وأن البطريرك ميخائيل جروة(٢) لم ينقطع أثناء مطرانيته وبطريركيته عن مد الدير بإسعافات مالية وعينية، وأن الخوري يوسف لبان الدمشقي أوصى في عام ١٢١١هـ/١٧٩٦م بجميع ما ترك للدير. وأن الخوري بطرس جروه، الذي اشترى عدة أراضي أوقفها لدير مار إفرام ، ومن هذه الأوقاف : جل العين وكرم في الغابة بالوطا، وأراضي سليخ في عين عدي ، وجل في راحة الدقاق ، وجل توت في النواويس، وسليخ في قلعة النقش، وكرم في عين الباردة، وقام بشراء أراضي للدير بقرب الشبانية أيضاً (٣).

وفي ١ ذي الحجة من عام ١٢٨١هـ/١٥ مايو (آيار) عام ١٨٦٤م اشتكى الخوري ميخائيل أزرق بكتاب وقعه وأرسله الى البابا بيوس التاسع، على أن البطريرك أنطون سمحيري أخذ إيرادات حصة دير مار افرام الرغم من المال الذي جمعه المطران سفر العطار والمودع في روما، وإيراد الحصة السنوي ٢٢٧ ريال روماني. وعن هذا المال المودع في مجمع انتشار الايمان ، كتب الأب أنطون افترداني في ٥ رجب من عام ١٢٩٩هـ/٢٤ مايو (آيار) ١٨٨١م، «أن أثمار المال المربوط في بروباجندا خاصة بدير مار

---

١) اغناطيوس انطون الثاني حايك : تاريخ مار افرام الرغم الشبانية، (بيروت، كنيسة السريان الكاثوليك ١٤ أيلول (سبتمبر): ١٩٨٤م)، ص٣٩-٤١.

٢) ميخائيل جروة : من النصارى الأرثوذكس الذين تحولوا الى الكاثوليكية على يد المرسلين الفرنسيين، وتتهمه الكنيسة الأرثوذكسية أنه أطلق يده في آنية دير الزعفران الثمينة وقام بإرسالها الى حلب، ويتهمه الأرثوذكس، أنه من المارقين لتركه مذهبهم. أنظر، اسحق ساكا: السريان ايمان وحضارة ، (حلب، مطرانية السريان الأرثوذكس ١٩٨٣)، جزء ٤ ، ص ٧٩.

٣) أغناطيوس أنطون الثاني حايك : تاريخ مار افرام الرغم، ص٤١.

افرام عين الرغم الذي قدره مائتان وسبعة وعشرون ريالا رومانياً وسبعون بيوك(١)، فهذه قد بدلت بعين قدرت بمبلغ ألف ومائتان وثلاثة وعشرون وستة وثمانون سنتيماً (٢). ومن لائحة الجرد لأملاك الدير والتي تمت بعد وفاة الخوري شكر الله توليه في عام ١٢٣٣هـ/١٨١٧م ويظهر أن أرزاقه كانت ٩ كروم و١٠ أراضي سليخ لزرع الغلات قمح وشعير ودخن وعدس و ٤ عودات تغل ٧٠ محملا من الورق ، وفي عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م اشترى الخوري ميخائيل أزرق لدير الرغم عقاراً في سوق النووية، محلة المرفأ ببيروت على يد انطون بن نعمة الله طرازي بمبلغ ٥١٥٠٠ قرش عثماني ذهباً.

ولم تنقطع التبرعات وظلت تنهال على الأديرة والكنائس، والجمعيات والمدارس سواء تبرعات فردية أو منح حكومية تابعة لنفس الطائفة. ومن التبرعات الفردية:

١) مريم بنت فرج الله نجم أوقفت حسنات على فقراء دير مار يوحنا بجبل لبنان كسروان وعلى فقراء الروم، وكذلك كتر بنت الياس قصاب.
٢) نعوم بن انطون غضبان أوقف مسقفات حسنة لدير في جبل لبنان ولفقراء الروم.
٣) سيدة بنت كسبار أوقفت مسقفات لفقراء الأرمن بدير بزمار ولفقراء حلب، وكذلك اندراوس ولد حنا (٣).

كما كانت الأموال تأتي تباعاً من تبرعات فردية من الأديرة والكنائس والمؤسسات في القدس، مثال ذلك : أنه في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م اجتهدت السيدة كانتر الانجليزية بجلب ماء برك سليمان الى هذه المدينة ولم تفز بالمرغوب فجددت الطلب في هذه السنة ووجهت طلبها الى الباب العالي رأساً فأجاب بقبول ذلك وأرسل الأوامر اللازمة بهذا الشأن الى متصرف القدس وقد (تحملت) (هكذا) المصاريف فبلغت نحو ٣٥ الف ليرا استرلينية وقد تعدلت المصاريف السنوية فبلغت ستين الف غرش تكفلت طوائف المدينة بتقديمها، فدير الروم يدفع ١٠ آلاف ودير اللاتين ٢٥٠٠ ودير الأرمن ٢٥٠٠ والحمامات عشرين ألف غرش والباقي تدفعه الطوائف الأخرى وقد

---

١) اغناطيوس انطوان الثاني حايك : المرجع السابق ، ص ٤٣-٤٥.
٢) بيوك : لم أجد لها معنى في المراجع ولكنها في اللغة التركية تعني «كبير» ، سنتيم تعني جزء من مائة.
٣) فردينان توتل اليسوعي: نصوص ودروس، وثائق تاريخية عن حلب ١٦٠٦ الى يومنا، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٦٥م)، ص١١٩.

تقرر ذلك وقيل إنه سيصير الشروع في جلبها في الربيع القادم (١)».

ومن الموارد المالية التي تنفق على الأديرة أيضاً، الأموال التي تأتي من أوقاف الرهبان، وهذه وصية من أحد القساوسة بممتلكاته لدير الشرفة : يقول «...قائلا في اقراري الصحيح الصريح المعمول به شرعاً وذمة الذي أرغب وأوصى بتكميله في أي محكمة كان وهو أن بعد موتي مهما وجد عندي من كلي وجزئي أي من عقار أو أثاث أو مفروشات أو كتب أو نقدية أو ملابس قسيسية أو أمتعة قدسية الى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ملك أو قنية فإنني بموجب وصيتي هذه ونذري هذا أوصي بثلث مالي موقوفاً الى فقراء الدير المذكور الذي هو بشرفة درعون من مقاطعة كسروان بجبل لبنان وأنني أثبت على هذه الوصية والنذر حتى آخر حياتي ومن ثم ليس لأحد من رؤسائي أو ورثتي الشرعيين أن يمانع أو يبطل شيئاً مما ذكر تحت أي حجة. ولأجل البيان حررتها بخط يدي بدون أدنى جبر أو إكراه وأنا بالحال المقتضية ذمة وشرعاً وتحريراً الموافق في ٢٠ محرم من عام ١٢٩٣هـ/١٠ شباط (فبراير) ١٨٧٦م». ختمه المقر بما فيه القس فيلبوس شقال (٢).

وبفضل هذه التبرعات السخية من جهات عديدة، كان لا بد من تزايد نشاط النصارى من مرسلين أجانب وأهليين، ولقد تحول عدد كبير من الأديرة في بلاد الشام الى مدارس تضم الكثير من الأولاد والبنات يدرسون المبادىء الكاثوليكية النصرانية ، ويرضعون فيها كره الاسلام وحب النصرانية. وكان المطران مكسيموس مظلوم قد أقام مدرسة للطائفة الكاثوليكية ، في عين تراز في لبنان، يرافقه ثلاثة من الرهبان اليسوعيين في عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م والذين تعلموا العربية، وأنفق مكسيموس مظلوم على هذه المدرسة نحواً من عشرة آلاف ريال مجيدي ، وأنشأ فيها مكتبة ، وعلم في هذه المدرسة الى جانب العلوم الدينية ، اللغة العربية والفرنسية واليونانية واللاتينية، وافتتحت مدرسة دير المخلص فوق صيدا لأبناء الطائفة الكاثوليكية، ولقد تلقت هذه المدرسة تبرعات سخية من فرنسا(٣).

وعندما أراد السريان الكاثوليك بناء كنيسة بيروت وقلايتها، عمل بنو طرازي كل جهدهم لإنشاء هذه الكنيسة ، والتي سميت كنيسة مار جرجس

---

١) خليل سركيس : تاريخ أورشليم في القدس الشريف، (بيروت، مطبعة المعارف عام ١٨٧٤م)، ص١٩٤.

٢) اغناطيوس انطون حايك الثاني : تاريخ مار إفرام الرغم، ص١٣٨.

٣) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٣٢.

السريانية في بيروت(١). ولقد أخذ هؤلاء النصاري في ذلك الحين يتسابقون لجمع التبرعات من أجل بناء الكنيسة الكاثوليكية السريانية، (كنيسة مار جرجس السريانية).

وعندما افتتحت كنيسة مار جرجس في بيروت، رأى أعيان الملة السريانية أن يؤسسوا جمعية خيرية تقوم بمساعدة الفقراء وإغاثة الغرباء فاتفقوا في ١٨ربيع أول من عام ١٣٠٢هـ/٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٤م على إقامة الجمعية ويكون نصرالله دي طرازي رئيساً لها، والذي قام فيما بعد بتقدير أعمال هذه الجمعية فتبرع لها في كل سنة بالأوقاف المناسبة ، ثم قام فيليب طرازي، بوقف بقعة الأرض الملاصقة لمقبرة الملة السريانية في رأس النبع، وأطلق عليها اسم «حارة مار افرام» الملقان. وقد عرف ذلك رسمياً لدى الحكومة العثمانية، وسجل في مجلس بلدية بيروت. وظل هذا الوقف يتبع رسمياً جمعية المساعي الخيرية السريانية.

وكان لهذا الوقف أثر كبير في إيواء المهاجرين والفقراء واكتساب جمهور جديد من اليعاقبة، الذين اتحدوا بعد ذلك مع الكرسي الانطاكي المقدس تابعين الملة السريانية الكاثوليكية ، بمعنى أن الكاثوليك نجحوا في تحويل هؤلاء الفقراء الى ملتهم عن طريق إيوائهم. هذا الى جانب اهتمام السريان الكاثوليك بإنشاء المطبعة السريانية في بيروت والتي تكلفت الجهد والمال المتبرع به من رجال الطائفة، الى جانب استخراج رخصة رسمية لافتتاح المطبعة من الباب العالي بعد إجراء المعاملات القانونية في مركز الولاية أولا، ثم في عاصمة السلطنة. وهذا يتطلب الكثير من الجهد(٢). وكانت المطبعة تقوم بنشر المطبوعات النصرانية الكاثوليكية في بلاد الشام لكسب الأتباع من الطوائف النصرانية الأخرى وتنصير المسلمين في البلاد. فلننظر مدى همة هؤلاء النصارى ومدى سخائهم في الدفاع عن عقيدتهم، فماذا عمل المسلمون في سبيل نشر عقيدتهم أو حتى الدفاع عنها ضد هذه التيارات المنحرفة التي تحاصرها من كل مكان ؟ !.

ولقد تأسست مجموعة من الجمعيات التنصيرية الكاثوليكية في بلاد الشام لنشر مذهبها فيها ومن أهمها:

---

١) الخورفسقفوس اسحق أرملة السرياني: وثائق خطية في علائق آل طرازي بالملة السريانية، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية في ١٩٣٤م)، ص٢٣.
٢) الخورفسقفوس اسحق : المرجع السابق، ص ٢٩-٤٥.

١) جمعية لودفيغ التنصيرية وجمعية صهيون في بلغاريا: تأسست في عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م برأسمال قدره مائة ألف غولدن(١) Golden وهي فرع لجمعية نشر الايمان Verrin Der Glaubensverbreitung والتي كانت قد أسست في مدينة ليون في عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ومن أهداف الجمعية نشر ودعم النشاطات الكاثوليكية في الأراضي المقدسة. وكانت هذه الجمعية تقدم سنوياً الى الرهبان الفرنسيسكان في القدس مبلغاً يصل الى ١٠ آلاف مارك ألماني (٢).

٢) جمعية القبر المقدس في كولونيا: وكان الهدف من إنشاء هذه الجمعية دعم المصالح الكاثوليكية في الأراضي المقدسة. ودعم البطريركية اللاتينية وإرسالية الفرنسيسكان بحجة المحافظة على حقوق الكاثوليك ومقدساتهم في الأراضي المقدسة. ولا شك أن مناهضة الدعاية والنفوذ الأرثوذكسي والبروتستانتي، قد لعبت دوراً في تأسيس جمعية القبر المقدس فاهتمت بتشجيع وتنظيم رحلات الى الأراضي المقدسة(٣) وقامت بإصدار مجلة دورية بعد تأسيسها بعامين باسم «مجلة الأرض المقدسة» Dasheiligeland وأخذت بنشر تقارير وتحقيقات عن فلسطين والشرق الى جانب احصاءات عن العمل التنصيري الكاثوليكي في المنطقة. وكان بطريرك اللاتين في القدس قد أعلن : « أن جمعية القبر المقدس تحتل المركز الأول بين الجمعيات التي تقدم المساعدات الخيرية للبطريركية». وبلغت تبرعات جمعية القبر المقدس عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م مبلغ ٢٩ ألف تال لدعم الارساليات الكاثوليكية الفرنسية في المقاطعات اللبنانية (٤). وهذا يدل دلالة واضحة على أن الجهود الكاثوليكية الفرنسية لم تكن تقتصر على تنصير فلسطين فحسب بل كانت تسعى بخطى حثيثة «لتنصير الشرق بأجمعه».

وفيما يلي أسماء مجموعة أخرى من الجمعيات التنصيرية :

١) جمعية الاتحاد والترقي العثمانية.
٢) جمعية اغاثة اليهود الألمان.
٣) جمعية اسرائيل الفتاة.

---

١) غولدن : عملة من الذهب تساوي الجنيه الذهبي العثماني في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.
٢) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص١٩١.
٣) عبد الرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص٧٥.
٤) عبد الرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص١٩٣.

٤) الجمعية الألمانية (النصرانية).
٥) جمعية بازل التنصيرية.
٦) جمعية بيت المقدس.
٧) جمعية بيوت بني بريت.
٨) جمعية (التنصير) الكنسية.
٩) جمعية تجميع شعب الله في القدس.
١٠) جمعية ترويج التعليم النسائي في الشرق.
١١) جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين.
١٢) جمعية تعليم الفتاة في الناصرة. (في فلسطين).
١٣) جمعية رفاق المسيح.
١٤) جمعية الشباب العربي.
١٥) جمعية صندوق أستكشاف فلسطين.
١٦) جمعية العربية الفتاة.
١٧) الجمعية العربية الوطنية.
١٨) جمعية العلماء اليهود الروس.
١٩) جمعية العمل الدولي من أجل تجديد فلسطين.
٢٠) جمعية فلسطين الألمانية.
٢١) جمعية فلسطين للكاثوليك الألمان.
٢٢) جمعية فيادرتيا.
٢٣) جمعية القبر المقدس الألمانية.
٢٤) جمعية كولون لتنمية الزراعة والصناعات اليدوية في فلسطين.
٢٥) جمعية كولون القومية اليهودية.
٢٦) جمعية لودفيج التنصيرية.
٢٧) الجمعية المدرسية الألمانية ليهود الشرق.
٢٨) جمعية مؤتمر باريس.
٢٩) جمعية مؤتمر نابلس (في فلسطين).
٣٠) جمعية نشر النصرانية بين اليهود.
٣١) جمعية الهيكل الألمانية.
٣٢) جمعية يهود لندن. (١).

ولقد انضم الى تلك الجمعيات التنصيرية، جمعيات أخرى استشراقية تشترك معها في الأهداف الخبيثة من هدم الإسلام، ممثلة في تسليط الأفكار الهدامة والمفاهيم الغربية المسمومة الى شبابنا عن طريق مؤلفات

---

١) علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٣٠٥-٣٠٦.

المستشرقين، وهي مراجع أساسية لكثير من الدراسات الإسلامية ، على ما فيها من الدس والتحريف والتعصب الساخر ضد الأمة الاسلامية، ومن هذه الجمعيات : جمعية المستشرقين التي أسست في فرنسا في عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م وكانت تصدر المجلة الآسيوية ، وفي لندن أسست جمعية الدراسات الشرقية في عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م كما أنشأ الأمريكيون جمعية باسم «الجمعية الشرقية الأمريكية» (١).

وكذلك قام دعم البروتستانت للجمعيات التنصيرية في الخارج ، وفي بلاد الشام خاصة، منافسة بذلك المؤسسات الكاثوليكية، فقد اتسعت أعمال الجمعية التنصيرية الأمريكية والتي تأسست عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠م اتساعاً هائلاً، حتى أن عدد اللجان التي شكلتها من الوطنيين في مناطق التنصير بلغ ٥٦٨، اشترك فيها ٧٣ ألف وطني يدفعون الى هذه الجمعية مبلغ ٠٠٠ر٦٠٠ر١ فرنك للقيام بنفقات الكنائس والمعاهد وتربية أولادهم، ويبلغ عدد التلاميذ الذين يدرسون في مدارسها ٠٠٠ر٧٠ تلميذ.

ويهتم ذوو الشأن في هذه الجمعية بتجميع مبلغ مليوني دولار أمريكي، ترصد ايراداتها لسد نفقات مدارس التعليم، ومدارس التنصير، وتهتم هذه الجمعية بأمر التنصير في البلاد العثمانية وخصوصاً سوريا وفلسطين، لأنها لا ترغب في ترك البلاد التي كانت مهبط التوراة تحت سيطرة الاسلام.

ويحصل المنصرون الأمريكان على المساعدة والمعاضدة المالية من أغنياء أمتهم والذين يزودونهم بالأموال الطائلة (٢). وكانوا يعتمدون في نشاطهم على أموال تجمع لهم وترتبط بأرصدة ثابتة في أمريكا (٣).

وفيما يلي نلقي نظرة على تلك الأموال وطرق جمعها من الجمعيات البروتستانتية المختلفة :

تبرعات الأغنياء:

عندما افتتح شنلر دار الأيتام السورية في القدس ٤ جمادى أول عام ١٢٧٧هـ/١١ تشرين الثاني ١٨٦٠م «وجه شنلر دعوات الى اصدقائه من محبي

---

١) محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث، ص٤٣٢.
٢) أ. ل شاتلية : الغارة على العالم الاسلامي ... ، ص٢٣٢-٢٣٤.
٣) طلال عتريسي : البعثات اليسوعية، ص١٧٠.

القدس في ألمانيا وسويسرا يحثهم على دعم نشاطات مؤسسته. وفعلا تجاوبت معه فئات عديدة ، وتلقت الدار في سنتها الأولى مبلغاً قدرة ٣٥ ألف فرنك سويسري، معظمه من منطقة فورتنبرغ وبادن ومن شبتلر نفسه.

وبعد أربع سنوات بدأت «المنظمة البريطانية والقارية لدور الأيتام السورية British And Continental Syrian Asylums Association». بتزويد الدار بتبرعات سنوية وصلت في بعض الأحيان الى ٨٠٠ جنيه استرليني ، حتى تجاوزت مداخيل الدار بعد عقد من انشائها ٢٠ ألف فرنك في السنة وكانت معظم هذه التبرعات تأتي من ألمانيا، ولكن شنلر ما لبث أن واجه عجزاً مالياً في عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م ، فأضطر الى اللجوء الى مؤسسة (شبتلر وشركاه) في القدس للاستدانة وسد العجز. وما لبث شنلر أن تلقى معونات مالية مكنته من سداد ديونه، وتوفير بعض المال لمشاريعه الاستيطانية في فلسطين. وبعد ٢٥ سنة من إنشاء الدار بلغت الأموال المودعة في خزينة دار الأيتام السورية نحو ٥٥٠ ألف فرنك سويسري خص شنلر منها صندوق الاستعمار بمبلغ ٨٦ ألف فرنك (١). وبلغت الميزانية السنوية في أوائل القرن الميلادي الحالي تسعة آلاف جنيه أسترليني كان (٧٥٠٠) جنيه منها تجمع من تبرعات المتبرعين النصارى في خارج بلاد الشام، وخاصة من أوروبا وأمريكا(٢).

وبالنسبة لجمعية الكيزرزفرت لم تعان أي صعوبات مالية في سنواتها الأولى. فكانت تقوم على التبرعات التي تصلها من ألمانيا وبعض الدول الأوروبية البروتستانتية اضافة الى ٨٠ جنيهاً أسترلينية كان سيدفعها «غوبات» مناصر البروتستانتية ويدها اليمنى في فلسطين وبلاد الشام عامة. فكانت هذه الأموال تكفي وتسد حاجة مشروع الشماسات عندما كان المشروع صغيراً وفي بدايته. فلقد بلغت مداخيل المشروع في بدايته مبلغ ٩٤٦٩ تالا ، للعامين الأولين ، والمصروفات ٨١١٢ تالا (٣). ويذكر أن ٤٥٪ من هذه التبرعات جاءت من بروسيا وحدها حيث جاءت مفصلة كالتالي : ٤١٣ تالا من وزارة الداخلية، و٢٦٦ تالا من الملك فريدريك وليم الرابع و١٢٥٠ تالا من الجمعية النسائية للتعليم النصراني للمرأة في الشرق Fraueh Verein Fur

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٨٣ - ٨٤.
٢) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٥٧.
٣) تال : عملة ورقية تساوي ١٥ر. من الجنيه الأسترليني ، أي أن الجنيه يساوي ٦٫٦٧ تالا. والتال يساوي ٣ ماركات ألمانية ، أنظر عبد الرؤوف سنو: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص ٩.

Christliche Bildung Des Weiblichen Geschlechtes Im Morgen Land والتي تأسست في بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي بجهود وليم هوفمان Wilhelm Hoffmann.

وكذلك قامت جمعية «غوستاف أدولف» Gustav Adolpf-Verein والتي تأسست في لايبزيغ Leipzig في عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م بتقديم العون المالي لشماسات الكيزرزفرت، وسد العجز المالي في جمعيتهن. وقد بلغ مدخول جمعية غوستاف أدولف حوالي مليون مارك في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، وقام تعاون مالي أيضاً بين جمعية شماسات الكيزرزفرت وبين الجمعية النسائية للتعليم النصراني للمرأة في الشرق. حيث قدمت الجمعية النسائية للشماسات عوناً مالياً استطاعت الشماسات بواسطته من شراء قطعة أرض خارج بوابة يافا بمبلغ ٣٥٠٠ قرش عثماني ، وتم بناء مدرسة طاليطا قومي عليها فيما بعد.. (١) والتي كانت تتقاضى من أولياء أمور التلميذات الفقيرات مبلغاً سنوياً يتراوح بين عشرين وثلاثين فرنكاً سويسرياً(٢).

ومن شماسات الكيزرزفرت والجماعة الانجيلية في القدس، الى جانب مساعدات الكنيسة الروسية وجمعية غوستاف أودلف ومساعدات من جمعيات أخرى.

ولتوفير الامكانيات المادية والمالية لجمعية بيت المقدس قام أعضاؤها العاملون على نشر النصرانية في بلاد الشام، بحملات لجمع التبرعات في المدن الألمانية فعين مجلس إدارة الجمعية من ١٦ عضواً. وانتخب وليم هوفمان رئيساً للوعاظ وهو يعتبر أحد مؤسسي إخوة كريشونا، وانتخب شتراوس Strauss(٣) أميناً عاماً لجمعية اخوة كريشونا، وشغل فستفال Westphal أمانة الصندوق. ومما يلفت النظر أن مجلس الادارة ضم أعضاء من الوزارة ورؤوساء الوعاظ ورجال الدين النصراني من مختلف الرتب وضم أساتذة جامعيين ورجال مصارف ورجال أعمال وقناصل سابقين وشخصيات بارزة أخرى.

---

١) عبد الرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص١٠٥-١٠٦.

٢) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٦٣.

٣) شتراوس فريدريك أدلف (١٨١٧-١٨٩٨م) هو واعظ نصراني من برلين، وشغل منصب رئيس الوعاظ في البلاط الملكي في برلين ، ويعتبر مؤسس جمعية بيت المقدس وأمين سرها (١٨٥٣ - ١٨٨٦م).

وكانت جمعية بيت المقدس من الجمعيات البروتستانتية، التي لعبت دوراً خطيراً في عمليات التنصير في فلسطين، والتي قامت على أكتاف الوعاظ (١) الذين أنشأوا هذه الجمعية بمساعدة الدكتور شتراوس. ولقد تلقت جمعية بيت المقدس دعمها المالي من المساعدات المقدمة من المنصر غوبات (٢) هذا ومن أجل دعم الجمعية معنوياً ومادياً ظهرت الى الوجود جمعيات فرعية ومساعدات نسائية أخرى (٣). وتكون هذا التعاون الصريح بين شتى طبقات الشعب الألماني لدعم جمعيات التنصير في فلسطين أبعد الدلائل، ويمثل أعمق الأهداف لتدعيم نفوذ ألمانيا في فلسطين (٤). مما يوضح لنا كيف يتم التعاون بين الأعداء حتى يلتئم الشمل وتقوى كلمة النصرانية، اذا كان هذا التضامن ضد عدوهم التاريخي وهو الاسلام، فلينظر المسلمون في كل بقاع الدنيا مدى حقد النصارى عليهم والى أي مدى يتكاتفون ضدهم، والمسلمون لا يحملون سوى النوايا الحسنة، التي تركن بهم الى الراحة التي أرادها لهم الاستعمار.

---

١) الوعاظ : جمع واعظ، وهو الذي يقوم بالقاء التعاليم النصرانية بين أفراد الشعب.

٢) صموئيل غوبات : ولد غوبات فى ١ رمضان عام ١٢١٤هـ/ ٢٦ يناير (كانون الثانى) ١٧٩٩م فى قرية صغيرة فى منطقة جورا (Jura) الفرنسية التى ضمت بعد سقوط نابليون إلى كانتون برن السويسرية. درس فى مدرسة القرية حتى بلغ سن الخامسة عشرة . وتربى فى أحضان الكنيسة الإصلاحية فى سويسرا. وتدرب على التنصير فى معهد بازل (Basel) وتعلم اللغة العربية فى باريس على يد المستشرق الفرنسى دو ساسى (De Sasel) ثم سيم فى الكنيسة الموحدة فى مملكة بادن الكبرى حيث اتحدت الكنيستان اللوثرية والإصلاحية فى كنيسة واحدة . رحل غوبات إلى إنجلترا فى عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م حيث عينته جمعية التنصير الكنائسية (Cim.s) منصراً فى الحبشة . وقبل أن يتولى مهمته الجديدة دخل كلية اسلنجتون (Islington) للتدريب فيها لبضعة أشهر . وفى طريقه إلى مركز عمله الجديد ، قضى غوبات ما يزيد على ثلاث سنوات زيارة لمالطة وفلسطين وجبل لبنان ومصر حيث تمكن من تحسين لغته العربية ونقل من الحبشة إلى مالطة . ولما أنشئت الكلية البروتستانتية فى مالطة عين غوبات قسيسا فى كنيسة إنجلترا ، ثم عين نائبا لمدير الكلية وبعد شهر من افتتاح الكلية فى عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م تلقى غوبات دعوة ملك بروسيا لتسميته مطراناً على القدس . قضى ثلاثة وثلاثين عاماً من عمره أسقفا للقدس ، إلى أن مات فى ١ جماد ثانى عام ١٢٩٧هـ/ ١١ آيار ١٨٧٩م ، ودفن فى المقبرة الإنجيلية على جبل صهيون فى مدينة القدس الشريف.

٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١١٠.

٤) The Custody Of The Holy Land:P.8

وبالنسبة لجمعية القبر المقدس Der Vereinvam Heilige Grabe التي عملت منذ عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م فقد بلغ مجموع ما توفر للجمعية من التبرعات في حوالي عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م نحو أربعة آلاف تال Tale (١). وحول نصفها الى بطريرك اللاتين في القدس وحول النصف الآخر الى القيم Kustodie على أملاك اللاتين في الأراضي المقدسة، وهو المسئول كذلك عن ادارة الأديرة والمؤسسات اللاتينية في فلسطين.

ولقد ازدادت التبرعات في العام التالي الى ٨٥٠٠ تال، حول منها ستة آلاف تال الى فلسطين نصفها للبطريرك والنصف الآخر لارسالية الأرمن المقدسة Mission Des Heiligelandes وبلغ مجموع واردات الجمعية بين عامي ١٢٧٢-١٢٧٧هـ/١٨٥٥-١٨٦٠م ثلاثة وخمسون الف تال حصل البطريرك منها على ١٥٠٠ تال ، وقام رئيس الجمعية شتراوس في عيد الفصح لعام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م بزيارة الى القدس فالتقى فيها ببطريرك اللاتين جوزيف فاليرغا Josephus Valerga وبرهبان وراهبات إرسالية الأرض المقدسة. واتفق معهم على أن تقوم الجمعية ببيع الصلبان والتيجان وصور المسيح والعذراء الواردة من الأرض المقدسة في فروعها المختلفة في ألمانيا. وقامت الجمعية بالتبرع بمبلغ تسعة وعشرين الف تال لمساعدة الأطفال الأيتام من النصارى، أثر فتنة عام ١٢٧٧هـ -١٢٧٨هـ/١٨٦٠م-١٨٦١م وقد وزع هذا المبلغ على مراكز الارساليات البروتستانتية في بيروت وغزير وحيفا والناصرة وحلب(٢).

تمويل جمعية شماسات الكيزرزفرت في لبنان:

لتحقيق أهداف هذه الجمعية في لبنان ، قامت الشماسات بحملة لحث الرأي العام الألماني للحصول على دعم مالي ، ففي بداية نشاط الجمعية بلغ مجموع ما تسلمه صندوق الجمعية ٧٥٣٠٩ تال قدمتها لجنة سوريا البرلينية وبعض الجمعيات النسائية وجمعيات للشابات في هولندا وسويسرا إضافة لتبرعات فردية من ألمانيا. كما تجمع مبلغ ٢٨٧٢٨ تال من حملة التبرعات في بيروت . وبنصف هذا المبلغ اشترت الشماسات قطعة أرض بنت عليها ميتم (زوآر) وأودع الباقي في أحد المصارف للاستفادة من الزيادة الربوية منه . وكانت نفقات مشروع الميتم السنوية تتجاوز ٨٠٠٠ تال،

---

١) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين. ص١٢٣-١٥٣.

٢) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٦٣.

بينما كان يصل لصندوق الجمعية ٥٠٠٠ تال سنوياً. وبذلك تضطر الجمعية لتغطية العجز من خزانتها المركزية في ألمانيا. وعليه، فإن «لجنة سوريا البرلينية» والمنظمة الانجليزية والقارية لدور الأيتام السورية وجمعية بيت المقدس البرلينية كانت جميعها تقدم المساعدات المادية المنتظمة الى شماسات الكيزرزفرت(١).

دور الجمعيات التنصيرية:

لقد تعددت الجمعيات التنصيرية في بلاد الشام التي كان لها الدور الكبير والأثر الواضح في إبعاد المسلمين عن بوتقة الاسلام، وترويجهم لأفكار الغرب الرنانة المزيفة ومن تلك الجمعيات ما يأتي :

١) الجمعية العلمية السورية: أنشئت هذه الجمعية في بيروت عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م وضمت بين جوانبها، مجموعة من الأدباء الوطنين الذين التقوا مع النصارى الأجانب والذين بلغوا خمسين عضواً من نصارى بيروت كاليازجي الكبير وبطرس البستاني وميخائيل مشاقة. ومن الأجانب القس وليم طومسون والدكتور كرنيلوس فانديك وعالي سميث. وكان للجمعية مكتبة كبيرة تحتوي على مجموعة من المخطوطات قدرت بحوالي خمسمائة مجلد في عام ١٢٧٧هـ/١٨٥٢م (٢)، وأنشأت لها مجلة باسمها هي «مجلة أعمال الجمعية السورية».

ومن أهم أهداف هذه الجمعية التي اختلطت فيها نوايا نصارى أهل البلاد مع نوايا المرسلين الأجانب الى بلاد الشام، هو تكوين رأي سياسي عام معاد للوحدة الاسلامية فيها. ولهذا عمدت الجمعية الى عقد اجتماعات دورية نصف شهرية، حيث يلقي أعضاؤه بحوثاً علمية في تلك الاجتماعات. وكانت الأفكار المطروحة دائماً أفكاراً تنصيرية تتخللها بعض المقالات التي تدعو الى التحرر الفكري والسياسي للمنطقة .

ولقد ألقيت في جلسات الجمعية العلمية السورية البالغة ٥٣ اجتماعاً،

---

١) عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ١٨٤١-١٩٠١، ص١٧١-١٧٢.

٢) أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص١٦٦-١٦٧.

محاضرات جمة منها محاضرات خاصة بتعليم النساء والتركيز على ذلك بشتى الوسائل (١). وفي الواقع ان هذه الجمعيات وأمثالها وما يرصد لها من أموال كثيرة وما يجند لها من الرجال، ومايضيع فيها من الوقت، كل ذلك ليس حباً في أهل بلاد الشام، ولا يوجد أي نية لدى المنصرين لمساعدتهم، أو كما تدعي الجمعيات التنصيرية لترفع من مستواهم الحضارى. ان كل هذه الأفكار تشويش وتغطية للواقع وللنوايا الخبيثة التي تنطلق منها مبادىء هذه الجمعيات التنصيرية، والتي خرجت من بلادها من أقصى العالم لتأتي للبلاد الإسلامية من أجل أهداف تخفيها عن الناس وتلبس الحق بالباطل، ولتغري النفوس الضعيفة لاتباعها. وجاءت هذه الجمعيات تنادي بالقومية العربية وبالبعد عن كل وحدة اسلامية، لأن هذا يعد أول الهدم في جدار الاسلام المتين، فيعملون على هدمه حجراً حجراً حتى يتسنى لهم حكم البلاد واستغلال ثرواتها في غياب القيم الحضارية العليا للاسلام، والتي تجعل من المسلمين أعزاء لا يرضون بالذل والهوان وحكم الأجنبي لهم.

٢) المجمع العلمي الشرقي: أنشئ هذا المجمع عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م وكان من بين أعضائه صروف، ونمر وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني ووليم فانديك وغيرهم. ولهم مقالات واسعة ألقاها بعض الأعضاء، ويوجد في مكتبة الجامعة الأميريكية في بيروت نسخة منها (٢).

٣) جمعية زهرة الاحسان: أنشأ هذه الجمعية الروم الأرثوذكس، وهدفها تعليم وتدريب الفتيات النصرانيات الأرثوذكسيات، فأسست مدرسة تعرف باسمها تديرها مريم جهشان. كما قامت جمعية «شمس البر» كفرع لجمعية اتحاد الشبان النصارى في إنجلترا، مشترطة للانخراط فيها، الدعوة الى التنصير في بلاد الشام. كما ظهرت جمعية تهذيب الشبيبة السورية، تقوم بالدعم المالي للطلاب على اختلاف جنسياتهم وأديانهم في سبيل تعليمهم التعليم العلماني، وكان للجمعية فرع نسائي يسعى لبث الأفكار النصرانية بين الفتيات.

٤) جمعية زهرة الآداب: وكان لها دور واسع في إلقاء الخطب التي تعقد أسبوعياً وظلت في نمو حتى عرفت الحكومة العثمانية نوايا هذه

---

١) عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم : بداية التنصير الأمريكي في الشام، ص١٠٣.
٢) انيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص١٦٨.

الجمعية فقامت بإنهاء عملها. (١).

٥) جمعية بيت المقدس : Der Jerusalem Verein

رافق الاهتمام السياسي بفلسطين والذي تمثل بفتح قنصلية بروسية في بيت المقدس عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، حماساً تنصيراً ونشاطاً مكثفاً بقيام جمعية بيت المقدس في برلين، حيث كان هدفها دعم المؤسسات البروتستانتية والجماعات الألمانية في الشرق الأدنى. ولقد قام الدكتور شتراوس F.A.Strauss بإنشاء هذه الجمعية حيث قام بزيارة فلسطين في عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م، ونشر كتابه الذي يتحدث عن رحلته الى فلسطين باسم «سيناء والجلجثة».

ولقد تردد على رئاسة جمعية بيت المقدس الكثير من رجال الدين النصارى أمثال الميجور فستفال Major Westphal الذي اشترك مع شتراوس في تأسيس الجمعية، وتولى د. هوفمان D.Hoffmann منصب الرئيس الأعلى فيها وخلفه في نفس المنصب كيجل Koegel في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م والأمير تسايتن - شفيرين Zeiten-Schwerin والذي ظل في منصبه حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري/نهاية التاسع عشر الميلادي، بينما تولى شتراوس ادارة الجمعية في عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م (٢)

ولقد تأسست جمعيات فرعية جديدة تتبع الجمعية الأم ، وكان لهذه الجمعيات شأن كبير في مدها بالمال اللازم ، حيث استطاعت مع نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تجميع مبلغ ١٨٧ ألف مارك ألماني ، وكانت الكنيسة البروسية وحدها تؤمن للجمعية مساعدة سنوية بنحو ٤٤ ألف مارك(٣).

ومن خلال هذه الموارد جميعها، تمكنت الجمعية من إنشاء كنيسة الميلاد في بيت لحم، وأن تتولى رعاية الجماعتين الألمانيتين في حيفا ويافا وسارونا، وكذلك تشييد دار الأيتام الأرمنية وأن تؤسس لها مركزاً تنصيرياً جديداً في بيت ساحور (٤). كذلك أنشأ الروم في مدينة بيت المقدس مطبعة

---

١) أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ص١٧٠-١٧١.
٢) علي محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص ٥٧-٥٨
٣) عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٣٤.
٤) عبدالرؤوف سنو : المرجع السابق، ص١٣٥.

لهم، والتي عرفت بمطبعة القبر المقدس، كما يوجد للأرمن اليعاقبة مطبعة عظيمة داخل المدينة، الى جانب عدد من المدارس خاصة بالذكور والاناث تابعة لطائفة الروم والأرمن (١).

دور الأنـــدية في عملية التنصير :

وهذه الأندية تقام فيها شتى أنواع المحرمات من اختلاط ورقص وخمر وسهرات مختلطة ، وهذه النشاطات لم تكن مقصودة لذاتها، بل للوصول بها الى المحاضرات التي تلقى على مسامع الشباب والتي يلقيها عليهم المنصرون. ويخرج الشباب من هذه الأندية وقلوبهم معلقة بحب الغرب بسيئاته قبل حسناته، لأنه يبين لهم مايكون قد حرم عليهم في بلاد الشرق المحافظة على الأخلاق ولم يحث عليه الدين الاسلامي الحنيف.

ويعد اليسوعيون أمثال هذه الأندية حرباً صليبية نصرانية فانهم يقولون عنها: « ان الصليبية الأفخارستية تزدهر بين الأيفاع والصغار. من هؤلاء تحشد هذه الصليبية خير الجنود للأخوية. وهؤلاء هم نواة النادي الكاثوليكي الذي أنشىء في جامعة القديس يوسف في بيروت » (٢).

ويمكننا أن نضيف الى هذه الأندية : المخيمات الكشفية. والتي يتم فيها الاختلاط مثل الأندية وعلى منوالها، ولكن هذه المخيمات تعمل بين الصغار قبل أن تتشكل عقليتهم، وأخلاقهم تشكلا اسلامياً وحتى يتمكنوا من عقول الصغار كما يريدون، فلا بد من عملية غسيل لأدمغتهم الصغيرة، حيث يزرعون فيها من الأفكار ما يريدون في مهمة خطيرة قد يصبح تسميتها (صناعة الزعماء) لأن هؤلاء الصغار عندما يكبرون يحكمون البلاد على طريقة الأجنبي، ويستعمرون البلاد بأيديهم للأجنبي ويشرف على هذه المخيمات المختلطة من الصغار منصرون محترفون ينالون دعماً سخياً سنوياً يمكنهم من الاستمرار لتحقيق هدفهم (٣).

كما قام المنصرون باستغلال جميع أوجه النشاط الاجتماعي للتنصير، ومن هذه الأوجه انشاء المكتبات لبيع الكتب في الظاهر فتكون ستاراً لادارة أعمال التنصير. وخصوصاً في بادىء الأمر عندما كانت تنظر الدولة العثمانية الى المنصرين على أنهم جواسيس.

---

١) خليل سركيس : تاريخ أورشليم في القدس الشريف ، ص١٩٨.
٢) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٢٠٨ - ٢٠٩.
٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص٢١٤.

وهنالك الكثير ممن جاءوا الى بلاد الشام تجاراً وأساتذة وأطباء ومصورين، ولكنهم في الواقع طلائع للتنصير وكان المصور القديم المعروف باسم (بونفيس) يعمل على تصوير مشاهد سورية ولبنان على بطاقات بريدية.

وممن جاء تحت ستار البحوث العلمية والاستكشافات الجغرافية والجيولوجية: وليم غوول، وعالي سميث، وكذلك وليم طومسون، الذي كان يعمل منصراً تحت ستار العلم مدة خمسين عاماًوكان المنصرون يحرصون على نشر كتبهم الدينية كالأناجيل الأربعة وعلى نشر أشياء من التوراة بشكل قريب من فهم الجماهير، وكذلك ينشرون الأبحاث المملوءة بالدس والتشويه على الاسلام ورسول المسلمين وتاريخهم ولغتهم وتشويه كل شيء فيها حتى يخرج المسلم من هذا كله خجلا من الإنتماء الى المسلمين وللاسلام بينما يتعلق بكل آراء الغربيين ويلحق بركب حضارتهم المادية الغانية الفاجرة والتي ترجع بالانسان الى الحيوانية والبهيمية الرجعية وجاهلية لم يسبق للانسان أن بلغها على مر العصور.

ولقد مثلت الصحافة المظهر الأول للمنافسة بين البروتستانت والكاثوليك في مجال التنصير في بلاد الشام، فصدرت ثلاث صحف بروتستانتية في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م بينما كانت تصدر صحيفة واحدة يسوعية كاثوليكية أمثال جريدة البشير(١). فكان استغلال وسائل الاعلام المتوفرة في ذلك الوقت بشكل دائم ومستمر ومكثف، بينما مثلت الصحافة الوسيلة الوحيدة للاعلام في وقت لم تتوفر فيه الاذاعة والتلفاز والفيديو، وعندما توفرت هذه الوسائل الاعلامية في الوقت الحاضر، استغلها المنصرون الى أبعد حدود الاستغلال في بث الروح الغربية والثقافة النصرانية بين الشباب فتأثروا بها أشد التأثر إلا من رحم ربي. ومن الجدير بالذكر أن أساس هذه التدخلات الأجنبية في بلاد الشام، واقامة مؤسساتها كان يستند الى الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأجنبية في طور قوة الدولة العثمانية، ولكن استغلتها الدول الأجنبية أسوأ استغلال فيما بعد عندما ضعفت الدولة العثمانية. فتغلغلت الدول الأجنبية في جسم الدولة، ودخلت بكل ثقلها في أملاكها وهي لا تدخر وسعاً في نشر بذور الفساد بين الأهالي مما سبب الحرب الأهلية التي قامت في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م. وهذا ماسنبينه في الفقرة التالية بالتفصيل ان شاء الله.

---

١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص٢١١ - ٢١٣.

د-) الإمتيازات والمعاهدات ودورها في تحقيق أهداف الإرساليات:

قبل الدخول في الحديث عن التفاصيل، يجب أن نعطي تعريفاً لكلمة الامتيازات. فكلمة الامتيازات في اللغة الانجليزية تعرف بـ Capitulation وهذه الكلمة اشتقت من الكلمة اللاتينية Capitula التي تعني بند ، ولكنها استخدمت في معاهدات الدولة العثمانية لتعني منح السلاطين العثمانيين امتيازات تجارية لدول أجنبية. ويعتقد الغربيون أن كلمة Capitulation تعني خضوع النصراني واليهودي لارادة المسلم لكي يحصل على السلام. ومن جهة أخرى يعتقد المؤرخون الشرقيون أنها تعنى خضوع الدولة العثمانية للقوى الأجنبية، بسبب منح السلطان تيسيرات للأجانب لم يمنحها لرعاياه أنفسهم (١). ولكن طبقاً للشروط الرئيسية لبنود معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لعام ٩٤١هـ/١٥٣٥م. نعني بشكل عام : اتفاق أو معاهدة تمنح الدولة العثمانية بمقتضاها امتيازات أو حقوق خارجة عن نطاق القوانين المحلية، وذلك لخدمة مصالح الرعايا الفرنسيين في داخل حدود الدولة العثمانية (٢). وتعتبر هذه المعاهدة قاعدة مبهمة بنيت عليها وسارت على نهجها الكثير من المعاهدات التجارية التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة (٣).

وقبل القاء الضوء على دور الامتيازات والمعاهدات في تحقيق أهداف الارساليات الأجنبية في بلاد الشام، أود أن أشير الى أن جميع العلاقات التي قامت بين الدول الغربية النصرانية، وبين العالم الاسلامي على مر العصور، كانت مبنية في الغالب على تحقيق غايات وأهداف ومطامع ذاتية للدول الأجنبية تمت على حساب مصالح الدول الاسلامية. ويعتبر الفرنسيون أنهم السباقون في هذا المجال، حيث حصلوا منذ عهد شارلمان على امتيازات تتعلق برعاية أقلية النصارى الكاثوليك في القدس، وبحق رعاية مصالح الأقليات الكاثوليكية في الشرق كذلك، وقد درج العثمانيون منذ أن أصبحت البلاد العربية تحت سلطانهم على الاعتراف للفرنسيين بهذه

---

١) يوسف الثقفي : معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، مجلة كلية الشريعة العدد السادس، ١٤٠٢هـ-١٤٠٣هـ)، ص١٤٧، يوسف الثقفي : دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، (الطبعة الأولى، مكة المكرمة، مطابع الصفا: ١٤٠٩/٦/٢هـ)، ص٨٩.

٢) يوسف الثقفي: دراسات متميزة... ، ص٩٠.

٣) يوسف الثقفي: معاهدة الامتيازات... ، ص١٤٧.

الامتيازات (١). ثم نالت اليزابيت ملكة انجلترا في عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م امتيازاً في عهد السلطان مراد الثالث بلغته المتعالية «قد أعطينا ووهبنا....» لكن هذه اللهجة تغيرت بعد قرنين عندما منحت روسيا امتيازات مهمة بعد انتصارها على الدولة العثمانية. ولكن سرعان ماتغير الغرض الأساسي من الامتيازات، أو كما تدعي الدول الأجنبية، وهو تسهيل التجارة، فلم تكتف هذه الدول بحماية رعاياها من الفرنج «بل ادعت فرنسا حماية النصارى الكاثوليك في جميع أنحاء الدولة العثمانية، وادعت روسيا حماية الأرثوذكس، كما ادعت بريطانيا حماية البروتستانت في جميع الولايات العثمانية وادعت حمايتها لليهود في فلسطين كذلك.

وهكذا شملت الامتيازات، حماية المنصرين ومؤسساتهم في بلاد الشام من مدارس ومستشفيات، كما شملت بعض اليهود والنصارى الذين اكتسبوا الجنسية أو حماية دولة أجنبية وذلك بالعمل في القنصليات والوكالات التجارية أو المعاهد العلمية. فأصبحت الامتيازات عبئاً ثقيلا على كاهل الدولة العثمانية وواسطة لتدخل الدول الأجنبية في شؤونها الداخلية (٢).

عانت البلاد العربية الكثير من الشرور بسبب هذه الامتيازات، وبخاصة في فلسطين وسوريا ولبنان. حيث تمتع التجار الأجانب في القرن الثالث عشر الهجري/القرن التاسع عشر الميلادي، بمميزات لم يتمتع بها التاجر المسلم، بحيث كان التاجر الأجنبي يدفع ٣٫٥ بالمئة ضريبة على بضاعته، بينما يدفع التاجر المحلي الوطني ١٢ بالمئة.

وقد أساء اليهود استعمال الامتيازات في عدة نواح في فلسطين، فكان المهاجرون من روسيا يحتفظون بجنسية مزدوجة يفيدون منها في التخلص من أحكام القانون العثماني، وقد شجعهم قناصل روسيا على ذلك لا محبة بهم بل لزيادة النفوذ الروسي في الدولة العثمانية (٣).

---

١) عبدالعزيز نوار وعبدالمجيد نعنعي : التاريخ المعاصر أوروبا، ص٢٣٢-٢٣٣، وعبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٠٨، ومحمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت، دار الجيل: ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٩١.

٢) أحمد المرعشلي وزميله: الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام، (الطبعة الأولى مطابع ميلانو: ١٩٨٤)، المجلد الأول، ص٢٩٣-٢٩٤.

٣) أحمد المرعشلي وزميله: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، ص٢٩٣-٢٩٤.

واذا أردنا الحديث عن الامتيازات العثمانية للدول الأجنبية، أصبح من الواجب علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على أول هذه الامتيازات، ولو أنها حدثت في فترة مبكرة عن تاريخ هذه الدراسة، ولكنها تعتبر المرجع والأساس لما جاء بعدها من معاهدات وهي معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية.

فمنذ معاهدة عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م التي عقدتها الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان مع فرنسوا الأول ملك فرنسا(١) ، حصلت فرنسا بموجبها على امتيازات جمة للفرنسيين داخل حدود الدولة العثمانية ، ولقد استفاد منها التاجر الفرنسي ، وكذا التجار من الدول الأجنبية التي كانت تتاجر تحت العلم الفرنسي ، وخاصة تجار جنوه والبندقية الذين عملوا على فتح أسواق لمنتجاتهم داخل ممتلكات الدولة العثمانية المترامية الأطراف، ذات الشواطئ والموانئ المختلفة ، بينما لم يستفد منها التاجر العثماني. ولقد صيغت المعاهدة العثمانية - الفرنسية من ستة عشر بنداً، وبموجبها فتحت الحرية الدينية للرعايا الفرنسيين مع التسهيلات التجارية وحرية التنقل لرعايا ملك فرنسا النازلين في الدولة العثمانية والمقيمين بها(٢)

وتعتبر هذه المعاهدة، وما تبعها من معاهدات أجنبية مع الدولة العثمانية، درجة من درجات الاستعمار الأجنبي داخل العالم الاسلامي، وصورة من صور الاستغلال بشتى أنواعه للبلاد العربية، والتي حملت معها بذرة الغزو الفكري والثقافي وقد تمثل هذا الغزو بعد ذلك عن طريق انشاء المعاهد العلمية والصحية داخل جسم الدولة العثمانية، والتي تحمل الدعوة الى عمل التنصير بين سكان بلاد الشام خاصة.

ولقد اجتهدت الدول الأجنبية في عقد المعاهدات مع الدولة العثمانية، لتحقيق مآربها، فوقف العلماء والقادة الغربيون يحثون دولهم ليعقدوا هذه الامتيازات بينهم وبين المسلمين ليس بسبب حبهم للمسلمين ولكن تحقيقاً لمطامعهم الشخصية. قال القائد «برافا» في هذا الشأن:

«ان العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم، وقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف، ولكنهم قوم كرام صادقون يأبون الكذب، فهم يخدعون

---

١) يوسف الحكيم: سورية في العهد العثماني، ص٢٣-٢٤.
٢) عبد العزيز محمد عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٢١.

بالظواهر المموهة، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين، والتعليم والتجارة، فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يبثون التعاليم بين أطفالهم، فان لم يتبعوا دينكم، فهم - على الأقل - يهملون الحمية الدينية التي تحببهم الى الحرب، أما حرية التعليم فانها تولد غلماناً شؤماً عليهم لأنهم يكونون شغوفين بحب التعليم، ولذلك يبتعدون عن محبة وطنهم، أما حرية التجارة فهي التي تضعضع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر، فهي الآن محرمة، فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة، وفقدوا النخوة، وفشا بينهم الشر، وساءت حالهم، ولا تنسى التأنق في النعمة والبذخ والاسراف في الشهوات واهمال سير الآباء والأجداد من أقوى أساليب انحطاط الممالك القوية ». (١).من النص السابق يتضح لنا مدى ما يخطط له قادة الدول الأجنبية لنشر تلك الرذائل بين المسلمين بكل وسائل المكر حتى يتمكنوا من القضاء على أخلاقهم ومن ثم دينهم وعقيدتهم .

ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية عندما منحت الامتيازات لفرنسا، كانت في أوج مجدها وقوتها، ولم تنظر لما قد يترتب على مثل هذه المعاهدة من نتائج ضارة في المستقبل على رعايا الدولة العثمانية. وبالفعل، كانت فرنسا تطلب من قناصلها الموجودين داخل الدولة العثمانية في بداية منحهم للامتيازات في حمل الشكاوى الى السلطات العثمانية العليا، وتقديم التقارير الى امبراطور دولتهم فقط، بينما كان القنصل نفسه عرضة للترحيل في أية لحظة، لا من جانب السلطان أو الصدر الأعظم، بل من جانب الوالي العادي. اذ لم تكن صلاحيات القنصل في بداية الأمر تتعدى كونه صلة الوصل بين السلطان العثماني والملك أو الامبراطور لمراقبة الاتفاقيات المعقوده لحماية الأقليات النصرانية في الدولة(٢)وذلك في بداية عهد الامتيازات، وبمضي الوقت أدت زيادة المعاهدات والامتيازات بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية الى تغلغل هذه الدول في أحشاء الدولة العثمانية، حتى أصبح للدول الأجنبية بمرور الوقت سيادة قضائية وتشريعية بالنسبة لرعاياها في داخل الدولة نفسها. الى جانب نشاط المنصرين الكبير الذين ساعدوا بلادهم، في أن تجد أرضاً داخل بلاد المسلمين، وحققوا لها ماتصبو اليه من مصالح وأطماع(٣)

وتجدر الاشارة الى أنه في بداية عهد الامتيازات، كان الفصل بين

---

١) أنور الجندي : اطار اسلامي للفكر المعاصر، ص٤٢٧ - ٤٢٨.
٢) مسعود ضاهر: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص٣٤٠.
٣) عبدالستار فتح الله سعيد: الغزو الفكري والتيارات ...، ص٤٧.

المتنازعين الأجانب يعود الى السلطان العثماني، وهو صاحب قرار الادانة أو العفو، وصاحب السلطة التنفيذية للترحيل أو القصاص دون أية امكانية لتدخل خارجي من سلطات الرعايا الأجانب المتنازعين داخل الدولة العثمانية، واستمر هذا الوضع مدة طويلة قبل أن يسمح السلطان العثماني بالتقاضي أمام محاكم خاصة، بموجب نصوص الاتفاقيات المعقودة في زمن ضعف الدولة العثمانية (١). وبموجب الأوامر التي تصدر من الدولة العثمانية، كان يقيم القنصل من رعايا الدول الأوروبية مع رعاياه داخل الدولة في خان المدينة، حيث كانت تسكن الجالية في البداية. ثم أخذوا في التوسع في الأبنية المجاورة للخان وعندما ازداد عدد وحجم الجالية التجارية شكلت أحياء خاصة بها تدريجياً. وكان التجار الأوروبيون بصفة عامة والفرنسيون بصفة خاصة يفضلون سكن المدن الساحلية أو المدن ذات التجارة النشطة مع أوروبا. فكانت تجمعاتهم في طرابلس وحلب، بينما ألزم القناصل بدفع الضرائب دون أن تكون لهم ميزة على سائر رعايا الدولة العثمانية الآخرين. مع حرص القناصل على عدم اختلاط رعاياهم بالسكان المحليين ، وذلك خوفاً من كشف نواياهم جميعاً في طريقة تعاملهم. التي قد تكشف أهدافهم وأطماعهم في المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد احتك بعض رعايا الدول الأجنبية بفئة من السكان المحليين مثل، التراجمة (المترجمين) والوسطاء المحليين والسماسرة. والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تكن تسمح للدول الأجنبية بتعيين قناصل لها من الرعايا المحليين الموالين لتلك الدول. ولكن بعض القناصل من آل الخازن - أبونوفل، وحصن - ومن آل الخوري - غندور بن سعد الخوري - اعتبروا من أوائل القناصل المحليين. وتمتعوا بشرعية قانونية ووردت اسماؤهم في بعض المراسلات التجارية والكتابات الحديثة. وبرز بعدهم وسطاء جدد من عائلات حبيش والدحداح، والضاهر، وسرسق، وبسترس، والأصغر، وغيرهم. وهكذا عززت الامتيازات العثمانية والمعاهدات التجارية دور التجار الأجانب في السيطرة على مقدرات الدولة العثمانية وغالباً ما كانت ترتبط حماية التجار بحماية الرعايا الأجانب (٢).

وتعتبر المعاهدة العثمانية - الفرنسية ، التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م النموذج والأساس للمعاهدات التي منحتها الدولة العثمانية فيما بعد للدول الأجنبية. والجدير بالذكر أن معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية متقدمة كثيراً عن فترة هذه الدراسة، ولكن

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ، ص٣٤١.
٢) مسعود ضاهر: المرجع السابق ، ص٣٤١.

نظرا لأهميتها، والنتائج التي خلفتها، جعلتنا نبدأ بالكلام عنها في هذا الفصل، حيث أن الدول الأجنبية، التي كانت تعتبر نفسها صديقة للدولة العثمانية، قامت باستغلالها وأظهرت أطماعها في وقت ضعف الدولة وسقوطها. وبدأت أطماع الدول الأجنبية ظاهرة جلية تجاه العالم الاسلامي متمثلة في محاولة تنصيره عن طريق الارساليات الدينية الأجنبية. وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة وما تبعها من المعاهدات في ظاهرها معاهدات تجارية، إلا أنه اتضح لنا أن أسباباً اقتصادية وسياسية ساهمت في ابرامها ، وقد قامت فرنسا - عن طريق هذه المعاهدة - بالتدخل في شئون كثيرة، سواء في مجال الصحة أو التعليم أو بافتتاح المؤسسات وإنشاء الجمعيات التنصيرية الكاثوليكية في بلاد الشام، والتدخل بحجة حماية الأقلية النصرانية في البلاد.

وجاء على لسان بعض المؤرخين أن معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية لم تكن أول المعاهدات على الاطلاق بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية، فقد كانت الدولة العثمانية قد منحت امتيازات تجارية لكل من جنوة والبندقية يرجع تاريخها الى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م قبل منحها امتيازات لفرنسا عام ٩٤١هـ/١٥٣٥م وذلك لتنويع مصادر الواردات التجارية داخل الدولة العثمانية. والقضاء على سيطرة البندقية في أوج النشاط التجاري داخل أنحاء الدولة (١) وتعتبر الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية ابان عظمتها، في أواخر الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي، لممثلي حكومة البندقية، مقتصرة على حق النظر في دعاوى البنادقة المقيمين في الدولة العثمانية، وحق ارسال ترجمان الى المحاكم العثمانية عند النظر في الدعاوى القائمة بينهم وبين خصومهم غير البنادقة.

أما الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م فقد استغلتها فرنسا وبعض الدول الأوروبية أسوأ استغلال، حيث تملك رعايا تلك الدول العقارات في الدولة العثمانية والتي لم تشملها الامتيازات، فبقى مالكها خاضعاً فيما يتعلق بها لنفس المعاملة التي تجري على العثمانيين مع دفع ضرائب وفراغ وانتقال، عملا بالقانون الصادر في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م وبالتالي لحكم المحكمة العثمانية حين الاقتضاء. وكانت الامتيازات منحصرة فيما أشير اليه من حوادث واختلافات، ثم توسعت وتطورت بنسبة ماحصلت عليه الدول الأوروبية من قوة وعظمة ونفوذ، يقابله الانحطاط الذي طرأ على الدولة العثمانية في مختلف أدوارها.

---

١) يوسف الثقفي : معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية ، ص١٥٦-١٥٧.

وعندما شملت الامتيازات معظم الدول الأوروبية، جعلت للأجنبي حصانة في كل ملاحقة ادارية أو قضائية وبذلك ميزته عن أبناء البلاد في عقر دارهم. ومما هو جدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن في بادئ الأمر حائزة على أي امتياز من الامتيازات الأجنبية، ولكنها حين قويت شوكتها، طلبت تزويد رعاياها بكل مايعامل به الأوروبيون في الدولة العثمانية، فوافقتها الدولة العثمانية على طلبها في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي (١).

وتعتبر معاهدة الامتيازات بين الدولة العثمانية وفرنسا من أقوى المعاهدات التي كان لها أثر كبير على الدولة العثمانية فيما بعد، فعندما تم الاتفاق بين السلطان العثماني سليمان القانوني من الجانب العثماني، وفرنسيس الأول Francis I ملك فرنسا من الجانب الفرنسي، كانت بمثابة معاهدة صداقة وتعاون ضد آل هابسبورغ Habsburg في النمسا. وقد أدى قيام هذه العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية، الى تمكين فرنسا من اقامة علاقات عامة مع نصارى بلاد الشام وخاصة الطوائف الكاثوليكية، والموارنة منهم بالذات حيث ادعت الوصاية عليهم، ومن هنا نمت العلاقات بين نصارى بلاد الشام وفرنسا التي كانت بالنسبة لدول أوروبا من أقوى الدول، عدا انجلترا (٢).

ولقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم عقد معاهدة مع البنادقة يثبت فيها الامتيازات التي كانت لهم إبان الحكم البيزنطي وذلك عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وبعدها حصل الفرنسيون على امتيازاتهم الأولى(٣) . ونظراً لأهمية معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية ، باعتبارها نموذجاً للامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية فيما بعد، فقد يكون من المفيد إلقاء نظرة عامة على أهم بنودها.

---

١) يوسف الحكيم : سورية في العهد العثماني، ص٢٣-٢٤.
٢) اسكندر بن يعقوب ابكاريوس: نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تحقيق عبدالكريم ابراهيم السمك، (رياض الريس للكتب والنشر: ٢٧كانون الثاني ١٩٨٤م)، ص٠٣٥، وعبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، حـ١، ص٧٩٨.
٣) حسن صبحي: محاضرات في تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر (المشرق العربي، السنة الأولى، ١٩٧٦م)، محاضرات مصورة غير منشورة، ص٥٤.

جاء في المادة الأولى : السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والثغور والجزر والبحار وسائر الأقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا في مستقبل الأيام ويكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة الى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم (١).

وكانت الفوائد التي جناها التجار الفرنسيون وغيرهم من الأجانب، أكبر بكثير مما حصل عليه التجار المسلمون في الدولة العثمانية ، التي كانت أسواقاً هامة للمنتجات الأوروبية في ساحل بلاد الشام والاسكندرية وغيرهما ، بينما لم يتعود التجار المسلمون في تلك الأيام الذهاب بتجارتهم الى فرنسا والبلاد الأوروبية. ولقد استغل الأوروبيون هذا الوضع بنشر إرسالياتهم الدينية في شتى أرجاء الدولة العثمانية، حيث تنقلوا بحرية شاملة دون أن يجدوا الموانع لذلك فبرزت أطماعهم جلية واضحة في بلاد المسلمين، وكان ذلك خارجاً عن نطاق التعامل التجاري الوارد في المعاهدة العثمانية الفرنسية.

وقد جاء في المادة الثالثة ، أنه يحق للرعايا الفرنسيين المتواجدين في الدولة العثمانية، المحاكمة طبقاً لقوانينهم في القنصليات المخصصة لهم، أما في قضايا الجنايات، فقد نصت على أن أي فرد من رعايا ملك فرنسا سوف تتم محاكمته بواسطة الباب العالي، أو مكتب رئيس الوزراء بدلا من محاكم القضاء المحلية (٢). وتنص المادة الرابعة بمنع الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا أو محاكمتهم في الدعاوى المدنية التي يقيمها عليهم العثمانيون أو غيرهم من رعايا السلطان العثماني، ما لم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو رجل القانون الفرنسي أو القنصل. وفي حالة وجود هذه المستندات والحجج لا يجوز للقضاة الشرعيين، النظر في قضاياهم ومحاكمتهم الا في حضور ترجمان قنصل فرنسا.

ونصت المادة السادسة على أنه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وجميع رعايا فرنسا الآخرين فيما يختص بالمسائل الدينية أمام

---

١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٠٨.

٢) يوسف الثقفي: دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٠٥.

القضاة الشرعيين أو غيرهم، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ولا يمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر اليهم على أنهم مسلمون الا اذا رغبوا في ذلك واعترفوا بذلك صراحة وبدون إكراه يقع عليهم. ولهم الحق في ممارسة دينهم ، وتقرر المادة السابعة : أنه اذا تعاقد شخص أو أكثر من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو استولى على سلع منه أو اقترض مبالغ ، ثم غادر البلاد العثمانية قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه فلا يسأل رجل القانون الفرنسي أو القنصل أو أقارب المدين أو أي شخص فرنسي آخر عن ذلك مطلقاً ولا يتعرض له بالإيذاء، ولا يكون ملك فرنسا ملزماً بشيء. ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعي عليه من أملاكه لو وجدت له أملاك في الأراضي الفرنسية(١). وهذا ليس غريباً بالنسبة للرعايا غير المسلمين القاطنين في الدولة العثمانية، وذلك منذ اصدار قانون الملل عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م اذ لكل ملة موجودة في الدولة الاسلامية الحق الشرعي في ممارسة قوانينها بلغتها، ولها حق تطوير ديانتها وثقافتها ومؤسساتها التعليمية، وتعتبر هذه المادة مجرد تأكيد لملك فرنسا بحماية حقوق رعاياه بنفس الطريقة(٢). ولقد أقر سلاطين آل عثمان في الامتيازات التي منحوها لملك فرنسا حق بعض الرهبان الكاثوليك في القدس والناصرة وبيت لحم في إنشاء الكنائس والأديرة(٣) ونشأت بسببها مشاكل عدة في التنافس بين الكاثوليك والأرثوذكس فيما بعد، بسبب أمور دينية .

أما المادة الثامنة : فقد نصت على أنه لا يجوز إلقاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين، وإكراههم على العمل في خدمة السلطان العثماني أو أي شخص آخر في البر والبحر ما لم يكن باختيارهم وطوعهم. وكذلك لا يجوز استخدام سفنهم أو قواربهم، أو ما يوجد بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع إلا بموافقتهم ورضاهم (٤)

وتنص المادة الخامسة عشر على أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا لم يكن قد أقام بأراضي الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أيا كان اسمها، ولا يلزم بحراسة

---

١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢ ، ص ٧١٠ - ٧١١.
٢) يوسف الثقفي: دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٠٦.
٣) عمر عبدالعزيز عمر: محاضرات العلاقات الدولية ، أوروبا: ١٨١٥-١٩١٩ ، (دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، الأسكندرية) ، ص ٦٦.
٤) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية ... ، حـ٢، ص٧١١.

الأراضي المجاورة أو مخازن السلطان ولا بالعمل في ترسانة أو أي عمل آخر بطريق الاكراه. ويمنح رعايا الدولة العثمانية امتيازات في بلاد فرنسا. وجاء من ضمن شروط معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، اقتراح من ملك فرنسا بدعوة البابا وملك انجلترا، أخيه وحليفه الأبدي، وملك اسكتلندا للانضمام الى هذه المعاهدة.

والجدير بالذكر أن هذه المعاهدة جددت عدة مرات بعد ذلك، وأضيفت اليها أحكام جديدة، من هذا التجديد ما حدث في ٦ جماد الأول عام ٩٧٧هـ/١٨ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٥٦٩م، وأعيد تجديدها والاضافة اليها في جمادى الآخرة عام ٩٨٩هـ/يوليو(تموز) عام ١٥٨١م، وجددت مرة أخرى في رجب ١٠٠٦هـ/فبراير(شباط) عام ١٥٩٧م. وأعيد تجديدها في ٢٠ ذي الحجة عام ١٠١٣هـ/٢٠ مايو(آيار) عام ١٦٠٤م، وكذلك جددت في ربيع الأول ١١٥٢هـ/يونيو(حزيران) عام ١٧٣٩م. ثم أصبحت تجدد تلقائياً فيما بعد كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد(١).

وفي عهد السلطان محمود الأول (١١٤٣-١١٦٨هـ/١٧٣٠-١٧٥٤م) أحرزت بعثة فيونوف M.Devillenenve أعظم درجة من النجاح في علاقات فرنسا الدبلوماسية بالدولة العثمانية ، إذ توصلت الى الحصول على خط شريف في ٢ ربيع الأول عام ١١٥٣هـ/٢٨مايو عام ١٧٤٠م يتكون من ٢٥ مادة تجددت فيه كل الامتيازات السابقة لفرنسا وأضيف اليها : أن الدول الأوروبية الأخرى التي ليس لها سفراء معينون لدى الباب العالي يتمتع رعاياها بحرية التنقل في الدولة العثمانية تحت علم فرنسا، ويكون لهؤلاء نفس الامتيازات بشرط أن تكون تلك الدول في حالة صلح مع فرنسا، وكذلك أعفى الخط الشريف سفراء فرنسا وقناصلها من عوائد السمسرة، وأن يكون للفرنسيين حق ارتداء الملابس الشرقية في تجوالهم في أملاك الدولة العثمانية وجعلت الرسوم ٣٪ على كل الأصناف (٢).

ولقد قامت الدولة العثمانية بإعطاء امتيازات مماثلة لعدد من الدول الأجنبية على غرار الامتيازات الفرنسية ، حيث منح السلطان مراد الثالث بريطانيا امتيازاً خاصاً (براءة) في جمادى الأولى عام ٩٨٨هـ/يونيو(حزيران)

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ٢، ص٧١٤، ومحمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني في عهد السلطان محمود الثاني، ص٣٠.

٢) محمد عبداللطيف البحراوي: المرجع السابق ، ص٣٠-٣١.

عام ١٥٨٠م تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسعة النطاق . ومما جاء فيها على لسان السلطان: «وعلى هذا فاننا نمنح جميع أفراد شعبها (شعب ملكة انجلترا) ورعاياها حرية المجيء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام، مع كل ما لديهم من متاجر وسلع بحراً في سفن كبيرة وصغيرة، وبراً في عربات، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى، ولهم أن يمارسوا البيع والشراء دون عائق، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم الانجليزية»(١).

وكان الأجدر بالسلطان العثماني وهو الذي منح هذا الامتياز أن يفرض على التجار الأجانب أن يراعوا تقاليد وعادات المسلمين في أملاك الدولة العثمانية، مراعاة لشعور المسلمين، ولكن أن يتبعوا عادات بلادهم الانجليزية فهذا هو الأمر الخطير جداً، حيث استغل التجار الأجانب هذا الامتياز، وتعدت الدول الأجنبية عن طريق تجارها في الدولة العثمانية الأمور التجارية الى الأمور الدينية والسياسية فأرسلت منصريها يجوبون البلاد الاسلامية في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها يتمتعون بظل حماية دولهم التي استغلت الامتيازات العثمانية لها أسوأ استغلال.

ويتضح لنا مما سبق من نصوص بعض ما أوردناه من بنود في معاهدة الامتيازات العثمانية - الفرنسية، أن هذه البنود تعالج بتوسع المشاكل المتعلقة بحرية التجارة، وكيفية معاملة الرعايا الأجانب داخل جسم الدولة العثمانية، ولم تنص المعاهدة بشكل واضح على أي بند يتعلق بالأمور السياسية أو الدينية، مع أن السبب الرئيسي لعقد هذه المعاهدة سياسي من الدرجة الأولى، حيث كان شارل الخامس في إيطاليا من أسرة الهاسبيرج العدو المشترك لكل من السلطان العثماني وملك فرنسا، فلجأ ملك فرنسا النصراني الى السلطان العثماني المسلم ضد شارل الخامس النصراني أيضاً. واللذان وافقا بعد التصديق على المعاهدة على استخدام قواتهما المشتركة ضد شارل الخامس في إيطاليا، ولقد قامت الدولة العثمانية بتنفيذ التزاماتها مع فرنسا بكل دقة وأمانة (٢).

من شروط هذه المعاهدة يتبين لنا مدى الدهاء والمكر الذي يتمتع به ملك فرنسا، في مقابل الطيبة وحسن النية لدى السلطان العثماني حيث اتضح ذلك في الأمور التالية:

١) عندما لجأ ملك فرنسا الى السلطان العثماني يطلب مساعدته وهو الذي

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية ... ، ص٧١٦.

٢) يوسف الثقفي: دراسات متميزة ... ، ص١٠٨.

يختلف عنه في الديانة ضد شارل الخامس وهو على دينه يعتبر ذلك خارجاً عن العرف والتقاليد سواء في أوروبا أو عند المسلمين، كذلك من الواضح أن ملك فرنسا كان هو الضعيف، لذلك لجأ للسلطان العثماني القوي حتى ولو كان مسلماً، ومما يؤسف له أن بلاد فرنسا أول من أرسلت بعثاتها التنصيرية للقضاء على الاسلام والمسلمين وتقويض قوة الدولة العثمانية المسلمة التي وقفت الى جانبه في وقت الشدة.

٢) اكتساب ملك فرنسا لموقف سياسي وجماهيري كبير، حيث أنه طبقاً للبند الخامس عشر، حصلت فرنسا على الحق الكامل في الحماية تحت علمها لرعايا الدول الغربية الأخرى التي لم تحظ بأية امتيازات، والذي جعل لفرنسا مكانة مرموقة بين الدول الأجنبية، والتي سعت فيما بعد للحصول على امتيازات مماثلة من الدولة العثمانية على غرار الامتيازات العثمانية الفرنسية، وبما أن ملك فرنسا بوصفه الملتجأ الأقوى اشترط على السلطان العثماني أن يحصل البابا وملك انجلترا أخوه وحليفه الانتفاع بمزايا هذه المعاهدة مستغلا الكرم الاسلامي وحسن المعاملة لدى المسلمين(١) . فمنذ متى أصبح ملك انجلترا أخوه وحليفه ، مع أن بلاده طول الوقت هي المنافس القوي لفرنسا ؟.. ولكن لا بد أن نعرف أنه لا يجتمع النصارى إلا ضد الاسلام، وخصوصاً إذا كانت الغنيمة هي البلاد الاسلامية. وأن الارساليات الأجنبية قد نشطت بعد ذلك في أرجاء الدولة العثمانية تنخر في كيانها نخر السوس.

٣) ازدياد النشاط التجاري الفرنسي في الأراضي العثمانية الاسلامية، وتبعها الأوروبيون ، حتى أنه وجدت آلاف السفن التجارية العاملة في الشرق الأدنى، وقد بلغت قيمة التجارة ثلاثون مليون جنيه تشكل التجارة الفرنسية نصفها، أما الأوروبيين فقد تاجروا تحت العلم الفرنسي كما نصت معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، ولقد استفاد الأوروبيون منها بشكل واضح وكبير حتى أصبحت أراضي الدولة العثمانية أسواقاً مفتوحة للتجارة أمام التجار الأوروبيين(٢) بينما لم يتمتع التاجر العثماني بنفس المميزات التي يتمتع بها التاجر الأوروبي، ولم يمارس نفس الدور الذي مارسه التجار الأجانب في البلاد العثمانية، لأنه لم تتوفر الأهداف والدوافع لدى التاجر المسلم كما توفرت لدى التاجر الأوروبي، والتي قامت دولته أو حكومته بالتخطيط لها والذي

---

١) محمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني، ص٣٠.
٢) يوسف الثقفي: دراسات متميزة ... ، ص١١٠.

يتمثل في عمله في الأراضي العثمانية، حيث استغلت فرنسا بالذات تجارها بإنشاء المدارس والكنائس، ومارست حماية غير رسمية على جميع النصارى المقيمين في شتى أرجاء الدولة العثمانية. ولو كانت النوايا سليمة عند عقد المعاهدة لدى ملك فرنسا لأورد بعض النصوص الخاصة بالأقليات النصرانية الموجودة في الدولة العثمانية. ولكن لأنه يعرف أن النصارى يعيشون في أحسن حال تحت ظل الحكم الاسلامي منذ قيام الدولة الاسلامية. ولأن النوايا الانتقامية متوفرة لدى الأوروبين بالكيد للإسلام حاولوا استغلال الامتيازات بأشياء غير واردة في المعاهدة، مثل نشاط الارساليات المكثف فيما بعد، والذي حاولت الدولة الاسلامية أن تقف في وجهه، ولكن بعد فوات الآوان حيث أصبحت ترى في المنصرين الأجانب أداة تغلغل أجنبي يستهدف القضاء على السيطرة العثمانية (١).

٤) ان معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية التي عقدت في عام ٩٤١هـ/١٥٣٥م وما تبعها من معاهدات أخرى كان لها أبعد الأثر في تغلغل الأوروبين في جسم الدولة العثمانية لأنها ساعدتهم على معرفة نقاط ضعف الدولة عن قرب ودراستها على مدى سنوات، والتي أسفرت بعد ذلك عن تقسيم الدولة العثمانية والقضاء عليها نهائياً، ثم أدى ذلك الى تقسيم الوطن العربي بين فرنسا وانجلترا، واللتان كانتا في يوم من الأيام من حلفاء السلطان العثماني والذي منحهما امتيازات والتي أصبحت كفيلة باستغلال الدولة العثمانية الى أبعد الحدود في أقرب فرصة ممكنة، وعملت على تدميرها. وما تعاني منه بلاد الشام في هذه الحقبة من الزمن من الاستعمار الحديث ما هو إلا نتيجة واضحة لمثل تلك الامتيازات ، حيث تم تقسيم بلاد الشام بين بريطانيا وفرنسا ، فاستولت فرنسا على لبنان وسوريا، واستولت انجلترا على الأردن والعراق وفلسطين ثم سلمت فلسطين لقمة سائغة لليهود، وعلى ذلك فإنه من الخطأ عقد مثل تلك المعاهدات بين المسلمين والكفار، لأنه مهما توفر عنصر القوة الى الجانب الاسلامي، لا يمكن أن يفطن الى جانب المكر والخديعة والفكرة المسيطرة لدى الكفار بالقضاء على الاسلام والتي تتستر تحت ظل المحبة والاخاء والمساواة والحب في الانسانية الى آخر ما هنالك من الشعارات الزائفة فاذا كان لا بد من عقد المعاهدات فلتكن لعز الاسلام ورفع رايته عالية دائماً فوق كل الرؤوس.

---

١) عبدالعزيز محمد عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، ص٣٠٦.

هذا ولقد حاول الفرنسيون التأكيد في امتيازاتهم على حسن معاملة الكاثوليك والتيسير لرجال الدين منهم لتأدية وظائفهم، وسريان هذه الامتيازات على الأخص على كنائس الكاثوليك في مالطة واسكندرية وصيدا وأزمير. وفي معاهدة كارلوفتز التي عقدت في ٤ شعبان ١١١١هـ/٢٦ يناير (كانون الثاني) عام ١٦٩٩م ، نصت احدى موادها على تأكيد الامتيازات التي نالها الكاثوليك من قبل(١)، وفي المعاهدة التي تمت مع النمسا في بساروفتز Passarovitz في ٢٢ شعبان عام ١١٣٠هـ/٢١يوليو (تموز) عام ١٧١٨م، نص فيها على أن كل الضمانات والمراسيم الخاصة بالكاثوليك تؤكد من جديد، ولقد أضيف الى المعاهدة نص بضرورة العناية بكنائسهم في الدولة العثمانية. وتكرر ذلك أيضاً في معاهدة بلغراد التي عقدت في ١٣ جمادى الآخرة عام ١١٥٢هـ/١٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٧٣٩م، التي ضمنت لهم الحق في بناء كنائس جديدة، وإصلاح الكنائس القديمة ، وفي ٨ ربيع الأول عام ١١٥٣هـ/٢٨مايو (آيار) عام ١٧٤٠م، حصلت فرنسا من السلطان العثماني على تأكيد للامتيازات السابقة.

ولقد تمتع الفرنسيون ورعاياهم في أنحاء الدولة العثمانية بمميزات كبيرة تخول لهم حتى حق صنع النبيذ - الذي نزل تحريمه في القرآن الكريم - وقراءة الانجيل ، والحرية التامة فيما يختص بالدين ، والأماكن المقدسة في القدس أو غيرها من الأماكن التي توجد فيها كنائس كاثوليكية في الدولة العثمانية (٢).

وفي المعاهدة التي عقدت في عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م والتي وقعها السلطان العثماني محمود الأول مع نظيره الفرنسي لويس الخامس عشر، نص بفتح الأماكن المقدسة في فلسطين لجميع النصارى تحت حماية العلم الفرنسي.. وقد اتخذ الفرنسيون بعدئذ من تلك الامتيازات أساساً لادعائهم بحق حماية الكاثوليك في بلاد الشام (٣).

ولم تكن فرنسا وحدها في هذا الميدان ولكن تبعتها معظم الدول الأجنبية بعقد المعاهدات مع الدولة العثمانية لتنال امتيازات واسعة في شتى أرجاء الدولة، مما يدل دلالة واضحة على مدى قوة الدولة العثمانية في

---

١) كامل جميل العسلي : القدس تحت حكم العثمانيين، ص ٥٦.
٢) محمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني،ص٢٨-٢٩.
٣) حسن صبحي: محاضرات في تاريخ العالم العربي ... ، ص٥٦.

ذلك الوقت فعقدت معاهدتا زشتوي Sistowa وياش Jassy بين النمسا والدولة العثمانية [١]في ٢٢ ذي الحجة من عام ١٢٠٥هـ/٤ أغسطس (آب) من عام ١٧٩١م بمدينة (سستووا) التي تسمى في كتب العثمانيين (زشتوى) ولم تترك الدولة العثمانية بمقتضى هذه المعاهدة إلا ما لا يذكر من بلادها[٢]وردت اليها النمسا بلاد الصرب، ومدينة بلغراد وجميع فتوحاتها تقريباً. وتتكون هذه المعاهدة من أربعة عشر بنداً، نشير فيما يلي الى أهم ما جاء فيها، من وجهة نظر هذه الدراسة ، وهو البندين الحادي عشر والثاني عشر من الاتفاقية، واللذان يوضحان مدى استغلال النمسا للدولة العثمانية، وسبل تدخلها في شؤون الدولة عن طريق أمثال تلك الامتيازات.

البند الحادي عشر : «يصير التنبيه على الولاة المذكورين والتأكيد عليهم بحماية رعايا الطرف الآخر الذين تضطرهم تجارتهم أو أشغالهم الى اجتياز الحدود أو السفر في داخل الولايات وأن يساعدوهم على السفر في الأنهر ذهاباً أو إياباً بكامل الحرية مراعين أو ملزمين غيرهم بمراعاة واجبات الوفادة والضيافة وجميع بنود المعاهدات والاتفاقات وغيرها المؤيدة في البندين الثاني والثالث من هذه المعاهدة بدون أن يطلبوا أو يسمحوا لأي أحد أن يطلب منهم أي مكوس أو ضرائب أخرى على أشخاصهم أو بضائعهم غير المحددة في المعاهدات الأخرى المذكورة».

البند الثاني عشر : «أما بخصوص إجراء أصول الدين الكاثوليكي النصراني في الدولة العثمانية وحرية القسوسة والتمكين به وحفظ وإصلاح كنائسه وحرية التعبد والمتعبدين والتردد على الأماكن المقدسة في القدس وغيرها، وحماية هذه الأماكن وزيارتها ، فان الباب العالي السلطاني يجدد ويؤيد تبعاً لقاعدة إرجاع كل أمر الى ما كان عليه، جميع الامتيازات الممنوحه للدين الكاثوليكي بمقتضى البند التاسع من المعاهدة السابقة وبمقتضى جميع الفرمانات والأوامر الأخرى الصادرة من بادىء الأمر».

البند الثالث عشر : «يرسل كل من الطرفين الى الطرف الآخر سفراء من الدرجة الثالثة بمناسبة هذا الصلح ، وعند تبليغ تولي جلالة ملوك الدولتين على كرسي أجدادهم ، ويصير مقابلة هؤلاء السفراء على حسب المراسم المتبعة بالأبهة والاعتبار والمعاملة التي كانت حاصلة قبل الحرب ، ويكون لهم حق التمتع بما يخوله لهم قانون الملل ، وبالامتيازات المرتبة

---

١) محمد عبد اللطيف البحراوي: المرجع السابق، ص٦٦.
٢) كامل جميل العسلي: القدس تحت حكم العثمانيين، ص٥٦.

بوظيفتهم بمقتضى المعاهدات السابقة، ويكون الحال كذلك للسفراء المعينين الآن لدى الباب العالي العثماني ومن يخلفهم ، مع مراعاة اختلاف درجاتهم ورتبهم وبالنسبة لجميع الموظفين المعينين معهم وتابعيهم وخدامهم ومساكنهم ، وبما أن كثيراً من السعاة المكلفين بحمل الرسائل والمكاتبات من وإلى الحكومة الامبراطورية الملوكية صار التعدي عليهم وسلب ما معهم من قبيل الحرب. فالباب العالي العثماني لا يترك أي طريقة للتعويض عليهم ، كما أنه سيتخذ الاحتياطات القوية الضامنة لذهاب هؤلاء السعاة وايابهم تحت حمايته بكل طمأنينة» (١).

ومن الدول التي عقدت بعض المعاهدات مع الدولة العثمانية، روسيا، التي تعتبر نفسها حامية للنصارى الأرثوذكس كما تعتبر فرنسا حامية للكاثوليك وبريطانيا حامية للبروتستانت. وكانت روسيا قد عقدت معاهدة سميت بمعاهدة «بساروفتز Passarovitz» مع الدولة العثمانية في ٢٢ شعبان عام ١١٣٠هـ/٢١ يوليو (تموز) من عام ١٧١٨م، والتي طلبت روسيا خلالها من الدولة العثمانية بأن تتيح لتجارها المرور من أراضي الدولة، وبيع سلعهم فيها وأن تسمح للزوار الأرثوذكس بالتوجه لبيت المقدس وغيرها من الأماكن والأديرة المقدسة عندهم، بدون دفع رسوم أو ضرائب مدة إقامتهم على جوازات المرور، ولقد وافقت الدولة العثمانية على هذا الشرط غير مدركة لما يترتب على حرية دخول التجار دون التدقيق في هويتهم(٢) ، حيث كان دخول المنصرين وكل الفئات تحت هذا البند ليمارسوا التنصير على المسلمين في شتى أنحاء البلاد بحجة كونهم تجاراً. ومما يلفت النظر أن كل الدول الأجنبية التي عقدت معاهدات مع الدولة العثمانية كانت تصر على المميزات الدينية والتجارية وحماية الأماكن المقدسة في فلسطين، والأديرة والكنائس، مما يظهر مدى التنافس فيما بينها، والعمل على نشر النصرانية أوالسيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية والسياسية مستترة تحت ظل الامتيازات الممنوحة لها.

ومما يثبت هذا الكلام المعاهدة التي وقعتها روسيا أيضاً مع الدولة العثمانية والتي سميت بمعاهدة كوتشك كينارجه Kuchuk kainardji التي عقدت في عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م بين السلطان عبدالحميد الأول والقيصرة كاترين، ولقد أعطت معاهدة كوتشك كينارجة الأرثوذكس حقوقاً لهم في الأماكن المقدسة في فلسطين ، مثل الحقوق الممنوحة لهم في معاهدة

---

١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٧٤-١٧٨.
٢) محمد فريد : المرجع السابق، ص١٤٥.

بساروفتز عام ١١٣٠هـ/عام ١٧١٨م ، واعترف فيها السلطان عبد الحميد الأول لروسيا بامتيازات دينية لا يستهان بها(١).

فقد جاء في المادة السابعة من معاهدة كوتشك كينارجة : «وعد الباب العالي بحماية دائمة للديانة المسيحية (النصرانية) وكنائس هذه الديانة ، وأذن لوزير البلاط الامبراطوري الروسي بأن يعمل في كل فرص التمثيل لدى الباب العالي لصالح الكنيسة المشيدة في القسطنطينية وكذلك الكنائس المذكورة في المادة (١٤)».

وجاء في المادة الثامنة عشر: «أن كل رعايا روسيا لهم حق زيارة مدينة القدس والأماكن الأخرى التي لها نفس الصبغة بكل حرية، ونصت هذه المعاهدة أيضاً على السماح بإصلاح الكنائس الأرثوذكسية القديمة، ووعد الباب العالي باستخدام كل إنسانية وكرم ممكن في فرض الجزية الثابتة من الفضة..وبعد تحصيل الجزية المفروضة لا يكون للباشا أو للحاكم أو لأي شخصية أخرى التعرض لهم بأي طريقة. وبمقتضى هذه المعاهدة صار للروس حق إرسال بعثات للكنيسة الروسية اليونانية في كل الظروف، وفي عام ١١٩٣هـ/عام ١٧٧٩م عقد بين الدولتين اتفاق تفسيري لمعاهدة كوتشك كينارجه، شرح وأكد كل هذه الامتيازات، في عبارات كان أخطرها تلك التي أنابت روسيا عن الكنيسة اليونانية في الدولة العثمانية (٢).ومن أهم المكاسب الروسية التي حصلت عليها نتيجة هذه المعاهدة :

١) تتعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية في أراضيها ومنح الرخصة للروس بالتدخل.
٢) حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة دون دفع الجزية، ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك (٣).
٣) حرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحر الأبيض المتوسط والأسود مضمونة، وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة. وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير اليها والاقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل في

---

١) عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في العلاقات الدولية ، ص ٦٦. ومحمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٥.
٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٩.
٣) على حسون : العثمانيون والروس، (الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الاسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٨٣.

كافة المواقع التي تراها مناسبة.

والى جانب ما أقرته معاهدة كوتشك كينارجة من السماح للرعايا الروس بممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة العثمانية في البر والبحر وفي نهر الدانوب، وأن يطبق السلطان العثماني على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations والذي سبق أن منحه السلطان العثماني لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل فرنسا وبريطانيا، فقد فاقت هذه المعاهدة جميع المعاهدات السابقة التي عقدت بين الدولتين، وفرضت على الدولة العثمانية شروط مهينة وأوجدت مشكلات استعصى حلها في العلاقات بين الدولتين وفرضت نفسها فرضاً في مجال السياسة الدولية حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين الميلادي (١).

فمثلا من المعروف أن النزاع حول الأماكن المقدسة في فلسطين أمر قديم جداً، حتى أن النزاع بين فرنسا وروسيا على أمور تتعلق بالأراضي المقدسة في فلسطين ، كان من بين أسباب حرب القرم. وكان السلاطين العثمانيون قد أقروا في الامتيازات التي منحوها لملوك فرنسا في شعبان عام ٩٤٢هـ/فبراير عام ١٥٣٦م، حق فرنسا في انشاء الكنائس والأديرة (٢).

بينما اعتبرت فرنسا نفسها أن لها حق تقليدي يرجع الى زمن الصليبيين في حماية النصارى في الشرق، ولكن القياصرة بدأوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا ، بدعواهم الخاصة في هذا الصدد(٣)، فقد عزز الشعور الديني الخصومات القومية والمطامع السياسية، وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة في مغارة المولد المقدس أشد العواطف نجاحاً بين النصارى (٤).

وعندما تأزمت العلاقات بين الرهبان الكاثوليك والأرثوذكس في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م بسبب اختفاء النجمة الفضية التي تحمل عبارات لاتينية من

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ١، ص١٩٧-١٩٨.

٢) عمر عبدالعزيز عمر: محاضرات في العلاقات الدولية (أوروبا: ١٨١٥-١٩١٩)، ص٦٦.

٣) على حسون: العثمانيون والروس، ص٨٣-٨٤.

٤) أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمي، (القاهرة، دار الحمامي للطباعة)، حـ١، ص٤٢٢.

هيكل يرعاه الأرثوذكس في المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام. عندها اتهم الكاثوليك الأرثوذكس بأنهم أتلفوها ليمحوا آخر أثر يثبت أن الهيكل كان سابقاً في أيديهم، بينما اتهم الأرثوذكس، الكاثوليك بأنهم سرقوها ليثيروا خلافاً بين الطائفتين ويعملوا على استعادة نفوذهم في الهيكل. لذلك قدمت الحكومة الفرنسية مذكرة الى الباب العالي تطالب للرهبان الكاثوليك بحق امتلاك الأماكن المقدسة النصرانية في القدس ، وحق حماية جميع القساوسة الكاثوليك بالدولة العثمانية ، عملا بمعاهدة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م بين السلطان محمود الأول ولويس الخامس عشر(١). ولقد تحصل الكاثوليك مثلا على امتياز امتلاك الكنائس الكاثوليكية في القدس، وكانت روسيا تسعى من جهة أخرى لتجريد الكاثوليك من هذا الامتياز وإعطائه للآرثوذكس في القدس لما بينها وبينهم من الوحدة المذهبية لتتمكن بواسطتهم من بث سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العلية والمتمسكين بهذا المذهب والذين يعتبرون بمثابة آلة صماء لها تحركها كيف تشاء لترويج مقاصدها(٢)، وبعد ذلك قامت لجنة خاصة لتجديد الامتيازات الفرنسية الممنوحة لها من قبل الدولة العثمانية في معاهدة عام ١١٥٣هـ/عام ١٧٤٠م وكذلك الامتيازات الممنوحة لروسيا والمقررة في معاهدة كوتشك كينارجة Kuchuk kainardji التي عقدت في عام ١١٨٨هـ/عام ١٧٧٤م وبعد مدة تشكلت لجنة أخرى ، وقد توقف عملها بسبب التغييرات السياسية في فرنسا وتنصيب لويس بونابرت امبراطوراً على الفرنسيين باسم نابليون الثالث، والذي أراد أن يثبت وجوده في الداخل والخارج، وقرر أن يستغل قضية الخلاف على الأماكن المقدسة في فلسطين، ليعلي شأنه ويثبت وجوده ويكسب عطف الأوساط الكاثوليكية المعارضة(٣).

ولذلك أصدرت اللجنة العثمانية قراراً في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م ترضي فيه الى حد كبير مطالب القيصر والأرثوذكس، وكذلك يمنح الكاثوليك حقاً في إضاءة شمعة في هيكل السيدة العذراء. وكان هذا الهيكل في يد الأرثوذكس، ولم يكن للكاثوليك في القدس أي حق فيه، وكذلك يمنح القرار بأن يكون في يد الأرثوذكس مفتاح لأحد أبواب كنيسة بيت لحم.

---

١) عمرعبد العزيز عمر : محاضرات في العلاقات الدولية ، ص ٦٦، ومحمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٦١.
٢) محمد فريد : المرجع السابق، ص٢٦١.
٣) عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص ٦٨.

واحتجت فرنسا، بينما قبلت روسيا القرار وطلبت إصدار فرمان سلطاني به، فصدر في جماد أول عام ١٢٦٩هـ/ الأول من فبراير (شباط) عام ١٨٥٢م. فقام لافالت Lavalette السفير الفرنسي في اسطنبول بتجديد احتجاجه بينما كان يحاول الباب العالي إرضاء الفريقين معاً، فأرسل مذكرة الى لافالت يؤكد فيها تمسك الدولة العثمانية بمعاهدة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م وحرصها على احترام حقوق الرهبان الكاثوليك في الأماكن المقدسة. ولكن القيصر الروسي طالب بإلغاء اعتراف الباب العالي باستمرار معاهدة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، بين فرنسا والدولة العثمانية ، فرد الباب العالي على طلبه قائلا إن الاعتراف أو عدمه من الشئون العثمانية التي لا كلمة فيها لدولة أجنبية، وأنه يعجب أشد العجب لتدخل القيصر الروسي فيما يتعلق بسيادة السلطان وحريته المطلقة في حكم رعاياه. فأغضب هذا الرد القيصر وقرر أمام موقف فرنسا القوي فيما تختص بحقوقها في الأراضي المقدسة، القيام بمناورات حربية على الحدود العثمانية، وإرسال بعثة منسكوف Menehikov لاسطنبول لانتزاع معاهدة جديدة من الدولة العثمانية (١).

وبسبب هذا التنافس الشديد بين الكاثوليك والأرثوذكس على الأماكن المقدسة، عملت الحكومة العثمانية على حفظ التوازن بين الدعاوي المتضاربة للاتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والأرثوذكس أو النصارى اليونانيين والروس من ناحية أخرى(٢) مما يدل على الحكمة التي كانت تنتهجها السياسة الداخلية العثمانية. وتعتبر معاهدة كوتشك كينارجة نقطة تحول في العلاقات الروسية التركية، وكان لها نتائج دينية وسياسية واسعة النطاق ذات أثر وخيم على الدولة العثمانية(٣).

وكذلك قامت الدولة العثمانية بإبرام معاهدة أدرنة Adrianople مع روسيا بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ١٢٤٥هـ/١٤ سبتمبر (أيلول) عام ١٨٢٩م، وذلك بعد انتهاء الحرب بينهما ، والتي نشبت بسبب الثورة التي قام بها الشعب اليوناني ، في ٢٠ شوال عام ١٢٤٤هـ/٢٦ أبريل (نيسان) عام ١٨٢٨م طلباً للاستقلال ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التجارية من أي حجم الحق في المرور عبر المضايق وفي الملاحة في البحر الأسود. وحق التمتع بحرية التجارة فيه، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التي تكون في حالة سلم مع الدولة العثمانية ، ونصت المعاهدة أيضاً على

---

١) عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في العلاقات الدولية، ص٦٩.
٢) أ. ج. جرانت: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص٤٢٢.
٣) حسن صبحي: محاضرات في تاريخ العالم العربي ، ص ٥٦.

استقلال ولايتي الأفلاق والبغدان - رومانيا حالياً - في إدارتهما الداخلية وذلك تحت حماية روسيا، مما أدى الى تقلص السيادة العثمانية عن جميع مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود(١).

وتتكون معاهدة أدرنة من ستة عشر بنداً جاء في البند السابع منها: «يتمتع رعايا روسيا في سائر أنحاء المملكة العثمانية براً أو بحراً بحرية التجارة التامة التي تكفلها لهم المعاهدات المبرمة سابقاً بين الدولتين العظيمتين المتعاقدتين، ولايصح مس حرية التجارة بأي وجه كان ولا يمكن أن تعطل في أي حال من الأحوال ولا بأي حجة كانت ولا يضيق نطاقها مطلقاً ولا بسبب أي قرار أو تعديل سواء كان من جهة الادارة أو من جهة القضاء في داخلية البلاد، والرعايا والسفن والتجار الروسيون يكونون في حمى من كل شدة في المعاملة، ويبقى الرعايا الروس تحت السلطة القضائية والبوليس الخاصين لوزير وقناصل الروسية وأما المراكب الروسية فلا يحصل بها مطلقاً أي تفتيش من جهة الحكومة العثمانية لا في شاسع البحار ولا في داخل أي ميناء أو موردة ؟ مما يدخل تحت حكم الباب العالي وكل أنواع المتجر أو الغلال المملوكة لأحد رعايا روسيا يمكن بيعها بكل حرية بعد تسديد عوائد الجمارك عنها بمقتضى التعريفات أو أن تنزل الى البر في مخازن صاحبها أو عميله بل ويصح نقلها على سفن أخرى أيا كانت جنسيتها بدون أن يحتاج التابع الروسي في هذه الحالة لأن يشعر الحكومة المحلية ولا أن يطلب إذناً بذلك مطلقاً وقد اتفق اتفاقاً صريحاً على أن أنواع القمح الآتية من روسيا(٢). تتمتع بنفس هذه الامتيازات وأن نقلها من أراضي الدولة لأي جهة لا يحصل فيه أقل صعوبة أو ممانعة مطلقاً ولا بأي حجة وما عدا ذلك فيتعهد الباب العالي بأن يتيقظ بكل اعتناء الى عدم حصول أي تعطيل مهما كانت طبيعته للتجارة والملاحة».

«وأخيراً بما أن الباب العالي يعترف بما لحكومة الروسيا الامبراطورية من الحق في أن تتأكد من العثمانية التامة لهذه الحرية ومن الملاحة في البحر الأسود بتلك الكيفية فهو يعلن على رؤوس الأشهاد بأنه لا يحصل في ذلك مطلقاً من جهته أدنى عائق مهما كان ولا بأي حجة كانت ويتعهد

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ١، ص ٢١٨ - ٢١٩. وسليمان محمد الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، (الطبعة الأولى، جدة، تهامة: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٩٩.

٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٢٤.

خصوصاً بأنه لا يستبيح لذاته من الآن فصاعدا إيقاف أو إلقاء القبض على السفن المشحونة أو المصبرة سواء كانت روسية أو تابعة للممالك التي لا تكون الدولة العثمانية معها في حالة حرب معلن حينما تكون مارة بقنال القسطنطينية وبوغاز الدردنيل لأجل أن تتوجه من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط أو بالعكس.

وإذا حصل لا سمح الله مخالفة لبعض الاشتراطات التي اشتمل عليها البند الحالي بدون أن تنال طلبات وزير الروسيا بهذا الشأن الترضية التابعة في أسرع وقت فالباب العالي يعترف مقدماً لحكومة الروسيا الامبراطورية بأن لها الحق في أن تعتبر هذا الخلف عمل عدائي وأن لها الحق في أن تقابل الدولة العثمانية بمثله (١).

وبهذا توضح معاهدة أدرنة مدى استغلال روسيا للدولة العثمانية يعبر عن ذلك ماجاء في بندها السابع، والتي تتيح لروسيا التغلغل في شتى أرجاء الدولة العثمانية بحجة حماية تجارها ورعاياها. ولهذا فقد عملت روسيا على توقيع معاهدة أخرى بينها وبين الدولة العثمانية، وتعتبر هذه المعاهدة هجومية دفاعية في نفس الوقت، والتي سميت بمعاهدة خونكار أسكله سي Unkiar Skelessi وذلك في ١٨ محرم من عام ١٢٤٩هـ/٨ يونيه من عام ١٨٣٣م تعهدت بها روسيا بالدفاع عن الدولة لو هاجمها المصريون أو غيرهم ليكون لها بذلك سبيل للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية (٢).

وتتكون معاهدة خونكار أسكله سي Unkiar skelessi من ستة مواد، جاء فيها:

المادة الأولى

«يكون هناك سلام وصداقة وتحالف الى الأبد بين صاحب الجلالة امبراطور كل الروس وصاحب الجلالة امبراطور العثمانيين وامبراطوريتهما ورعاياهما في البر والبحر. والهدف الوحيد لهذا التحالف هو الدفاع المشترك عن الدولتين ضد كل اعتداء، يلتزم صاحبا الجلالة بأن يتفاهما بدون تحفظ على كل المواضيع التي تتعلق باطمئنانهما وسلامتهما. وبأن يقدم كل منهما للآخر لهذا الغرض كل عون مادي وكل

---

١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٢٤-٢٢٥، وسليمان محمد الغنام: قراءة لسياسة محمد على باشا التوسعية، ص١٤٢-١٤٩.
٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٣٥

وسلامتهما. وبأن يقدم كل منهما للآخر لهذا الغرض كل عون مادي وكل مساعدة فعالة.»

المادة الثانية

«إن معاهدة التحالف الدفاعي الحاضرة تؤيد وتكرس حرفاً حرفاً معاهدة السلام المعقودة في أدرنة Adrianople في ٢ ربيع الثاني من عام ١٢٤٥هـ/ ٢ستمبر (أيلول) عام ١٨٢٩م وكذلك جميع المعاهدات التي تمت وقتئذ والميثاق في بطرسبرج Petersbung في ١٠ ذو القعدة عام ١٢٤٥هـ/١٤ أبريل (نيسان) عام ١٨٣٠م وكذلك التوصية التي تمت في اسطنبول في ١٢ و٢٢ ربيع أول عام١٢٤٨هـ/٩و٢١ يوليو (تموز) من عام ١٨٣٢م بشأن اليونان.»

المادة الثالثة

عملا بمبدأ الدفاع المشترك الذي هو أساس معاهدة التحالف الحاضرة وبسبب الرغبة المخلصة في المحافظة على استقلال الباب العالي التام فان صاحب الجلالة ملك كل الروس يتعهد في حالة حدوث ظروف تستدعي لاسمح الله، من الباب العالي طلب المساعدة البرية والبحرية من روسيا، بأن يقدم له براً وبحراً كل الجيوش التي يجدها الفريقان المتعاقدان ضرورية وقد تم الاتفاق على أن تكون هذه الجيوش والوحدات التي يطلب الباب العالي نجدتها تحت تصرفه(١).

المادة الرابعة

وانسجاماً مع ما ذكر أعلاه فان نفقات تموين الجيوش البرية والوحدات البحرية التي يقدمها أحد الفريقين لمساعدة الآخر تكون على عاتق الفريق الذي يطلب المساعدة.

المادة الخامسة

إن على كل من الفريقين المتحالفين أن تستمر هذه المعاهدة الى أطول فترة ولكن ظروفاً جديدة قد تطرأ فتقضي بإدخال بعض التعديلات عليها، فتحسبا لهذه الظروف والتعديلات اتفق الطرفان على جعل مدة هذه المعاهدة ثماني سنوات تبدأ من اليوم الذي يتم فيه توقيع صاحبي الجلالة عليها. وقبل أن تنقضي هذه المدة يتداول الفريقان ويتفاهما على تجديدها وفقاً للظروف والأحوال.

---

١) سليمان بن محمد الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية، ص١٥٠.

المادة السادسة

يتم اقرار هذه المعاهدة من قبل كل من الفريقين العاليين ويجري تبادل وثائقهما في الآستانة وذلك بعد مضي شهرين على توقيعها أو قبل ذلك اذا أمكن.

وهذه الوثيقة المؤلفة من ستة بنود قد تم وضعها فيما بيننا على نسختين ذيلها كل منا بتوقيعه وخاتمه عملا بالصلاحيات المطلقة المعطاة واحتفظ كل من الجانبين بنسخة.

وقد ألحقت المواد السابقة، بمادة سرية مستقلة، جاء فيها:

قضت المادة الأولى من معاهدة التحالف الدفاعي المعقودة بين البلاط الامبراطوري الروسي والباب العالي بأن يقدم كل من الفريقين المتحالفين للآخر المساعدات المادية الأكثر فعالية لتأمين سلامة المملكتين ولكن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية رغبة منه في أن لا يثقل كاهل الباب العثماني بتحميله أعباء هذه المساعدات يكتفي من حليفه بإقفال مضيق الدردنيل، أي بأن لا يسمح لأي سفينة حربية أجنبية أن تدخله لأي سبب من الأسباب.

ويكون لهذه المادة السرية المستقلة ذات القيمة والقوة اللتان لمواد المعاهدة، وهي جزء منها له مثلها صفة الالزام(١). وكان النص الرسمي لهذه المعاهدة قد وضع باللغة الفرنسية وحاول كل فريق بعد ذلك في ترجمته لمواد المعاهدة أن يقرها طبقاً لمصلحته، وتقرر أن تكون مدة التحالف الدفاعي بين الدولتين ثماني سنوات. ولقد تمكنت روسيا من الحصول على وعد رسمي والذي ألحق بمعاهدة خونكار اسكله سي Unkiar Skelessi كمادة سرية، تقرر فيه أن الدولة العثمانية سوف تبقى المضايق مفتوحة دائماً للسفن الحربية والتجارية الروسية بينما تغلق هذه المضايق على رغبة روسيا(٢).

وقد أنشأت هذه المعاهدة لروسيا مركزاً ممتازاً في الدولة العثمانية وعصفت بسياستها العليا، ولقد دخلت وحدات من الأسطول الروسي الى البوسفور في شهر شوال من عام ١٢٤٩هـ/فبراير (شباط) عام ١٨٣٣م ثم قدمت

---

١) سليمان بن محمد الغنام : قراءة جديدة ، ص١٥١-١٥٢.

٢) خليل عبدالحميد عبدالعال : محاضرات في العلاقات الدولية الحديثة، (جامعة الأسكندرية، كلية الآداب: ١٩٧٩-١٩٨٠)، ص٤٨-٤٩، وعبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية ...، حـ١، ص ٢١٩-٢٢٠.

حملة روسية بحرية وبرية الى البوسفور وأذنت حكومة السلطان للقوات البرية أن تعسكر على الساحل الآسيوي بحجة حماية السلطان من واليه الثائر محمد على باشا. وسيطرت روسيا عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م للمرة الأولى والأخيرة على اسطنبول والمضايق العثمانية، واستبدل خطر محمد علي ووجوده في المنطقة، بوجود الخطر الروسي الذي ظل قابعاً في منطقة المضايق عاصفاً بالسياسة العليا للدولة العثمانية.

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا الى معاهدة خونكار اسلكه سي على أنها أداة تجعل من الدولة العثمانية دولة تسير في ركاب روسيا، ولذلك قامت الدولتان في ٨ ربيع ثاني من عام ١٢٤٩هـ/٢٦ أغسطس (آب) عام ١٨٣٣م بتقديم احتجاج رسمي لدى الباب العالي على عقد مثل هذه المعاهدة والتي تحرم الدولتين من المرور عبر المضايق العثمانية(١). وقد قدم الاحتجاج وزير خارجية انجلترا بالمرستون Palmerston بنفسه ، ووقف بالمرصاد أمام محمد على وأوضح له موقف انجلترا، وأنها ستقف ضده اذا قامت حرب بينه وبين السلطان، وذلك حرصاً على مصالح انجلترا في الشرق، مما يؤكد أن الدولتين اعتقدتا أن روسيا بسطت حمايتها على الدولة العثمانية ، وزاد الحقد من قبل انجلترا وفرنسا على روسيا ، وزاد الشك في سياستها، وبينما عملت روسيا في هذا الوقت على مجاملة انجلترا ضد سياسة محمد علي ووقفه عند حده. ولكن فرنسا قامت بتأييد سياسة محمد علي. وظل بالمرستون Palmerston وزير خارجية انجلترا يعمل جاهداً، حتى حقق اتفاقاً بين الدول الكبرى وذلك في جماد ثاني من عام ١٢٥٧هـ/١٣ يوليو (تموز) عام ١٨٤١م ينص على تعهد هذه الدول والسلطان بعدم السماح لأية سفن حربية تابعة لدول أجنبية من دخول مضيقي البوسفور والدردنيل، وبذلك قضت انجلترا على معاهدة خونكار اسكله سي Unkiar Skelessi (٢) والتي جعلت النفوذ الروسي يبلغ أوجه في السلطنة العثمانية(٣). وبهذا ضمنت روسيا الابتعاد عن الورطة التي وقعت فيها كل من فرنسا وبريطانيا وتمتعت بوضع مريح يمكنها من الاستفادة من امتيازات تحصل عليها في سورية لدعم مصالح سياستها في روملي. وهكذا أصبح العملاء الروس في سوريا أصدقاء

---

١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية... ، جـ١ ، ص ٢٢٠.
٢) عمر عبد العزيز عمر : محاضرات في العلاقات الدولية ، ص٦٤-٦٥.
٣) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، (الطبعة الرابعة ، بيروت دار النهار للنشر: ١٩٧٨م)، ص٦٥.

للسلطات العثمانية المحافظة. ومن جهة أخرى وافق الروس على محاولات تلك السلطات في اقتلاع آثار النظام الاقطاعي الذي أبقى البلاد في حالة فوضى ، وكان البريطانيون متورطين في الدفاع عنها (١).

أما بريطانيا فقد تمتعت هي الأخرى بامتيازات عدة مع الدولة العثمانية، منها معاهدة بلطة ليمان Balta liman والتي عقدت في أول جمادى الثانية عام ١٢٥٤هـ/١٦ أغسطس (آب) عام ١٨٣٨م(٢) وتحتوي هذه المعاهدة على سبعة مواد.

«المادة الأولى»: ينص على سريان كل الاتفاقات السابقة عدا ما يتناوله تغيير هذه المعاهدة(٣) وتعتبر كل الحقوق والمميزات والاعفاءات الممنوحه لرعايا وسفن بريطانيا العظمى بموجب الامتيازات والمعاهدات القائمة سارية المفعول والى الأبد، باستثناء ما يجري تعديله في هذه الاتفاقية، وفي نفس الوقت فان أي حقوق أو مميزات أو أعفاءات يمنحها الباب العالي الآن أو في المستقبل لسفن ورعايا أية دولة أجنبية فانه يتم منح مثل ذلك لسفن ورعايا بريطانيا العظمى(٤).

«المادة الثالثة»: إذا اشترى التاجر البريطاني أو وكيله أي بضاعة عثمانية بغرض بيعها في الداخل، فانه يدفع عند الشراء وعند البيع نفس الضريبة التي يدفعها في الأحوال المماثلة أكثر طبقات المجتمع العثماني أفضلية سواء كان مسلماً أو غيره.

«المادة الرابعة»: تدفع رسوم قدرها ٩٪ على البضائع مرة واحدة بدلا من الرسوم الداخلية المتعددة فاذا صدرت يدفع عليها ٣٪ رسوم تصدير(٥).

«المادة السادسة»: سريان الاتفاقية في كل أملاك الدولة في أوروبا وآسيا وافريقيا ومنها مصر ، وفي نوفمبر من نفس السنة عقدت مع فرنسا معاهدة مماثلة، وكانت قد أبرمت مثل هذه الشروط مع توسكانا في شعبان عام ١٢٤٣هـ/فبراير (شباط) عام ١٨٢٧م وبلجيكا في ٢٣ جمادى الأولى عام

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي، جـ١، ص٤٠٩.
٢) يوسف الثقفي : دراسات متميزة في العلاقات ... ، ص١٣١.
٣) محمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني...، ص٢٢٣.
٤) سليمان الغنام، قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا، ص١٥٣.
٥) يوسف الثقفي :المرجع السابق ، ص ١٤٠، وسليمان الغنام: المرجع السابق، ص١٥٢-١٥٣.

١٢٤٣هـ/فبراير (شباط) عام ١٨٢٧م وبلجيكا في ٢٣ جمادى الأولى عام ١٢٥٥هـ/٣ أغسطس (آب) عام ١٨٣٩م ويسجل هوشلن Heuchling أن إنجلترا كان لها المقام الأول في التجارة منذ عام ١٢٤٧هـ/عام ١٨٣١م اذ بلغت صادراتها للدولة العثمانية ٣٥٠ر٢١٦ر٢٢ فرنكاً فرنسياً(١).

المادة السابعة: كما هو متبع بين بريطانيا العظمى والباب العالي، يهدف الى تذليل الصعوبات وعدم التأخير في تقدير قيمة البضائع الواردة أو المصدرة من الدولة العثمانية بواسطة الرعايا البريطانيين ويتم تعيين لجنة من أشخاص ذوي خبرة بالأحوال بين البلدين لمدة ١٤عاماً لتحديد مبلغ العقود الواجبة الدفع حسب التعرفة المقررة. وتقرر تشكيل لجنة جديدة بدلا من التي انتهت مدة عملها والتي بلغت أربعة عشر عاماً وذلك لتكليف اللجنة الجديدة لتحديد مبلغ النقود المتفق عليها من قبل الرعايا البريطانيين على أساس الـ ٣٪ على جميع الواردات والصادرات، كما تقوم هذه اللجنة بوضع المعايير والترتيبات التي يتم بموجبها تقدير قيمة الضرائب الداخلية على البضائع العثمانية التي يتم تصديرها وفقاً لما جاء في هذه الاتفاقية، كما حددت اللجنة الموانيء التي يتم فيها جمع الضرائب، ومدة هذه التعرفة تظل نافذة المفعول لمدة سبع سنوات من تاريخ تحديدها، وهي معرضة للتعديل من قبل أحد الطرفين المتعاقدين، واذا لم يحصل أي تعديل للمعاهدة في خلال ستة شهور بعد انتهائها، تتجدد تلقائياً لمدة سبع سنوات أخرى، وهكذا في نهاية كل سبع سنوات أخرى»(٢).

ولقد انتهزت الدول الأجنبية الفرصة الذهبية المتاحة لها وذلك عبر ما جاء في نص المادة السادسة من معاهدة بلطة ليمان والذي يقرر: «بموافقة الحكومة العثمانية على حل جميع القضايا التجارية مع الدول الأجنبية على نفس الأسس الواردة في هذه الاتفاقية» ، فقامت بإبرام معاهدات مماثلة مع الدولة العثمانية انتهازاً لفرصة قد لا تعوض وتحقيقاً لمصالحها الاقتصادية في دول الشرق الأوسط. فقامت بلجيكا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية على غرار المعاهدة العثمانية البريطانية التي عقدت في عام ١٢٥٤هـ/عام ١٨٣٨م كما عقدت معاهدات مماثلة مع دول أوروبية أخرى(٣).

---

١) محمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٢٣.
٢) سليمان الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا، ص١٥٣، ويوسف الثقفي: دراسات متميزة في العلاقات.. ، ص١٤٢.
٣) يوسف الثقفي : دراسات متميزة في العلاقات.. ، ص ١٤٣.

ومن المعروف أن البريطانيين طالبوا الدولة العثمانية بعقد هذه المعاهدة، لينالوا امتيازات خاصة بهم في مصر، وذلك بسبب الاحتكارات ورفع الأسعار الجمركية التي وضعها محمد علي على تجارة الصادرات والواردات. وكان محمد علي يعمل بحذر شديد مع فرنسا وبريطانيا مع سعيه للحصول على استقلاله.

وبمقتضى شروط هذه المعاهدة، تمتع البريطانيون بالمساواة مع رعايا الدولة العثمانية في جميع أملاكها بما فيها مصر. وتعتبر معاهدة بلطا ليمان التي عقدت في عام ١٢٥٤هـ/عام١٨٣٨م نقطة انطلاق خطيرة، في تسابق الدول الأوروبية لمطامعهم الاقتصادية يتبعها نواياهم في السيطرة والاستغلال، وتدل المعاهدة على مدى براعة البريطانيين في لعبتهم مع الباب العالي ، والذين تعودوا انتهاز الفرص وذلك لتحقيق مطامعهم الاقتصادية ، والعمل لمصلحتهم الشخصية فقط.

ولأن دوافع وأهداف الدول الأوروبية غير بعيدة عن بعضها البعض فقد قامت هذه الدول بعقد معاهدة مشتركة مع الدولة العثمانية وذلك في ١٤ جماد الأول عام ١٢٥٦هـ/١٥ يوليه (تموز) عام ١٨٤٠(١)، اشتركت فيها كل من بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا سميت بمعاهدة لندن، وذلك لتسوية المسألة المصرية وانهاء النزاع بين السلطان العثماني ومحمد علي. ولقد انضمت فرنسا الى هذه المعاهدة في ٢٠محرم من عام ١٢٥٧هـ/١٥ مارس (آذار) عام ١٨٤١م، فأصبحت بذلك معاهدة جماعية سداسية.

جاء في معاهدة لندن السالفة الذكر، ان التعاون المشترك بين الدول الموقعة عليها والهادف الى وضع المضايق واسطنبول في مأمن من عدوان محمد علي، بعد اجراء عسكري استثنائي، اتخذ في هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان للدفاع عنه. وقامت كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا في ١٩ رجب عام ١٢٥٦هـ/١٧ سبتمبر (أيلول) عام ١٨٤٠م بعقد بروتوكول أطلق عليه بروتوكول انتفاء الغرض Self denging protocol ألحق

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية ، حـ١، ص٢٢١، وسليمان محمد الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، ص١٥٣-١٥٩.

قد انضمت بعد الى المعاهدة، الا يسعى أي منها للحصول على أراضي أو الاستئثار بنفوذ أو الظفر بامتيازات تجارية لرعاياها لم تحصل عليها كل دولة أخرى على قدم المساواة (١).

ولقد حاولت النمسا بتهدئة الجو، فقام الكونت بول Buol رئيس وزرائها بجمع سفراء الدول الموقعين على المعاهدة، وذلك لتسوية الخلافات، بين روسيا والدولة العثمانية، وتم الاتفاق على وضع مذكرة مبهمة الصيغة وأرسلوها الى روسيا والدولة العثمانية ليوقع عليها الطرفان. واشتملت على فقرتين اعتقد المجتمعون أن فيهما حلا للخلاف وهما:

١) أن أباطرة روسيا قد أضفوا في كل العهود والأزمات عطفهم على الكنيسة الأرثوذكسية وكانوا حريصين على استمرار ما لأتباعها من امتيازات ومعاهدات في الدولة العثمانية، كما أن السلاطين لم يمتنعوا عن تثبيت هذه الحصانات والامتيازات في وثائق رسمية تدل على استمساكهم بسياسة الحنو والعطف على رعاياهم النصارى.

٢) أن حكومة جلالة السلطان ستبقى أمينة على روح ونص المواد الواردة في معاهدة كوتشك كينارجة ومعاهدة أدرنة عن حماية الدين النصراني، وعلاوة على هذا، فانها تتعهد بالسماح للمذهب الأرثوذكسي، ضمن نطاق العدالة، بأن يفيد من الامتيازات المعطاة للمذاهب النصرانية الأخرى في معاهدات أو في فرمانات خاصة(٢).

بينما اختلفت وجهات النظر بين كل من فرنسا وبريطانيا، حيث رأت فرنسا ، إبقاء حكم محمد علي على بلاد الشام ، ولكن بريطانيا كانت ترى تجريده منها، إلا أنها وافقت بعد ذلك على إعطاء محمد علي النصف الجنوبي من بلاد الشام بدون مدينة عكا مدى حياته ، ولكن فرنسا رفضت اقتراح بريطانيا بحجة أن ذلك يفتح باب الحرب أمام محمد علي، ويتيح الفرصة لتدخل روسيا، وتكون الحرب العامة نتيجة ذلك. أما روسيا فقد رأت اغتنام فرصة اختلاف وجهات النظر بين بريطانيا وفرنسا وذلك لتعزيز نفوذها في الشرق والمحافظة على حق حمايتها للدولة العثمانية، لذلك قامت روسيا بارسال البارون دي برونو الى لندن بصفة سفير فوق العادة، فوصلها في ١٨

---

١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية ، حـ١، ص٢٢٢.
٢) عمر عبدالعزيز عمر: محاضرات في العلاقات الدولية ، ص٧٤-٧٥.

رجب عام ١٢٥٥هـ/٢٨سبتمبر (أيلول عام ١٨٣٩م، وأعلن للحكومة البريطانية نيابة عن قيصر روسيا بأن حكومته تترك لبريطانيا حق العمل بمصر وتساعد في اذلال محمد علي باشا بشرط أن توافق على انزال جيش روسي قرب اسطنبول في مدينة سينوب على شاطئ البحر الأسود، لكن بالمرستون لم يقبل الحل الروسي بحجة استقباح الرأي العام له، بل طلب من روسيا أن تتنازل عن كل ما خولتها إياه معاهدة خونكار إسكله سي(١)، فرفضت روسيا ذلك وأرسلت للمرة الثانية «برونو» الى لندن في جمادى الأولى عام ١٢٥٦هـ/يوليو (تموز) عام ١٨٤٠م حاملا معه اقتراحات جديدة وهي أن ترسل كل من انجلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية الى بحر مرمرة للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية عاصمة الدولة العثمانية لو هاجمها ابراهيم باشا، ولم تفز روسيا بمرامها هذه المرة أيضاً.

وعلم محمد علي بالمؤامرات الدائرة ضده على الساحة الأوروبية، وأن فرنسا لن تتمكن من مساعدته، بالإضافة الى تعصب معظم دول أوروبا ضده ، لذلك قرر الرد بالقوة بحيث لا يسلم شبراً من الأرض التي احتلها الا مضطراً. ولكن النمسا طلبت من دول أوربا في أوائل عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م عقد اجتماع في فينا لتسوية المسألة المصرية، واستجابت انجلترا لطلبها، وتقرر بعد ذلك عقد مؤتمر في لندن، ومن الواضح أن الدول الأوروبية عندما أرادت الوقوف في وجه محمد علي ومنعه من التقدم الى اسطنبول ، لم يكن حرصاً منها على الدولة العثمانية، ولكن خوفاً من أن يخلف الدولة العثمانية الإسلامية ، دولة إسلامية قوية على يد محمد علي ، تقف في وجه المطامع الأوروبية في المنطقة العربية. فوافقت هذه الدول على معاهدة لندن ، وأجبرت محمد علي على التخلي عن الأراضي التي كان قد ضمها اليه، وأملت عليه شروط معاهدة لندن فضاعت بذلك أكثر جهوده(٢).

ومما جاء في معاهدة لندن:

١) يلزم محمد علي باشا بإرجاع ما احتله للدولة العثمانية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من بلاد الشام ما عدا مدينة عكا في هذا القسم.

---

١) علي يوسف البلخي : الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠ من خلال الوثائق العثمانية، (مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث) ، ص٢١١-٢١٢.

٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٣٥، ومحمد ضياء الدين الريس : تباشير النهضة في العالم الإسلامي، ص ٩٨.

٢) أن يكون لإنجلترا حق الاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ بلاد الشام ومساعدة كل من أراد من الأهالي خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العثمانية، وإشعال نار الثورة ضد الجيوش المصرية كي لا تقوى على مقاومة المراكب الانجليزية والنمساوية.

٣) أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانجلترا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية اسطنبول في حال تعرضها لهجوم أسطول محمد علي.

٤) لا يحق لأي أسطول حربي دخول مياه البوسفور ما دامت اسطنبول غير مهددة.

٥) يجب على الدول الموقعة على معاهدة لندن أن تصدقها خلال مدة لا تزيد على شهرين وأن يكون التصديق في مدينة لندن.

ولقد أبرمت هذه المعاهدة بين الدول الأوروبية المذكورة وبين مندوب الباب العالي حدد فيها السلطان العثماني موقفه من المعاهدة ومن محمد علي (١)، لذلك أبرمت مع السلطان العثماني اتفاقية عرفت بملحق معاهدة لندن، ضم البنود التالية:

١) يمنح السلطان العثماني محمد علي باشا وسلالته من بعده ولاية مصر، ويمنحه ولاية عكا والجزء الجنوبي من بلاد الشام مدى حياته، شرط قبوله هذه المنح خلال مدة عشرة أيام من تبليغها اليه في الاسكندرية على يد رسول من قبل السلطان، ويسلم محمد علي الى رسول السلطان الأوامر اللازمة لقواد قواته براً وبحراً لينسحبوا في الحال من الأناضول وبلاد الشام، ما عدا الجزء الذي منحه له السلطان.

٢) إذا لم يقبل محمد علي هذه التسوية خلال عشر أيام يفقد ولاية عكا وتظل ولاية مصر له ولسلالته بالوراثة، بشرط أن يعلن قبوله هذه المنحة خلال مدة عشر أيام تالية للعشرة الأولى، ويسلم محمد علي التعليمات اللازمة لانسحاب قواته براً وبحراً الى حدود ولاية مصر.

٣) أن يعيد محمد علي الأسطول العثماني الى الدولة العثمانية في مدة عشرين يوماً. ويشهد روبرت ستوفورد قائد أساطيل الحلفاء تسليم

---

١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٤١، وعلي يوسف البلخي: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام... ، ص٢١٢-٢١٣.

عشرين يوماً. ويشهد روبرت ستوفورد قائد أساطيل الحلفاء تسليم أسطول محمد علي.

٤) تعتبر المعاهدات والقوانين النافذة في الدولة العثمانية نافذة في مصر وولاية عكا ويمنح محمد علي حق تحصيل الضرائب والرسوم مقابل دفعه اتاوة للسلطان العثماني.

٥) تعد القوات البرية والبحرية التي ينظمها محمد علي باشا في مصر قسماً من قوات الدولة وتعتبر دائماً معدة لخدمة الدولة العثمانية.

٦) إذا لم يقبل محمد علي في مدى عشرين يوماً بنود الملحق، يكون السلطان حراً باتباع الخطة التي يراها مناسبة، طبقاً للنصائح التي يسديها اليه حلفاؤه(١).

ولكن محمد علي باشا، لم يرد جوابه خلال المدة المقررة، فقررت الدول الأوروبية المتحالفة أخذ مصر والشام بالقوة من محمد علي وتحدى محمد علي الدول الأوروبية الكبرى في ذلك، ووقفت فرنسا بجانبه، بينما قامت انجلترا وحدها بمحاربة محمد علي وساعدتها النمسا والدولة العثمانية ببعض مراكبها وعساكرها البرية.

ولما وجد محمد علي باشا الموقف الخطير الذي يواجهه من انجلترا وحلفائها، وافق على كل الشروط دون امتناع شخصي منه، ثم طلب من الدول أن تساعده في تحقيق بعضها وتغيير البعض الآخر، فقبلت ذلك وأرسلت الى الباب العالي لائحة بتاريخ ١٢ محرم عام ١٢٥٧هـ/١٣ مارس (آذار) عام ١٨٤١م طلبت منه بها أن يعامل محمد علي على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٤ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ/ ١٥يوليو (تموز) ١٨٤٠م وبلائحة ٦ محرم ١٢٥٧هـ/٣٠ يناير (كانون الثاني) ١٨٤١م فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى لائحة أرسلت للدول بتاريخ ٢٥ صفر عام ١٢٥٧هـ/ ١٩ابريل (نيسان) عام ١٨٤١م بتحرير فرمانها الصادر في ١٣ ذي الحجة عام ١٢٥٦هـ/ ١٣ فبراير عام ١٨٤١م وأعطت بموجبها محمد علي الامتيازات على أن ينقاد الى جميع الوثائق

---

١) علي يوسف البلخي: الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام... ، ص٢١٣-٢١٤.، ومحمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٤٢-٢٤٣.

المتحالفة. وقد تنازل الباب العالي عن ربع إيرادات مصر وسيعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره، وطريقة تحصيله بما يناسب حالة إيرادات الولاية، ويحق لمحمد علي أن يمنح بنفسه ما شاء من الرتب حتى رتبة الأميرالاي فقط أما التسمية لما فاق على ذلك فيجب عليه أن يعرض الأمر بشأنها على الباب العالي(١).

ولقد عملت الدول الموقعة على معاهدة لندن عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م على عقد معاهدة أخرى مع الدولة العثمانية ذات أهمية كبيرة ، تبين منها تنافس هذه الدول على الأراضي العثمانية ومواقعها الاستراتيجية، حيث عقد مؤتمر في مدينة باريس تاريخ ١٨ جمادى الثانية عام ١٢٧٢هـ/ ٢٥فبراير (شباط) عام ١٨٥٦م واختير لرئاسته الكونت ولوسكي وزير خارجية فرنسا، ولقد توالت اجتماعات هذا المؤتمر الى ٢٣رجب عام ١٢٧٢هـ/ ٣٠مارس (آذار) عام ١٨٥٦م وفيه تم التوقيع على جميع بنود معاهدة باريس الشهيرة والتي أوصلت نابليون الثالث الى شهرته المعروفة، وأعادت لفرنسا سابق مجدها ، إذ أنها لم تشترك في حرب مدمرة منذ عهد نابليون الأول وفي نفس الوقت حفظت للدولة العلية أملاكها من غوائل روسيا ، وبموجبها عملت الدول الأجنبية على إضعاف روسيا وتوقيفها عن التوغل في أراضي الدولة العثمانية، ولكن بعد انتهاء الحرب ، أخذت في إيجاد الأسباب الموجبة لإضعاف الدولة العثمانية نفسها حتى لا تقوى على معارضتهم . وكانت الدول الموقعة على معاهدة باريس هي بريطانيا، وفرنسا، والنمسا وبروسيا وروسيا والدولة العثمانية ، وتتكون هذه المعاهدة من ٣٥ مادة، كانت المادة الأولى منها تنص على عدم جواز تدخل أية دولة بين السلطان ورعاياه، بحيث لا يتم اتخاذ أية خطوة إلا بعد أخذ موافقة الدول أولا، ثم رضاء الباب العالي .

وتنص المادة التاسعة على أن سلطان الدولة العثمانية - لعنايته بخير رعاياه جميعاً - قد تفضل بإصدار منشور غايته إصلاح ذات بينهم وتحسين أحوالهم بصرف النظر عن اختلافهم في الأديان والأجناس وأخذ في ذمته مقصده الخيري نحو النصارى القاطنين في بلاده، وحيث كان من رغبته أن يبدي الآن شهادة جديدة على نيته في ذلك، عزم على أن يطالع الدول المتعاقدة بذلك المنشور الصادر عن طيب نفس منه فتتلقى الدول المشار اليها هذه المطالعة بتأكيد ما لها من النفع والفائدة ولكن المفهوم منها صراحة أنها لا توجب حقاً لهذه الدول في أي حال كان على أن تتعرض كلا أو بعضاً لما

---

١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٥٠.

يتعلق بالسلطان ورعاياه أو بإدارة سلطنته الداخلية (١).

ولقد اتفقت الدول المشاركة في معاهدة باريس عام ١٢٧٢هـ/عام ١٨٥٦م على اتخاذ قرارين:

الأول : يقضي بإرسال جيش الى سورية ويقوم باتخاذ ما يلزم هناك.
والثاني : يتضمن تعهد الدول بألا تسعى منفردة الى كسب سياسي أو اقتصادي من الدولة العثمانية أثناء هذا التدخل. وتم تفويض فرنسا بإرسال قوة الى سورية من الجيش الفرنسي تتألف من ١٢ ألف جندي ، على ألا تطول مدة إقامته هناك أكثر من ستة أشهر ووصل الى سوريا بالفعل في صفر من عام ١٢٧٧هـ/ ١٦ أغسطس (آب) عام ١٨٦٠م (٢).

وكانت انجلترا - أثناء مؤتمر باريس - تعارض الوجود الفرنسي في سوريا، بسبب نزاعهما المرير على مناطق البحر الأبيض المتوسط . أما الدول الأجنبية الأخرى ، قد حملت الأجانب المسئولية في أحداث الجبل وفتنة عام ١٢٧٧هـ/عام ١٨٦٠م، حيث أيدت روسيا الأرثوذكس، وفرنسا أيدت الموارنة، وانجلترا أيدت الدروز، وكل طائفة تؤمن بقوة الدولة التي تحميها، فلما استفحلت المنافسة الدولية انعكس أثرها على سورية كلها(٣).

مما سبق نلاحظ أن الدول الأجنبية قد استغلت الامتيازات التي منحتها اياها الدولة العثمانية في دور قوتها، بكل مكر وحيلة، حيث كانت هذه الامتيازات تجارية في ظاهرها، إلا أنه يلاحظ في ثنايا بنود معظم المعاهدات شروط دينية ، من خلالها تطلب الدولة الأجنبية ، حق حماية الطائفة النصرانية التي تنتمي اليها.

وهذا مما يدل على تخطيط مسبق من قبل هذه الدول، للتدخل بأي شكل في أملاك الدولة العثمانية، وكانت فرنسا وبريطانيا والنمسا وألمانيا وروسيا تتسابق جميعها للحصول على هذه الامتيازات من الدولة العثمانية، فاستغلتها تلك الدول بخبث ودهاء فيما بعد، حيث دخلت بعثاتها التنصيرية

---

١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٦-٢٨٢.
٢) نادر العطار: تاريخ سورية في العصور الحديثة، دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩٠٨، حـ١، ص٢١٧.
٣) نادر العطار: المرجع السابق، ص ٢٢٨

فاستغلتها تلك الدول بخبث ودهاء فيما بعد، حيث دخلت بعثاتها التنصيرية بشكل مكثف وسافر في بلاد الشام متسترين بالتجارة ، وكانت الدول الأجنبية تحمي هؤلاء المنصرين ، بينما يتدخل قناصلها تحت أي ظرف يتعرض له المنصرون ، وبهذا قويت شوكتهم في بلاد الشام ، وكان لهم دور خطير في مصير البلاد فيما بعد.

ولقد بدأت بالتعرض للمعاهدة العثمانية الفرنسية، ٩٤٢هـ/١٥٣٥م - ولو أنها عقدت في فترة مبكرة عن فترة هذه الدراسة - نظراً لأهميتها، ولكونها نموذجاً سارت عليها معظم المعاهدات فيما بعد، ولأنه تم تجديدها عدة مرات ، واعتبرت فرنسا السباقة في هذا المجال، بل كان التجار من دول أوروبية أخرى يأتون للتجارة لولايات الدولة العثمانية تحت ظل العلم الفرنسي ، لذلك كله كان لا بد من التعرض لتلك المعاهدة، وانتهينا بمعاهدة لندن التي اشتركت فيها معظم الدول الأوروبية، لوقف محمد علي عند حده وجعل أملاكه محصورة في مصر له ولأبنائه من بعده ثم معاهدة باريس. والتي اتضح فيها مدى تنافس فرنسا وبريطانيا على أملاك الدولة العثمانية . وبدراستنا لهذه الامتيازات، يتضح مدى الخطورة في التعامل مع النصارى في أمثال تلك المعاهدات والتي يكون الكسب الحقيقي فيها لهم على حساب المسلمين. ولم يكتف النصارى باستغلال المعاهدات فقط للدخول في بلاد الشام ولكنهم استغلوا أيضاً كون أقلية نصرانية تعيش منذ زمن طويل في بلاد الشام فادعوا حمايتها ليكون بذلك حجة لهم للتدخل فيها وفي المنطقة العربية والاسلامية فيما بعد، وفي الفقرة التالية من هذا البحث سنتعرض لدعوى رعاية مصالح الأقليات الأجنبية في بلاد الشام.

هـ) دعوى رعاية مصالح الأقليات الإجنبية

لقد جرت أطماع نابليون الثالث، ورغبته الجامحة في منافسة بريطانيا في السيطرة على مناطق استراتيجية في الدولة العثمانية ، لأن يفكر في البحث عن مدخل قانوني يخول له التدخل في شئون المنطقة، خاصة وأن الدولة العثمانية أخذ يدب فيها الضعف، فأخذ نابليون يبحث في المعاهدات الدولية القديمة الممنوحة لفرنسا عله يجد في ثناياها ما يحقق له رغبته(١). وبعد بحث شاق وجد ضالته في معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية(٢) والمصادق عليها من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني، ومثل الجانب الفرنسي فيها فرانسوا الأول ملك فرنسا (٣)، وكان من بنود هذه المعاهدة مايعطي الحق لفرنسا بحماية الأقلية النصرانية الموجودة في الشرق والتابعين لكنيسة رومية. فطلب نابليون من الدولة العثمانية تحديد تلك المعاهدة مع تجديد حماية موارنة لبنان أيضاً، وبالفعل وافقت الدولة العثمانية على طلب نابليون وجددت له المعاهدة والحماية. ولما علم قيصر روسيا بولس الثاني بهذه المعاهدة حاول الغاءها في عام ١٢٧١هـ/١٨٥٤م ولكنه لم ينجح في ذلك، فطلب من الدولة العثمانية أن تمنحه حق حماية نصارى الشرق من الروم الأرثوذكس. ولكن الدولة العثمانية ماطلت كثيراً في قبول طلبه.

ولقد عمل الانجليز ومن بعدهم الفرنسيون، على الوقوف بجانب العثمانين ضد روسيا - حفاظاً على مصالحها في أملاك الدولة العثمانية - فوعدوا الدولة العثمانية بمساعدتها ضد روسيا إذا وصلت جيوشها الى اسطنبول، وذلك خوفاً من وصول روسيا الى أوروبا، وليس حباً في العثمانيين ، وعندما هاجم الروس الأسطول العثماني وتم تحطيمه في عرض البحر الأسود، بدأت الحرب بين الدولتين، وتقدمت الجيوش الروسية الى اسطنبول، فتقدمت فرنسا وبريطانيا لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا، واستمرت تلك الحرب مدة ثلاث سنوات كان النصر فيها للروس، غير أن الدول الأجنبية بدخولها الى جانب الدولة العثمانية، اضطرت روسيا الى إرجاع ما استولت عليه ، وأعادت الدولة العثمانية الى الوجود بعد أن كاد يقضى عليها، ودفعت انجلترا تكاليف الحرب، بينما حصلت روسيا على

---

١) سهيل زكار: بلاد الشام في القرن التاسع عشر، (الطبعة الأولى، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٢٢٠.

٢) يوسف الحكيم: سورية في العهد العثماني، ص ٢٤، ومحمد عبداللطيف البحراوي: حركة الاصلاح ....، ص٣٠.

٣) اسكندر ابكاريوس: نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، ص ٣٥.

امتيازات داخل الدولة العثمانية وعلى اعطائها مطالبها في أرجاء الدولة العثمانية، وحق حماية الأرثوذكس فيها(١).

ومن الجدير بالذكر أن بلاد الشام يعيش فيها الكثير من الطوائف الدينية، سواء من المسلمين، أو من النصارى(٢)حيث ابتلى أهل الشام عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم ، «فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد.. من طوائف» ولعل ذلك من أكبر أسباب اندلاع الحروب الأهلية فيها(٣). ويعتبر المسلمون أكثر الطوائف الموجودة في بلاد الشام عدداً، فيعتبرون بذلك الأغلبية بين السكان، ومعظمهم من السنة يليهم الشيعة.

وينقسم المسلمون السنة باختلاف عروقهم، الى عرب وأكراد وشركس وتركمان (٤)ويتواجد المسلمون السنة في المدن الرئيسية، بينما ينتشر البدو الرحل (العربان) - الذين يكثرون في كل ناحية، وبصفة خاصة - في أطراف البلاد الشرقية ونواحي الحولة على حدود فلسطين من ناحية الشمال، ولكن عددهم قليل في بلاد النصيرية والأرياف الشمالية. ولا وجود لهم في جبل حوران موطن الدروز، ولا في كسروان وهو موطن الطائفة المارونية (٥). وينتمي أكثر المسلمين العرب الى مذهب الامام الشافعي، بينما ينتمي الأكراد والتركمان والأتراك الى مذهب الامام أبي حنيفة النعمان، في الوقت الذي كان فيه بعض أعيان العرب من سكان المدن قد أخذ بمذهب أبي حنيفة تقرباً الى السلطان، ويعتبر المذهب الحنفي هو المذهب المأخوذ به رسمياً لدى المحاكم، كذلك كان هناك أقلية تنتمي الى مذهب أحمد بن حنبل(٦). ولقد ارتبط السنيون طوال الوقت بكونهم يمثلون عنصر الاعتدال الوحيد بين الطوائف العديدة الموجودة في بلاد الشام، والتي يعتبر معظمها متشدداً، أو يقبل بالتدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للبلاد. ومع أن المسلمين السنة مثلوا العمود الفقري لنظام الحكم العثماني، فقد اعتبروا أكثر الطوائف غبناً ، طوال العهد العثماني بالرغم من أن العثمانيين من أهل السنة، وكان من المفروض أن يكونوا

---

١) سهيل زكار : بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ص٢٢١.
٢) اسكندر بن يعقوب ابكاريوس: نوادر الزمان ... ، ص٥٢.
٣) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ،حسر اللثام عن نكبات الشام، ص٥.
٤) اسكندر بن يعقوب ابكاريوس: المرجع السابق، ص٥٢.
٥) شاهين مكاريوس : المرجع السابق، ص٦-٧، وسوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٠٣.
٦) سوسن سليم اسماعيل : المرجع السابق ، ص١٠٢.

أقرب الطوائف الى العثمانيين، وبالتالي يستطيعون تولي المناصب الكبرى في البلاد، إلا أن هذا الأمر لم يكن مطبقاً في الواقع طوال فترة العهد العثماني في إقليم الشام ، وأفضل دليل على ذلك، عندما رضخ السلطان العثماني عبدالعزيز الذي تولى في ١٨ ذي الحجة عام ١٢٧٧هـ/٢٦ يونيه (تموز) عام ١٨٦١م ، لضغوط الدول الأجنبية في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، وجعل للوالي العثماني في لبنان نائبين أحدهما من الدروز والآخر من المارونيين لرعاية الطائفتين، وفي نفس الوقت لم نجد لأهل السنة من يدافع عنهم أو يرعى شئونهم بصفة خاصة(١)

وتنتمي بعض الطوائف الى المسلمين ، مثل : الشيعة، والحاكمية والدروز(٢).

---

١) سوسن سليم اسماعيل :الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية ، ص١٠٣. ومحمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٧.

٢) الطائفة الحاكمية ، هم من الغلاة المتطرفين الذين تجاوزوا حدود الاسلام، وقد غالى بعضهم في الإشراق الإلهي حتى أخذ بنظرية حلول الآله في نفس الامام، ودعا الى عبادته، وانه كان على رأس هؤلاء الغلاة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي ادعى أن الإله قد حل فيه، ودعا الى عبادته. وقد اختفى ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة، والراجح أنه قتل من بعض أقاربه، وقد أنكر مريدوه، وأتباع مذهبه الذين ظهروا من بعد موته، وزعموا أنه يعيش مستخفياً، وأنه سيرجع.
أما الدروز الذين فيكثرون في بلاد الشام، ولهم صلة وثيقة بالحاكمية، حتى أن بعض المؤرخين يقول إن الذي وسوس للحاكم أن يخرج على الناس بهذه الآراء المغالية رجل فارسي يدعي حمزة الدرزي. ولعلهم ينسبون اليه ، وتعد السرية طريقة الدروز، وفي ظلها تأتي آراؤهم ، وهم يستخفون بأعمالهم واعتقادهم من مجاوريهم وعشرائهم. أنظر: اسكندر ابكاريوس : نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، ص٥٤ . وينتشر الدروز في منطقة الشوف والمتن الى الجنوب من هذين الاقليمين، ويعيشون مع النصارى في قرى مختلطة. أنظر محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الاسلامية، ص٥٧، وسوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٠٤-١٠٦. واعتقاد الدروز بتحريف القرآن يرجع الى التقية وهي أساس مذهبهم حيث يظهرون غير ما يبطنون. أنظر اسكندر ابكاريوس : نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، ص٥٤. وتمتاز طائفة الدروز بميلها الى الحرب ، ولأفرادها خصال تحمد، ومعظم الدروز يتواجدون في حوران ووادي التيم وإقليم البلان ، ويندر أن تخلو منهم مدينة في الشام، فيما عدا بعض أفرادهم الذين يرحلون الى الخارج في طلب الرزق. أنظر شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ، ص٨.

والأسماعيليون(١). والنصيريون(٢)،

---

١) ينتسب الاسماعيليون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ومن بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم، وهم يعتبرون أقوال الامام كنصوص الشرع تماماً، يجب إعمالها. وهم يقررون أن الامام يصح أن يكون مستوراً وتجب طاعته، ولا يمنع ذلك من إمامته. نشأ هذا المذهب في العراق، وتفرق معتنقوه الى فارس وخراسان، والهند والتركستان، وهناك خالط مذهبهم بعض أراء من عقائد الفرس القديمة، والأفكار الهندية، وتحت تأثير ذلك انحرف كثيرون منهم، فقام فيهم ذوو أهواء، ولذلك حمل اسم الاسماعيلية طوائف كثيرة، بعضهم لم يخرجوا عن دائرة الاسلام، وبعضهم انحرفوا بما انتحلوا من نحل لا يتفق مع ما اشتملت عليه من المقرر الثابت من الأحكام الاسلامية. وقد سموا بالباطنيين، وسمى البعض منهم بالحشاشين، وقد ظهرت أعمالهم إبان الحروب الصليبية وإبان حرب التتار، وكان بعضها سوءاً على الاسلام والمسلمين.

أنظر: محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية، ص٥٤-٥٦. ومركز الاسماعيلين الرئيسي في الشام هو السلمية، شمال شرقي حمص، ولقد خلقت هذه الطائفة متاعب كثيرة للدولة العثمانية، وكانت في صراع دائم مع طائفة النصيرية.

أنظر: سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية،ص١١٣-١١٤.

٢) النصيرية : فرق الشيعية المنتشرة في بلاد الشام ينتسبون الى محمد بن نصير، وكان شيعياً إمامياً. لا تنسب نفسها للاسماعيلية ولكنها تتلاشى مع بعضها في المخالفة وانحلال بعضها، وبعده عن الاسلام، وأن هؤلاء سكنوا الشام في الماضي كالحاكمية وكانوا مع الأثناعشرية أو هم يدعون الانتساب اليهم، ويعتقدون أن آل البيت أوتوا المعرفة المطلقة، ويعتقدون أن علياً لم يمت، وأنه إله أو قريب من الاله، وهم يشتركون مع الباطنية في أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وأن باطنها غير الأئمة. وآراؤهم مغالاً فيها، وهي مزيج من آراء الفرق المنسوبة للشيعة والتي يتبرأ أكثرهم منها، وأخذوا عن السبيئة الكافرة المنقرضة ألوهية علي وخلوده ورجعته، وعن الباطنية كون الشريعة لها ظاهر وباطن. وخلع هؤلاء الغلاة ربقة الاسلام وطرحوا معانيه ولم يبقوا لأنفسهم منه إلا الاسم. وقد كثر هؤلاء الغلاة في الشام، واتخذوا لهم مقراً هو جبل السمان الذي يسمى الآن جبل النصيرية وكان بعض كبرائهم يتعاطون التخدير بالحشيش، ولذلك سموا في التاريخ بالحشاشين، ولقد وقفوا بجانب الصليبيين ضد المسلمين في الحروب الصليبية على بلاد الشام، ولما استولى أولئك على بعض البلاد الاسلامية قربوهم وأدنوهم، وجعلوا لهم مكاناً مرموقاً.

أنظر محمد أبو زهرة : المرجع السابق، ص٥٨.

===

والى جانب تعدد المذاهب الإسلامية الدينية، تعددت أيضاً الطوائف الدينية النصرانية في بلاد الشام، وذلك حسب نظرة كل طائفة منهم الى طبيعة السيد المسيح عليه السلام. ففي مجمع «أفسيس» عام ٤٣١م انقسمت الكنيسة الشرقية على نفسها، وكذلك انفصل النسطوريون الذين اعتقدوا بوجود طبيعتين للمسيح. وفي عام ٤٥١م ، قرر مجمع خلقدونية فصل اليعاقبة الذين قالوا بالطبيعة الواحدة للمسيح . ثم انقسم اليعاقبة الى كنيستين وطنيتين هما: الكنيسة السريانية اليعقوبية في بلاد الشام ، والكنيسة القبطية في مصر والحبشة. وأطلق اسم الملكيين على أتباع الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية اليونانية.

وفي أوائل القرن الثاني الهجري الموافق القرن الثامن الميلادي، انفصل عن الكنيسة الرسمية مجموعة أخرى عرفت بالموارنة الذين اتخذوا من السريانية لغة لهم، واتبعوا الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد. وارتبط بالكنيسة الكاثوليكية عدد من الكنائس الأخرى. وقد نشب نزاع حاد بين هذه الكنائس ، وحاولت كل منها أن تحصل على مساعدة السلطات الاسلامية الحاكمة من أجل مقاومة الكنائس الأخرى.

وقد حظيت بالفعل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بتشجيع السلاطين العثمانيين، حيث نظروا اليها على اعتبار أنها كنيسة وطنية يجب أن تقف في وجه الكنيسة الكاثوليكية التابعة لجهة أجنبية معادية، والتي جاءت عن

= وهؤلاء النصيرية أخطر على الاسلام من اليهود وهم يسمون أنفسهم بالعلويين، وقد خلق النصيريون متاعب كثيرة للدولة العثمانية ولجيرانهم، فهاجموا الاسماعيليين واعتدوا على السنيين والنصارى.
أنظر سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للآزمة اللبنانية، ص١١١-١١٢.
وكانوا يتمردون على الأحكام السلطانية، ويأبوا دفع المرتبات الأميرية، فأرسل سليمان باشا عسكراً لردعهم، وسار معهم بربر آغا وعمل على تأديبهم ومعاقبة الجناة والعصاة منهم، الا أنهم كانوا يعودون الى عصيانهم وتمردهم بين الحين والآخر، فكانت الدولة العثمانية ترسل من يؤدبهم ويرجعهم الى الخضوع للسلطة.

أنظر: حمكت بك شريف : تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها الى هذه الأيام ، وقد نشر مختصراً في جريدة طرابلس الشام الفيحاء نقلا عن مصادر رسمية، تحقيق وتقديم، منى حداد يكني وماردن عيسى الخوري، (الطبعة الأولى، بيروت، دار الايمان للطباعة والنشر عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٤٤.

طريق الإرساليات الدينية الى بلاد الشام. ولكن الصفة العثمانية الوطنية ما لبثت أن زالت عن الكنيسة الأرثوذكسية بعد أن وضعت نفسها تحت حماية بريطانيا ثم روسيا وشجعت الحركات الاستقلالية (١).

وهكذا تعددت الفئات النصرانية الموجودة في بلاد الشام : الى عدة طوائف منها طائفة الروم الأرثوذكس (٢).

---

١) سوسن سليم اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٤.

٢) كان الروم الأرثوذكس يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية في اسطنبول ويعتبر أتباع هذه الطائفة من أكبر الطوائف النصرانية في بلاد الشام أهمية وعدداً. أنظر: عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية ...، حـ٢، ص ٧٤٢ . ولقد نظم السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شئون الكنيسة الأرثوذكسية، وأخضعها لسلطة البطريرك وسمى أتباعها روم ملتي - أي ملة طائفة الروم - كما منح البطريرك رتبة الباشوية الشرقية ثلاثة أطواغ، وجعل له محكمته الخاصة، وسجنه الخاص في حي الفنار، وبذلك مارس البطريرك سلطة تامة على أتباع كنيسته باستثناء السلطة المدنية، ولقد وجد للروم الأرثوذكس في الشام بطريركيتان، الأولى في القدس وتشرف على كنائس الروم الأرثوذكس في فلسطين ، والثانية في دمشق وتشرف على مصالح الكنائس الشرقية من صور حتى الأناضول ويلحق بها أبرشيات (أسقفيات) الشام وبعلبك وحلب. أنظر: عبدالعزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٢. ولقد قام تنافس حاد بين البطريركيتين. وسميت بطريركية دمشق بطريركية أنطاكية كذلك، وكان لكل واحدة منهما نشاط ملحوظ في تعريب الكتب الدينية، وأعمال التنصير، حيث أنشأ بطريرك القدس داراً جديدة للبطريركية واستورد مطبعة وأوعز بتعريب الكتب الدينية وشيد مدرسة، كما ارتبطت بكرسي بطريركية القدس أسقفيات الناصرة وعكا وطبريا والكرك والسلط وعجلون وسبسطية وطور سيناء وشريعة غرين وارتبطت بكرسي بطريركية أنطاكية التي مركزها دمشق، أسقفيات باشوية الشام وبعلبك وحلب وقام الأرثوذكس في الشام ببناء سبعة عشر كنيسة، وقاموا بدور بارز في نشر التعليم النصراني. وإنشاء المدارس وكانوا يشكلون أقليات كبيرة في دمشق وحمص وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرة وبيت لحم. أنظر: عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٢، وسوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٦. وفي عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م بلغ عدد الروم الأرثوذكس في دمشق وحدها حوالي ٧٠٠٠ نسمة، ولكن انشق قسم من الطائفة فيما بعد وشكلت طائفة جديدة عرفن باسم الروم الكاثوليك. أنظر عبدالعزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٣ .

والروم الكاثوليك :(١). وطائفة الأرمن(٢).وطائفة السريان اليعاقبة، (٣)

---

١) أحرزت طائفة الكاثوليك في الدولة العثمانية تقدماً على حساب معظم الطوائف الأخرى. وذلك بسبب النفوذ الذي حصلت عليه فرنسا الكاثوليكية في الدولة العثمانية عن طريق الامتيازات. أنظر عبد العزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٤. وتكونت هذه الطائفة في بلاد الشام نتيجة الانشقاقات في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والأرمنية والسريانية واليعقوبية وبرز ممن حكموا هذه الطائفة مكسيموس مظلوم بطريركاً وذلك عام (١٢٣٩هـ -١٢٧٢هـ/١٨٢٣م-١٨٥٥م) والذي اهتم ببناء الكنائس لطائفته وتنقل بين أوروبا وحلب ودمشق وبيروت والقدس ومات في الاسكندرية، وكان للكاثوليك عدد من المدارس والكنائس في دمشق. ولقد تعرض أتباع الكنيسة الكاثوليكية لاضطهاد شديد من جانب الروم الأرثوذكس، ولكن انتخب الكاثوليك بطريركاً خاصاً بهم واعترفوا برياسة البابا، وأنشأوا بعد ذلك ثلاثاً وأربعين كنيسة في باشوية دمشق وغيرها. أنظر: عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٣. وكان لهم دور كبير الى جانب فرنسا، وكانوا سبباً لتدخلها في بلاد الشام بحجة حمايتهم.

٢) انقسم الأرمن في ولاية سورية الى أرثوذكس وكاثوليك بعد أن كانوا حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، من أتباع الكنيسة اليعقوبية، ثم انشق بعضهم ونصبوا عليهم بطريركاً كاثوليكياً عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م، وقد كان لطائفة الأرمن القديمة كنيسة مار سركيس في دمشق، أما الأرمن الكاثوليك فقد أنشأوا لهم كنيسة صغيرة بعد عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م بالقرب من دير الرهبان اللعازاريين. أنظر: سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٨-١١٩. وقد بلغ عدد الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك في دمشق في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م ٦٤٠ شخصاً، وانخفض عددهم في عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م الى ٥٩٠ شخصاً بسبب عودة قسم من الأرمن الكاثوليك الى حلب. أنظر عبد العزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٣. وكانت القدس مقراً للبطريرك الأرمني اليعقوبي، بينما كانت بيروت مقراً لبطريرك الأرمن الكاثوليك. أنظر عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٤.

٣) كانت لهم كنيسة واحدة أطلق عليها الكنيسة السريانية اليعقوبية. ولقد تعرضت كنيستهم لانقسامات دينية، وانتخب أحد رجالها وهو ديونيسوس ميخائيل جروة عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م بطريركاً يعقوبياً وقد ارتبط بروما مباشرة. أنظر سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٧. فثار عليه أتباعه وانتخبوا بطريركاً غيره. وأسس البطريرك الأول وأنصاره كنيسة سريانية كاثوليكية جديدة تابعة لروما، ولكن لم تعترف بها السلطات العثمانية، ثم ما لبث أن وافق السلطان

وطائفة الموارنة(١).

العثماني على الانفصال، وأنشئت بطريركية انطاكية للسريان الكاثوليك ومركزها حلب. وكان لها كنيستان في باشوية دمشق وللسريان اليعاقبة كنيستان. واستخدم السريان في كنائسهم اللغة السريانية التي أصبحت لغة الكنيسة ولغة الخاصة. أما العامة فقد تكلموا اللغة العربية وكتبوها أحياناً بحروف عربية. أنظر عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٣.

١) وهم جماعة من السريان السوريين الذين ينتسبون الى الراهب مارون. أنظر شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ، ص٦٢. كانوا يتبعون الكنيسة الشرقية، ثم تبعوا الكنيسة الغربية، ولكنهم احتفظوا بطقوسهم الشرقية، وظلوا يؤدون عباداتهم باللغة السريانية التي لا يفهمها أحد من الموارنة، ثم أخذت الجمعيات الكاثوليكية وفي مقدمتها الجزويت تهتم بتعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق فتح مئات المدارس في جبل لبنان منذ عهد إدارة محمد علي في بلاد الشام، فازدادوا بذلك ميلا نحو فرنسا، وأصبحوا أداة طيعة في يدها. وكان لهذه الطائفة دور سياسي بارز في الفتنة بين الدروز والموارنة عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م وللموارنة أسقفيتان في ولاية سورية، الأولى في دمشق، والثانية في بعلبك. أنظر عبدالعزيز محمد عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٥، وسوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص ١٢٠. وقد بلغ عدد الموارنة في دمشق وحدها في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م ٤٠٥ مارونياً وقد عمل عدد منهم قناصل لفرنسا في بيروت وعندما أصبح لجبل لبنان نظام خاص، أصبح للموارنة أربع قائمقاميات في البترون وحبة بشرى وكسرى، وكسروان وبلاد جبيل والمتن وقاطع بيت شبان وساحل بيروت وجزين. أنظر: سوسن اسماعيل : المرجع السابق،ص ١٢١. واشتهر الموارنة بمساعدة الافرنج ضد الدولة العثمانية في كل الحروب التي خاضتها. وبعد انتهاء تلك الحروب كان الخلفاء يشددون الوطأة على الموارنة، فرحل بعض منهم الى قبرص ومالطة وكريت، وحوران، لبعض الوقت، حتى بدأ البابا يهتم بأمورهم، ثم أن ملوك فرنسا نظروا الى خدماتهم في السابق ، وبسطت حمايتها عليهم، فعد الموارنة أنفسهم من جملة الفرنسيس، وهم يحبون فرنسا حباً جماً، ولقنصل فرنسا كلمة مسموعة ونفوذ في بلادهم. أنظر شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ، ص٦٣. ولقد نجح الضغط الفرنسي الى حد بعيد في تمييز الموارنة السياسي والطائفي تحت ستار حماية الأقليات النصرانية في الشام. فكان الاكليروس الماروني الأعلى قاعدة للنفوذ الفرنسي في مقاطعات الامارة، باعتراف الفرنسيين أنفسهم. أنظر مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، ص ٣١٦ .

واللاتين(١).

---

١) واللاتين في بلاد الشام بدون هوية، منذ جلاء الصليبيين في عام ٦٩١هـ/١٢٩١م وفي نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث قرر البابا إحياء بطريركية القدس اللاتينية، فعاد اللاتين يمارسون شعائرهم الدينية طبقاً للطرق الكاثوليكية الغربية. وبدأوا يشكلون لهم طائفة مستقلة في نهاية عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م. أنظر سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٩، وعبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٥ . وكان عدد اللاتين في القدس عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م لا يتجاوز الأربعة آلاف شخص، ومع ذلك كان لهم ثمانية كنائس. أنظر سوسن اسماعيل : المرجع السابق، ص١١٩. ولأن الحقوق الكاثوليكية كانت مضطهدة من قبل الطوائف النصرانية الأخرى منذ القرن الحادي عشر الموافق السابع عشر الميلادي، فقد تطلع بعض الأمراء الفرنسيين لشراء كل الحقوق الروحية والمعنوية في الأماكن المقدسة في فلسطين وسورية، وكان مشروع إرجاع المركز الرئيسي للاتين في فلسطين من أصعب الأمور التي أخذها على عاتقه بالفعل جوزيف فالرجا Joseph valerga والكردينال أكتون Action، وكان اختيار جوزيف فالرجا كردينالاً على فلسطين يوم ١٧ جمادى الآخرة عام ١٢٦٤هـ/١٦ مايو (آيار) عام ١٨٤٧م، والذي بعثه البابا بنفسه يوم ١ ذي القعدة عام ١٢٦٤هـ/١٠ أكتوبر عام ١٨٤٧م وعندما دخل فلسطين استقبله السلطان العثماني بكل ترحاب وتقدير وأحضروا له الصليب لأول مرة وهذا لم يحدث منذ أجيال، واحتفلوا به عبر الشوارع وحفظت له حقوقه كالأرثوذكس واليونان والأرمن ، وبقي في فلسطين ٢٥ عاماً يقوم بأعمال التنصير، ولقد أعطته المدة التي قضاها في الأراضي المقدسة في فلسطين أن يتعرف على أحوال البلاد، وأن يعمل في إعداد المشروعات الخاصة التي تهم الفئات النصرانية في فلسطين. وكان يتلقى التعليمات من روما مباشرة عن طريق ميجور برنابو Barnabo وذلك في عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م وحتى صفر عام ١٢٦٧هـ/نوفمبر (تشرين ثاني) عام ١٨٥١م، ولقد جمع فالرجا لنفسه فئات اللاتين الثلاث عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م مكوناً كنيسة بيت جالا بمعاونة صديقه موسو Mossou، وقد تمكن من أخذ موافقة الحكومة العثمانية لبناء كنيسة، وقد استطاع بعد ذلك أن يجمع حوله ٧ آلاف من الأتباع وبنى عشر كنائس في فلسطين. وتم تعيينه كممثل رسمي في سورية يمثل جميع الكنائس في بلاد الشام أنظر: Anton Odeh Issa : les Minorite Chretiennes,P 220-224

وأنظر أيضاً سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١١٩.

و الأقباط و الأحباش(١). و البروتستانت (٢).

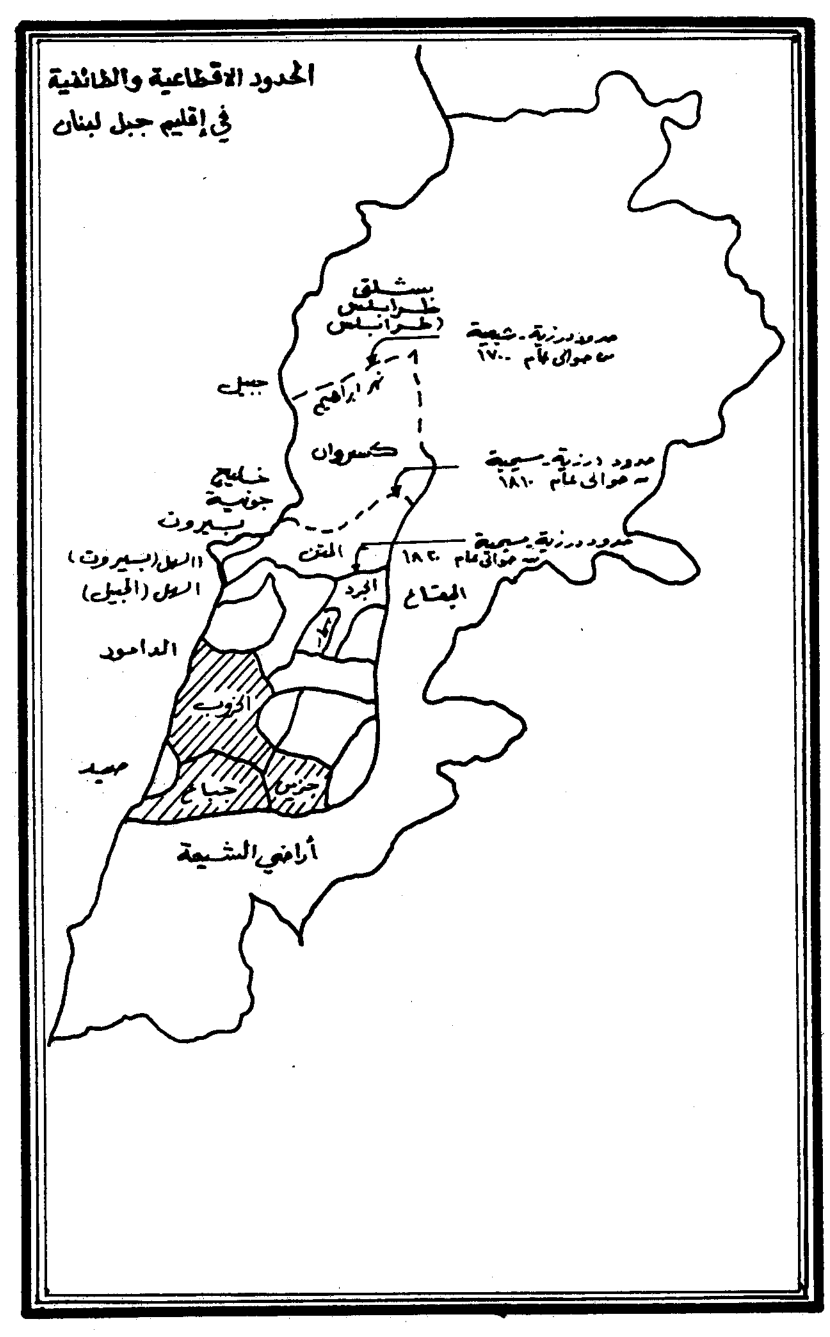
مما سبق يتبين لنا، أن الطوائف النصرانية في بلاد الشام كثيرة ومتعددة، وتواجدت في عدة مناطق، وكان من أهمها جبل لبنان وبعض مدنه، مثل دير القمر وزحلة وغيرها مما لا يسكنها الدروز، وكسروان منطقة خاصة بالطائفة المارونية ، ويكثر النصارى في مدينة بيروت، وهم يمثلون العدد الأكبر من أهلها ، وعددهم ليس بالقليل في كل المدن البحرية، مثل طرابلس وصيدا وصور ويافا والمدن الداخلية مثل دمشق وحلب وأنطاكية وغيرها، وقل أن يخلو مكان في سورية من بعض طوائف النصارى(٣). ولذلك عندما ادعت الدول الأجنبية حق حمايتها للنصارى، كان لا بد لها أن تزرع الفتنة بقدومها الى البلاد، عندما أخذت تميز كل دولة طائفة معينة، فانحازت فرنسا الى جانب الموارنة، وبريطانيا الى جانب الدروز.

---

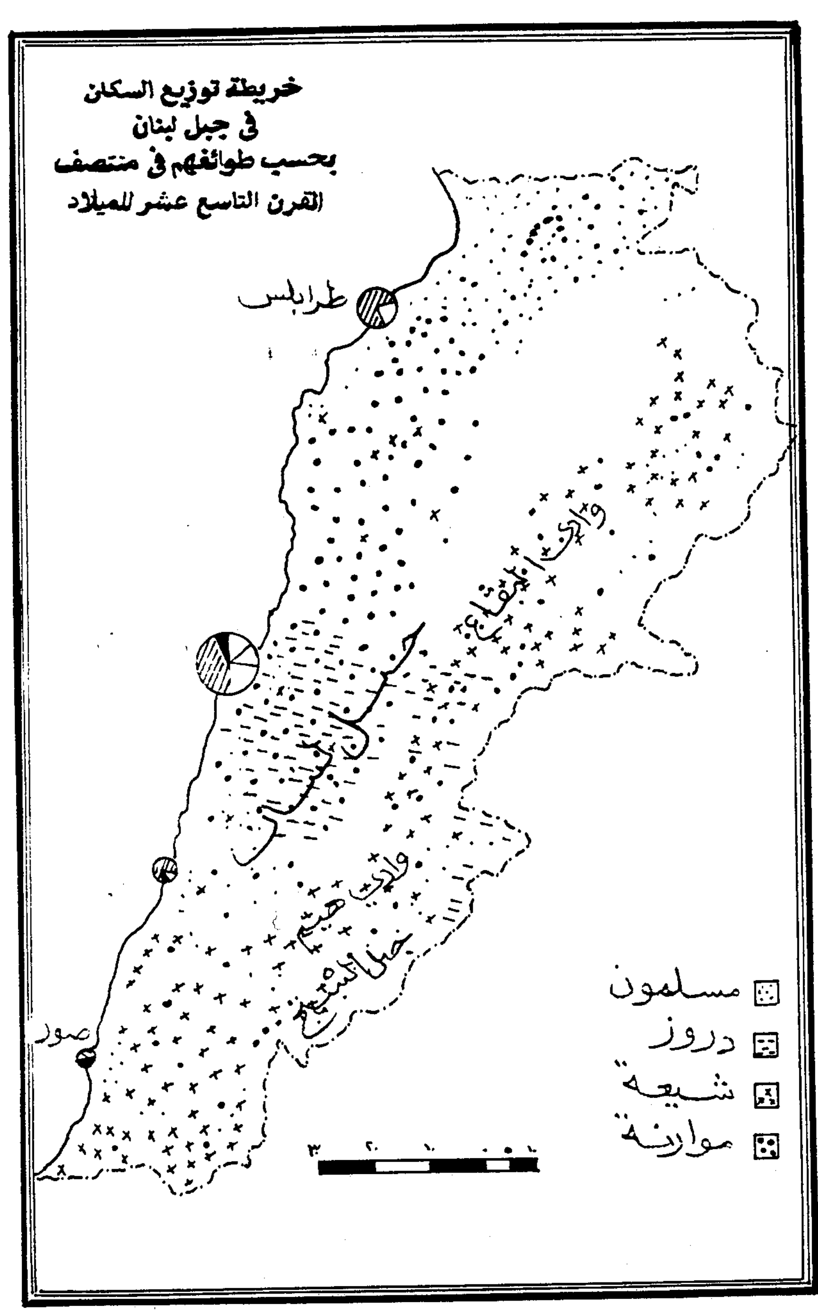
١) أقامت هذه الطائفة في القدس، وهم ينتسبون الى الكنيسة اليعقوبية القبطية في بلاد الشام، وكان يقوم نزاع بينهم بصورة مستمرة على ملكية بعض الأديرة. أنظر عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٤. ولقد استعان ملك الحبشة في عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م بالقنصل البريطاني في القدس ، وعهد إليه برعاية مصالح الأحباش، ولكن حسمت الحكومة العثمانية الموقف لصالح الأقباط في عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م.

٢) بدأ نشاط البروتستانت في إيالة صيدا، واستطاعوا أن يقيموا لهم أول مركز في بلاد الشام في مدينة بيروت عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م. ورأى فيهم السكان المحليون من نصارى كاثوليك وأرثوذكس وكذلك المسلمون والحكومة العثمانية، بوادر تسلل أجنبي بالإضافة الى نشاطهم التنصيري السافر، وعلى الرغم من ذلك تمكنوا من إنشاء إرسالية في دمشق عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م. وتمكنوا بعد عشر سنوات من إنشاء مدرسة وكنيستين في دمشق، بنيت الأولى عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، واشترك في بنائها يوحنا كرفورد الأمريكي، وروبنسون الانجليزي. وبنيت الكنيسة الثانية، في عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م بالاشتراك مع مسز واط الانجليزية. أنظر عبدالعزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٠٥-٣٠٦. لكن يعتبر عدد البروتستانت قليلا بالنسبة لعدد الطوائف الأخرى في دمشق. أنظر نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الأجنبية الدينية، ص١٨. ولقد تمتع المنصرون البروتستانت بحقوق الرعاية الأمريكية في الدولة العثمانية ، كما نصت على ذلك الامتيازات الأجنبية التي تمتع بها البروتستانت ومارسوا بواسطتها نشاطاً تنصيرياً واسعاً في بلاد الشام. أنظر مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار، ص٥٤-٥٥ .

٣) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل ، ص ٧.



عن كتاب: اسكندر بن يعقوب أبكاريوس:
نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، ص ٦٩.



عن كتاب : إسكندر بن يعقوب أبكاريوس :
نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان ، ص ٦٨

ومن الأقليات الصغيرة التي كانت تسكن بلاد الشام، وكان لها بالتأكيد أثر كبير في زرع الخلاف بين الطوائف المختلفة، هي طائفة اليهود، لعنهم الله تعالى، لأنهم يعيشون دائماً على مصائب الشعوب، يجرون وراء مصالحهم الاستغلالية، مهما كان الثمن، وتاريخ اليهود معروف، وحقدهم ومؤامراتهم على الاسلام يملأ صفحات التاريخ.

ولقد تمركز اليهود في سورية في مدينة دمشق، وبلغ عددهم في عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ٥٤٠٠ نسمة، وكان لهم في مدينة دمشق اثنتا عشرة مدرسة يدرس فيها ٣٥٠ تلميذاً وهم يدرسون ديانتهم بالعبرية، وبلغت عدد معابدهم فيها عشر معابد، أشهرها كنيس سوق الجمعة(١)، أما في فلسطين فلم يزد عدد اليهود فيها خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني على عشرة آلاف نسمة، وكانوا ثلاثة أمثال هذا العدد في بر الشام كله(٢). وتزايد هذا العدد في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي حتى بلغ حوالي المائة ألف وذلك بسبب تزايد الحملات لتهجير اليهود الى فلسطين من شتى بقاع الأرض(٣). ومساعدة الدول الأجنبية لهم في ذلك. وقام اليهود بنشاط مستتر تحت ظل الاستعمار في بلاد الشام، حيث نجحوا في تأسيس مدارس لتعليم اللغة العبرية، وأقاموا مستوطنات في قضاء حيفا، واشتروا أراضٍ زراعية من الاقطاعيين الأجانب الموجودين في فلسطين، وكان لهم نشاط تِجاري كبير، فسيطروا على تجارة صفد ودمشق، وقاموا بدور بارز في الحياة الاقتصادية في حلب وبيروت وعكا وحيفا، وكان لهم في دمشق وحدها أكثر من أربع وعشرين مؤسسة تجارية بلغ رأسمالها خمسة ملايين فرنك، وسيطروا أيضاً على تجارة دمشق مع بريطانيا(٤).

ومن المعروف تاريخياً أن مصدر قوة اليهود يكمن في كميات النقد السائلة الضخمة التي كانوا يملكونها، في فترة كان فيها النقد السائل غير متوفر لدرجة كافية، علاوة على ذلك تكتلهم واعتمادهم على جماعتهم، ولقد تدخل قناصل الدول الأوروبية في فلسطين ليقدموا لليهود المعونة والحماية في الأراضي المقدسة في فلسطين(٥).

---

١) عبد العزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٧.
٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، حـ٢، ص٧٤٦
٣) شاهين مكاريوس : مذبحة الجبل... ، ص ٨، وعلي محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص٢٦-٢٧.
٤) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية ...، حـ٢، ص٧٤٦-٧٤٧.
٥) سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٢٤.

ومع أن اليهود أنفسهم لا يستحقون ما يبذل لأجلهم من قبل النصارى اليوم والأمس، حيث ان اليهود لا يرعون عهداً ولا ذمة، وكانوا ولا زالوا أعداءً المسلمين والنصارى، وهم لا يعملون إلا لمصالحهم الذاتية ، حتى قيل عن اليهود أنه لا تتم أفراحهم في مناسباتهم وأعيادهم، إذا لم يأكلوا الفطير الممزوج بدم غير اليهود من النصارى والمسلمين(١).

وتعتبر بريطانيا على رأس الدول الأجنبية التي حاولت فرض الحماية

---

١) عبد الله التل : خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية ، ص ٨١. وقد جاء في الكثير من المصادر التاريخية حادثة قتل الأب توما الكبوشي وخادمه عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م. أنظر سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٢٤. ويرجع ميخائيل مشاقة أسباب ذلك الى العداوة المتأصلة بين اليهود والنصارى الكبوشيين. أنظر ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، ص١٢٢. ولكن باعتراف أحد اليهود المتهمين في جريمة قتل توما الكبوشي ويدعى موسى أبو العافية الذي اعتنق الاسلام ، وحمل اسم محمد أفندي أبو العافية. أنظر مؤلف مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية، تحقيق أحمد غسان سبانو، ص١٢٠. قام بإرشاد لجنة التحقيق الى جميع أسرار القضية وخبايا التلمود والتي تتلخص باستنزاف الدم البشري وإعداد الفطير المقدس لديهم من الدم. وللأسف فقد تدخل المال اليهودي في النهاية - وهو سلاحهم المهند الظافر - وقام المليونير اليهودي مونتغمري بصحبة اليهودي كراميو بالسفر الى مصر، وقدما الرشوة الى محمد علي باشا. أنظر عبدالله التل : المرجع السابق، ص١٠٣. الذي قبلها وقد بلغت ستين ألف كيس من الجنيهات الذهبية، فأصدر محمد علي فرماناً غريباً ألغى فيه حكم القصاص على المجرمين، وعفا عن المجرمين الذين يقيمون طقوسهم المقدسة على دماء الأبرياء من المسلمين والنصارى ، وبالفعل عندما أطلق شريف باشا سراح اليهود القتلة جميعهم، صار فرح عظيم بين اليهود وعملوا عرضاً في يومها وشتموا النصارى كثيراً حتى صار عليهم شكاوات الى الحكم فارتجعوا. أنظر مؤلف مجهول: مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية، ص١٢١، وسهيل زكار: بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ص١٧٨. وبالرغم من ذلك فقد وقفت قناصل كل من بريطانيا وروسيا الى جانب اليهود، إلا أن قنصل فرنسا اهتم بالأمر حيث أقنع السلطات المحلية بضرورة تفتيش حي اليهود، والتحقيق معهم، حتى اعترف أحد الشركاء بالتورط في الجريمة وإدانة اليهود. أنظر سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٢٤.

على الطائفة النصرانية البروتستانتية والطائفة اليهودية، وتعتبر الجمعيات التنصيرية من أهم الوسائل التي استخدمتها بريطانيا للدعوة للفكرة الصهيونية، وكانت تلك الجمعيات التنصيرية البريطانية سابقة للجمعيات اليهودية في الدعوة الى المشروع الصهيوني، مما يفضح الخطط الاستعمارية الغير أخلاقية لهؤلاء المستعمرين الانجليز(١).

ولقد وجد الى جانب الطوائف السابقة في بلاد الشام، طائفة من الأجانب عرفوا بالمستأمنين، من التجار الذين كان يسمح لهم بالإقامة في أملاك الدولة العثمانية واعترفت بهم الدولة كطوائف مستقلة تطبق شرائعها الخاصة، ولقد أعفيت هذه الطائفة من الجزية على الأفراد لأن مدة إقامتهم كانت لا تتجاوز السنة الواحدة. ولقد نظمت طوائف التجار ووضعت تحت الإشراف المدني والقانوني لقناصل الدول التابعين لها في كل بلد(٢) وهذا بمثابة إذن من السلطان العثماني على حرية ممارستهم نشاطاتهم، وتمثيل الفئات الأجنبية الأخرى الموجودة في بلاد الشام . ومما هو جدير بالذكر أن تعامل هؤلاء المستأمنين الأجانب اليومية مع السكان أكثر منهم من المسلمين(٣). وللمستأمنين مزايا خاصة تتعلق بالرسوم الجمركية والضرائب في شكل امتيازات خاصة(٤).

وهكذا وجد في بر الشام عدد من الجاليات الأوروبية ولكل جالية قنصل خاص بها (٥). ولقد تمركزت الجاليات الأوروبية في أوائل العهد العثماني وخاصة جاليات كل من فرنسا وبريطانيا في مدينة حلب والبندقية ، وكان لهم مراكز في الاسكندرية واللاذقية وطرابلس وعكا، وكان لفرنسا وحدها جاليات

---

١) رفيق شاكر النتشة: الاستعمار وفلسطين ، اسرائيل مشروع استعماري، (الطبعة الأولى، عمان، دار الجيل١٩٨٤)، ص١٦٣.
٢) سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية اللازمة اللبنانية، ص١٢٤-١٢٥، وعبد العزيز عوض: الادارة العثمانية ، ص٣٢٢.
٣) وثيقة رقم ١/٦ سجل ١٢٩ محاكم شرعية حلب، مديرية الوثائق التاريخية، دمشق، ص٢.
٤) سوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٢٤.
٥) عندما كانت الدول الأوروبية ترغب في تعيين قناصل لها في ولايات الدولة العثمانية ، كانت سفارات هذه الدول في اسطنبول تكتب رسمياً الى سفارة الخارجية العثمانية وتقدم ترجمة قصيرة عن حياة القنصل المراد تعيينه والأعمال التي قام بها ثم ترجع وزارة الخارجية الطلب الى الباب العالي مقترحة عليه التعيين وعلى منحه الامتيازات التي كانت تمنح عادة لغيره من القناصل.

في صيدا والقدس ودمشق وكان لها في كل منها وكيل قنصل.

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري/منتصف القرن التاسع عشر الميلادي سكن في حلب قناصل يمثلون دول النمسا والمجر ودويلات ايطاليا وأسبانيا (من اليهود) وبلجيكا وايران والبرتغال وهولندا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا ونواب قناصل للسويد والنرويج واليونان، وكانت بيروت حتى ذلك الوقت هي مركز عام لقناصل الدول الأجنبية. ولقد سبب هؤلاء القناصل لادارة ولاية سورية ارتباكاً عن طريق بث الدسائس بين الأقليات والطوائف المختلفة. ولعب القناصل الأوروبيون دوراً هاماً في حياة ولاية سورية السياسية، وذلك ضمن مخطط شامل على مستوى الدولة العثمانية ، فانحاز كل قنصل من قناصل الدول الكبرى الى طائفة من السكان يدافع عن مصالحها مقابل اعتراف الطائفة بفضل القنصل عليها وولائها لدولته (١).

وهكذا يتضح لنا أن تعدد الطوائف النصرانية في بلاد الشام خاصة الى جانب تعدد البعثات التنصيرية مع وجود طوائف أخرى مثل اليهود والتجار الأجانب أوجدت طرق الاتصال بين بلاد الشام وأوروبا وأمريكا. وبذلك فتحت الأبواب على مصراعيها أمام المؤثرات الحديثة وهي ظاهرة من أبرز الظواهر في تاريخ البلاد. ولذلك كانت البابوية في روما الى جانب الحكومات الأوروبية والأمريكية تعمل على توثيق الصلة بالطوائف الدينية غير الاسلامية وزعمائها ومؤسساتهم الدينية والتعليمية وغيرها ، وتمدهم بالأموال ورجال التعليم وبعض رجال الدين والعلماء(٢). وكان من أبرز نشاطات تلك الدول - ومنها بريطانيا وفرنسا - هي تلك التي كانت تعمل على فرض حماية تلك الدول على الطوائف النصرانية واليهودية والأقليات المختلفة(٣). مما أدى الى الكثير من القلاقل والمشاكل بين الأهالي التي أدت الى حرب أهلية بعد ذلك.

ولقد تزايد النشاط الأوروبي الديني والثقافي والتجاري وانتشر في بلاد الشام والأراضي السورية، فأدى الى تقوية وضع الجماعات النصرانية في البلاد مما أغضب السكان المسلمين، وذلك لتجاوز النصارى حدودهم، وتجاهلهم العادات الاسلامية ، فكانت الجماعات النصرانية تفتح الحانات بالرقصات والاحتفالات بواسطة الأجانب مما يؤذي شعور المسلمين.

---

١) عبدالعزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٢٣. وسوسن اسماعيل: الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٢٦.
٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية... ، جـ٢، ص٧٤٧.
٣) رفيق شاكر النتشة : الاستعمار وفلسطين، ص١٦٣.

وكذلك كان الوضع بالنسبة لنشاط الارساليات المتزايد، وفوق ذلك كان اتساع الأنشطة السياسية الأجنبية من خلال تأسيس شبكة من القناصل في أنحاء البلاد مما أزعج كثيراً السكان المسلمين والسلطات العثمانية. هذا النشاط بارتباطه مع بعض الأحداث الداخلية أعطى انطباعاً بأن الدول الأوروبية تهدف لاحتلال سورية وفلسطين لمساعدة النصارى المحليين(١)، إلا أنه كان لكل دولة من الدول الأوروبية أهدافها الخاصة في بلاد الشام، وكانت حجة مساعدة النصارى المحليين ضرباً من الجدل العقيم والذي ثبت عدم صحته مع توالي الأيام. لأن الأقلية النصرانية عاشت في بلاد الشام ردحاً طويلا من الزمن في أمن وسلام ولم يتعرض أحد لها بسوء ، وعاشت في ظل الدولة الاسلامية تمارس حريتها الدينية دون أي تدخل من قبل السلطات الاسلامية في شئونها الخاصة، واعتبروا من ضمن رعايا الدولة، حتى اذا نظرت الدول الاستعمارية الطامعة في المقدسات الاسلامية وخيرات بلاد الشام، وجاء الأوروبيون تحت راية الصليب تارة وتحت راية الارساليات الأجنبية الدينية تارة أخرى، فتدخلوا في شئون بلاد الشام الداخلية فلم يجدوا إلا حججاً واهية ينفثون سمهم عن طريقها بين السكان النصارى المحليين وبين المسلمين ليشعلوها فتنة مدمرة، ثم يأتوا هم ليقوموا بدور المصلحين الذين تهمهم مصلحة النصارى، فيسيطرون على البلاد ويحكمونها ويستعبدن العباد لمصلحتهم الخاصة.

فاذا تحدثنا عن دور فرنسا ودعواها في حماية الأقليات النصرانية في بلاد الشام ، التي ارتكزت الى معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، حيث ادعت بأن لها حق في حماية جالياتها من التجار والقناصل والوكلاء والعملاء داخل الدولة العثمانية(٢). ولكنها فيما بعد تعدت هؤلاء فشملت الطوائف النصرانية المرتبطة بروما ومن بينها الطائفة المارونية (٣).

---

١) Moshe' Ma'oz:Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861 (Oxford, The Clarendon Press 8,1968), p 211.

٢) عبدالعزيز محمد عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص٣٢١. ومصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص١٣٣.

٣) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي. من المتصرفية العثمانية الى دولة لبنان الكبير (بيروت، منشورات بحسون الثقافية ١٩٨٦م)، ص ٤١، وقيصر فرح: أثر التحالف الرباعي... ، ص ٤٠٤.

ولقد تمتع الفرنسيون لوقت طويل بدور قوي، حيث تدخلوا في شئون لبنان الداخلية بوصفهم الحماة المعترف بهم للمصالح الكاثوليكية بشكل عام والمارونية بشكل خاص. فأحرز الفرنسيون نفوذاً أوسع ومقاماً أعلى خلال حكم الأمير بشير الثاني وإدارة محمد علي في سوريا (١). لذا عملت فرنسا على تمييز الموارنة عبر الكنيسة المارونية ورهبانها ورجال دينها بالدرجة الأولى وإشعارهم بدورهم السياسي الطائفي الهام في المنطقة بوصفهم تجمعاً سكانياً كبيراً فيها(٢).

وهكذا تقربت فرنسا لأصحاب العصبيات في لبنان من مشايخ الموارنة وغيرهم كما استغلت بعض الأسر المارونية للحصول على منافع خاصة لها في البلاد. ومن ذلك فان لويس الرابع عشر قبل إلحاح رجال البعثات الفرنسية على حكومته لتعيين الشيخ أبي نوفل الخازن نائباً لقنصل فرنسا في بيروت منذ عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م (٣).

ولقد ظل هذا المنصب في أسرة الخازن نحو مائة عام تولاه منهم أربعة أشخاص حتى عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م (٤). وبلغ من حب فرنسا للموارنة أن عينت قنصلا لها في بيروت من أبناء آل الخازن، والذي أخذ يتباهى بعلم فرنسا وشعار ملكيتها، حتى أنه أصبح يرفع علم فرنسا فوق داره مما جعل الباب العالي يعترض على هذا القنصل، فاستجابت فرنسا بانتزاع هذا المنصب من آل الخازن، ولكنها عينت مارونياً آخر بدلا منه بعد حوالي أربعين عاماً هو الشيخ سعد الخوري قنصلا لها في بيروت استجابة لطلب الأمير الشهابي من الملك لويس السادس عشر وذلك عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م (٥).

ولم تقتصر هذه الامتيازات المعقودة بين فرنسا وآل الخازن والطائفة المارونية، وما يمكن أن يخلفه من ولاء لفرنسا ومواقف معادية للدولة العثمانية.. بل شكل الرهبان الموارنة عبر توزيعهم في الأديرة الكثيرة ونشاطهم في أوقافهم الزراعية الواسعة مع الخوارنة المنتشرين في القرى نوعاً من تنظيم شعبي فلاحي واسع يدير شئون الطائفة ويهيمن على

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ....، ص ٤٠٥.
٢) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، ص٣٠٣.
٣) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٨٧.
٤) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية ....، ص ٤١.
٥) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٨٧.

نشاطها الاقتصادي، وكذلك تمتع الرهبان الموارنة بامتيازات المرسلين الفرنسيين، وترتب على ذلك نتائج سياسة خطيرة فيما بعد.

كتب وزير البحرية الفرنسي روليه في جماد الأول من عام ١١٦٤هـ/٥ مارس (آذار) عام ١٧٥٠م الى القناصل الفرنسيين في الدولة العثمانية قائلا. «إن الرهبان الموارنة الذين يؤلفون رهبنة مار أنطونيوس في جبل لبنان قد شملهم الملك بحمايته الخاصة في كل وقت وقد توسلوا الى جلالته أن يحدد لهم تلك الحماية ويثبتها لهم، فتنازل جلالته واستجاب لطلبهم وأوصاني أن أكتب إليكم أن تعاملوهم كما تعاملوا المرسلين الفرنسيين الذين هم في الشرق من قبل جلالته (١).

مما سبق يتضح لنا حرص فرنسا على فرض حمايتها على الموارنة، وكذلك لجوء مشايخ الموارنة الى ملك فرنسا يطلبون حمايته، ومن المؤكد أن طلبات الموارنة من الحكومة الفرنسية لم تقف عند حد، فكانوا دائماً يتهمون السلطات العثمانية بأنها تضطهدهم ويدعون أن النصرانية في لبنان في خطر اذا لم تبادر فرنسا بإنقاذهم وكثيراً ما كانت تستجيب لهذا النداء، فكانت تتدخل لدى الباب العالي بواسطة سفيرها ، ولكن الحكومة الفرنسية حرصت في نفس الوقت على أن لا تمضي في هذا السبيل الى حد إثارة غضب السلطان الذي كان حليفها بواسطة الامتيازات الممنوحة لفرنسا سابقاً (٢). وهذا يوضح أن الموارنة عندما كانوا يقدمون الشكاوى الى فرنسا ضد الدولة العثمانية، لفرض حمايتها عليهم، رغبة منهم أن يكونوا حكاماً مستقلين يمثلون دولة نصرانية داخل جسم الدولة الاسلامية العثمانية، وهذا دفعهم الى اتهام الدولة العثمانية زوراً وبهتاناً، ليتمشى ذلك مع مصالحهم الذاتية.

ولكن الباب العالي كان يفطن الى تلك العلاقات القائمة بين الموارنة وفرنسا فهو لا يسمح أبداً أن تقوم دولة مارونية مستقلة، مهما بلغت درجة الصداقة بينه وبين دولة أخرى أو مهما بلغت الواسطة بينه وبين طائفة من رعاياه - الا أن يتم ذلك رغماً عنه وفي ظروف خارجة عن إرادته - كان هذا موقف الموارنة رغم أن الدولة العثمانية حرصت على وضع نشاط الطوائف غير الاسلامية في قوالب وأوضاع محدودة داخل ممتلكاتها، الا أنها كانت بعيدة كل البعد عن روح التعصب الديني، بل أن هذه الطوائف كانت تتمتع

---

١) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية ...، ص٤٢.
٢) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص٨٧.

في الدولة العثمانية، بحرية تامة تحسدها عليها الطوائف النصرانية واليهودية في أوروبا نفسها(١).

ولكن موقف فرنسا في فرض حمايتها على الأقليات الكاثوليكية النصرانية ، بحجة أنهم مضطهدون في الدولة العثمانية ، يعتبر ادعاء باطل جملة وتفصيلا ، وهم الذين عاشوا قروناً طويلة تحت ظل الحكم الاسلامي في رغد من العيش وسلام وأمن دائمين . ويدخل هذا الموقف ضمن التبرير الغربي لمسألة مشروعة في نظرهم تبرز عملية التدخل من طرف دولة في شئون دولة ثانية.

كتب لامارتين في رحلته الى الشرق: «إن الشعب الماروني يشكل شعباً على حدة في الشرق، تكاد تكون جالية أوروبية رميت بالمصادفة في وسط الصحراء. انها جالية مكونة تماماً يمكن أن تكون لأوروبا على تلك الشواطئ الجميلة. ان المستقبل هنا أكبر منه في مصر» (٢). وهكذا يفضح هذا المستشرق نفسه بنفسه. وهو الذي طبع على المراوغة وتغيير الحقائق فهو يخبر أن الموارنة عبارة عن جالية أوروبية رميت بالمصادفة في وسط الصحراء، ونحن نسأله أية صحراء يعني ؟ فهل المقصود هو جبل لبنان المعروف بخيراته وطيب هوائه وروعة مناخه وخضرة أرضه ؟ نعم كان يقصد جبل لبنان الا أنه ناقض نفسه حيث قال: «يمكن أن تكون لأوروبا على تلك الشواطئ الجميلة» ولكن هي طريقة المستشرقين في الكذب والخداع، ليلفت النظر الى أن البقعة التي تفرض فرنسا حمايتها على أقلية فيها، انما هي صحراء قاحلة ، حتى يرجع كل فضل وتطور في هذه المنطقة فيما بعد الى فرنسا ودورها في المنطقة ويبرر بذلك الاستعمار الأجنبي للبلاد.

لهذا كله لم تكتف فرنسا في فرض حمايتها على الموارنة فقط بل تعدتها الى ادعائها لحماية جميع الكاثوليك في الشرق عامة وبغض النظر عن جنسياتهم مما يجعلنا نكرر دائماً أن تلك الحقوق اكتسبتها فرنسا من امتيازات عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م. والتي صبغت سياستها في الدولة العلية بالطابع الرسمي، كما ان معاهدة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م التي سجلت أهم المكتسبات لفرنسا وكانت قائمة لسلسلة من الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوروبية الكبرى فيما بعد. وفي المادة ٣٢ من معاهدة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م أكد الباب العالي أن المطارنة التابعين لفرنسا وسائر الرهبان الذين

---

١) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص٨٨.
٢) وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية والسياسية...، ص٤٣.

يمارسون الدين داخل بلادهم - مهما كانت الطائفة التي ينتمون اليها أو الجنس - لم يتعرضوا لأية مضايقة بشأن ممارستهم مهام وظائفهم حيث يقطنون ضمن سيادتنا في أرجاء سلطنتنا منذ أمد بعيد.

ولقد أكدت فرنسا مراراً على حقوقها بحماية الكاثوليك في الدولة العثمانية في صلح باريس عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م أو بتكليف الدول الكبرى لفرنسا، بالتدخل في سورية ولبنان عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، وكذلك أكدت الفقرة السابعة من المادة ٦٢ لمعاهدة برلين في عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ، أن الحقوق التي تحصل عليها فرنسا تبقى محفوظة لها، ولكن من المسلم به ألا يحدث أي تبديل في الوضع الراهن للأماكن المقدسة في فلسطين . وأكدت الفقرة السادسة من نفس المادة باعتراف الدولة العثمانية بحق الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين للدول الكبرى في الدولة العثمانية بممارسة الحماية الرسمية على الأشخاص المذكورين أعلاه - الكهان وزوار الأماكن المقدسة ، والرهبان لأية جنسية أو طائفة ينتمون - وعلى ديانتهم ومؤسساتهم الخيرية وغيرها من الأماكن المقدسة وأماكن أخرى (١).

ولاثبات مطامع فرنسا في جبل لبنان، نورد شهادة صريحة في مخطوطة يدلي بها أحد رواة الدروز (يوسف أبو شقرا) الذي وقعت في عهده حوادث فتنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م. وقبل الحديث عما جاء بالمخطوطة نلفت النظر الى كلام يوسف أبو شقرا في أنه يرجع اللوم على الموارنة لأنه من الدروز، كما يرجع الموارنة اللوم كل اللوم على الدروز، حتى أنهم يتجاوزون ذلك فيرجعون أسباب الفتنة، للمسلمين عامة وهذا افتراء على الحقائق التاريخية الثابتة التي تقول أن الدول الأجنبية سبب كل البلاء الذي وقع في بلاد الشام(٢). وسبب الفتنة والحروب التي قامت بين الطوائف المختلفة في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. هو مطمع الدول الأجنبية في بلاد الشام، حيث تسابقت للحصول على أكبر قدر من الغنيمة والفائدة التي ترجوها، وهذه الوثيقة تمثل مطامع فرنسا في جبل لبنان والتي جاء فيها: « وكانت المملكة الفرنسوية (يعني فرنسا) في ذلك الحين قد بلغت من القوة مبلغاً عظيماً وصلت من المجد على عهد امبراطورها نابليون الثالث أوجاً رفيعاً وقد كان هذا الأمبراطور يحدق في

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين، ص٢٧٢-٢٧٣.

٢) عبد المنعم الجميعي: ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد علي في جبل لبنان ١٨٣٥-١٨٤٠، (الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٧م)، ص٩٠ -١٠٠.

جبل لبنان تحديق طامح الى افتراع هضبة طامع في ضمه الى ملكه ويؤنسه فيه وجود الطائفة المارونية الشديدة الاخلاص والتعلق بالدولة الافرنسية فكان الفرنسيس لا يفتأون عن بث روح الشقاق والنزاع بين سكان الجبل لعل لهم في نشوب حرب ضروس بين الدروز والنصارى سبيلا الى احتلال لبنان ووضع سيطرتهم عليه فانبثت هذه الروح الشريرة بين جميع النصارى ونما لهم جذور متباينة الأصول والفروع فعقدوا الخناصر ووطنوا الأنفس والعزائم على اضرام حرب يستطير شررها الى جميع الأنحاء ويعم ضررها الأصدقاء والأعداء فشرعوا يزيفون عن خطة النصف والعدل غير مراعين حقوق الجوار وجعل بعضهم يقتفي آثار بعض في الافتراء وتحريك عوامل العداء كيف استطاعوا الى ذلك سبيلا. وأحست الدولة العلية بما غدا يدور عليه محور السياسة الافرنسية في جبل لبنان فجعلت تحاسن الدروز وتخيفهم بالنعم حتى غدت على ثقة تامة من فرط إخلاصهم لها وشدة تعلقهم بالعرش العثماني الأنور وبناء على ذلك غدت المنافسة بين الطائفتين المذكورتين (الموارنة والدروز) تتعاظم وأسباب المباينة تتفاقم حتى برزت المشاحنات من حيز القول الى الفعل وابتدأ اللبنانيون في تشخيص دور هو أتعس الأدوار وأشأمها من رواياتهم التاريخية أما المبتدئون بالتمثيل فهم اخواننا الموارنة قدحوها شرارة فكانت شرارات تطايرت في سائر الأنحاء قابلين معظمهم الجبل بنيران الحرب الأهلية الأكلة (١).

رداً على الوثيقة السابقة ما جاء في مذكرات السلطان العثماني عبد الحميد الثاني السياسية حيث يقول : « ومن المضحك القول بأن اضطرابات الأرمن لم تكن مدبرة. لقد بدأت هذه الاضطرابات بعد إنشاء المدرسة الدينية في مزريفون عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م فعكف متخرجو هذه المدرسة على إنشاء منظمات بقصد جمع الأرمن في أمة واحدة وتبين أن المنظمة الثورية الأرمنية في أثينا قررت إعلان العصيان في بلادنا، ثم ظهرت منظمات «اندون ريدجودي» . وبمناسبة عيد رأس السنة ألصقت على جدران كنائس الأرمن منشورات تدعو الى إعلان العصيان بشكل سافر وليسأل : أي دولة تصبر على هذه الأعمال كما صبرنا نحن.؟

وعلى مر السنين زاد الأمر من استفزازهم، الأمر الذي أدى الى زيادة نقمة وغضب شعبنا، فقام قومته عليهم. جرت مذابح اليهود في روسيا فهل تجرأت إحدى الدول على منع اخوانهم النصارى؟ اما اذا كان الأمر مع المسلمين فالوضع يختلف، فقد استشاطت انجلترا غضباً وهددتنا بتبني هذه المسألة.

---

١) يوسف خطار أبو شقرا : الحركات في لبنان في عهد المتصرفية، ص٩٩.

وقد كانت انجلترا وفرنسا مهتمتين بسورية اهتماماً شديداً وتتنافسان علناً في سبيل تثبيت نفوذها فيها، فتدخلت في لبنان وكانت فرنسا بجانب الموارنة تمدهم بالسلاح، وكانت انجلترا بجانب الدروز تمدهم بالسلاح أيضاً ونسجت فتنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م بأصابع فرنسا وانجلترا تحقيقاً لمطامعهما الشخصية لأن مشكلة الأرمن تناسبها لأنها ستؤدي الى احداث اضطرابات في الشرق وقد تأكد في برلين مرة أخرى أن حكومتنا كانت عاجزة عن القيام بأي شيء لمنع النقمة الشعبية العارمة التي أسفرت عنها المذابح (١). الا أن أمل الأرمن في إنشاء دولة مستقلة لا يعدو كونه حلماً من أحلام اليقظة ، انهم منقسمون الى أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك، والصراع بين هذه المذاهب لم يهدأ يوماً، فكيف يمكنهم أن يؤسسوا دولة مستقلة ثم ان مليوناً من الأرمن تابعين لروسيا ومليونين لايران ومليوناً ونصف للدولة العثمانية وأخيراً فان التاريخ يشهد أن صفات الأرمن لا تخولهم تأسيس دولة بمفردهم وإبقائها على سطح الأرض (٢).

يتضح لنا أن المستفيدين في الواقع من إثارة هذه الفتنة لا بد أن يكونوا هم الذين دبروا لها في الخفاء، وهم الذين اتبعوا سياسة فرق تسد ، بين أهل البلاد وهم فرنسا التي انحازت الى جانب الموارنة وبريطانيا التي انحازت الى جانب الدروز ولو أنها لم تتدخل لانتهت مسألة الخلاف في نطاق ضيق ، ولكن كانوا كلما هدأت نار الحرب أوقدوها من جديد «هم واليهود» الذين استفادوا أكبر الفائدة في هذه النكبة الشديدة الوطء على البلاد والعباد، وذلك ليتمكنوا من تركيز قواعدهم في بلاد الشام. ومن ثم تكون انطلاقة لتحقيق أحلامهم في البلاد كلها، ومما يثبت ذلك ما جاء في التقرير الذي بعثه السير ريتشارد وود قنصل انجلترا الى ناظر الخارجية ، الذي نشرته انجلترا في الكتاب الأزرق في عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ، جاء فيه : « ان أسباب الفتنة، كانت الباعث الوحيد لحدوثها، هو منبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد»(٣). «حيث كانت تساعد هذه الدول الأجنبية القوى النصرانية في البلاد وتحريضها لتطلب ايجاد قوة أجنبية محتلة للبلاد بشكل دائم» ، يوضح ذلك مقتطفات من

---

١) السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد : مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨، (الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٤٤.

٢) السلطان عبد الحميد الثاني : المرجع السابق، ص٤٥.

٣) أنور الجندي : سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الاسلامية، (القاهرة مكتبة التراث الاسلامي، ١٩٨٤)، ص٤٣.

خطاب أرسله اللورد دوفرين الى السير بولفر في دمشق يقول فيه : « أتشرف فأرسل اليكم طيه صورة عريضة رفعها رؤساء الطوائف النصرانية الى المندوبين الأوروبين ومن مطالعتها تعلمون سعادتكم أن موقعيها خلا طلبهم الثأر والعوض أعربوا في فقرتها الأخيرة عن شدة رغبتهم في أن تستمر قوة أجنبية محتلة للبلاد»(١). ثم يتابع «ولكن حماية فرنسا لجميع الكاثوليك في الشرق لم يكن أمراً فاصلا إذ استطاعت بعض الدول مثل النمسا وألمانيا وايطاليا في الحصول على بعض الحقوق في حماية الكاثوليك في الشام أيضاً».

ومن جهة أخرى فقد كان النصارى الشرقيون محل التنافس الدبلوماسي حيث قامت السفارات تفرض ضغوطها على الدولة العثمانية بدعوى حماية الأقليات النصرانية الموجودة في بلاد الشام فكانت روسيا تدعي حماية الأقليات الأرثوذكسية كما ادعت فرنسا حماية الأقليات الكاثوليكية ولم تفرط النمسا كذلك بكونها قوة كاثوليكية وادعت أن لها حقوقاً تاريخية في المنطقة، ولقد تضاعفت جهودها في اسطنبول بمساعدة السفير الفرنسي لدى السلطان العثماني، ولم تقف انجلترا مكتوفة الأيدي حيث برز ادعاؤها بحماية النصارى البروتستانت وبرزت هذه الاتجاهات متصادمة مع المسلمين والأقليات النصرانية الأخرى من أرثوذكسية وكاثوليكية.

وكذلك اتسعت الاهتمامات الرومانية في المشرق، وأخذت اتجاهين جديدين الأول تنظيم اللاتين، والثاني إقامة علاقات بين المركزية الرومانية والأرثوذكسية، وأثيرت الحقوق التاريخية للكاثوليك في الأماكن المقدسة في فلسطين من قبل اليونانيين المدفوعين من قبل روسيا وانجلترا، المتمركزين في المشرق، ولم تكن حماية الأماكن المقدسة في فلسطين مدعمة من قبل فرنسا. بل جعلت حركة مجاملة من قبل السلطان بمناسبة تنصيب بي بي التاسع B.B. IX وبرزت في روما عملية جريئة في ٢٠ شعبان عام ١٢٦٤هـ/٢٣يوليو (تموز) عام ١٨٤٧م وهي عودة البطريرك اللاتيني الى القدس الذي لم يقم بتلك المهمة منذ خروج الفرنسيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد احتل بي بي التاسع IX هذا المنصب كتجربة ومقدمة للبعثات الكاثوليكية في بلاد الشام والمشرق. وعملت فرنسا

---

١) فيليب وفريد الخازن: مجموعة المحررات السياسة والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠هـ/١٩٤٠م ، (الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني: عام ١٩٨٣م)، جـ٣ ، ص١٠٣.

على حماية بطريركها في القدس عن طريق تدخلها لدى الباب العالي حتى لا يدع فرصة لـــروسيا بالتدخل، وحصل على فرمان سلطاني بذلك(١)

هذا وقد ظهرت آثار سياسة فرنسا الاستعمارية على كثير من سكان منطقة بلاد الشام، فهم يشعرون أنهم يعرفون اللغة الفرنسية أكثر من اللغة العربية وأنهم أرقى من سكان البلاد ، هؤلاء هم الذين يطلبون فصل لبنان عن سورية، أو هم البقعة التي نمت فيها هذه الفكرة... لقد مال الكثيرون الى فكرة لبنان الكبير تحت وصاية فرنسا، وهذا يصدق على ذوي المراتب الرسمية من الموارنة (٢).

ولم تقتصر دعوى حماية الكاثوليك في بلاد الشام على فرنسا وروما بل تعدتها الى النمسا كذلك، فعندما بدأت فرنسا تبدي بعض التراجع في دورها مع الموارنة في لبنان، شمرت النمسا عن ساعدها، وتقدمت تحمل دعوى حماية الأقليات الكاثوليكية، وتمثلت هذه الدعوى بالمحاولة التي قام بها «مترينخ» أمام الباب العالي، وذلك طبقاً لتوصيات انترناسيو ستورمر، الذي أصدر تعليمات تنص على قيام النمسا بدور الحامي للمصالح النصرانية على أقل قدر ممكن من التدخل الخارجي في شئون لبنان الداخلية. وفي نفس الوقت، كتب مترينخ الى البطريرك الماروني طالباً منه باسم الامبراطور أن يعلن بالنيابة عن ملته عن طاعته للسلطان العثماني ، وأن يلتزموا الهدوء الى وقت يمكن فيه الحصول على ضمانات كافية، وطلب منه بشكل خاص أن يتجنب أي اضطرابات لا ينتج عنها الا الحاق الضرر بالحرية التي حصلوا عليها، وقام إمبراطور النمسا وشعبها على أثر ذلك بتقديم هبة مالية ضخمة الى نصارى لبنان(٣).

ومن الواضح من مجهودات النمسا مع الأقلية المارونية والأقلية النصرانية الكاثوليكية ، أن سبب طلبها منهم لزوم الهدوء وعدم احداث اضطرابات وإعلان ولائهم للسلطان العثماني، هو الاستقرار في البلاد والعمل على اغتنام الفرص التي تمكنهم من التدخل المباشر في شئون

---

١) J.L. Francois Prima : Histoire Universelle des Missions Catholioues, (Librairie Grund, paris), P. 390-391.

٢) كراين : كراين وسورية (وهي النشرة الأولى من النشرات التي يصدرها حزب الشعب السوري، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها في ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م)، ص٢٣.

٣) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ...، ص٤٠٥.

البلاد ، وأن طلب النمسا هذا ، هو تصرف ذاتي في أمور هذه الأقلية ، الى الوقت المناسب الذي تأخذ فيه التعليمات من الذين ادعوا بسط حمايتهم عليها ، فالخبث دائماً يحكم معاملاتهم مع غيرهم، تحقيقاً لمصلحتهم.

وفي لندن حالف النجاح السفير النمساوي بارتون نيومان حيث فشل ستورمر طوال شتاء عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م وبعد جهد تمكن هذا السفير من إقناع بالمرستون لإعلان سياسة تدعم النصارى، وكان رد الفعل لكل من "بيل" و "افردين" سريعاً ومشجعاً لإيجاد إدارة جديدة للنصارى في سوريا(١). وكانت النمسا قد استطاعت منذ معاهدة كارلوفيتز Karlowitz التي عقدت في عام ١١١١هـ/١٦٩٩م مع الدولة العثمانية الحصول على مرتبة مساوية لفرنسا في حماية الكاثوليك في الشرق.

وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م عين المطران فاليرغا Valerga بطريركاً لاتينياً على القدس في وجه مقاومة فرنسية عنيفة (٢). أما في لبنان فقد كان يمثل النمسا في بيروت العاصمة فون دي فكبكو Von de Vecebco الذي صرح منذ وصوله الى بيروت أن حماية الكاثوليك في الشرق أصبحت الآن من حق النمسا بعد أن فقدت فرنسا كل حق من أن تستقل بهذه الحماية. وبهذه المناسبة قام قنصل النمسا فكبكو بتقديم ٥٤٠٠ ليرة ذهبية عثمانية لبطريرك الموارنة ليوزعها على المنكوبين من أبناء طائفته في حوادث عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وقام بتوزيع مبالغ أخرى على رجال الدين الروم الكاثوليك وأعلن في حضور البطريرك، بأن حكومته مستعدة لدفع مليون فرنك نمساوي إذا قبلت الطوائف الكاثوليكية فرض حماية امبراطورية النمسا عليها(٣).

وهذا ما يدعو للعجب فعلا حيث أن حكومة النمسا وبدون مواربة مستعدة لدفع الرشاوي للطوائف الكاثوليكية في بلاد الشام لتقبل حمايتها، ولماذا كل هذه الأموال وهل تدفع هذه الدولة وأمثالها الأموال الطائلة دون فائدة تعود عليها، كلا فهي قد ضمنت لنفسها فائدة أعظم بكثير مما تكون قد دفعته، وذلك ببسط نفوذها على البلاد في منافسة استعمارية مع الدول الكبرى وفي انتظار الفرصة للانقضاض - مع الآخرين - على الدولة العثمانية عندما بدأت تشكو من مشكلاتها الداخلية والخارجية، التي سببتها لها الدول الاستعمارية المستفيدة.

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ....، ص٤٠٦.
٢) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين، ص٢٧٣.
٣) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص١٧٦.

والحقيقة أن تلك الطوائف لم تكن بحاجة الى الحماية من جانب أية دولة أجنبية لأنها تعيش بسلام منذ قرون طويلة في ظل الدول الاسلامية، ولو كانت في حاجة للحماية لطلبتها ، بدلاً من أن تعرض عليها وقد تقبلها أو ترفضها. حيث وجد الاكليروس اللاتيني أن (الكاثوليك) ومعظمهم من أصل أسباني وإيطالي يتمتعون بامتيازات أجنبية وبحماية وزارة الخارجية الفرنسية ، بينما كانت الطوائف النصرانية المختلفة لا تعرف حدودها وحقوقها بشكل واضح بالنسبة لبعضها البعض ، وكثيراً ما احتكمت الطوائف النصرانية الى السلطات الاسلامية المحلية (١).

ومما هو جدير بالذكر أن النمسا كانت تسعى لموافقة البابا على أعمالها في الشرق بدعوى حماية الأقلية الكاثوليكية ، واعترافه الشخصي بحقوقها في ذلك الى جانب فرنسا والذي كان يحثهم بدوره لحماية النصارى في الشرق والاحتفاظ بالحقوق المزعومة لها في الأراضي المقدسة في فلسطين(٢).

وفي الواقع أن ادعاءات فرنسا بحقها في حماية الكاثوليك في الشرق وبلاد الشام خاصة دون اعتبار لجنسياتهم - مستثنية بذلك غيرها من الدول الأوروبية الكاثوليكية - لم يكن دائماً أمراً حازماً ، حيث استطاعت النمسا كما ذكرنا سابقاً ومنذ معاهدة كارلوفيتز Karlowitz التي عقدت في عام ١١١١هـ/١٦٩٩م مع الدولة العثمانية الحصول على مرتبة مساوية لفرنسا في حماية الكاثوليك في الشرق .

ثم جاء دور ألمانيا - بعد تأسيس الدولة الألمانية الموحدة - وإيطاليا في منازعة فرنسا في حقوقها التقليدية بحماية جميع الكاثوليك في المشرق (٣). ففي عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م وعند صدور التصريح الألماني، أخذ الكاثوليك الألمان في فلسطين ومعظمهم من المنصرين يعملون على أسس قومية ألمانية. وعلى إثر نزاع في كنيسة الميلاد ببيت لحم، طلب اثنان من الرهبان الكاثوليك الألمان وضع نفسيهما تحت الحماية القنصلية الألمانية وأعطت الخارجية الألمانية تعليماتها الى قنصلها في القدس : «بأن جميع الألمان

---

١) كارل بركلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص٥٦٧.

٢) مجلة البشير : مقابلة حبر الأحبار معتمدي فرنسا، (بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، عام ١٨٧١م، شريط ميكروفليم رقم ١٢٢، عدد٦٢ تشرين الثاني ١٨٧١م)، ص٢٧٥. (ويوجد لدي نسخ من هذا الشريط).

٣) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين ، ص ٢٧٣.

الموجودين خارج البلاد أو في الشرق لهم حق التمتع بالحماية الألمانية لشخصهم، سواء كانوا رهباناً أم غير ذلك».

وهكذا نلاحظ أنه عندما كانت مسألة الحماية لا تتعدى سوى أفراد قلائل فان ذلك لم يكن محل نزاع بين فرنسا وألمانيا، ولكن عندما وضعت جمعية فلسطين الألمانية الكاثوليكية نفسها ومؤسساتها تحت الحماية الألمانية، شكل ذلك تحدياً مباشراً لادعاءات فرنسا التقليدية بحماية جميع كاثوليك الشرق. فعمدت فرنسا للدفاع عن مصالحها والتدخل لدى البابا لكسبه الى صفها ، وفي نفس الوقت أخذت تمارس ضغوطاً على جمعية فلسطين لكي تضعها تحت الحماية الفرنسية. ولما فشلت في مسعاها أخذت تضغط نفسياً على الآباء اللعازاريين الألمان العاملين مع جمعية فلسطين لكي يضعوا أنفسهم تحت حمايتها. فاضطر الراهب يوليوس لوميتر Julius Lemaitre الى مغادرة القدس. أما الراهب وليم شميدت Wilhelm schmidt والراهب رايشن الذي حل محل لومتير، صمدا بثبات أمام الضغوط الفرنسية ورفضا وضع نفسيهما تحت الحماية الفرنسية (١).

وهنا يطرح السؤال نفسه، لماذا يرفض الرهبان الألمان الكاثوليك أصلا حماية فرنسا الكاثوليكية ؟ ولماذا يتمسكون بحماية بلدهم الأم ؟ . ولتوضيح هذا الموضوع ، فإن الأمر لا يتعلق بحماية كاثوليكية للأقلية الموجودة في بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين ولا يتعلق في الواقع بمسألة دينية أبداً، اذ لو كانت كذلك لقبل الألمان حماية فرنسا، ولكن الرهبان الألمان تمسكوا بحماية المانيا مع كونها ذات أكثرية بروتستانتية، لأن ذلك في مصلحة ألمانيا سياسياً وحتى لا يدع الفرصة تفوت على ألمانيا بلدهم الأم في بسط نفوذها على بلاد الشام ، وتمهيد أرضية لها في الأرض المقدسة بشكل منافس للدول الأجنبية الأخرى ، فإذا ما ضغطت عليهم فرنسا غادر بعضهم القدس حتى يفوتوا على فرنسا هذه الفرصة، مما يثبت لنا مدى التنافس الشديد على بلاد الشام بحجة دعوى حماية الأقليات النصرانية فيها واستغلال الدين في خدمة السياسة.

وهكذا استمر الموقف بين فرنسا وألمانيا حول حماية الأقليات الكاثوليكية في المشرق، وعادت فرنسا من جديد تتحرك باتجاه الفاتيكان في سبيل الحصول على دعم منه ، كذلك فعلت ألمانيا والتي حذرت الفاتيكان من الوقوع في شباك الدبلوماسية الفرنسية. ويبدو أن البابا كان يدرك أبعاد

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين، ص٢٧٤-٢٧٥.

الانحياز الكامل لجانب فرنسا، خاصة أنه لا يقر تماماً بحماية فرنسية شاملة على جميع الكاثوليك في المشرق. ورغم الاحتجاجات الفرنسية اعترف الفاتيكان بالحماية الألمانية على مؤسسات راهبات بورمبيه الكاثوليكية في مصر وفلسطين. ومما هو جدير بالذكر أن موقف الباب العالي منذ اندلاع النزاع بين ألمانيا وفرنسا بشأن الحماية تتمثل بتمسك الحكومة العثمانية بالفقرة السادسة من المادة ٦٢ لمعاهدة برلين بأن تمارس كل دولة الحماية على رعاياها في الدولة العثمانية (١).

ولهذا وجدت الفرصة سانحة أمام الدول الأوروبية بادعاء حماية رعاياها من الطوائف النصرانية، فأصبحت بمرور الوقت تتمتع بحمايتها الفعلية، ولم تعد خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وحماية السلطان ، وقد ظهر التنافس الشديد بين الدول الأجنبية، خصوصاً بين فرنسا وبريطانيا وروسيا وألمانيا حتى أمريكا التي بدأت تتطلع للانطلاق خارج حدودها والاستحواذ على مصالح لها في بلاد الشرق العربي الاسلامي(٢).

ولقد تغلغلت المطامع الاستعمارية بأطر إنسانية ودينية تحت دعوى حماية الأقليات في بلاد الشام. فقامت بريطانيا تدعي حماية الأقليات البروتستانتية في بلاد الشام : فكتب البريطاني الشهير شافتسبري في رسالته الى وزير خارجية بريطانيا العظمى بالمرستون بتاريخ ٣ شعبان عام ١٢٥٦هـ/ ٢٥ سبتمبر (أيلول) ١٨٤٠م يقول فيها « لا بد من تحويل سورية الى محمية بريطانية ويتطلب هذا رأسمال وقوة بشرية «ولو فكرنا جيداً في موضوع إعادة توطين اليهود في فلسطين لوجدنا أن هذه أرخص وأضمن وسيلة لتوفير كافة الامكانيات في هذه المنطقة غير المكتظة بالسكان» وهذا ادعاء كاذب، وتجني على الحقيقة اذ أن العرب الفلسطينيين يسكنون فلسطين منذ أقدم العصور، ولقد عرفت فلسطين بأرض الكنعانيين وهي منذ القدم تعتبر محط أنظار الشعوب والقبائل المهاجرة من أراضيها القاحلة الى أرض فلسطين الخصبة الوفيرة الكلأ والماء والغذاء(٣).

وفي الواقع كانت بريطانيا بعيدة الى حد ما عن تحقيق بعض الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا بأسلوب الود والعلاقات الحسنة، وروسيا حصلت عليها بأسلوب القوة فحصلتا على امتيازات داخل الدولة

---

١) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين، ص ٢٧٥-٢٧٦.
٢) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص ٨١-٨٢.
٣) رفيق شاكر النتشة : المرجع السابق ، ص٨٤.

العثمانية، ولعل السبب في ذلك هو انشغالهم بالنشاط التجاري الذي جاء نتيجة للثورة الصناعية التي ظهرت في بريطانيا ، وكذلك لعدم وجود ركائز للاستناد عليها كما كان لكل من فرنسا وروسيا حيث استندت كل منهما على طائفة معينة في سبيل تدعيم وجودها في الأراضي المقدسة في فلسطين فتجد أن بريطانيا غيرت موقفها في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي بسبب عوامل هامة من أبرزها حملة نابليون على مصر والشام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وظهور محمد علي في المنطقة مما جعل بريطانيا تنتبه الى أهمية المنطقة العربية خاصة بالنسبة لمواصلاتها في الهند وضرورة حمايتها من سيطرة أية دولة أخرى. ومن هنا كان السبب الرئيسي في العزم على تأسيس قنصلية لها، ثم تأسيس أسقفية انجليكانية في القدس، وكان الرعايا الانجليز قبل ذلك تحت اشراف القنصل البريطاني في حلب. أما بعد تأسيس القنصلية البريطانية في بيروت فقد تمثل الوجود البريطاني في فلسطين بوجود وكيل القنصل العام في صفد وعكا.

ولكن بريطانيا لم تكتف بذلك بل اعتزمت على تأسيس قنصلية لها في القدس مما جعلها تقوم باجراءات ومفاوضات مع محمد علي باشا والسلطان العثماني معللة ذلك بقدوم زوار بريطانيا الى الأماكن المقدسة مع عدم وجود قنصلية بريطانية لهم في القدس، وادعت وجود حاجة الطائفة البروتستانتية في القدس الى الحماية والدعم، ولقد نجح السفير البريطاني في اسطنبول في استصدار فرمان في عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م لإقامة قنصلية بريطانية في القدس، واختارت الحكومة المستر ينغ أول نائب قنصل. وقد ارتبطت قنصلية القدس بالقنصلية البريطانية في القاهرة وحتى عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وبعدها نقلت تبعية القنصلية البريطانية في القدس الى القنصلية العامة في بيروت. وبقي ينغ في منصبه نائباً قنصلياً لبريطانيا حتى عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م وأصبح بعدها قنصلا، ثم تولى أمور القنصلية من بعده المستر جيمي فين منذ عام ١٢٦٢ - ١٢٨٢هـ/١٨٤٥ - ١٨٦٤م ، وأصبح عدد الوكالات القنصلية في بلاد الشام مع بداية عهد القنصل خمس وكالات ، تمركزت في يافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م رفعت وكالة القنصلية في يافا الى قنصلية مرتبطة بالقنصلية البريطانية العامة في بيروت(١).

---

١) بهجت حسين صبري : لواء القدس ١٨٤٠-١٨٧٣م، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين ، (منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، عمان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية) ، جـ١ ، ص ٣٥-٣٦.

ولقد مارس القنصل البريطاني في القدس صلاحياته على نطاق واسع، حيث كان يقوم بجولات تفتيشية للمناطق الداخلة في مجال اختصاصه، يقدم بعدها تقريراً وافياً عن الأوضاع في هذه المناطق من حيث الحالة التجارية والزراعية والصناعية والثروة الحيوانية وعدد السكان، وعمل هذا القنصل على ربط القدس بأوروبا برقياً. ولم يضيع هذا القنصل وقته ولا وقت حكومته، حيث تابع تنفيذ سياسة الحكومة البريطانية في بسط حمايتها على اليهود ، وكان عددهم في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م حوالي ١٢٠ عائلة فقط تمتعت بالحماية البريطانية.

وعندما أدركت بريطانيا أن كلا من روسيا وفرنسا قد استخدمت بعض الطوائف النصرانية كركائز لوجودها في القدس. ونظراً لعدم وجود طائفة بروتستانتية في القدس للأعتماد عليها، لذا فكرت بريطانيا في تقوية الطائفة مستخدمة في ذلك عدة أساليب منها التنصير على المذهب البروتستانتي بين اليهود وجذب بعض أفراد الطوائف النصرانية الأخرى لاعتناق المذهب البروتستانتي كما اتخذت من الجمعيات وسيلة لتحقيق أهدافها مثل جمعية يهود لندن وجميعة التنصير الكنسية، وجمعية القدس الأدبية (١).

هذا بالنسبة لتدخل بريطانيا في فلسطين، أما في بلاد الشام عامة فقد سعت بريطانيا جاهدة لبسط نفوذها في بلاد الشام حيث قامت بتقديم تصريح علني بالنيابة عن النصارى في سوريا واكتفت بالتأكيد على إجراءات ادارية جديدة تضمن حكماً عادلا لجميع الطوائف. ولكون بريطانيا مستشاراً رئيسياً لحكومة السلطان فإنها لم تختر الطريق العلني في تخصيص أي فريق باهتمامها الخاص، ويبدو هذا الموقف واضحاً في موقف بونسونبي الذي كان على وشك إعلان نفسه وحكومته حماة لمصالح النصارى في سوريا إلا أنه لم يقم بذلك بحجة عدم توفر معلومات كافية تفيده في مسعاه(٢).

هذا وقد اعتبرت في الحقيقة أي منطقة في الادارة الحكومية العثمانية ابتداء من المالية والعدل الى شئون الرعية والنواحي السياسية، إلا وكان هناك تدخل مباشر من القناصل الإنجليز وخصوصاً في سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. حيث أخذ الانجليز الدور الريادي في هذا المجال ، وذلك

---

١) بهجت حسين صبري : لواء القدس ، ص ٣٦.

٢) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ...، ص٤٠٦.

بسبب اقتناعهم بأنه لولا مساعدة الحكومة البريطانية للعثمانيين، لما تمكنوا من البقاء في سورية الى فترة أخرى.

هذا كان رأي الانجليز وبكل تبجح ووقاحة حتى أن هذا الاتجاه مثله القنصل (وود) حيث تصرف لعدة سنوات وكأنه هو الحاكم العام لسوريا حيث قال : «بالطبع فإن النفوذ البريطاني لم يكن فقط للسلطة العليا ولكن البلاد تكاد تكون مدارة بواسطتنا حيث أن جميع الحكام والمسئولين تقريباً مدينون لنا في تعيينهم حيث قمت بتعيين رجالي الخاصين في مختلف المكاتب ليكونوا معاونيين لهؤلاء الحكام ومراقبين عليهم في نفس الوقـت(١).

ولم يخف تصميم العملاء الانجليز في سوريا على مواجهة أي تحركات غربية داخلية، وعلى جعل عنصر المبادرة في أيديهم وذلك بهدف زيادة النفوذ البريطاني في كل بلاد الشام على حساب أي نفوذ آخر فرنسياً كان أم روسياً. ولقد أصبح للانجليز نفوذ واضح بالفعل، بحيث أن أمير لبنان نفسه لم يكن يتردد في التعبير عن إخلاصه الكامل لبريطانيا. التي لم تتردد في القيام بمجهود كبير لدعم الرؤوساء الاقطاعيين من النصارى والدروز، وكانوا متحمسين جداً للوصول الى الهدوء والاستقرار الاداري في سوريا وعملوا على تحقيق ذلك المطلب كأساس هام لتحقيق أهدافهم(٢).

ولقد تمثل نشاط بريطانيا في الشام كذلك عن طريق قنصلها العام في سوريا - الكولونيل روز Rose - الذي حاول أن يرقى نفوذ بلاده الى مرتبة النفوذ الفرنسي أو يتفوق عليه، مستنداً الى تأييد سفارته في اسطنبول لأعماله، حتى أنه اعتقد لبعض الوقت ، أن في مقدوره الحلول مكان وكلاء فرنسا في منطقة الجبل بصفة نهائية، متغاضياً بذلك عن دور الموارنة وارتباطهم القوي بفرنسا ، ولكن الموارنة لم يعيروا تهديدات الكولونيل روز أي اهتمام، لأنهم كانوا على ثقة من حصولهم على التأييد المطلق من جانب فرنسا حامية المذهب الكاثوليكي، وتلقى الانجليز رداً قاسياً ، ولم تلق إرسالياتهم الانجيلية في الجبل سوى الطرد والعنف والأذى واتهمهم البطريرك الماروني بالهرطقة، واتهم كل من يصغي اليهم بالكفر(٣).

وكان من أكبر أهداف بريطانيا هو التدخل المباشر في بلاد الشام ،

---

١) Moshe' Ma'oz : Ottoman Reform in Syria and Plaestine. p 212

٢) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ، ص ٤٠٧-٤٠٨.

٣) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص ١٧٤- ١٧٥.

لأنها أرادت أن تحمي طرق المواصلات المؤدية الى الخليج العربي ومن ثم الى مستعمراتها في الهند، حيث جاء على لسان أحد الوزراء الأسبان في القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي ما يبين أهداف بريطانيا في السيطرة على المنطقة، فقال: «إن أهداف السياسة البريطانية واسعة جداً بحيث لا تمكنها من القيام بدور الحامي لأي من الطوائف»، ويقدم هذا القول تفسيراً للاتهامات التي وجهتها فرنسا الى بريطانيا ، في أنها حاولت البحث عن طريق لحماية النصارى، وحتى حماية الطائفة اليهودية ، ووعدت بمساعدتها لتأسيس ماتسميه «مملكة اسرائيلية في يهوذا» . وقد ثبت أن بريطانيا قامت بالفعل بمحاولة فرض الحماية على النصارى البروتستانت واليهود كما تشير أكثر المراجع التاريخية . وفيما بعد أوضح - ما يعرف عند النصارى باسم - الأب ارسانيوس الذي لعب دوراً كبيراً في الانتفاضة ضد محمد علي، على أن اليهود لم يتوقفوا عن مساعدة عملاء القناصل الانجليز حتى بعد عودة الطائفة المارونية الى الحماية الفرنسية(١).

ويتضح التنافس البريطاني الفرنسي جلياً حيث أصبحت بريطانيا في مقابل الاعداد السياسي الفرنسي، لإقامة دويلة مارونية كبديل للامارة الشهابية بينما كانت سياسة بريطانيا تعد بشكل حثيث منذ عام ١٤٥٦هـ/١٨٤٠م لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . حتى أن الوفد الفرنسي برئاسة السير بارتو Bertou قام بمهمة رسمية لدراسة أوضاع لبنان منذ عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، وأشار - في تقرير له بتاريخ ٢٠ رمضان عام ١٢٥٦هـ/٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٠م - على رئيس الوزراء السيد غيزو ما يلي : «أن لدى انجلترا مشروعاً آخر أشرت اليه منذ زمن بعيد ولم يعد خافياً على أحد فعملاء الانجليز يسعون لإقامة مملكة اسرائيل، وقد أوفدت بريطانيا لجنة برئاسة الدكتور كيت Keith - صاحب كتاب واسع الانتشار في بريطانيا حول تحقيق النبوءات - الى سوريا منذ أربعة أشهر». ومع أن هذه اللجنة موفدة من قبل الكنيسة الاسكتلندية الا أنها شديدة الصلة بالحكومة البريطانية، التي طلبت منها جمع أدق التفاصيل عن إمكانية إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وإمكانية نقل اليهود اليها من أوروبا. ولذا فكرت بريطانيا بغزو سوريا من جبل لبنان، وغزو فلسطين عبر هذا الجبل وعبر سوريا.

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ، ص ٤٠٨، ورفيق النتشة: الاستعمار وفلسطين، ص١٨٤-١٨٧.

وفي الواقع فان الانجليز لا يسعون فقط الى ترسيخ نفوذهم بين النصارى في المنطقة، أو لحماية البروتستانت خاصة، فهم في الواقع يعملون أساساً لاستمالة الدروز، مع أنهم يركزون مشروعهم السياسي على اليهود، ذلك المشروع الذي يحاول كسب ود اليهود، وفي الواقع كسب ود الرأسمال اليهودي في أوروبا بشكل خاص (١). وفي تقريره ، أشار المبعوث الفرنسي، الى دور المرسلين الانجليز الذين يتقربون من اليهود ويتقاسمون معهم أوهام بني اسرائيل في إقامة مملكة اليهود المرتقبة في فلسطين، وأن هؤلاء المرسلون يرفضون باحتقار كل إمكانية للتقارب مع الطوائف النصرانية ويصرون على التعاون مع اليهود فقط.

ومن غرائب الأمور، أننا نجد كلا من بريطانيا وفرنسا وهما العدوتان اللدودتان، المتنافستان في المجال السياسي والديني والاقتصادي في بلاد الشام وغيرها، توافق كل منهما على مشروع الأخرى، فكان مشروع بريطانيا في إقامة دولة صهيونية في فلسطين يحظى بتأييد فرنسي بقدر ما كان مشروع إقامة دويلة نصرانية مارونية على أنقاض الامارة الشهابية ، يحظى بتأييد بريطاني، لأن مشروع هذه الدويلة سيكون في حال نجاحه نموذجاً لنجاح المشروع الإنجليزي الأكثر أهمية بالنسبة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية والانجليزية على منطقة بلاد الشام ، واللتان تطمعان أن يمتد نفوذهما الى الشرق الإسلامي كله بعد ذلك . فوجود دولة نصرانية مارونية في الجبل تابعة لفرنسا، ووجود دولة صهيونية في فلسطين تدعمها بريطانيا، يعتبران ذريعة للتدخل المباشر في كل وقت ، وفي أي مكان من البلاد الإسلامية ، وذلك بحجة توفير الحماية لهما(٢).

وفي الحقيقة فإن فكرة توطين يهود أوربا في فلسطين بدأت تأخذ مظهراً عملياً بعد عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م ، حيث استطاع محمد علي السيطرة على سورية في حملته الثانية ، واعتبرت كل من بريطانبا وروسيا أن امتداد نفوذه وانتصاره ، إنما هو امتداد لنفوذ فرنسا، التي تؤيد محمد علي وتمنحه حمايتها. من أجل ذلك وضعت بريطانيا حداً لمطامعه وبالتالي لنصيرته فرنسا، وحماية الدولة العثمانية من الإنهيار في وقت لم يكن ذلك في مصلحة بريطانيا، وعندما تم توقيع معاهدة لندن في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، «واعتبرت شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة الحدود الشمالية لدولة محمد علي ، وذلك لأن بريطانيا تدرك جيداً أهمية الموقع الإستراتيجي لفلسطين، والدور الذي يمكن أن

---

١) مسعود ضاهر : الجذور التاريخية للأزمة الطائفية اللبنانية، ص٣١٥.
٢) مسعود ضاهر: المرجع السابق، ص ٣١٦.

تلعبه بوصفها خط الدفاع الأول عن المصالح البريطانية في المنطقة، إذا ما تعرضت لأية عمليات فرنسية أو روسية أو ألمانية، في زمن كانت قوات المشاة والفرسان ما تزال تتمتع فيه بالمنزلة الأولى في أية حرب».

وفي محاضرة له في مونتريال عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م ، تحدث الدكتور غولدمان بهذا الصدد فقال :«لم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة إليهم، ولا لأن مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن ، وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة من مخزون الأمريكتين ، بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق، أوربا وآسيا وأفريقيا، ولأن فلسطين تشكل بالواقع نقطة ارتكاز حقيقية لكل قوى العالم، ولأنها المركز الإستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم» (١)

وتعتبر بريطانيا صاحبة أكبر مساحة استعمارية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، والتي نظرت بعين الطمع الدائم الى البلاد العربية بعد أن رسخت أقدامها في الهند، وتواجهها في ذلك منافستها التقليدية فرنسا، التي سبق لها أن نالت امتياز حماية الزوار الكاثوليك الى الأراضي المقدسة(٢).

والى جانب البعثات التنصيرية البريطانية البروتستانتية ، ظهرت الإرساليات الألمانية التي تقف في مواجهة أطماع الدول الأوربية الأخرى وخاصة بريطانيا وفرنسا(٣). ودخلت ألمانيا هذا المجال عن طريق جمعياتها الدينية، حيث تأسست الجمعية النصرانية الألمانية Deutsche Christentums Gesellshaft في عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م بجهود يوهانس أوغست أوربشرغر Johannes August Urlsperge وما لبثت هذه الجمعية أن أنشأت لها فروعاً في مختلف امارات ألمانيا. وقد تدرب في هذه الجمعيات القسان كريستيان غوتليب بلومهاردت Christian Gottlieb Blumhardt وكريستيان فريدريش سبتلر Christian Friedrich Spittler وهما اللذان أسسا جمعية بازل التنصيرية Baseler Mission Gesellschaft في شعبان عام ١٢٣١هـ/١٨ يوليو (تموز) من عام ١٨١٥م . وبعد عشر سنوات من تأسيسها أبرمت مع جمعية التنصير

---

١) رفيق شاكر النتشة : الإستعمار وفلسطين، ص ١٢-١٣.
٢) عماد حاتم :الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الإستعمار الحديث في الوطن العربي، ص ٥٨
٣) عبد الرؤوف سنو: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص ٣٨.

الكنائسية C.M.S في لندن ، اتفاقية بينت تآخيهما، ومشاركتهما في التنصير الانجيلي في منطقة الشرق عامة ، وفي بلاد الشام وفلسطين خاصة(١).

ولقد مثلت مدينتي برلين وبازل قطبي هذه الحركة، ففي ١١ جماد الأول من عام ١٢٣٨هـ/٢٥ يناير (كانون الثاني) من عام ١٨٢٢م تأسست في برلين جمعية نشر النصرانية بين اليهود. وذلك تحت رعاية البارون فون فيتسليبن Von Witzleben الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية في مملكة بروسيا. وكانت العادة أن يتولى رئاسة هذه الجمعية أحد كبار الضباط في الجيش البروسي، مما يدل على الأهمية العسكرية والسياسية التي تعلقها بروسيا على جمعية يهود لندن التي بدأت نشاطها التنصيري بين اليهود في فلسطين منذ عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م (٢). وكانت فكرة استعمار فلسطين واستيطانها تهيمن على تفكير مؤسسي هذه الجمعيات، وبخاصة مع انتهاء فترة حكم محمد علي في بلاد الشام عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م حيث عملوا كل ما في وسعهم للقضاء على الدولة العثمانية، ومن هذا المنطلق لا بد من اقتسام ممتلكاتها الآسيوية والسيطرة على فلسطين التي تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً بين هذه الممتلكات بالاضافة الى أهميتها الدينية(٣).

وبالفعل ، طلب شبتلر في ١٥ صفر عام ١٢٥٦هـ/١٩ أبريل (نيسان) عام ١٨٤٠م من البارون بونزن Bunsen وزير بروسيا المفوض في بيرن - لدى زيارته لمقر الجمعية في بازل - السعي لإقامة مستعمرة بروتستانتية نموذجية في الأرض المقدسة، وكان ذلك أثناء انسحاب قوات محمد علي من فلسطين، فقام بونزن فعلا بعد عشرة أيام ، بتقديم مذكرة الى وزير الخارجية البروسي فيرنر Wertner تتضمن مشروعاً حول مستقبل فلسطين ، ينص على فصلها عن بقية الولايات العثمانية وربطها مباشرة بالباب العالي، ووضع سكانها النصارى تحت حماية الدول الأوروبية بحيث تتولى فرنسا والنمسا حماية الكاثوليك، وروسيا حماية الأرثوذكس وانجلترا وبروسيا حماية البروتستانت، وأن تصبح القدس وبيت لحم والناصرة ممتلكات أي مستعمرات نصرانية.. وكان هذا المشروع وراء فكرة انشاء مطرانية بروتستانتية بروسية - انجليزية مشتركة في بيت المقدس (٤).

---

١) علي محافظة : العلاقات الألمانية - الفلسطينية، ص٨٩.
٢) عبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٣٨.
٣) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين، ١٢٣-١٢٦.
٤) على محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص ٨٩-٩٠.

وادعت ألمانيا رعاية مصالح الأقليات النصرانية في بلاد الشام، ولو أن الرعايا الألمان كانوا أقل نسبياً من رعايا الدول الأخرى مثل فرنسا وبريطانيا ، ولأن ألمانيا أرادت دخول مجال التنافس الأوروبي في بلاد الشام وفلسطين، فلم تجد طريقة أفضل من أن تدعي أن لها الحق في حماية رعاياها في أملاك الدولة العثمانية وفلسطين خاصة ، حيث كان يستوطن فلسطين أعداد من الرعايا الألمان البروتستانت وأعضاء جمعية الهيكل الألمانية بالاضافة الى تجار ألمان وآخرين بلغ عددهم في القرن الثالث الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي حوالي ٨٥٠ مواطناً ألمانياً معظمهم من أعضاء جمعية الهيكل. أما بيروت فكان يسكنها ٢٥٣ مواطناً ألمانياً متمتعين جميعاً بالحماية القنصلية الألمانية ، في نفس الفترة، ولقد قام أفراد جماعة الهيكل بتحصين مستوطناتهم ووضعوا أنفسهم تحت قوة السلاح وفي نفس الوقت طالبوا حكوماتهم باتخاذ الاجراءات العملية لحمايتهم وذلك قبل اندلاع الحرب الروسية العثمانية، ذلك لأنهم خشوا حدوث ردات فعل انتقامية من السكان المحليين ضد النصارى والأجانب. ولكي يهدىء الامبراطور ويلهلم الأول Wilhelm I من روعهم، أمر في أول صفر عام ١٢٩٤هـ/فبراير (شباط) ١٨٧٧م بارسال السفينة الحربية «غزيل» الى الشاطئ السوري. وبعد أربعة أسابيع من الاقامة في الموانئ السورية والفلسطينية قدم الغراف جون هاكه Graf Von Hacke قائد القطعة البحرية الألمانية تقريراً الى الخارجية الألمانية حول أوضاع الألمان وظروفهم في سوريا وفلسطين، وخصوصاً المستوطنين الألمان في المناطق الساحلية في يافا، حيفا، وبيروت، معبراً في تقريره عن مخاوفه الشخصية من ردة فعل إسلامية ضد جماعته في حال انهزام الدولة العثمانية في حربها مع روسيا.

وعندما بدأت الدولة العثمانية في جماد الأول عام ١٢٩٤هـ/مايو (أيار) عام ١٨٧٧م بسحب قسم كبير من وحداتها العسكرية في سوريا وفلسطين لارسالها الى الجبهة مع روسيا، ازداد قلق الخارجية الألمانية على مصير رعاياها في فلسطين، فأسرع الأمير هنري فون رويس Heinrich Von Reuss السفير الألماني في اسطنبول ، للاتصال بمدحت باشا ونال منه وعداً بإعادة تركيز قوات عثمانية في القدس، بينما أرسلت فرنسا وبريطانيا وايطاليا وحدات عسكرية بحرية الى الشاطىء السوري والفلسطيني، وفي نفس الوقت قرر المستشار الألماني بسمارك إرسال بعض السفن الحربية الألمانية أيضاً، حتى يعطي لرعايا الرايخ الألماني القاطنين في الدولة العثمانية شعوراً بالحماية والسهر عليهم، ودعماً لهم والتدخل السريع في

حال تعرض أحدهم للخطر على حياته أو ممتلكاته(١)، وربما يكون التعرض للرعايا الألمان من قبل الدول المنافسة لهم، وليس من قبل السلطات العثمانية أو غيرهم ، وربما هي مجرد دعاية كاذبة وحجة للتدخل في شؤون البلاد. ومما يثير العجب أن تدخل ألمانيا قد تم بموافقة الدول الكبرى، وهذا ما يؤكد سياسة التجانس الأوروبي واتفاق الاعداء اللدودين، اذا كان هذا الاتفاق يتم ضد عدوهم التاريخي كما يسمونه وهو الاسلام.

ولكن ألمانيا وايطاليا لم تكتفيا بدعوى حماية الأقليات البروتستانتية في بلاد الشام، بل أخذتا تنازعان فرنسا في «حقوقها التقليدية» بحماية الكاثوليك أيضاً في بلاد الشام(٢). وفي الواقع فقد كانت ألمانيا قد تركت مهمة رعاية مصالح البروتستانت لبريطانيا، بينما اكتفت في معظم الأحيان بالدور الثانوي الذي تمليه عليها بريطانيا، وعندما حاولت بروسيا تقديم الحماية، لم يكن أحد يرغب في طلبها سوى البروتستانت واليهود، ومن هذا المنطلق فقد بقيت بروسيا - رغم الدور الكبير الذي لعبته - مجرد الذيل ، بينما كانت بريطانيا العظمى تمثل الرأس المدبر (٣).

وهذا ما يفسر ، دمج ألمانيا جهودها الاستعمارية مع بريطانيا، لتنفيذ المشروع الصهيوني، بإقامة دولة يهودية في فلسطين بحجة حماية الأقلية اليهودية ، ولو أن النشاط الألماني قد بدأ بشكل مستقل قبل ذلك منذ عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، حين قامت جمعية الهيكل الألمانية برئاسة كريستوف هوفمان، بتأسيس مراكز تجمعات ناجحة في فلسطين(٤).

ولقد اتخذت جمعية الهيكل موقفاً عدائياً من اليهود قبل استيطان أفرادها في فلسطين، لاعتبارات دينية محضة، إلا أن الموقف تبدل بعد استيطان الهيكليين في فلسطين ، فلم يترددوا في التعاون مع المهاجرين اليهود والمستعمرات اليهودية لمواجهة المجتمع العربي المسلم المناهض لهم في فلسطين(٥). على أن ألمانيا لم تعدم وجود ممولين لها من اليهود، حتى يكونوا غطاءً لها في تبرير عملها، من أجل الصهيونية التي

---

١) عبدالرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص ٢٦٨-٢٧٠.
٢) عبدالرؤوف سنو : المرجع السابق، ص٢٧٣.
٣) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي في الاصلاحات الادارية المقترحة لسورية ، ص٤١١.
٤) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين، ص١٢٣.
٥) على محافظة : العلاقات الألمانية - الفلسطينية، ص١٣٠.

كانت ألمانيا تتطلع لاستغلالها لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية(١).

ثم دخلت روسيا ميدان المنافسة بعد انتصارها على الدولة العثمانية ، وبعد معاهدة كوتشك كينارجة عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م والتي جعلت النفوذ الروسي يتجاوز النفوذ الفرنسي في اسطنبول، يضاف الى ذلك رغبة روسيا في الخروج الى البحار الدافئة، وهو ما جعلها تتذرع بحماية النصارى الأرثوذكس في الدولة العثمانية، وادعت أنها بذلك ترعى الثقافة وتنشر المدنية، وهي نفس الأسطوانة التي يغنيها المستعمرون قبل وبعد روسيا(٢).

ومن هنا بدأت روسيا تدخل مجال دعوى حماية الأقليات النصرانية في بلاد الشام، حيث كانت تعرف كل المعرفة مدى النزاع القائم بين انجلترا وفرنسا على سوريا، والتي لم يكن لها مصلحة مباشرة فيها. وكان اهتمامها الوحيد ، ينصب على تقوية علاقاتها مع الكنيسة الأرثوذكسية هناك ، وكانت روسيا قد حصلت بمقتضى شروط معاهدة أدرنة التي عقدت في عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م، على اعتراف الباب العالي بحمايتها للكنائس اليونانية والأرمنية، وكانت حسب شروط معاهدة خونكار اسكله سي والتي عقدت عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م قد التزمت روسيا بالدفاع عن مصالح السلطان في سوريا.

وبهذا ابتعدت روسيا عن النزاع مع فرنسا وانجلترا، الذي يتمثل في نشر نفوذهما في بلاد الشام، على أن تعمل على كسب امتيازات تحصل عليها من الدولة العثمانية لدعم مصالحها السياسية في روملي، وبهذا أصبح العملاء الروس أصدقاء للسلطات العثمانية المحافظة الى حين أن تتاح لهم الفرصة السانحة . حتى أن روسيا ساعدت الدولة العثمانية في القضاء على آثار النظام الإقطاعي، الذي أبقى البلاد في حالة من الفوضى، بينما كان البريطانيون متورطين في الدفاع عن ذلك النظام. كذلك عملت روسيا على مساعدة الدولة العثمانية في القضاء على الطائفية، والتي كانت تستغلها فرنسا منذ أن حصلت على أول امتياز لها في الدولة العثمانية عام ٩٤٢هـ/١٥٤٥م. والتي كانت الدول الأوروبية تعمل على اختلاق الأعذار للتدخل عن طريقها في الشئون الداخلية لسوريا.

وفي الواقع أن روسيا كانت تعمل على دعم العثمانيين في سوريا، ليس حباً فيهم، ولكن لإضعاف الوضع الفرنسي والبريطاني في المنطقة واللذان

---

١) رفيق النتشة : الاستعمار وفلسطين، ص١٢٣.
٢) عماد حاتم : الغزو الثقافي الغربي.. ، ص٥٨.

يقفان حجر عثرة أمام نفوذها وتقدمها في المنطقة(١).

وتذكر بعض المصادر التاريخية، أن أول قنصلية لروسيا في فلسطين كانت عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م في مدينة يافا، بينما قامت الامبراطورية الروسية بإنشاء جمعية فلسطين الامبراطورية The Imperial Palestine Society في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٣م في روسيا نفسها، وتهدف الى دعم النشاط الديني والثقافي الروسي في الديار المقدسة(٢).

فقامت هذه البعثة بنقل قنصلها الى بيروت في عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م وأطلق عليها اسم «القنصلية العامة الروسية لسورية وفلسطين»، وعينت روسيا قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيلي Bazeli كقنصل لها في بيروت (٣)، وهو من أهم الرجال المشهورين الذين اعتمدت عليهم روسيا في بلاد الشام، ويعتبر المخطط النشيط لتحقيق أهدافها في المنطقة كلها(٤)، كان يعمل بازيلي الى توسيع شقة الخلاف بين الأرثوذكسية في الشام، وبين الجمعيات والمعاهد الدينية في روسيا، وبذلك ظهر نفوذ ديني جديد يجابه النفوذ الفرنسي، ويتمثل تارة في الكيد للموارنة، وتارة في محاولة النيل من الدول الأوروبية ، نتيجة لإهمالها روسيا في ميدان السياسة الدولية في الشرق . ونجحت روسيا في مد نفوذ قنصلها في بيروت حتى وصل الى القدس، وبدأت تطالب ببعض الأماكن التي كانت للكاثوليك في الكنيسة المقدسة في فلسطين ، وهكذا افتتح الروس أول قنصلية لهم في القدس في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م(٥).

أما بالنسبة لنفوذ روسيا في فلسطين، فكان التنافس على أشده مع الدول الأوروبية الأخرى على مسألة الأماكن المقدسة في القدس، ومن الجدير بالذكر أن القدس تجمعت فيها الطوائف النصرانية بأنواعها

---

١) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي في الاصلاحات الادارية المقترحة لسورية، ص٤١٠.
٢) على محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص٢٥.
٣) بازيلي : هو من أصل يوناني، وكان اسمه يثير الرعب في الأوساط الأنجلو أمريكية في سوريا، وكان يمثل حجر عثرة في وجه أي تقدم للبروتستانتية والكاثوليكية فيها، خاصة بعد أن كان شركاؤه في الدين هدفاً لنشاط البعثات التنصيرية بعد فشلها في تحويل اليهود والدروز الى طائفتهم.
٤) خيرية قاسمية : روسيا القيصرية والمشرق العربي، ص ٤٨.
٥) سوسن اسماعيل : الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ص ١٧٥-١٧٦.
وعلى محافظة : الحركات الفكرية...، ص٢٥.

الست : اللاتين من أتباع الكنيسة المارونية ، والروم الأرثوذكس ، والأرمن ، والسريان ، والأقباط ، والأحباش ، وكانت الكنائس الثلاث الأخيرة قد دخلت تحت حماية الأرمن لأنهم يمثلون القوة المالية في الشرق. وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية من أكبر هذه الكنائس رتبة بوصفها ممثلة لعشرة ملايين أرثوذكسي من رعايا السلطان، في القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي، وبسبب حماية روسيا لها(١).

وعندما برزت مسألة التدخل الأوروبي بكل دوافعها الخفية في سوريا عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، وزيادة النشاط الكاثوليكي التي تمثله فرنسا، والنشاط البروتستانتي الذي تمثله بريطانيا وألمانيا وغيرهما وجدت الحكومة الروسية الأرثوذكسية، أثر تراجع مركزها الدبلوماسي، إضافة الى المجمع الروسي المقدس Synod ضرورة تبني سياسة مشابهة لسياسة منافسيهم الغربيين، وفي عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م قدم الى فلسطين مورابيف Murayiev وهو أحد أعضاء المجلس الاستشاري في المجمع المقدس، وكان يعمل من موقعه على الدعوة الى الاهتمام بشؤون الأراضي المقدسة، وشؤون الزوار الروس الى الأماكن المقدسة، واقترح مورابيف في كتاب مفصل قدمه الى القيصر، أن يمارس القيصر حماية خاصة على المقدسات، وعلى السكان الأرثوذكس، وأن تنشأ ارسالية في القدس تكون مركز نشاط دبلوماسي تدعمها مادياً معونات روسية.

وفي الواقع لم تقم وزارة الخارجية الروسية بإنشاء تلك الارسالية، إلا أنها تدخلت لدى السلطات العثمانية لوضع حد للنزاع حول الأماكن المقدسة وحماية الزوار الروس، فأصدرت السلطات العثمانية تعليماتها الى بازيلي القنصل الروسي في بيروت، بتوطيد صلاته مع السلطات الكنسية في سوريا وفلسطين، والاهتمام بمصالح الكنيسة الشرقية، وأوكلت اليه مهمة اعادة تجديد ديرين يونانيين في سان كاترين في سيناء ، وسان تيودور في القدس ، لاستخدامهما لاستضافة الزوار الروس تحت رعاية الاكليركية اليونانية. وكان من الطبيعي أن يثير نشاط القنصل الروسي مخاوف القنصل البريطاني في القدس، ولهذا نجد أن هذه المخاوف قد شغلت حيزاً كبيراً من مراسلات السفير البريطاني والروسي في اسطنبول. وقد لخصت هذه المراسلات هدف روسيا، بأنه إخضاع الكنائس الشرقية ووضع النصارى الشرقيين تحت حمايتها، ومناهضة عمل الارساليات الأجنبية، مع

---

١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص٥٦٧.

أن الكنيسة الروسية، لم يكن باستطاعتها ممارسة أي نفوذ على الاكليركية اليونانية(١).

وهكذا اعتبرت روسيا أن لها الحق بالدفاع عن مصالح الأرثوذكس في بلاد الشام، ولكنها لم تستعمل هذه الطائفة كقاعدة تنطلق منها نحو أطماعها السياسية كما فعل الفرنسيون مع الكاثوليك، وخاصة بعد فشل المنصرين الأمريكان في قاعدة بروتستانتية لهم في بلاد الشام(٢)، وأن الروس لم يستعملوا طائفتهم كقاعدة لتحقيق أطماعهم السياسية، ليس لأنهم يعفون عن ذلك، ولكن في الحقيقة لأنها لم تتح لهم الفرصة لذلك بسبب النشاط المكثف للارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية في المنطقة وخاصة أن الروس حاولوا الاستفادة من وجود قاعدة لهم في بلاد الشام ، بحيث كان الروس المهاجرون من روسيا الى الشام يحتفظون بجنسية مزدوجة يفيدون منها في التخلص من أحكام القانون العثماني، وقد شجعهم قناصل روسيا على ذلك لمصالحهم الشخصية ، ولزيادة النفوذ الروسي في الأراضي العثمانية(٣). وبالرغم من ذلك فقد تمتع الروس، بقدر من الحماية لتجارتهم ولطائفتهم الأرثوذكسية، واحتفظوا بمكانتها أمام العثمانيين. وحصلوا على امتياز خاص في سوريا في مجال التجارة ، فكانت الرسوم الجمركية على بضائعهم ٣٪ فقط ، بينما كان على التجار الأوروبيين دفع نسبة لا تقل عن ١٢٪(٤).

وبعد معاهدة لندن التي عقدت في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، حاولت استغلال الأوضاع الجديدة من أجل زيادة مصالحها، عن طريق التدخل تحت ستار الدين النصراني والمذهب الأرثوذكسي، فاستثمرت روسيا كل الفرص المتاحة لها ، لزيادة نفوذها لدى الروم الأرثوذكس والأرمن في الشام، على حساب الكاثوليك مستخدمة نفوذ الأغنياء من الأرمن للتدخل في عملية تقسيم الكنائس بين الأرثوذكس والكاثوليك. وانفتح الباب واسعاً أمام نفوذ الدول الكبرى ونشاطات ارساليتها في سورية وفلسطين(٥)، فإلى جانب نشاط الارساليات المختلفة ، بدأت الإرسالية الروسية ببناء مجمعين من المنازل في المدينة المقدسة عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، ووصل أول أرشمندريت روسي(٦)

---

١) خيرية قاسمية : روسيا القيصرية والمشرق العربي، ص ٤٧.
٢) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي ... ، ص ٤١٠.
٣) أحمد المرعشلي : الموسوعة الفلسطينية، جـ١، ص٢٩٤.
٤) قيصر فرح : أثر التحالف الرباعي... ، ص٤١٠.
٥) خيرية قاسمية : روسيا القيصرية والمشرق العربي، ص٤٨.
٦) ارشمندريت رتبة أقل من رتبة الأسقف في الكنيسة الأرثوذكسية.

الى القدس في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م(١). وفي هذه الفترة كان إنشاء الأسقفية البروتستانتية في القدس عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م بمبادرة بروسية انجليزية - والتي عززت النشاط البروتستانتي في المشرق كله، ودعمت النفوذين الانجليزي والبروسي في بلاد الشام - كما أن إصدار البابا بيوسي التاسع إذناً بإعادة إنشاء البطريركية اللاتينية في القدس عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م في محاولة من الكنيسة الكاثوليكية لاسترجاع مكانتها في الأراضي المقدسة في فلسطين ، مما أدى الى لفت أنظار الحكومة الروسية الى ضرورة مواجهة نشاط البروتستانت والكاثوليك لتعزيز مكانتها في بلاد الشام(٢)

ولذلك اقتنع نسلرود، وزير خارجية روسيا بضرورة استخدام الكنيسة الأرثوذكسية لأغراض سياسية بحتة. وكان قد تقدم منذ عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، بمذكرة الى المجمع المقدس، وضع فيها أسساً سياسية أرثوذكسية أكثر فعالية، أكد فيها على أهمية انتقال بطريرك القدس اليوناني من اسطنبول الى القدس للعناية بالأقلية الأرثوذكسية فيها، والحاجة الى وجود إرسالية روسية في الأراضي المقدسة، تتبع رجال الدين اليونان ويساعدهم رجال الدين الروس، بمهامها الانسانية، بنظرة تتيح لها التدخل في قضايا الكنيسة اليونانية في القدس، نظراً لطبيعتها الدينية، والاشراف على المعونات التي تأتي من روسيا.

وبالفعل قامت روسيا بتنفيذ توصيات نسلرود ، وعهدت الى بورفيري أوسبنسكي Porfiri uspinski الذي كان مسئولا أمام وزارة الخارجية الروسية والتي صاغت له مهمته المكلف بها في فلسطين. وعندما باشر نسلرود مهام منصبه في فلسطين، قام برفع مذكرة الى السفير الروسي في اسطنبول، تتضمن عدة مقترحات من أجل التدخل الروسي الفعال في كنيسة القدس الأرثوذكسية وكان من أهم المقترحات ، إرسال مجموعة من رجال الدين الروسي المثقفين برئاسة أسقف ، وإقامة مدرسة روسية لتعليم ابناء البلاد ، ولتعليم رجال الدين الروس اللغة العربية لترجمة الكتب الروسية وتوزيعها على المواطنين الأرثوذكس في سورية وفلسطين وكذلك في مصر، وانشاء مراكز روسية خيرية في الظاهر ، ولكنها في الواقع تعمل على اتاحة الفرصة لرجال الدين الروس لكسب السكان المحليين الى طائفتهم

---

١) على محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص٢٥.

٢) خيرية قاسمية: روسيا القيصرية والمشرق العربي، ص٤٨، وعبد الرؤوف سنو : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين، ص٢٣-٢٤، وعلى محافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٤٠-٤١.

الأرثوذكسية ، وهذه المهام تعتبر نواة الارسالية الروسية في القدس نظراً لأهميتها الحساسة، ولتكون نظائر أرثوذكسية روسية للمؤسسات البروتستانتية والكاثوليكية العاملة في بلاد الشام.

وعلى ضوء التقارير الدبلوماسية التي أكدت وجوب دخول الارسالية الأرثوذكسية الروسية الى فلسطين، بسبب إهمال الاكليركية اليونانية تأثيرها على المواطنين العرب لجهلها وعدم اهتمامها، فأخذت وزارة الخارجية الروسية مذكرة أوسبنسكي بعين الاعتبار، وكشفت التقارير من جهة أخرى، عن استخدام الارساليات البروتستانتية والكاثوليكية كل أساليب الإغراء لتحويل الأرثوذكس عن العقيدة الأرثوذكسية، وهو الأمر الذي أثار مراراً احتجاج وكلاء روسيا الدبلوماسيين. كما دفع هذا الوضع بطريركية أنطاكية الى إرسال وفد الى روسيا لطلب الدعم المادي والمعنوي من أجل مواجهة أخطار الارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية . وهكذا أصبح مستقبل تأسيس إرسالية دينية بيد الدبلوماسية الروسية ، وبالفعل أرسل نسلرود الى منطقة بلاد الشام، باعتباره مرسلا أرثوذكسياً من قبل الارساليات الروسية، وكانت أهدافه السياسية هي تقرير النفوذ الروسي وكسب تعاطف الأرثوذكس المواطنين، ومنافسة وإحباط الخطط الفرنسية والبريطانية. وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م اتخذت وزارة الخارجية الروسية قرارها بإيفاد ارسالية دينية الى الاراضي المقدسة في فلسطين، والتي رسمت سياسة روسيا الجديدة تجاه الشرق عامة وبلاد الشام خاصة(١)

وبعد إبرام معاهدة باريس في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م التي أنهت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية، منح السلطان العثماني قيصر روسيا قطعة من الأرض في مدينة القدس، بنيت عليها كاتدرائية ومنزل الأسقف وقنصلية ومنزل لبعثة دينية أرثوذكسية، الى جانب مستشفى ومنازل للرهبان والمعلمين، وعدداً من المنازل لاستقبال الزوار الروس في الأماكن المقدسة في فلسطين، وهي الكنيسة المعروفة اليوم باسم الكنيسة المسكوبية ، وبلغت تكاليف هذا المجمع قرابة مليوني جنيه إسترليني في ذلك الوقت. وحصلت روسيا على أرض مماثلة في عين كارم وبيت جالا والخليل والناصرة. وقد واجهت الطائفة الأرثوذكسية أخطاراً جسيمة، بانتشار الارساليات التنصيرية الأجنبية، بسبب ضعف مركز الكنيسة الأرثوذكسية الناتج عن إهمال رجال الدين من اليونان لرعيتهم، واحتدام الخلاف بينهم وبين المواطنين العرب من الأرثوذكس، فحاولت روسيا التوسط لإيجاد حل يرضي

---

١) خيرية قاسمية : روسيا القيصرية والمشرق العربي، ص ٤٩-٥٠.

العرب ويضمن للطائفة وحدتها في مواجهة الأخطار الخارجية التي تهددها من قبل الكنائس الأخرى، غير أن الجهود الروسية لم تلق آذاناً صاغية من جانب الاكليروس اليوناني .

وبالرغم من ذلك قامت وزارة الخارجية الروسية في عام ١٢٧٠هـ-١٢٧٣هـ/ ١٨٥٣م-١٨٥٦م بالاقتراح على القيصر تعيين أسقف روسي في مدينة القدس بدلا من الارشمندريت الموجود. وبررت هذا الاقتراح بأنه «ينبغي أن نؤمن حضورنا في الشرق من خلال الكنيسة وليس بالاعتماد على السياسة، وسوف يتعذر على الأتراك والأوروبيين الذين لهم بطاركتهم وأساقفتهم في المدينة المقدسة أن يرفضوا مطلبنا هذا. أما الآن وقد أصبح نفوذنا في الشرق ضعيفاً، فينبغي أن نقدم أنفسنا حتى لا نسقط من أعين السكان الأرثوذكس الذين لا زالوا يثقون بنا كما كان في الماضي.. وترى الوزارة أنه من الضروري تعيين أسقف على رأس بعثتنا في القدس بدلا من أرشمندريت فالقدس قلب العالم، وينبغي أن تبقى بعثتنا فيها» .

وفي سبيل سعي روسيا الحثيث لتدعيم نفوذها في البلاد المقدسة ، تأسست الجمعية الامبراطورية في بطرسبرغ في عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، بهدف لم شمل الطائفة الأرثوذكسية ووقايتها من خطر الارساليات الأجنبية ، فقد أثار نشاط الكاثوليك والبروتستانت غيرة الروس على إتباعهم، كما أثارهم تناقض أفراد الطائفة الأرثوذكسية التي كانت تشكل ٩٠٪ من نصارى فلسطين والأردن في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، وأخذت بالتناقص حتى بلغت ٦٧٪ منهم في عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م. وقامت الجمعية المذكورة بنشاطها الثقافي في أرجاء البلاد، وأرسلت عدداً من العلماء الروس للتنقيب عن الآثار النصرانية والبيزنطية في الديار المقدسة منهم P.A. Syrku, N.Y.Mary اللذان نشرا أبحاثهما في مجلة Palestanska Sbornik التي أصدرت ٦٣ مجلداً عن آثار فلسطين(١).

وهكذا نرى أن الدول الأوروبية الاستعمارية، عملت ما في وسعها على التدخل في الأمور الداخلية لبلاد الشام، فتارة تدعي أن الأقليات النصرانية بحاجة الى رعاية وحماية، وتارة أخرى تتدخل بحجة أنها تريد نشر الحضارة والمدنية والثقافة للأقليات النصرانية في البلاد، ولكنها في الواقع كانت وسائلهم مليئة بكل أنواع المغريات لأهل البلاد لينجحوا في اجتذاب أبناء المسلمين الى مؤسساتهم ومن ثم تنصيرهم عبر العاملين

---

١) علي محافظة : الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص ٢٥-٢٦.

في مؤسساتهم التنصيرية والذين جاءوا من أجل تنصير البلاد الاسلامية.

وعليه ، فقد استأنفت البعثات التنصيرية المتعددة، والقادمة من أوروبا وروسيا وألمانيا وأمريكا، نشاطها بقوة وعنف، فانتشرت في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، وهي تتسابق مع الزمن لتنصير أكبر عدد ممكن من رعايا الدولة العثمانية، حيث تحاول كل دولة منها كسب المزيد من الأتباع حسب مذهبها، أو تحاول كل دولة أجنبية بسط حمايتها على أي فئة في بلاد الشام، ليكون لها الغلبة ، اذا وقعت البلاد غنيمة تتقاسمها الدول الأجنبية ، اذا ما انهارت الدولة العثمانية، والتي عملت الدول الأجنبية جميعها على ضربها من كل جانب حتى تقع فريسة سهلة بين أيديهم. ولذلك دب الخلاف والتنافس بين البعثات الأجنبية، وبقيت الغلبة لبريطانيا، وفرنسا واللتان حصلتا على أكبر قدر من المستعمرات في الدولة العثمانية. بحجة البر والاحسان والعمل على التقرب للأقليات، وبذلك سار العمل التنصيري جنباً الى جنب مع الرغبة الجامحة لدى الدول الأوروبية في الاستعمار والاستغلال والقضاء على دين الحق الذي يرعبهم وهو دين الاسلام، والذي يسمونه « العدو التاريخي للنصرانية» .(١)

ويبين لنا الفصل الثالث في هذه الدراسة المناطق المختلفة التي انتشرت فيها البعثات التنصيرية في بلاد الشام، ومدى التنافس الكبير بين تلك البعثات مع أنها جميعاً نصرانية، ولكن اختلاف الطائفة لكل بلد فيها، جعل مصلحة كل بلد تفضح النوايا الحقيقية، لتلك البعثات أو (الارساليات) الأجنبية، حيث ظهرت على السطح المطامع السياسية والاقتصادية التي تسترت واختفت تحت الهدف الديني ومطامعه التي لا تخلو من البلاء على سكان بلاد الشام، والتي عادت عليها بأشد الضرر وأوخم العواقب: وستقوم دراستنا على استعراض المناطق التي انتشرت فيها الارساليات الكاثوليكية ومناطق انتشار الارساليات البروتستانتية، ومناطق انتشار الارساليات الأرثوذكسية في بلاد الشام والظروف والملابسات التي مرت بها كل ارسالية وبيان اهدافها مع تعدد مؤسساتها التي قام عليها عمل الارساليات المختلفة.

(١ The Custody of The Holy Land: jerusalem 1981, p 9 .

تـــم بعـــون اللـــه المجـــلد الأولـــــــ